الرّحلة الحجازيّة

محمّد السّنوسي

تحقيق

علي الشنوفي

مبرّز ودكتور دولة في الآداب
أستاذ محاضر بكلية الآداب بتونس

الشركة التونسية للتوزيع

الرحلة الحجازية

الجزء الأول

تأليف

محمد السنوسي

(1267 هـ/ 1851 م ـ 1318 هـ/ 1900 م)

تحقيق

علي الشنوفي

مبرز ودكتور دولة في الآداب
استاذ محاضر بكلية الآداب بتونس

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

1396 هـ . / 1976 م .

طبع بالمطبعة الرسمية



الشيخ محمد بن عثمان السنوسي

الفهرس العام

au cours de son périple. En respectant les centres d'intérêt de l'auteur, nous avons classé ces biographies en 4 catégories :

— Membres des Tarīqa (confréries)

— Lettrés traditionnels

— Lettrés modernisants

— Personnages politiques

Signalons que nous avons également inséré l'analyse détaillée de ce tome dans notre étude précitée.

المقدمة

حيث اننا قدمنا لهذا الجزء الاول من الرحلة الحجازية بمقدمة بالفرنسية لم نتحدث فيها عن حياة المؤلف وآثاره وعصره لاننا بسطنا القول على ذلك في دراستنا بالفرنسية بعنوان : « مفكر تونسي من اهل القرن التاسع عشر : محمد السنوسي ، حياته واثاره » . وهذه الدراسة هي الآن تحت الطبع فاننا عمدنا الى وضع هذه المقدمة بالعربية وصدرناها بجدولين زمنيين احدهما يتعلق بترجمة محمد السنوسي والثاني يجمع بعض احداث عصره ثم تعرضنا لاسباب القيام بالرحلة وظروف تأليفها وختمنا ذلك بتقديم تحليل موجز لمحتوى الجزء الاول من الرحلة الحجازية .

وقد احترمنا لغة المؤلف التي تغلب عليها احيانا صبغة الاسلوب التونسي وحافظنا في تحقيقنا لهذا الجزء على الترقيم الاصلي للمخطوط وهو الترقيم المثبت بالطرة بين معقفين . فنحن اعتمدنا ذلك الترقيم في جميع احالاتنا من تعاليق وفهارس . كما اننا حرصنا على ابراز ما بالنص من شتى الاغراض والمفاهيم فاضفنا عناوين جديدة جعلناها بين معقفين للتمييز بينها وبين العناوين الاصلية وقسمنا النص الى فقرات تواكب تسلسل الافكار .

وقد حققنا الاعلام والعبارات الغامضة واثبتنا تعاليق على كل ما راينا انه جدير بالتوضيح وذيلنا نص هذا الجزء بملحقات وفهارس لما ورد ذكره من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والاشعار والكلمات الدخيلة والمصنفات والصحف والاعلام والاماكن والبلدان والمنشآت والطوائف والقبائل والشعوب والدول . واثبتنا عقب ذلك فهرسا جامعا لمحتوى كامل هذا الجزء الاول من الرحلة الحجازية مرقما بترقيم صفحات المخطوط .

تـرجمـة محمد السنوسي

التـــاريـخ		الاحـــداث
22 ذو القعدة 1267/18 سبتمبر 1851	:	مولـد محمد السنوسي
سنـة 1280/1864	:	انتسابه الى الطريقة القادرية على يد الشيخ أبي محمد عبد القادر بن محمد البارودي
4 ربيع الثاني 1287/4 جويلية 1870	:	احرازه شهادة التطويع بجامع الزيتونة
1287 ـ 1292/1870 ـ 1875	:	تاليفه مجمع الدواوين
1288/1871 ـ 1872	:	تعيينه معلما خاصا للأمير محمد الناصر باي
ذو القعدة 1291/ديسمبر 1874	:	تسميته كاتبا اول بادارة جمعية الأوقاف
ربيع الاول 1292/افريل 1875	:	عودتـه الى تونس الحاضرة عقب الجولة داخل المملكة حيث تفقد شـؤون فـروع ادارة جمعية الاوقاف بهـا
5 شعبان 1293/26 اوت 1876	:	تسميته محررا بجريدة الرائد التونسي
1294/1877	:	نشره للديوان محمود قابادو بالمطبعة الرسمية
22 شعبان 1294/31 اوت 1877	:	زواجه بهنونة بنت علي القليبي المولودة في شعبان سنة 1279/فيفري 1863
19 شعبان 1296/8 اوت 1878	:	ولادة ابنـه محيي الدين
ذو القعدة 1295/ نوفمبر 1878	:	توسيمه بنيشان الافتخار
1296/1879	:	طبعه لقصيدتـه الاجنـة الدانيـة الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادة الأشراف
1297/1880	:	نظمه : درة العروض وشرحه لها في كشف الغمـوض تاليفه : مسامرات الظريف بحسن التعريف
25 ربيع الثاني 1297/17 مارس1880	:	ولادة ابنتـه شريفـة
5 رجب 1298/3 جوان 1881	:	اعفاؤه من تحرير الرائد ومن المطبعة الرسمية

التــــاريــخ		الاحـــــــداث
8 رجب 1299/25 مـــاي 1882	:	ابتداء الرحلة للحج بالسفر الى ايطاليا
1882/1299	:	تحريره النبذة التاريخيـة في منشـا الوزير مصطفى بن اسماعيل
26 ربيع الاول 1300/5 فيفري 1883	:	عودته من الرحلة الحجازية الى تونس
1300 ـ 1303/1883 ـ 1886	:	تاليفه لكتاب الرحلة الحجازية في ثلاثة اجزاء
1884/1301	:	تسميته مدرسا بجامع حمودة باشا
1885/1302	:	تاليفه تحفة الأخيار بمولد المختار
18 جمادى الثانية 1302/4 افريل1885	:	تـزعمه مظاهـرة احتجاجيـة ضمـت 3.000 متظاهر من أعيان الحاضرة
6 شعبان 1302/21 مـــاي 1885	:	عزله من وظائفه وايقافـه وابعاده الى قابس
ذو القعدة 1302/اوت 1885	:	عودته من المنفى الى تونس الحاضرة
جمادى الثانية 1303/مارس 1886	:	ولادة ابنتــه حلومــة
14 رمضان 1303/16 جوان 1886	:	تسميته كاتبا بالمجلس المختلط العقاري تاليفه : مطلع الدراري والروض الزاهر
1887/1304	:	تسميته كاتبا بمحكمة الوزارة تاليفه لخلاصة النازلة التونسية
16جمادى الثانية 1305/28 فيفري1888	:	تاليفه : نظام المدنية
24 ذو القعدة 1305/2 اوت 1888	:	تاسيس جريدة الحاضرة بادارة علي بوشوشة ومساهمة محمد السنوسي
جمادى الاولى 1306/جانفي 1889	:	ولادة ابنتــه ماميــة
6 ذو القعدة 1306/4 جويلية 1889	:	رحلته الى باريس لمشاهدة المعرض الدولي
4 ذو الحجة 1306/غرة اوت 1889	:	عودته الى تونس من رحلته الى باريس

التـــــاريـخ		الاحـــــداث
18 صفر 1307/14 اكتوبر 1889	:	تسميته حاكما نائبا بالمجلس المختلط العقاري
		تاليفه : الرياض النضرة
1891/1308	:	طبعه لتاليفه : الاستطلاعـات البارزيـة على نفقـة الحكومة
		تاليفه : المورد المعين
		شروعه في تاليف ديوان شعره
رمضان 1309/افريل 1892	:	ولادة ابنتــه عــزيــزة
ذو الحجة 1311/جوان 1894	:	ولادة ابنتــه صلوحــة
1894/1312	:	تحريره رسالــة المجبـة (لا توجد الا مترجمة بالفرنسيــة)
5 شوال 1312/غرة افريل 1895	:	وفــاة زوجته هنونة بنت علي القليبي
2 ذو الحجة 1312/27 ماي 1895	:	زواجــه بحلومــة بنت اسماعيل بن عبد الله المولودة في المحرم سنة 1290/مارس 1873
1897/1314	:	تاليفه رسالــة في المـراة : تفتق الاكمــام (لا توجد الا مترجمة بالفرنسية)
		تاليفه : رسالــة نشر البســاط في نازلــة الفسفاط (مفقود)
سنــة 1315/1878	:	ولادة ابنـــه زين العابدين
10 جمادى الاولى 1318/5 سبتمبر 1900	:	المرض يشتد به ويامره الطبيب بترك الحركة الفكرية والبدنية من أجل احتباس النفس من ضعف أعصاب القلب
24 رجب 1318/17 نوفمبر 1900	:	وفــاة محمد السنوسي ليلة السبت
25 رجب 1318/18 نوفمبر 1900	:	موكب جنازة محمد السنوسي ودفنــه
28 رجب 1318/22 نوفمبر 1900	:	نشــر جريــدة الحاضرة لتـأبينه (عــدد 623 السنــة 14)

عصـر محمد السنوسي

التـــاريـخ		الاحـــــداث
10 رجب 1253/10 اكتوبر 1837	:	بداية عهد المشير الاول احمد باشا باي
27 شعبان 1268/16 جوان 1852	:	هروب محمود بن عيـاد قـابض مال الدولة التونسية الى فرنسا
13 شوال 1268/31 جويلية 1852	:	احمد باشا باي يصاب بفالج في شقه
شعبان 1269/مـاي 1853	:	السلطان العثماني عبد المجيد يطلب من احمد باشا باي اعانة من جند وعتـاد استعدادا لمحاربة الروس
غرة محرم 1270/4 اكتوبر 1853	:	خير الدين يسافر الى باريس بأمر من أحمد باشا بـاي لاقتراض مال من بعض ديـار المتجـر بفرنسا ولبيع مجوهـرات البـاي لجمع ما يكفي من المال قصد تسديد طلب السلطان عبد المجيد . فامتثل خير الدين وبعث الثمن وقـدره مليون من الفرنكات
اواسط شوال 1270/اواسط جويلية 1854	:	وصول الارسالية العسكرية التونسية الى تركيا بقيادة الجنرال رشيد امير عسكر الساحل للمساهمة مع الباب العالي في حرب القرم بـين التـرك والـروس (6.600 عسكريـا تونسيا من بـين طبجية ورجـال وفرسان وبحرية في سبعة مراكب حربية وخمسـة وستين مركبا)
15 ربيع الاول 1271/5 ديسمبر 1854	:	رسالة من أحمد باشا باي الى وزير خارجيـة فرنسا لاعلامـه بـأن خير الدين مـأمور بمباشرة نازلة محمود بن عياد ويعوض في ذلك جوازب راف وزير خارجية الدولة التونسية
اواسط شعبان 1271/30 افريل 1855	:	قدوم قنصل عـام جديـد لانقلترا بتونس : ريشارد وود
14 رمضان 1271/30 ماي 1855	:	وفـاة أحمد باشا باي المشير الاول

التـــــاريـخ		الاحـــــــداث
14 رمضان 1271/30 مـاي 1855	:	بداية عهد المشير الثاني محمد باشا باي
اواسط شوال1271/غرة جويلية 1855	:	قدوم قنصل عام جديد لفرنسا بتونس يحسن العربية نطقا وكتابة : ليون روش
20 شوال 1271/7 جويلية 1855	:	اعانـة تونسية ثانية لتركيا في حرب القرم (آلاي خيالة : 688 ـ طابور عسكر تراسة : 900 ـ طبجيـة : 205 ـ ريـال دورو من عملة فرنسا : 200.000 على وجه الهدية ـ وبعض مهمات وكسـاوي واخبية ومرتب العسكر السابق)
جمادى الثانية 1272/فيفري 1856	:	التنظيمات بتركيا : خط همايون
ذو القعدة 1272/جويلية 1856	:	احداث أداء جديد بتونس (المجبة : 36 ريالا)
ذو الحجة 1272/اوت 1856	:	ـ الارسالية العسكريـة التونسية تعـود الى تونس بعد أن ساهمت في حرب القرم ـ مرض وبائي (الكوليرة) يظهر بتونس . وكان ظهر من قبل في ديسمبر 1849
جمادى الاولى 1273/جانفي 1857	:	تعيين خير الدين وزيرا للبحر
20 محرم 1273/9 سبتمبر 1857	:	محمد باشا باي يمنح أهـل المملكة التونسية قانون عهد الأمان
صفر 1274/اكتوبر 1857	:	عودة خيـر الدين الى تـونس بعد أن ربـح بباريس نازلة محمود بن عياد
ربيع الاول 1274/نوفمبر 1857	:	خير الدين يشارك في لجنة شرح قواعد عهد الأمان
20 محـرم 1275/30 اوت 1858	:	تأسيس المجلس البلدي بتونس وتعيين الجنرال حسين رئيسا لـه
24 صفر 1276/22 سبتمبر 1859	:	وفـاة محمد باشـا باي المشير الثاني بدايـة عهد المشير الثالـث محمد الصـادق باشا باي

التـــــــاريــخ		الاحـــــــــداث
جمادى الثانية 1276/ديسمبر 1859	:	وصل سلك الحديد المعروف بالتلغراف ما بين تونس والجزائر
غرة محرم 1277/20 جويلية 1860	:	انشاء المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي واسناد ادارتها الى الجنرال حسين
صفر 1277/اوت 1860	.	تنظيم الوزارات والادارات وتعيين اعضاء المجلس الكبير
17 صفر 1277/3 سبتمبر 1860	:	حضور الباي موكب تدشين البناية الجديدة لمكتب الحرب بباردو
من29 صفر 1277/15 سبتمبر1860 الى 5 ربيع الاول 1277/21 سبتمبر 1860	:	رحلة محمد الصادق باشا باي الى الجزائر لمقابلة نابليون الثالث
17 رجب 1277/29 جانفي 1861	:	الاعلان عن الدستور وتكوين المجالس
14 شوال 1277/23 افريل 1861	:	الباي يجدد بيعته على مقتضى القانون المنبثق من عهد الأمان ويؤدي اليمين على أنه أول حالف على اتباع القوانين الناشئة من ذلك العهد
دو القعدة 1277/ماي 1861	:	ابتداء العمل بشبكة التلغراف بين تونس والجزائر
جمادى الاولى 1279/نوفمبر 1862	:	خير الدين يستعفي من وزارة البحر ومن رئاسة المجلس الأكبر التي كان تولاها في ماي 1861
شوال 1279/مارس 1863	:	انشاء محمد الصادق باشا باي للمجلس الخاص الاستشاري
ذو القعدة 1279/10 ماي 1863	:	اقتراض اول من أوربا (5 مليونا من الفرنك تقريبا)
26 ربيع الثاني1280/10 اكتوبر1863	:	محمد الصادق باشا باي يبرم معاهدة مع انقلترة تخول رعاياها بتونس من ملك الربع والعقار في المملكة التونسية

التـــــــاريـخ	الاحــــــداث
5 جمادى الاولى 1280/17 اكتوبر1863 :	انتهاء مهمة قنصل عام فرنسا بتونس : ليون روش . وتعيين دوكيزن دي بيلوكور مكانه
5جمادى الثانية 1280/16 نوفمبر1863 :	تعيين قائم مقام قنصل عام لفرنسا بتونس : دي بوفـال
جمادى الثانية 1280/ديسمبر 1863 :	محمد الصادق باشا باي يقرر تضعيف مبلغ المجبة من 36 ريـالا الى 72 ريـالا لسـد فائض الديون
غرة ذي القعدة 1280/8 افريل 1864 :	مجاهرة أهـالي المملكة بالعصيان والامتنـاع من دفع المجبة بزعامـة علي بن محمد بن غذاهم من اولاد مساهل من عرش ماجـر
ذو القعدة 1280/ افريل 1864 :	ضجيج الأهالي والاضطراب والهرج بالمملكة لطلب التخفيف من ثقـل الأداء المـوظف على الرؤوس الباي يكاتب المدن في اسقاط اداء المجبة
17 ذو القعدة 1280/23 افريل 1864 :	البـاي يجلس بالمحكمة لسمـاع شـكايـات المتظلمين على العادة
ذو القعدة 1280/افريل 1864 :	سفن حربيـة بها مدافع الشيشخان أتـت من دول فرنسا وانقلترا وايطاليا الى حلـق الـوادي
23 ذو القعدة 1280/29 افريل 1864 :	دوبوفال القائم مقام القنصل العـام لفرنسا بتـونس يقابـل البـاي ويقـول لـه : جئت أطلب منـك على لسـان الامبراطور أن تبطل الكونستيتوسيون أي عهد الامان
ذو القعدة 1280/افريل 1864 :	في خـلال الهرج السائـد بالمملكة ظهـر في عربان الايالـة الداء القديم وهو الحـزب الحسيني كالهمامة وجلاص ونفات وأولاد عون وغيـرهم والحـزب الباشي كماجـر والفراشيش وأولاد عيار وورتان وغيرهم واكثر الساحل

التـــــاريـــخ		الاحـــــــداث
24 ذو القعدة 1280/1 ماي 1864	:	الباي يكاتب رئيس المجلس الأكبر بما معناه : ان المصلحة اقتضت توقيف المجلس الأكبر
اوائل ذي الحجة 1280/اواسط ماي 1864	:	وصول مبعوث الباب العالي : حيدر أفندي الى تونس ومعه سفن بخارية حربية من الدولة العثمانية
محرم 1281/اوائل جويلية 1864	:	رئيس اليهود وكبير قباض الدولة القايد نسيم بيشي سرحه الباي فسافر الى فرنسا ومنها هرب الى ايطاليا
15 صفر 1281/20 جويلية 1864	:	انتهاء مهمة البعثة العسكرية الفرنسية بتونس وكانت قدمت الى تونس سنة 1842
8 ربيع الثاني 1280/23 سبتمبر 1864	:	حيدر أفندي يغادر تونس عائدا الى الآستانة
اواسط ربيع الثاني 1280/ اواخر سبتمبر 1864	:	أولاد عزيز من الهمامة وجلاص ونفات اتوا على علي بن غذاهم على حين غفلة فاخذوه أخذا وبيلا وفر علي بن غذاهم ناجيا بنفسه
16 جمادى الثانية 1281/14 نوفمبر 1864	:	خير الدين يسافر الى الآستانة لتقديم شكر باي تونس الى السلطان
4 شعبان 1281/31 ديسمبر 1864	:	خير الدين يعود الى تونس من الآستانة
اواسط شعبان 1281/ اوائل جانفي 1865	:	انتهاء مهمة القائم مقام القنصل العام لفرنسا بتونس : دوبوفال وقدوم القنصل العام مكانه : دوكيزين دوبلوكور
شوال 1281/مارس 1865	:	اقتراض ثان من أوروبا : 25 مليونا من الفرنكات
ذو القعدة 1281/افريل 1865	:	الباي يبعث خير الدين الى باريس في مهمة
		علي بن غذاهم يهرب الى الجزائر بعد انهزامه أمام الجنرال رستم

التـــــاريـخ		الاحــــــداث
ذو الحجة 1281/مـــاي 1865	:	الباي يبعث بأخيه الطيب بـاي الى الجزائـر لتحية الامبراطور نابليون الثالث
جمادى الاولى 1282/24 سبتمبر 1865	:	مبعوث فرنســا البــارون سليــار يتقابل مع البــاي ويطلب منــه عــزل بعض كبــار الموظفين التونسيين
14 شوال 1282/غرة مارس 1866	:	الباش حانبة مبعوث محمد الصادق باي يلقي القبض فجاة علي علي بن غذاهم ويصل به الى باردو في السلاسل
غرة محرم 1283/25 مارس 1866	:	ضرب سكة النحاس بتونس
2 ذو القعدة 1283/9 مارس 1867	:	قدوم بوتميليو القنصل العام الجديد لفرنسا بتونس
اواخر عام 1283/اوائل عام 1867	:	فشل البــاي في امضاء اقتراض ثالــث من أوروبــا
اواخر ذي الحجة 1283/اوائل ماي 1867	:	عربان الجباليـة تغير على سرح باجة وبعض هناشرهــا
صفر 1284/جوان 1867	:	المرض الوبائي المعروف بالكوليرة يظهر من جديد في الايالة التونسية
10 جمادى الاولى 1284/9 سبتمبر 1867	:	اصدار خير الدين لكتابه أقوم المسالـك في معرفة أحوال الممالك (ط . تونس)
13 جمادى الاولى 1284/11 سبتمبر 1867	:	محمد العادل باي شقيق محمد الصادق باشا بــاي يتوجــه الى جبل باجة عند عــروش خمير شاقــا عصا الطاعــة في وجه أخيه أمير البــلاد
5 جمادى الثانية 1284/3 اكتوبر 1867	:	محمد العادل باي يفشل ويسلم نفسه لمحلـة العسكر النظامي بباجة فيساق الى الحبس ببــاردو

التـــــاريـخ		الاحـــــــداث
7جمادى الثانية 1284/5 اكتوبر 1867	:	محمد الصادق باشا بـاي يـامر بقتل أميـر الأمـراء اسماعيل السني وأمير الأمـراء رشيد بتهمة القيام مع أخيه محمد العادل بـاي باقـراره عليهمـا وينفـذ فيهمـا حـكم القتـل
12جمادى الثانية 1284/11اكتوبر1867	:	وفاة علي بن غذاهم في سجنه بمعقل حلـق الوادي وقيل مات بالسم
9 رجب 1284/5 نوفمبر 1867	:	وفاة محمد العادل باي في محبسه وقيل مات مسموما
رمضان 1284/جانفي 1868	:	انتشار المرض المعروف بالتيفوس بالايالة
اواخر عام 1284/اواسط عام 1868	:	ابـرام معاهدة بـين تونس وايطاليـا تخول ايطاليـا امتيازات سياسيـة واقتصاديـة وثقافية . ولم يبطل العمل بتلك المعاهدة الا في عام 1896
اواخر ربيع الاول1286/5جويلية1869	:	انتصاب الكومسيون المالي بتونس متالفا من فرنسيـين وانقليزيـين وايطاليين لتصفية الـديـون التونسيـة (160 مليـونـا من الفرنكات) وتعيين خير الدين رئيسا لهذا الكومسيون
ربيع الثاني 1286/اوت 1869	:	ابطال المكتب الحربي بباردو
شوال 1286/جانفي 1870	:	تعيين خير الدين وزيـرا مباشرا الى جانـب الوزير الاكبر مصطفى خزندار
		تخفيض عدد الجيش وميزانية وزارة البحرية
ذو القعدة 1286/فيفري 1870	:	تخفيض الكومسيون للـديون التونسيـة من 160 الى 56 مليونا من الفرنكات
جمادى الاولى 1287/اوت 1870	:	تعيين الجنرال رستم وزيرا للحرب ويبقى في منصبه الى شعبان 1295/اوت 1878

التـــــاريـــخ		الاحــــــداث
جمادى الثانية 1287/سبتمبر 1870	:	انهزام فرنسا في الحرب مع المانيا دخول حكومــة الملك فيكتور ايمانوئيــل الى رومة واتخاذها عاصمة لايطاليا
رجب 1288/سبتمبر 1871	:	سفارة خير الدين الى الآستانــة للحصول من السلطان العثماني علىفرمان يوطد العلائق بين تونس والدولة العثمانية
9 شعبان 1288/14 اكتوبر 1871	:	خير الدين يحصل على الفرمان
5 رمضان 1288/18 نوفمبر 1871	:	اعلان الفرمان بقصر باردو
ذو القعدة 1288/جانفي 1872	:	لجنة المراقبة التابعة للكومسيون المالي تستقيل
جمادى الثانية 1289/اوت 1872	:	مد سكة الحديد تــونس حلق الــوادي المرسى (شركة انقليزية)
5ربيع الثاني 1290/4 جوان 1873	:	بوتميليو قنصل عام فرنسا يحال على التقاعد
15 ربيع الثاني 1290/14 جوان 1873	:	دوفلات يكلف بقنصلية فرنسا ويستمر قنصلا عاما مكلفا الى 18 افريل 1874
16 شعبان 1290/9 اكتوبر 1873	:	انشاء بنك انجليزي تونسي ومصنع للغــاز بتونس (شركتان انقليزيتان)
28 شعبان 1290/21 اكتوبر 1873	:	عزل مصطفى خــزندار من الوزارة الكبرى وتعيين خير الدين وزيرا اكبر
29 شعبان 1290/22 اكتوبر 1873	:	تعيين مصطفى بن اسماعيل وزيرا للبحرية
رمضان 1290/نوفمبر 1873	:	تنظيم الوزارات والادارات والقضاء والفلاحة والتجارة والاقتصاد والاداءات والاحباس والتعليم بتونس
شوال 1290/نوفمبر 1873	:	بعثة الجنرال حسين الى الجزائر

التاريخ		الاحداث
ذو القعدة 1290/ديسمبر 1873	:	تكليف الجنرال حسين بمامورية تصفية حساب أملاك القائد نسيم شمامة بايطاليا ويبقى حسينا مكلفا بتلك المامورية الى أواخر ماي 1881 ومن أجل ذلك يقيم حسين بالقرنة : ليفورنيا
صفر 1291/مارس 1874	:	خير الدين يكلف الشيخ محمد بيرم الخامس بادارة جمعية الاوقاف
غرة ربيع الاول1291/18 افريل 1874	:	دوبلينق يعين قنصلا عاما لفرنسا بتونس عوضا عن دوفلات ويبقى قنصلا عاما الى 24 ديسمبر 1874
15 ربيع الثاني 1291/31 ماي 1874	:	الشركة الانقليزية تنهي اعداد مصنع الغاز بتونس
17 شعبان 1291/29 سبتمبر 1874	:	وفاة الشيخ أحمد بن أبي الضياف
شوال 1291/نوفمبر 1874	:	تعيين الجنرال حسين وزيرا مستشارا للعلوم والنافعة
8 ذو القعدة 1291/17 ديسمبر1874	:	روستان يعين قنصلا عاما لفرنسا بتونس عوضا عن دوبلينق
5 ذو الحجة 1291/13 جانفي 1875	:	تاسيس المدرسة الصادقية
28 ذو الحجة 1292/26 ديسمبر 1875	:	اصلاح التعليم بجامع الزيتونة
سنة 1293/1876	:	وفاة السلطان عبد العزيز (1861 ـ 1876) وولاية السلطان عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1909) التنظيمات بتركيا (قانون اساسي) خير الدين يمنح شركة فرنسية لزمة مد سكة الحديد بين تونس وغار الدماء (8 ماي1876)
سنة 1294/1877	:	الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا

التـــاريـخ		الاحـــــداث
10 رجب 1294/22 جويلية 1877	:	عــزل خير الدين عن الــوزارة الكبرى وعن رئاسة الكوميسيون المالي وتعيــين محمد خزنة دار وزيرا أكبر تعيين مصطفى بن اسماعيل وزيرا للداخلية
سنـة 1295/1878	:	وفاة مصطفى خزنة دار
محرم 1295/جانفي 1878	:	عــدد ســكان المملكـــة التــونسيـــة : 2.000.000 نسمة عدد سكان الحــاضرة : 140.000 نسمة منهــم 20.000 أوروبي
12جادى الثانية 1295/13 جوان1878	:	مؤتمــر برلــين (13 جــوان ــ 13 جويليــة) التسوية الضمنية لمصير تــونس واقتسام الخلافة العثمانية بين دول الغرب
25 شعبان 1295/24 اوت 1878	:	تعيين مصطفى بن اسماعيل وزيرا أكبر
شعبان 1295/اوت 1878	:	خير الدين يستقدمــه السلطان عبد الحميــد الثاني الى الآستانــة
ذو الحجة 1295/ديسمبر 1878	:	خير الــدين يعينــه السلطان صــدرا أعظــم بالآستانــة
26 محرم 1296/20 جانفي 1879	:	تاسيس المستشفى الصادقي بتونس
رجب 1296/جويلية 1879	:	خير الــدين يستعفى من الصــدارة العظمى بالآستانــة
سنــة 1297/1880	:	عزل الخديوي اسماعيل باشا بمصر وتوليــة ابنــه الخديوي توفيق الكاردينال لافيجري يؤسس مدرسة سان شارل بتونس الحاضرة شركة روباتيني الايطالية تشتري سكة الحديد الرابطة بين تونس حلق الوادي المرسى
5 صفر 1298/7 جانفي 1881	:	ملــك ايطاليا همبرتــو الاول يستقبــل في باليرمو وفدا مبعوثــا من تونس لتقديم التحية باسم الباي

التـــــاريـخ		الاحـــــداث
10جمادى الاولى 1298/10 افريل 1881	:	فيلق من الجيش الفرنسي يدخل مدينة الكاف بقيادة الجنرال لوجيرو Logerot
11جمادى الثانية 1298/11 ماي 1881	:	فيلق من الجيش الفـرنسي يصل الى منوبـة ضاحية باردو بقيادة الجنرال بريار Bréard
12جمادى الثانية1298/12 ماي 1881	:	ابرام معاهدة قصر السعيد القاضية بانتصاب الحماية الفرنسية على تونس
13جمادى الثانية 1298/13 ماي 1881	:	روستان يعـين وزيـرا مقيما عامـا لفرنسا بتـــونـس ويبـقى في منصبـــه الى 15 فيفري 1882
11 رجب 1298/9 جوان 1881	:	روستان يعين وزيرا لخارجية البـاي بمقتضى أمـر علي
من 7 شعبان الى 17 شعبان 1298 من 5 جويلية الى 15 جويلية 1881	:	وحـدات الأسطول الفـرنسي تواصـل رمي مدينة صفاقس بالقنابل
17 شوال 1298/12 سبتمبر 1881	:	عـزل مصطفى بن اسماعيـل من الـوزارة الكبرى وتولية محمد خزنة دار مكانه
16 ذو القعدة 1298/10 اكتوبر 1881	:	الجيوش الفرنسية تحتل مدينة تونس
اوائل ذي الحجة 1298/اواخر اكتوبر 1881	:	الجيوش الفرنسية تحتل مدينة القيروان
26 ذو القعدة 1298/19 نوفمبر 1881	:	الجيوش الفرنسية تحتل مدينة قفصة
8 محرم 1299/30 نوفمبر 1881	:	الجيوش الفرنسية تحل مدينة قابس
10 ربيع الثاني1299/18 فيفري1882	:	انتهاء مهمـة روستان وابتداء مهمـة خلفـه بول كومبون مقيما عاما لفرنسا بتونس
26 ذي الحجة 1299/28 اكتوبر 1882	:	وفاة محمد الصادق باشـا باي وبدايـة عهد علي باشا باي
18جمادى الاولى1300/27 مارس 1883	:	تنظيم العدلية الفرنسية بتونس

التـــــاريـخ		الاحـــــداث
26 جادى الاولى 1300/4 افريل 1883	:	احداث وظيف كاتب عام للحكومة التونسية
28 جادى الثانية 1300/6 ماي 1883	:	انشاء ادارة التعليم العمومي بتونس
3 شعبان 1300/8 جوان 1883	:	ابرام اتفاقية المرسى الضابطة لسلطة الحكومة الفرنسية بالايالة التونسية
23 شعبان 1300/28 جوان 1883	:	انشاء ادارة الغابات بتونس
20 رمضان 1300/25 جويلية 1883	:	انشاء ادارة الأشغال العمومية بتونس
13 ذو الحجة 1301/2 اكتوبر 1884	:	ابطال الكومسيون المالي وانشاء ادارة المـال
15 ذو الحجة 1301/4 اكتوبر 1884	:	تنظيم المراقبات المـدنية الفرنسيـة بتونس تعويضا للمكاتـب العسكريـة الفرنسيـة بكامل تراب المملكة باستثناء تراب الجنوب الذي بقي ترابـا عسكريا
25 ذو الحجة 1301/14 اكتوبر 1884	:	تنظيم حريـة الصحافـة بتونس والسمـاح للجرائد بالصدور مقابل دفع ضمان مالي قدره ستة آلاف من الفرنكات : 6.000
سنـة 1302/1885	:	فيلب توماس يكتشف منجم الفسفاط بقفصة
22جادى الاولى 1302/8 مارس 1885	:	تاسيس المكتبة الفرنسية بتونس وسميت فيما بعد بالمكتبة العمومية واصبحت اليوم دار الكتب الوطنية بسوق العطارين بتونس
9 جمادى الثانية 132/25 مارس 1885	:	تاسيس المتحف العلوي بباردو
19 رمضان 132/غرة جويلية 1885	:	اعلان القانون العقاري بتونس وهو القانون المستوحى من القـانون المعروف بـاكـت تـورانيس الذي يضبـط في استـراليـا حـق الملكيـة
17 صفر 134/14 نوفمبر 1886	:	انتهاء مهمة المقيم العام بتونس بول قومبون وبداية مهمة خلفه جوستين ماسيكو
سنـة 134/1887	:	وفاة مصطفى بن اسماعيل بالآستانة

التـــــــاريـــخ		الاحـــــــــداث
7 ذو القعدة 1304/27 جويلية 1887	:	وفاة الجنرال حسين بايطاليا
28 ذو القعدة 1304/17 اوت 1887	:	ابطال الضمان المالي لاصدار الجرائد بتونس
سنــة 1306/1888	:	انشاء ادارة الديوان البريدي بتونس
سنــة 1307/1889	:	مدرسة سان شـــارل بتــونس تصير معهــدا ثانويا لائكيا وفاة الشيخ محمد بيرم الخامس بمصر
سنــة 1307/1890	:	انشاء دواويــن الاختصاصات بتونس (التبغ) وفـــاة الجنـــرال خيـــر الدين باشا بالآستانـــة (7 جمادى الثانية 1307/30 جانفي 1890)
سنــة 1309/1892	:	صدور أمر علي يجعل الأراضي الدولية بجهة صفاقس تحت تصرف المغارسين الفرنسيين (أمر 8 فيفري 1892) وفاة المقيم العام الفرنسي بالمرسى (5 نوفمبر 1892) ويعوضه شارل روفيي
سنــة 1311/1894	:	معهد سان شارل بتونس يصير معهد كارنو فتح ميناء تونس للملاحة (28 ماي 1894) انتهاء مهمة المقيم العام الفرنسي شارل لوفيي وبداية عهد خلفه روني ميلي (21 نوفمبر 1894)
سنــة 1313/1895	:	تاسيس الحجرة الفلاحية والمدرسة الاستعمارية للفلاحة بتونس
18 رجب 1314/23 ديسمبر 1896	:	تاسيس الجمعية الخلدونية بتونس
سنــة 1315/1897	:	تـــاسيـــس المستشـــفى الفـــــرنسي بتـــونس (9 جوان 1897)
سنــة 1318/1900	:	انتهاء مهمة المقيم العام الفرنسي روني ميلي بتونس وتعيين الوزيـــر المفوض الفرنسي بينوا مقيما عاما بالنيابة (15 نوفمبر 1900)
24 رجب 1318/17 نوفمبر 1900	:	وفـــاة الشيخ محمد السنوسي

اسباب القيام بالرحلة

لئن اتبع محمد السنوسي في تحرير رحلته الاطار الاعتيادي لمثل هذه الرحلات (1) فانه امتاز باقتضابه للعنصر الاساسي من ذكر خبر الحج ومناسكه فلم يخصص لذلك الا بضع الصفحات من بين ثلاثة اجزاء مجموع صفحاتها سبعمائة واحدى وثلاثون صفحة . فاستهل الجزء الاول بذكر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الخاصة بالحج وعقب بحديث عن فوائد السفر ثم تحدث عن مبدا سفره وعن اقسام القارة الاوربية وعن ايطاليا فاسهب في وصف معالم مدنها ولا سيما نابلي وبومباي وصانبيترو وليفورنو وفي الاثناء تحدث عن الجمعية « الفريماسون » واطنب في وصف ما لفت نظره على الخصوص من المعارض والمتاحف والمسارح وعادات الاهالي .

على ان الامر الذي يلفت نظرنا بشأن هذه الرحلة هو السبب الشخصي الذي حرك همة المؤلف الى الاسفار فقد قال متحدثا عن نفسه : « هذا وللعبد الضعيف المكتفي بالموضوع عن التعريف منذ عقلت فضيلة الاجتماع وادركت سر الله في التعاون لتجاذب الانتفاع رغبة تدعوه في كل وقت للسياحة للحصول على النظر الذي حمد الدين تجاحه . (2) . »

ولئن قام المؤلف باسفار داخل البلاد التونسية كزيارته لمنطقة الساحل والقيروان والوطن القبلي وباجة وذلك قبل سنة 1882 ثم قابس وصفاقس سنة 1885 فهو يعتبر نفسه كأنه لم يغادر الدار اذ السفر الحقيقي في نظره هو ذلك الذي قام به لاداء فريضة الحج فتمكن في طريق الذهاب من زيارة بعض مدن ايطاليا والآستانة دار الخلافة وزار في طريق الاياب دمشق الشام وبور السعيد وابحر من بيروت عائدا الى تونس عن طريق جزيرة مالطة .

ظروف تاليف الرحلة

لم يغفل محمد السنوسي اثناء تجولاته في رحلته تقييد ملاحظاته وكامل انطباعاته ولما عاد الى تونس جمع تقييداته قصد تحرير كتاب عن رحلته . الا ان ظروف التحرير لم تخل من عوارض عرقلت سير المؤلف من ذلك حوادث سنة 1885 التي تزعم اثناءها المظاهرة الاحتجاجية الاولى من نوعها في عهد الحماية الفرنسية تلك المظاهرة التي ضمت ثلاثة آلاف متظاهر من اعيان الحاضرة . وقد جر له

---

1) – انظر : Hadj Sadok M., Le genre « Riḥla », B. E. A. nº 40, nov. - dec. 1948 pp. 195-206.

2) – الرحلة الحجازية . ج 1 ص : 2

ذلك النشاط اعتناء السلط به فتعرض لتفتيش منزله وحجز وثائقه وتقييداته ونفيه الى مدينة قابس بجنوب البلاد .

ولما تمنعت السلط من اعادة ما حجزته من وثائق محمد السنوسي وتقييداته توعد المؤلف نائب الحكومة بأنــه سيكتب حبرا على ورق انــه لم يتمكن من انهاء الجــزء الثاني من الرحلة الحجازيــة لانــه وقع حجز تقييدات مسودة الكتــاب . الا ان تدخلا مساعدا مكنه في نهايــة الامر من استرجاع تلــك التقييــدات ومن اجل ذلك تأخر تحرير الرحلة ولم ينته المؤلف منه الا في اوائل سنة 1303 هـ . اواخر سنة 1885 م . ولعل تلك الحادثــة بالاضافة الى مضمون الكتاب كان سببا في بقــاء الرحلــة في شكل مخطوط لم يطبع الى ان عثرنــا عليه بــدار الكتب الوطنية بتونس سنــة 1965 .

وقد وضع المؤلف هذه الرحلة في ثلاثة اجزاء خصص الجزء الاول للحديث عن ايطاليا والجزء الثاني للحديث عن الآستانة وآسيا الصغرى والحجاز والجزء الثالث لتراجــم من تعرف عليهم من اعــلام العالم الاسلامي في القــرن التاسع عشر . وقال محمد السنوسي بخصوص وسم رحلته بالحجاز : « ... وبما ان اصل السفر للحجاز كان هو اول غرض فيما عرض نسبت اليه جميع الكتاب اعتبارا لشرف ما اختص بــه من المزية وسميته الرحلة الحجازية . » (1)

اما بخصوص الطريقة التي توخاها المؤلف في تصنيفه الرحلة فقد قال ما يلي : « وفرعت طريقة عــذراء ولم ارجع مما وقفت عليــه طريقة على اخرى ولست اريد بهذا ثلما لمــا رايتــه من الرحلات الموفية بأغــراض مؤلفيها على اختــلاف الاعتبارات . » (1) والملاحظ في هذا الصدد ان المؤلف قد صدق في مقالتــه الى حد ما اذ هو تناول الاغــراض التقليدية المعتــادة عند كتاب الرحلات العــرب فوصف المسالك وقيد اخبار اتصالاته برجال العلم وذكر اجازاتهم له . على ان الذي توافق فيه المؤلف من كونه فرع طريقة عذراء فهو ذلك الطابع الشخصي الواضح الذي نلمسه في اسلوبه وفي محاور اهتمامه وفي تلك الذهنية التي عالج بها مختلف المشاكل التي اعترضته . فهو قد اسهب الحديث في مقدمة هذا الجزء الاول من الرحلة عن فوائد السفر على الطريقة المالوفة الا انه اتى بجديد عندما الح على المظاهر العلمية وعلاقتها بالعمران بحيث ان القارىء يحس بانه مدعو الى الاعجاب برقي التمدن البشري (2) .

---

1) ـ الرحلة ج 1 ص 4

2) ـ المصدر نفسه : ص 8

تحليل محتوى الجزء الاول من الرحلة الحجازية

لقد اطنب غيرنا (1) في ضبط الخطوط الكبرى لمحتوى هذا الجزء الاول من الرحلة ولذلك لم تظهر لنا جدوى في طرق الموضوع من هذه الزاوية بل راينا من المفيد محاولة التعرف على شخصية محمد السنوسي من خلال دراسة بعض الاغراض التي طرقها والتي تكشف عن مواطن اهتماماته . ونظرا الى ان المؤلف لم يخترع تلك الاغراض وانما استعارها من تراث عصره فانه في الامكان العثور من هذه الناحية على صورة وفية لمعاصريه . وقد كان من المفيد قصد الوقوف على الدقائق والميزات الفارقة اقامة مقارنات بين محمد السنوسي وبين غيره من اعلام عصره من تونس ومن غيرها من الاقطار الذين كتبوا عن رحلاتهم الى اوربا (2) . غير اننا راينا ان مثل هذا العمل ليس من اطار هذه المقدمة الموجزة ولذا اقتصرنا هنا على بعض الخطوط الكبرى حصرناها في ثلاثة محاور :

1 ــ المسائل الفقهية والاخلاقية

2 ــ العلوم والمخترعات

3 ــ المقارنات بين العالم العربي الاسلامي والعالم العربي المسيحي

وقد عمدنا الى الاستشهاد ببعض الفقرات من نص المؤلف خلال تحليلنا على اساس هذه المحاور الثلاثة مع الملاحظة اننا لا نزعم اننا بذلك قد استوعبنا التحليل لكامل ما بهذا الجزء من زرع ينتظر الحصاد .

1 ــ المسائل الفقهية والاخلاقية

* ــ لقد طرح المؤلف بمناسبة زيارته لمحل القاء المواليد في مدينة بيزة مسالة فقهية اخلاقية تتعلق بالاجهاض وذهب في هذه القضية مذهب ابي حنيفة الذي يسمح للمرأة الحامل بأن تسقط حملها من اجل التداوي في فترة المائة والعشرين يوما الاولى من حملها ما دام الجنين لم يتخلق قبل نفخ الروح (3) .

---

1) ــ انظر :
Cattan Isaac, Revue Tunisienne, IX, pp. 432 et sq.; Abdesselem A. « *Les Historiens Tunisiens des XVII*ᵉ, *XVIII*ᵉ *et XIX*ᵉ *siècles*, Tunis, 1973 pp. 407-444.

2) ــ انظر : خير الدين التونسي : اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك تحقيق وتقديم المنصف الشنوفي ط 2 تونس 1972 . ص 10 ــ 11 (تطور فن الرحلة الى اوربا في القرن التاسع عشر)

3) ــ ج 1 ، ص 158 ــ 160

* ــ ولما حضر المؤلف تمثيليات مسرحية عديدة مختلفة الانواع (1) تساءل عما ينبغي القول في هذه الصناعة المسرحية من الناحية الفقهية . وحيث ان دواوين فقهاء الاسلام لم تصرح بأحكام المسرح لان تلك الصناعة لم تكن بين الناس منتشرة عمد المؤلف الى القياس فاجتهد وألحق المسرح بصحف الاخبار وذكر ان اتقن ما رآه في حكم مطالعة الصحف اليومية تحرير صحيفة الاعلام المصرية من القلم البيرمي التونسي في مقدمة اول عدد . وحيث ان محمد بيرم الخامس اعتبر ان مطالعة صحف الاخبار حكمها الجواز فان المؤلف راى انه لم يبق مانع في الحكاية بالمثال في المسارح اذ انها اداة تثقيف وتنوير الا ان المؤلف احترز في هذا الحكم بخصوص ما يصحب المسرح من الاجتماع الذي لا ينبني الا على النساء والغلمان من اللاعبين المتفرجين . فاذا نظرنا الى ان المسرح عمل جاهلي في الاصل نصراني في الحالة الراهنة للمؤلف فأصول الشريعة الاسلامية تمنعه بدون نزاع وكذلك تشخيص الروايات للسخف مما نهي عنه . اما بخصوص الشعبذة وخفة اليد والكهانة فالمؤلف يعتبرها علوما محرمة ويعتمد في تحريمها على اجماع فقهاء الحنفية كابن عابدين والشافعية كابن حجر والمالكية كسحنون .

* ــ اما مسالة مسابقة الخيل(2)والرماية والمخاطرة عليهما فالمؤلف يرى الجواز مع ما فيهما من تعذيب الحيوان وفي اخذ المخاطر به من القمار . فسبب الجواز في هذه المسالة منظور فيه لمصلحة دينية ترجع الى التدرب على ما تحصل به نكاية العدو . اما ما يقع من ذلك لمجرد المغالبة بدون قصد نكاية العدو فالمؤلف يرى المنع .

* ــ ومما كان يشغل بال الرحالة المسلمين الى بلاد اوربا في القرن الماضي مسألة طعام اهل الكتاب وطعام الافرنج وذكاتهم . وقد كان المشير الاول احمد باشا باي امير تونس ارسل قبل سفره الى فرنسا سنة 1846 بالسؤال عن ذلك الى شيخ الاسلام (3) فأجابه بأن طعامهم حل بشرط التسمية وان لم يذكر اسم الله عند الذبح فحرام . والملاحظ في هذا الصدد ان المؤلف لم يتخذ موقفا شخصيا في هذه المسألة الا أن سلوكه لما كان مقيما بايطاليا فيه كفاية للتعريف بموقفه في المسألة . فهو لما كان ببلدة مونتي كاتيني (4) بمعية امير الامراء حسين المكلف

---

1) ــ ج . 1 ص 62 وما بعدها
2) ــ ج 1 ص 90
3) ــ ج 1 ص 92
4) ــ ج 1 ص 137 ــ 178

بالمعارف العمومية بتونس سابقـا ذكر ان نزولهما بتلـك البلدة كان اولا بنزل اصحابه من النصارى الذين لا يذبحون فحصل لهما تعب في الاكل هنالك حيـث اقتصرا على اكل البيض والجبن مع الخبز ومن الغد تنقلا الى نزل صاحبه يهودي يتقن الـذكاة .

* ـ اما مسالة لبس المسلم البرنيطة فالمـؤلف يرى انهـا مقررة في دواوين الفقـه والحـكم فيهـا المنـع لانهـا في نظره من اللباس المختص بأهـل الكفـر ولبسهـا ردة (I) .

2 ـ العلـوم والمخترعات :

* ـ كان محمد السنوسي يـؤمن بأن ادبـاء عصره عليهـم ديـن لعجـائب الاختراعات التي لم يـر من سبقهم مثلها وان اداء حق المخترعات بقي دينـا على لسان العرب لذلك نظم قصيدته الفريدة في المخترعات الجديدة فنوه بعصره عصر الآلات البخارية والمراكب النارية التي صيرت البعيد قريبا . ويـرى المؤلف ان اقتراب البلدان عن طريق سكة الحديد سهل طريق المتجر من الصادرات والواردات ومكن السياح والتجار من التوارد على مختلف انحاء المعمور فتسبب ذلك في نمو العمران في البلاد العامرة وفي حدوثـه في التي كانت غامرة (2) .

* ـ اما التيـار الكهربائي فالمؤلف قد اعجب بـه كثيرا الى حد انـه اعتبره جديرا بأن يعد من مفاخر عصره فيسمى عصر الكهرباء . وقد بسط القول على التيار الكهربائي ونوه بفوائده التي قامت في عصره مقام بخار النار في كثير من الصناعات الجديدة ومقام النور الشمسي بل زادت على ذلك بما يتولد بتجدد العصور وتسابـق العلمـاء الى استخـراج سـر ما اودع الله في هذا العنصـر العجيـب (3) .

3 ـ المقارنات بين العالم العربي الاسلامي والعالم الغربي المسيحي

* ـ لقد وقف محمد السنوسي من عوائد البلدان التي زارهـا موقفا اتسم بالنزاهة والتجرد عن الاغراض ، فرأى من كل امة اسباب نفعها وضرها واختار لنفسه ما حـلا وصح عنده ان توسعة ظرف المـكان بالسفر بمثابـة طول الحيـاة المستفـادة من سعـة ظـرف الزمان . وقال بخصوص ما استحسنـه واستقبحه من

---

1) ـ ج I ص 57

2) ـ ج I ص I4

3) ـ ج I ص I06

عوائد الجهات التي رآها : « قد استفدت ان كل عادة صالحة بأهلها لا يسوغ لغيرهم انكارها لاني رايت من الترك والهنود والافغانيين واهل جاوة والمغاربة والاوربيين من تباين العوائد ما نكرته عادتي اولا وبالمخالطة صرت استحسن ما انكرته اولا . والانسان ابن عادته لا ينبغي له انكار عادة غيره بعادته المنكرة عند غيره . (I) »

* ـ كما ان المؤلف يرىان للسياحة مزايا عديدة لا تحصى وفي مقدمتها العيان الذي يغلب الخبر وفي هذا الصدد قال : « لكن قد تبين في الخارج ما اوضح لنا محكمة طلب خصوص المسير حيث ان السياحين في هاته العصور لما اختلطوا بأصناف الامم وشاهدوا احوالهم وآثارهم اكتشفوا كثيرا من اغلاط التواريخ فكان المسير افيد للحقائق لانه تحصل به المشاهدة للحالة الحاضرة ثم في الاشياء الماضية تحصل مشاهدة الآثار الدالة على الاصول . (2) »

* ـ ثم ان قضية تحول العلوم من شعب الى آخر وخاصة اقتباس الاوربيين من العرب هي مسألة انتبه اليها محمد السنوسي ومما يدل على ذلك ملاحظاته عندما زار معرض التشريح بالمكتب الطبي في مدينة بيزة . (3)

* ـ ولما كانت مسألة النسب محور اهتمام متداول في جميع البلدان الاسلامية فانه يعد من الطبيعي ان محمد السنوسي يحاول معرفة الى اي حد كان الاوربيون يشاطرون هذا الواي مع الحال المنتشرة عندهم كما يقول المؤلف في انسابهم رغم كونهم تعودوا بما يميت الغيرة وكثرة البغايا وانتشار ابناء الطبيعة فيما بينهم . وقد وصف محمد السنوسي في دهشة لم يخفها ما علمه بخصوص تحفظ الامة الايطالية على شرف عائلة ملكهم فقال : « ومع الحال المنتشرة عند الاوربيين في انسابهم رايت عجبا في خصوص تحفظ الامة الايطالية على شرف عائلة ملكهم التي مضت عليها مئات السنين في الاستيلاء على ايطاليا . (4) »

* ـ وكان ما اكتشفه المؤلف من تراتيب العملة والنقود قد جعله يقيم مقارنة بالوضع الذي كانت عليه امور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ فمدح التراتيب القاضية بصيانة النقود من الغش وفي هذا الصدد قال : « ولقد اخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات فلما صرت لنابلي ورايت

I) ـ ج I ص I5

2) ـ ج I ص 8

3) ـ ج I ص I64 ـ I65

4) ـ ج I ص I56 ـ I57

اوراق المعاملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الاسواق بقيمتها اردت استبدال الفضة بالاوراق فلم يمكن ذلك الا باعطاء صرف قدره اثنان في المائة . اما الذهب فانه والاوراق سواء تستبدل ايهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف . واين هذا من تجارة الدولة في غش النقود لتحصل على ربح يضيع بسببه على الاهالي في كل يوم اضعافه المضاعفة ؟ » . (I)

* — على ان محمد السنوسي قد وضح موقفه بخصوص المقارنة بين العالم العربي الاسلامي والعالم الغربي المسيحي اثناء حديثه عن زيارته لمعرض الاهالي بنابلي في الفقرة التالية : « وهناك وقفت مليا افكر في امس امم هذا الجيل وما لهم من الاعتناء بتكثير المعارف والتنقير عليها ونشرها الى نفع عموم الجنس البشري حتى وصلوا الى هاته الغايات . وبذلك تحققت سبب تقهقر امرنا بين امم العالم فلاحظت ان افراد علمائنا يتباهون بأن الواحد منهم له كتاب غريب يبخل بـه عن بني جنسه ، وبعضهم كتم ما يجد لاسلافه من الآثار العلمية ، ثم لنا في خزائن الكتب من تآليف الفحول التي تتوق اليها النفوس ومع ذلك منها ما لم تزد نسخه على نسخة المؤلف ، ومنها ما تلاشى بعضه ، وهذه المطابع العربية كلها تجارية لا تطبع الا ما يتحقق المشتركون فيه رواجه . ولا توجد عندنا جمعية لطبع غرائب التآليف واخراجها من كن خزائنها » (2) .

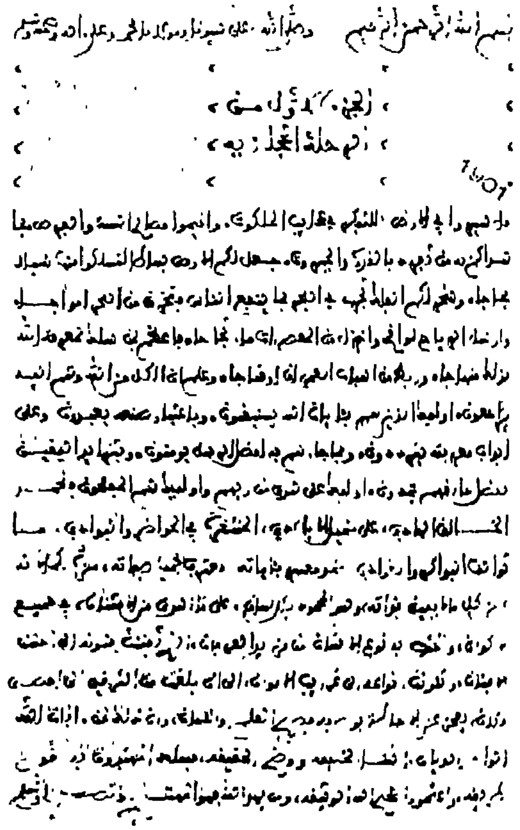
* * *

وختاما رجاؤنا ان يصدر في القريب العاجل تحقيقنا للجزءين الثاني والثالث من الرحلة الحجازية وتحقيقنا لديوان شعر المؤلف ودراستنا بالفرنسية عن حياته وآثاره . وهكذا نكون قد قمنا بعمل متواضع نعتبره واجبا وطنيا في حق هذا الاديب التونسي المؤرخ الحقوقي الصحافي الذي استحسنا ختم تقديمنا هذا بفقرة من فقرات هذا الجزء هي التالية : « **ولا يهتم العاقل للتعب الذي يلقاه في حياته بسبب قصد خدمة الجنس البشري لان مآل الحياة لا محالة الى الفناء وهل راينا بطالا خلد في الدنيا ؟ كلا بل ان التاعب فيما ينفع الناس اذا انعدمت منه الحياة الجسمانية تبقى حياة خلاصة اعماله واختراعاته او تسهيلاته فيكون حي الذكر مظهرا للفخر في كل جيل** » . (3)

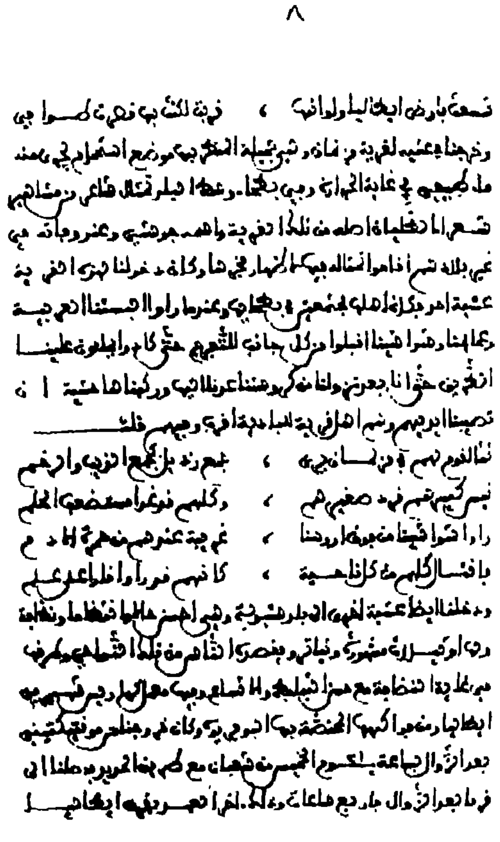
I) — ج I ص I3

2) — ج I ص 53

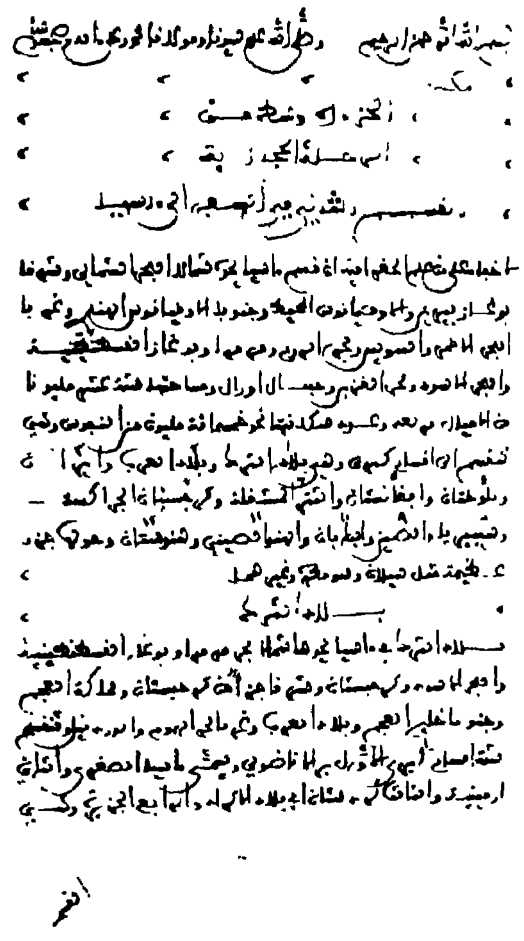
3) — ج I ص I33


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

1 ــ صورة من المخطوطة : الصفحة الاولى من الجزء الاول

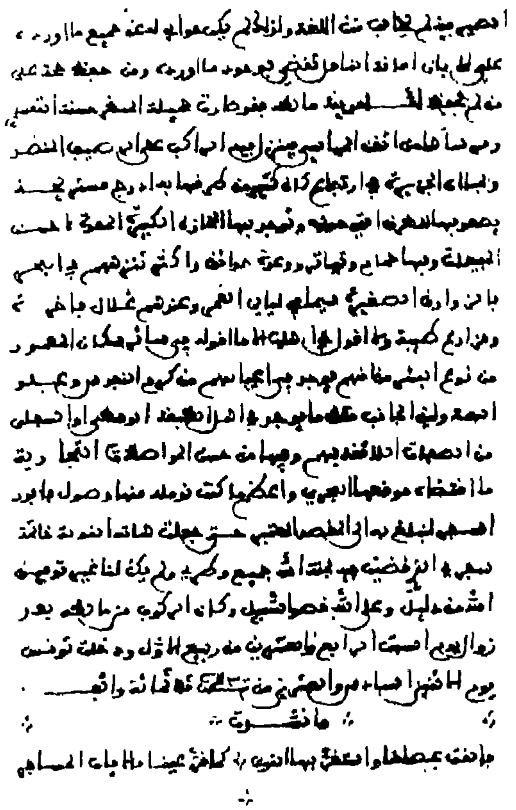


2 — صورة من المخطوطة : الصفحة الاخيرة من الجزء الاول

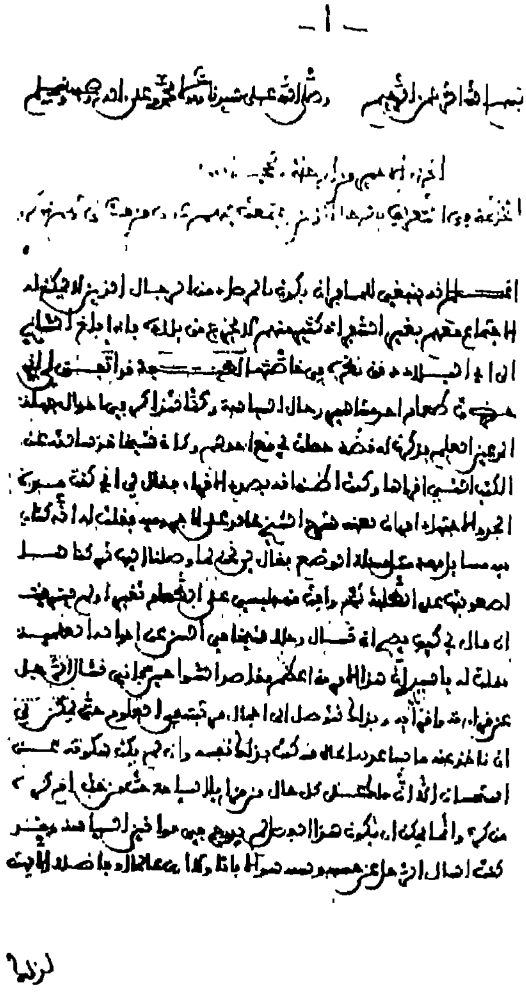


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

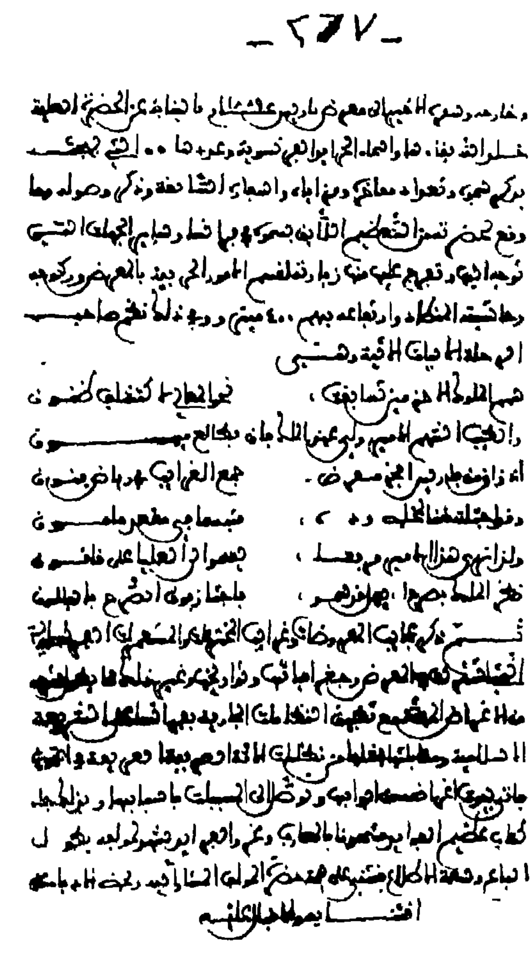
3 ـ صورة من المخطوطة : الصفحة الاولى من الجزء الثاني



4 ــ صورة من المخطوطة : الصفحة الاخيرة من الجزء الثاني



5 ـ صورة من المخطوطة : الصفحة الاولى من الجزء الثالث



6 ـــ صورة من المخطوطة : الصفحة الاخيرة من الجزء الثالث

[1]

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الجزء الأول من الرحلة الحجازية

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ) (1) للتفكّر في عجائب الملكوت * وأقيموا مصالح السنّة والفرض بما هداكم به من تفرّد بالقوّة والجبروت * (جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (2)) وسخّر لكم الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس فتخرق من البحر أمواجا * وأرسل الرياح لواقح وأنزل من المعصرات ماء ثجاجا * فأعظم بمن سلك لمعرفة الله بذلك منهاجا * وربط من أسباب العمران أوشاجا * وعلم أن الكلّ من الله وهم إليه يرجعون * أولئك الذين هم بآيات الله يستيقنون * وباعتبار صنعه يعبدون * وعلى أبواب معرفته يتردّدون * وبما جاءهم به أفضل الرسل يؤمنون * وبتزايد اليقين بفضل خالقهم يحمدون . (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (3)) .

(1) القرآن : سورة الأنعام ، 6 ، الآية ، 11 . — سورة العنكبوت ، 29 ، الآية ، 20 . سورة الروم ، 30 ، الآية ، 42 . — سورة النمل ، 27 ، الآية 69 .
(2) القرآن : سورة نوح ، 71 ، الآية ، 19 .
(3) القرآن : سورة البقرة ، 2 ، الآية ، 5 .

فنحمد الخالق الهادي * على جميل الأيادي * المنتشرة في الحواضر والبوادي * ما توالت البواكر والغوادي * حمد معتبر بآياته * معترف بجميل صفاته * منزّه لكمالاته * عن كلّ ما لا يليق بذاته * وهو المحمود بكلّ لسان * على ما أسدى من الامتنان * في جميع الأكوان * واختصّ به نوع الانسان * من مزيد العرفان * الذي تفننّت فنونه إلى أحسن الأفنان * وتلوّنت أنواعه إلى غرائب الألوان * إلى أن بلغت من الترقّي إلى أقصى مكان * يعجز عن الاحاطة بوصفه فصيح القلم واللسان * وانّ ذلك لمن آيات الله الواحد الديّان * أنشأ الخليقة وأوضح الحقيقة * فسلك المهتدون [1] به أقوم طريقة * واعتمدوا حجج الله الوثيقة * و(مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي (1)) ونصلّي ونسلّم [2] على سيّد البشر * المرسل إلى الأسود والأحمر * من العرب والعجم * وصنوف الأمم * على اختلاف ألسنتهم وأخلاقهم * وتباين آدابهم وأذواقهم * بالشرع العميم * الذي أنزل من لدن حكيم عليم * فصلح لجميع أصناف العباد * الساكنين منهم المعمور في كلّ بلاد * صلوحية ينصلح بها حالهم * وتكمل بها عند الله آمالهم * ألا وهو الرسول الأوّاب * الناطق بالصواب * وعلى آله والأصحاب * ليوث الغاب * وغيوث الأحقاب * القائمين بما جاء به الكتاب * ومن تبعهم في محاسن الآداب * فنال جزيل الثواب * بما عمل ليوم الحساب *

هذا وللعبد الضعيف * المكتفي بالموضوع عن التعريف * منذ عقلت فضيلة الاجتماع * وأدركت سرّ الله في التعاون لتجاذب الانتفاع * رغبة تدعوه في كلّ وقت للسياحة * للحصول على النظر الذي حمد الدين نجاحه * إلى أن أتاحت لي الأقدار تيسيرا * فنلت خلسة من الدهر (وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً *(2))

(1) القرآن : سورة الأعراف ، 7 ، الآية ، 178 .
(2) القرآن : سورة الفرقان ، 25 . الآية ، 54 .

خرجت فيها لحجّ بيت الله الحرام * (1) وزيارة خير الأنام * على التياث الأحوال في كثير من الجهات (2) * وتضعضع الأركان من الجبال الراسيات *

فأدّاني ذلك السفر الذي أولاني مطافه إلى بعض بلدان إيطاليا .(3) ثمّ ساقني إلى دار الخلافة (4) وبعد قضاء الفرض (5) * والتنعّم بزيارة الشفيع في يوم العرض (6) * أتيت على دمشق الشام (7) * مصاحبا للركب في الطريق العامّ (8) * وركبت البحر من بيروت (9) إلى جزيرة مالطة (10) * فكان ذلك للحصول على مزيّة الأسفار أعظم واسطة * وانّي وإن كان تقدّم وتأخّر لي خلافه وسافرت أوّلا للساحل (11) والقيروان والوطن القبلي وبلد باجة . وسافرت أخيرا إلى قابس (12) * وفي طريقها دخلت إلى صفاقس *

---

(1) كان خروجه من تونس قصد الحج يوم الخميس 8 رجب 25/1299 ماي 1882 (انظر : الرحلة أسفله : ص 24 بترقيم المخطوطة) .

(2) اشارة إلى الحوادث السياسية العالمية اذاك وخاصة المتعلق منها بالخلافة العثمانية ومصر والسودان.

(3) وصل إلى نابلي يوم السبت 10 رجب 27/1299 ماي 1882 (انظر أسفله : ص 28) وغادر نابلي قاصدا الأستانة يوم الاثنين 2 رمضان 17/1299 جويلية 1882 (انظر : **الرحلة الحجازية.** ج 2 ص 10) .

(4) دخل الآستانة يوم الجمعة 6 رمضان 21/1299 جويلية 1882 وأقام بها إلى يوم الأحد 12 ذي القعدة 24/1299 سبتمبر 1882 . (انظر : **الرحلة الحجازية** . ج 2 ص 12) .

(5) أشرف على مكة يوم الثلاثاء 28 ذي القعدة 10/1299 أكتوبر 1882 (انظر : **الرحلة** : ج 2 ص 89) وخرج من مكة قاصدا المدينة يوم السبت 22 ذي الحجة 4/1299 نوفمبر 1882 (انظر : الرحلة : ج 2 ص 110) .

(6) أتم الزيارة صباح يوم الخميس 4 محرم 16/1300 نوفمبر 1882 (انظر : **الرحلة** : ج 2 ص 115) .

(7) دخل دمشق يوم الاربعاء منسلخ صفر 10/1300 جانفي 1883 (انظر : **الرحلة** : ج 2 ص 198) وغادرها يوم الاثنين 6 ربيع الاول 15/1300 جانفي 1883 ووصل في اليوم نفسه إلى بيروت (انظر : **الرحلة** 2 ص 210) .

(8) خرج من المدينة يوم الاثنين 16 محرم 27/1300 نوفمبر 1882 (انظر : **الرحلة** : ج 2 ص 121)

(9) ركب البحر من بيروت إلى مالطة يوم الاربعاء 14 ربيع الاول 24/1300 جانفي 1883(الرحلة 2 ، 274)

(10) دخل مالطة يوم الخميس 22 ربيع الاول 1300/غرة فيفري 1883 (**الرحلة** 2 ، 276) وغادرها يوم السبت 24 ربيع الاول 3/1300 فيفري 1883 (**الرحلة** 2 ص 279) .

(11) المراد بالساحل مدن الساحل التونسي سوسة وصفاقس ...

(12) كان ذلك في 6 شعبان 21/1302 ماي 1885 . نفته إلى قابس السلطات الفرنسية لمدة ثلاثة أشهر بعد أن ألقت عليه القبض وعزلته عن وظيفه اثر تزعمه في 18 جمادى الثانية 4/1302 أفريل 1885 المظاهرة الاحتجاجية ضد النظام البلدي وقد وصلها بحركة جمعية العروة الوثقى (انظر : **حوليات الجامعة التونسية** ص 80 عدد 7 ، سنة 1970) .

دخول من ليس له حاجة * الا أن هذه الأسفار * داخل المملكة بمثابة من لم يخرج من الدار * لأن التنقّل من حالة إلى مثلها أو دون * وليس ذلك ممّا يتنافس فيه المتنافسون * وان كنت ربّما لم نهمل ما جرى على كلّ حال * ولو بعد الارتحال * غير أن ذلك ليس ممّا يراد بالارتحال الجليل * ولم نوجّه الهمّة الا لهذا [3] السفر الطويل * وكنت في أثنائه ولوعا بتقييد ما يعترض من العبر * الناشئة عن حسن الأثر * [3]

وعندما أخذت بالايّاب قراري * (1) تعاطيت جمع ما وعته أسفاري * غير أن الأشغال والأشغاب * وما في غضونها من أتعاب * كادت أن تحيل بيني وبين ما قصدت * وخشيت أن يغيب عنّي ما رصدت * إلى أن امتدّت الأيدي إلى مسودات التقاييد (2) بما حجبها عنّي إلى زَمَنٍ مَدِيد * على حين انتزاع الأشغال * وإفراد الوجهة إلى الكبير المتعالي * . وأستحي المروءة أن تراني * أبثّ هنا من النازلة (3) بثّها * والمقام يضيق عن أن يعي نفثها * لكن نشرت صحف الأخبار * (4) في سائر الأقطار * رنّة من رجْف حديثها * وريعت عموم البلاد من مزعج حثيثها * وتطوّرت فيها الأطوار * على أهل الاعتبار * بما يتلى حديثه آناء الليل وأطراف النهار * وتمدّح بها أقوام وذمّ آخرون * (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (5)) حتّى أعاد الله

---

(1) كانت أوبته إلى تونس يوم الاثنين 26 ربيع الاول 5/1300 فيفري 1883 ، (انظر : الرحلة : ج 2 ص 279) .

(2) جرى تفتيش منزله ، اثر وقائع سنة 1885/1302 ومن بين ما حجز له تقاييد لتحرير الرحلة نهدد ممثل السلطة وقال له إنه سيذكر في آخر الجزء الثاني من الرحلة أنه لم يتمكن من إنهائه لأن التقاييد قد حجزت .

(3) يشير إلى تأليفه : خلاصة النازلة التونسية (مخطوط بدار الكتب الوطنية . رقم 16635) .

(4) أشار إلى تلك الصحف في الباب الثاني من خلاصة النازلة التونسية ومن بين تلك الصحف جريدة *La France* وجريدة Gilblas الفرنسيتان (انظر أطروحة أحمد عبد السلام) :
A. Abdesselem, *Les historiens Tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles*, thèse dactylographiée, bibl. Sorbonne (W-1969-26-4°) pp. 664-666

(5) القرآن : سورة البقرة ، 2 الآية : 96 .

لي ما مضى * (1) بَعْدَ التثبّت والتصبّر والرضا * والاحتساب للّه في شكر الصابرين * والله لا يضيع عمل العاملين * .

فما كان منّي الا أني راجعت ما اليه رجعت * وتعاطيت من بذل الهمّة ما استطعت * في جمع شمل ما انتثر * من تقاييد هذا الأنموذج المعتبر * وصيّرتها إلى تأليف نستحسن موقعه في هذه العصور * وان لم يخل باع جامعه من القصور * جمعت فيه ما شاهدته من الآثار * مشروحة الأصول بما يفيد الاعتبار * .

كما شرحت ما عرض من كلّ جديد * ومُخْتَرَع مفيد * شرحا يحتاج إليه كلّ بارع أديب * ولع بمحاسن التهذيب * وربّما أدرجت فيه من التاريخ والأحكام * ما لا يستغني عنه الناقد الهمام * ويحتاج إليه من أراد التحنّك بالمعارف * والمتطلّع للاستظلال بظلّ الأدب الوارف * إلى غير ذلك ممّا يفيده السفر * إلى البدو والحَضَر * وينسي وافيه من المشقّة * الحاصلة ولو ببعد الشقّة * .

ومع ذلك لم نخرج عن موضوع المقصود * في هذا الدرّ المنضود * الا بشروح أكيدة * لمن تقلّد هاته الفريدة * بحيث اني اجتنبت ما رأيت عليه الرحلات * في جميع الحالات * وفرعت طريقة عذراء * ولم [4] أرجّحْ ممّا وقفت عليه طريقة على أخرى * (2) ولست أريد بهذا ثلما لما رأيته من الرحلات * الموفية بأغراض مؤلفيها على اختلاف الاعتبارات * ولكن (قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ (3)) من غير توقّف على مماثلته * و(كُلّ

[4]

(1) أعيدت إليه تقاييد الرحلة اثر وساطة قام بها لدى مترجم الاقامة العامة الفرنسية بتونس في 23 صفر 1303/غرة ديسمبر 1885 . (انظر أطروحة أحمد عبد السلام المشار إليها أعلاه) .

(2) انظر : مقال Hadj Sadok M., *Le genre « Rihla »*, B.E.A. n° 40, novembre décembre 1948, pp. 195 – 206

(3) القرآن : سورة الاسراء 17 ، الآية : 84 .

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (1)) والجميع في مخضلّ الأرض يمرحون * .

وقد جعلت هاته الرحلة أنموذجا وجزئين * وخاتمة للتعريف بمن جمع بيني وبينهم البين * (2) والأنموذج في مزيّة السفر * والجزء الاول فيما رأيته من قسم ايطاليا المعتبر * (3) والجزء الثاني في الآستانة وآسيا الصغرى المشرّفة بالحجاز الأشهر * (4) . وبما أن أصل السفر للحجاز كان هو أول غرض * فيما عرض * نسبت إليه جميع الكتاب إعتبارا لشرف ما اختصّ به من المزيّة * وسمّيته الرحلة الحجازيّة * .

وأنا أسأل الله أن يعيذها من نظرة جاهل أو حسود * يتغاضى عن محاسنها ويتتبّع منها ما شذّ عن المقصود * أو يذمّ منها الحسن * وينمّ بمذمّة طرف الأغنّ * ولا بدع في ضرائر الحسناء اذا تهافتن على مذمتها * فكم رأينا من نكص على عقبه في الشهادة بالفضل بعد أن فاه بكلها * والشهادة لأهل الفضل بالفضل فضيلة * وأين الفضيلة لمن يتخلّق بالرذيلة * وأيّ فضيلة لمن اتّخذ هواه دليله * لا يسلك الا سبيله * ولكن لله في عباده علم غيب هم إليه صائرون * و(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(5)) :

---

(1) القرآن : سورة الروم 30 ، الآية 32 وسورة المؤمنون 23 ، الآية 53 .
(2) الخاتمة هي الجزء الثالث من الرحلة ترجم فيه لثلاثة وعشرين علما من أعلام القرن التاسع عشر في 250 صفحة .
(3) الجزء الأول به 181 صفحة .
(4) الجزء الثاني به 279 صفحة .
(5) القرآن : سورة البقرة 2 ، الآية 156 .

أنموذج السفر

لا يخفى أنّ الله جلّت حكمته لم يجمع منافع الدنيا في أرض واحدة بل فرق المنافع والجهات أحوج بعضها إلى بعض . ولذلك كانت الأسفار مما تزيد علما بقدرة الله وحكمته وتدعو إلى شكر نعمته . والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وفي القرآن آيات كثيرة تنبّه على فضيلة السفر وتدعو إليها . قال الله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ ذَلولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإلَيْهِ النُّشُورُ (1) وقال تعالى :وَآيَةٌ لَهُمْ أنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (2) وقال [5] تعالى : وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (3) وقال تعالى :قُلْ سِيرُوا فِي الارْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) وقال تعالى : (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

[5]

(1) سورة الملك (67) الآية : 15 .
(2) سورة يس (36) . الآية : 41 .
(3) سورة الاسراء (17) . الآية 70 .
(4) سورة العنكبوت (29) الآية : 20 .

الْمُكَذِّبِينَ (1) وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (2)) وقال تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (3)) . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

وهنا نتكلّم على ما أفادته هاته الآيات من السير والنظر وما يحصل بذلك من الفوائد في ثلاث درر :

درّة السير

أنت ترى جميع الآيات السالفة آمرة بالسير في الأرض منبّهة على ما يسّره الله من السفر في البحر وذلك لأن المدار هنا على معرفة حقائق ما عليه الأمم . وهاته المعرفة الشأنُ فيها أن تحصل بالسمع تارة وبالبصر أخرى . أمّا الحاصلة بالسمع فإنّها تكون بالتناقل لأنّ المدار فيها على حصول الخبر في الذهن : وحصوله يكون بطرق المخبرين على اختلاف رواياتهم ولغاتهم . وأسباب هذا الحصول التي بلغ إليها التمدّن البشريّ هي اللفظ والخط والإشارة والتلغراف والتليفون والفوتفون والفونوغراف وليس شيءٌ منها بمستحضر لغير المخبر عنه من أحوال الأمم وكلّ خبر محتمل للصدق والكذب . ولهذا ترى من اختلاف المؤرخين وأغلاطهم ما لا يقصر عن اختلافات الناقلين وأخلاطهم من الأخبار المنقولة بالوسائط الجديدة . وآفةُ الحديثِ رواتُه

---

(1) سورة آل عمران (3) . الآية : 137 .
(2) سورة الروم (30) . الآية : 9
(3) سورة الروم (30) الآية : 42 .

ولـهـذا لـم يقبل الفقهاء بل وعموم المحاكم حجج الوسائط المذكورة وفي الخاتمة تحرير هذا المبحث (1) .

[6] وأمّا المعرفة التي تحصل بالبصر فانّها لا تحصل الاّ [6] بمشاهدة عين المخبر عنه ولا يتطرقه اختلاف ، سواء توصّلت إليه العين بقوّتها الذاتيــة كمرئياتنا اليومية أو توصّلت إليه بوسائط ربّانية أو آلية . فالأولى كالفتح الإلهي على أبصار العارفين حتّى تصير سائر الكائنات نصب أعينهم لا فرق فيها بين بعيد أو قريب . وأمّا الآلية فالمرائي والفوتغراف والمناظر المعظمة والمكريسكوب المفرد والمزدوج والبيسترسكوب .

أمّا المرآة كسعلاة ومخلاة فتجمع على مراءٍ كسعالٍ ومخالٍ وهي في الأصل اسم الآلة البلورية التي تنطبع فيها صور الأشياء المعروفة للعرب . قال شاعرهم :

وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ فِـي كَـفِّ الأَشَـلّ

والمراد منها هنا الآلة المركبة من المرائي المحرقة التي أميط عنها اللثام في كتب الاسلام ولم يبصرها ببصر الميثم (2) مثل أبي علي ابن الهيثم (3) يحصل بها تكبير جرم المرئي البعيد إلى أن يتّصل بمرآى العين فتراه على ما هو عليه . وصناعتهـا الأصليـة منسوبـة إلى الهنـد ولذلك بقيت نسبتهـا إليـه في اللسـان العـربي .

(1) انظر أسفله صفحة 86 : غير أن أتقن ما رأيته من حكم مطالعة الصحف اليومية تحرير صحيفة الاعــلام .

(2) الميثم من وثم يثم الشيء : كسره ودقه ، يقال : خف ميثم ، شديد الوطء كأنه يثم الأرض أي يدقها .

(3) ابن الهيثم : أبو علي الحسن بن الحسن (أو الحسين) بن الهيثم البصري المصري ، ولد بالبصرة حوالي سنة 965/354 وقضى أعظم جانب من حياته بالقاهرة حيث توفي سنة 1039/430 . كان أحد مشاهير الرياضيين والفيزيقيين العرب وكان عالما في الطب وعلوم الأقدمين وخاصة فلسفة أرسطو . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسيـة الجديـدة ، ج 3 ، ص 811 — 812) .

ومن شعر ابن زمرك (1) من بعض قصائده المثبتة في نفح الطيب (2) قوله : (من الكامل)

وَالبَدْرُ في وَسَطِ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ مِرْآةُ هِنْدٍ وَسطَ لُجّ تَرْتَمِي

والفقهاء لا يقبلون شهادة من أسند بشهادته للمرآة المذكورة حيث ثبت بعده عن موقع ما شهد فيه سدّا لأبواب الزور . وذلك لأنهم ان فتحوا الباب بقبول شهادة من لم يحضر الوقائع اعتمادا على المرائي الهندية يستسهل الناس شهادة الزور . ويلي الكلام في مسألة أخرى وهي أنه تقرّر أن العين تنطبع فيها صور المرئيات والمقتول بعد مماته تبقى في عينه صورة قاتله كانطباعها في المرآة .

ومن القوانين ما يؤاخذ مَنْ تُوجَدُ صورتُه منطبعة في عين مقتول بعد إخراجها بالفوتغراف لكن الفقهاء لم يقبلوا ذلك من حيث عدم إمكان الجزم بأن الصورة صورة القاتل نفسه إذ قد يضرب القاتل ضربا يبقى معه شيء من الحياة زمنا ما فتقع العين في أثنائه على غير القاتل [7] فتنطبع صورته في عين المقتول وتبقى حجّة لا يَصِحُّ لعادل أن يتمسّك بها .

[7]

وأما مرائي العيون التي يستعين بها الراؤون فإنها على قسمين : قسم يكبّر المرئيات فيما اذا كان ناظر العين أكبر من المعتاد بمقدار يخيّل على المرئي حائلا يمنع من تحقق صورته فيستعمل هاته المرآة لتدقيقه إلى قدر الحاجة ويسمونها أنيـوب .

---

(1) ابن زمرك : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك ، خطيب ، كاتب ، أديب ، شاعر ، راو ، محدث ، ولد بغرناطة في شوال سنة 1333/733 أخذ عن الوزير لسان الدين بن الخطيب وبه تأدب وتخرج وورث خطته بعدما أظلم الجو بينهما ، ومات مقتولا بأمر من السلطان محمد السابع سنة 1393/795 . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 3 ، ص 997) .

(2) كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد المقري (توفي سنة 1041/32–1631) .

وقد اتفق لي في أثناء السفر أن أردت شراء مرايا عيون (1) فدخلت حانوتا ناولتني إياها فتاة هنالك فقلت : (من الطويل)

شَكَوْتُ الَّتِي تَدْرِي بِأن جَمَالَهَا
دَقِيقٌ وَقَدْ صَالَتْ وَصَانَتْ وِصَالَهَا

وَلَكِنْ أَرَادَتْ أَنْ تُنَزِّهَ نَاظِرِي
بِرَوْضِ مُحَيًّا زَانَ مِنهَا اعتِدَالَهَا

فَجَادَتْ لِمَنْ أَبدَى تَأَمُّلَ مُغْرَمٍ
بِعَيْنٍ مِنَ المِرْآةِ تَجلُو كَمَالَهَا

مَرَايَا عُيُونٍ بَلْ مَرَائِي لأَعيُنٍ
أَبَانَتْ بِزُجَاجَيْ هِندٍ صِقَالَهَا

فَأَبْصَرْتُ مِنْ لُطْفِ الْجَمَالِ دَقَائِقَ
تَقَاصَرَ نَظْمٌ رَامَ يَشْرَحُ حَالَهَا.

والفوتغراف هو مرآة انطباع الصور يطلق اللفظ على نفس الصورة وقد أهدى إلي بعض الأعزة في السفر صورته ، فقلت : (من الطويل)

فَدَيْتُ الَّذِي أَهْدَى بِصُورَةِ شَخْصِهِ
مِثَالاً عَزِيزاً مِنْ صَنِيعِ فُتُغْرَافِ

فَإِنْ كَانَ فِكْرِي لَمْ يُفَارِقْ خَيَالَهُ
فَصُورَتُهُ تَجْلُوهُ حِسًّا بِإِسْعَافِ

والمناظر العظيمة هي في الأصل من صنع العصور الأولى غير أنها في هذه العصور زادت تقدّما وتعظيما ومنها مرايا المراصد التي يقع النظر بها لجميع الكواكب وأحوالها . وتحقّق أن كلّ كوكب كورة من الكرات المسكونة ككرة الأرض حتّى ظهر بها مصداق حديث (إنّ لِلَّهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ

---

(1) أراد الشيخ محمد السنوسي شراء مرايا العيون لأن بصره به ضعف . انظر أسفله صفحة 103 حيث يشير إلى ذلك .

أَلْفَ عَالَمٍ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ مِنْهَا لَعَالَمٌ وَاحِدٌ). بل إنّهم حرّروا أنّ النبي (صلعم) إنما ذكر عدد القدر القريب المعرفة . وأثبتوا غيرها بتدقيق في الرصد .

[8] والمكريسكوب [8] هو المرآة التي أمكن بها اكتشاف حيوانات الماء والهواء وأجزاء تركب الأشياء وكريات الدم والجزء الذي لا يتجزّأ إلى غير ذلك مما أفاد علما جديدا من التشريح فسمي التشريح المكريسكوبي . ولعمري إن هاته المرائي حقّقت من علمي الهيأة والتشريح ما لم يصل إليه الأقدمون بوجه . وذلك من أعظم ما يتوصّل به لمعرفة كمال القدرة الإلهية . وقد قال الفخر الرازي (1) : من لم يعرف الهيأة والتشريح فهو غبين في معرفة الله . فما بالك به إذا عرفهما على الوجه الأدقّ .

وَالسِّبِكْتِرِسْكُوبُ (2) مرآة لتحليل الأضواء أمكن بها اكتشاف مادة الشمس بتحليل أضوائها السبعة من حيث الألوان والتراتيب . ولقد أبدع البارع الأريب الدراكة الثبت الأديبُ السيد الشاذلي بن فرحات من خلّص أودّائي في قصيدة أنشأها في مناظر الفصول الأربعة تزيد على الخمسين بيتا كلّها تشابيه وأغلبها من نوع المخترعات حتّى قال في منظر الشتاء في تشبيه قوس قزح : (من البسيط)

كَأَنَّمَا الْقَوْسُ فِي الْخَضْرَاءِ مُنْطَبِعٌ
سَبِكْتِرِسْكُوبٌ فِي تَحْلِيلِ أَضْوَاءِ

وبما مهّدناه من بيان طرق الإفادة من خبر ومشاهدة يتبيّن لك مصداق قولهم : المشاهدة أقوى دليل . وعلى هذا فالاستدلال في الانقلابات الطبيعية

---

(1) الفخر الرازي : هو فخر الدين الرازي توفي سنة 1210/606 . وهو شافعي المذهب وقد حارب ابن سيناء وللفخر الرازي تآليف من أشهرها : أساس التقديس ومفاتيح الغيب (تفسير القرآن) والمحصل في علم الكلام . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، 2 ، 770–772) .

(2) بالأصل : والبسترسكوب والصواب كما أثبتنا : والسبكترسكوب كلمة دخيلة فرنسية أصلها يونانـي .

والسياسية والعادية بمجرّد الأخبار المحتملة للصدق والكذب غير كاف كـل الكفاية وأغلاط الناقلين كافية في عدم الكفاية . ولهذا كان فنّ التاريخ من أصله ليس كافيا في كثير من الأشياء وإلا لما كانت من حاجة لِلأمْـرِ بخصوص المسير في الآيات السالفة . كان يكفي طلب سماع أخبار . لكن قد تبيّن في الخارج ما أوضح لنا حكمة طلب خصوص المسير حيث إن السياحيين في هاته العصور لما اختلطوا بأصناف الأمم وشاهدوا أحوالهم وآثارهم اكتشفوا كثيرا من أغلاط التواريخ فكان المسير أفيد للحقائق لأنه تحصل به المشاهدة للحالة الحاضرة ثم في الأشياء الماضية تحصل مشاهدة الآثار الدالـة على الأصـــول .

ولا شك أن مُشَاهَدَةَ الآثار هي الحالة الوسطى بين الخبر والعيـان . فما لم يمكن [9] فيه العيان تطلب مشاهدة آثاره قبل الاكتفاء بأخباره . ومشاهدة الآثار أثبت في الأحوال الماضية . ولهذا ترى لأمم العصر ودوله اعتناء عظيما بالجمعيات الجغرافية والإرساليات الاستكشافية التي خبروا بها مبادىء الخلق بغاية ما أمكنهم مما لم يصل إليه من سبقهم .

[9]

وخرجت أفراد باسم مبشّرين للدخول بين الأمَمِ المتوحّشة واستدعائهم الديانة ولجوا لذلك مضائق ولوجا نفع كثيرا من الأجناس . ولم تزل الأمم معتنية بتيسير أسباب السير بحيث يكون بالخيل والبغال والحمير والإبل والفيلة والبقر والكلاب التي تجرّ الراكبين على الثلج في جهات القطب والهوادج والكروسات والأخشاب المربوطة على البحر والفلك الخشبية والقلاع والسفن والفابورات والعربات والمانيبوس وهو عربة كبيرة تجرّها الدواب على الأرض والتراماواي عربة كبيرة تجرها الدواب على سكّة الحديد والشمندفير ذي العربات المجرورة ببخار النار على سكّة الحديد والمراكب المجرورة بالكهرباء والبالـــون .

وبهذه الوسائط ارتبطت جهات معمور الأرض ارتباطا لا يخفى تأثيره في العمران البشري ولا ينبغي أن نهمل ذكر البوسطة من بين المراكب ومبلغات

الأخبار فإنها قد ربطت بين جميع الجهات وأوصلت من المتاجر والأخبار ما لا يمكن وصوله بغيرها ولارتباط البانكات ببعضها تسهيل في إيصال الأموال التي هي أعظم جارحة للتجارة .

وحينئذ يمكن لي أن نشبّه الهيأة الاجتماعية بشخص واحد توفّرت فيه القوّات الثلاث أعني المدبّرة والمغذيّة والموزّعة . فالمدبّرة هي صنف المعارف ونتيجة المدارس العامة . والمغذيّة هي التجارة والزراعة والصناعة . والموزّعة أمرها بين التلغراف والشمندفير والبوسطة والبانكة . ومن رأى سلك التلغراف وسكّة الحديد ممتدّين على الأرض صحّ له أن يجعلهما شرايين التوزيع في الهيكل الاجتماعي . وتوزيع البوسطة ليس بخاف على متدبّر كما أنّ توزيع القوى المالية اليومية إنما هي للبانكات . وجميع ذلك من غاية تيسير [10] المسير التي تحقّق بها مصداق قول الشاعر (من البسيط)

[10]

وَصَيَّرَ الأرْضَ داراً وَالوَرَى رَجُلاً ... حتّى ترى مُقْبِلاً في الناس مَقبولاَ

درّة النظر

النظر يقال على الرؤية وعلى التأول في حقائق المنظور فيه واعتبار الفكر في دقائقه وبهذا كان النظر مِنْ أعظم وجوه العبادة بالتفكر في مصنوعاته سبحانه وتعالى إذ بذلك يتوصّل الناظر إلى كمال العلم بالأسباب التي بلغت بها الأشياء إلى ما هي عليه . فاعتبروا يا أولي الأبصار في الأمر بالنظر في بدء الخلق في قوله تعالى : (فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (1)) تنبيه على النظر في مبادىء الأمور الطبيعية كالآثار المعدنية على اختلاف أصنافها وطبائعها المعينة كل الإعانة على الصنائع والمتاجر بالآلات والأدوات والمدافع والمجاذب والحفظ والحلي المعدة للزينة والاقتناء ومن فوائدها معرفة أجزاء تركبها الأصلية وتقدير

(1) القرآن : سورة العنكبوت (29) الآية : 20 .

أعمارها من أحوال الطبقات الأرضية . وكذلك الآثار النباتية المفيدة لأصول الفلاحة بمعرفة أجزاء تركيبها وتحليلها ونموّها وغذائها وتكوّنها وطبائعها وخواصّها الطبيعية والتجارية ومنسوجاتها إلى غير ذلك من فوائدها .

وكذلك الآثار الحيوانية المادّية والمعنوية المقرّرة في علوم التشريح وآثار الإنسان المنبّه عليها بقوله تعالى : (﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (1)) فالناظر في جميع ذلك يرى كيفيات الانقلابات العجيبة التي تتدرّج فيها الأشياء من حالة إلى حالة إلى أن تبلغ من المبدإ إلى الغاية . قال تعالى : (﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (2)) فمن بحث على علوم اكتشاف خروج الماء إلى ما بلغ إليه رأى مصداق (﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ (3)) .

وأمّا الآثار الصناعية فالنظر فيها من حيث يتوصّل بها إلى معرفة ما كانت عليه الأمم السالفة في تلك الصناعة مثل الكهوف المنحوتة [11] من الجبال وأبنية الأهرام والقلاع والحصون والقصور والنقوش المحفورة والبارزة على الأحجار والمعادن والجلود والأوراق والخطوط والتصاوير والكتب والتماثيل والأواني والموميا والمصنوعات العتيقة .

[11]

وحيث إن النظر في هاته الآثار بجميع أقسامها المعدنية والنباتية والحيوانية والصناعية هي أقرب طريق يفيد في تحقيق حال الأمم السالفة الذين أمرنا الله بالنظر في عواقبهم اعتنت الدولُ بإقامة معارض عمومية جلبوا إليها ما أمكنهم الحصول عليه من تلك الآثار العتيقة ، وقسموها على حسب أقسامها وتغالوا في أثمانها إلى مبالغ غير معقولة على حسب طول مدّة الشيء . وأباحوا للعموم الدخول لمحلّ جمع الغرائب المذكورة لينظر فيها العلماء ويستخرجوا منها ما يفيد الأمة وقد نتجت لهم من ذلك فوائد عظيمة .

---

(1) القرآن : سورة الذاريات (51) الآية : 21

(2) القرآن : سورة الأنبياء (21) الآية : 30

(3) القرآن : سورة الرعد (13) الآية : 4 .

وليس المراد منها مجرّد التفرّج في مصنوعات عتيقة تنقّلت الآن إلى درجات عالية أو التفرّج في أمور طبيعية رُبَّمَا تكره النفس بعض مناظرها ولكن المقصود وراء ذلك . وليست تلك المحالّ إلاّ مدارس لعلوم عتيقة يعلمها أهل العلم . وللمتفرّجين مراسح (1) ومغان يلهون بها أين شاؤوا وفي قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا(2)) تنبيه على جهات النظر وحيثياته المهمّة بالنظر إلى مقام النظر في باهر قدرة العزيز الجبّار حيث وصفهم بالقوّة وإثارة الأرضِ وعمرانها .

أما القوّة فهي القوّة الاجتماعية التي لا تحصل إلا بالانتظام والعصبية وحفظ حقوق المعاملات بين أفراد الأمّة المنبّه عليها بحديث (المؤمنون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا) . وأما إثارة الأرض فهي استخراج كنوزها من معادنها ومقاطعها وزراعتها . وأمّا عمارتها فهي بتحصينها وتمدين سكّانها وتهذيبهم بالمعارف إلى أن يصيروا إلى ما أراد الله منهم من عمران الأرض بجميع وجوه العمارة . والعدلُ إن [12] دام عمّر والظلم إن دام دمّر . فالنظر في الأرض وسكّانها يلزم من عدّة وجوه :

[12]

أولا : النظر في المواقع الجغرافية من القرب والبعد المبيّن في الجغرافية الطبيعية والنظر فيما بينها من التناسب والتغاير في المتاجر والصنائع وهيأة الأمّة في الاستعمال . وقد أفردوا لذلك علم الجغرافية التجارية وما تفيده من بيان احتياج كلّ مملكة إلى غيرها وما يصدر عنها وإحصائيات وَارِدات الممالك وصَادِرَاتها .

ثانيا : النظر في الخطوط الحربية ونسبتها من المتجاورين من التكافي أو القوة والضعف ويدخل فيه النظر في عظيم الأبنية من القلاع والحصون ولا

(1) مراسح : ج . مرسح والكلمة المستعملة اليوم هي : مسرح . ج . مسارح .
(2) القرآن : سورة الروم (30) الآية : 9 .

مانع من أن ندرج في هذا الفصل ما للدولة من المراسي والمواني في البحر وما لها من عدد المدرّعات الحربية الفاغرة أفواه مدافعها على تلك المراسي وما تحتها من زوارق الترويبدو (1) فان جميع ذلك من مشمولات التحصين .

ثالثا : الحالة العلمية وما يوجد في الأمة من الاعتناء بالعلوم وعدمه وكثرة المدارس والكتب وقلّتها وأحوال العلماء في العمل بعلومهم أو تركه لأنّ عمل العلماء يؤثّر في عامّة الأمّة إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ فللحالة العلمية وحالة العلماء أثر عظيم في أحوال الأمّة لا ينبغي للدولة إهماله .

رابعا : الحالة التاريخية الأدبية من الأخلاق والآداب الناشئة عنها والأحكام الجارية المناسبة لحال الأمّة وتحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور . وبذلك يظهر التغيير الذي يحدث بانقلاب الدول وتبدل الأحوال على الأمّة . ولا معنى لانقراض الأمّة إلا زوال آدابها وعوائدها وأحكامها .

خامسا : الحالة الاجتماعية باتّحاد الكلمة في المصلحة والانتظام في حفظ حقوق الأفراد واعتبار المزية لصاحبها وتخليد الآثار ونشرها بالتأليف وحفظ الفضلاء بالتواريخ ومساعدة أرباب الأموال بالاشتراك في طبعها على الوجه الذي تعمّ به المنفعة بحيث تكون الأمّة يدا واحدة [13] بحيث تكون الأمّة مصداق حديث : (وَتَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُدِهِمْ وَتَحَابُبِهِمْ كَالجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى لَهُ جَمِيعُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) .

[13]

سادسا : حالة المعاملة بحفظ موازين حقوقها واستخراج المعادن وصيانة النقود من الغشّ حتى تكون المكاسب مصونة عن موجبات الإضاعة . ولا شكّ أنّ الأوراق المالية التي تحت كفالة الدول المحافظة على مكاسب الأمّة وكذلك

(1) الترويبدو كذا بالنص . ولعلها : التوربيو Torpille وزوارق التوربيو هي الزوارق النسافة التي ترمي القذائف النسافة . والكلمة من الدخيل .

أوراق البنكيرات الغنية يكون لجميعها النقود وربما كان لها اعتبار زائد على النقود نظرا لخفّة حملها مع سلامتها .

ولقد أخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات فلمّا صرت لنابلي ورأيت أوراق المعاملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الأسواق بقيمتها أردت استبدال الفضة بالأوراق فلم يمكن ذلك إلا بإعطاء صرف قدره اثنان في المائة . أمّا الذهب فإنّه والأوراق سواء تستبدل أيّهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف . وأين هذا من تجارة الدولة في غشّ النقود لتحصل على ربح يضيع بسببه على الأهالي في كلّ يوم أضعافه المضاعفة ؟ (1) فمن عرف الجغرافية والتاريخ ونظر إلى الآثار أدرك سرّ الانقلابات . والله يحكم لا معقّب لحكمه .

درّة في فائدة السير والنظر ومبدأ هذا السفر

لما كان طلب النظر لأجل الاتّعاظ وهو يحصل بالنظر في أحوال عواقب جميع الأمم الصالحة والطالحة على ما صرّحت به الآيات السالفة فالناظر يستفيد لا محالة أسباب النقائص والكمالات بالاطّلاع على أحوال عواقب المفرطين والمفرّطين وبذلك يحذر أسباب الدمار وسوء العاقبة التي مبدؤها ترك الأوامر . فمهما تساهلت الأمّة في ترك الأوامر الشرعية — ولكل أمّة شريعة — إلاّ انتشر فيهم ترك العمل وَسُلِبَ مِنْهُمُ الأَمَلُ فصاروا إلى ما صار إليه الغابرون الذين جعلهم [14] الله موعظة لقوم يعقلون وحينئذ فالناظر يتحرّى [14]

(1) كان الشيخ محمد السنوسي يستنكر بهذا الاستفهام سلوك ملوك الاطلاق كالمشيرين أحمد باي (1837—1855) ومحمد باي (1855—1859) في مسألة غش النقود . فأحمد باي ظهر له سنة 1847/1263 أن يطبع من الفضة سكة خالصة ويضرب قطعا من النحاس للاستعانة بها في كسور الريال الا أنه حابى نفسه في الربح ضد ما فعل في سكة الفضة . أما محمد باي فانه أمر سنة 1856/1272 بضرب سكة من الذهب ... الا أنه أجحف فيها وحابى الدولة بالربح . (انظر : ابن أبي الضياف : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان . تونس 1963 . ج 4 ص : 113—114 و201) .

علم الأسباب الموصلة إلى ما بلغت به الأمم إلى العزّ والشرف ولا عزّ إلا بثروة ولا ثروة إلا بأمن ولا أمن إلا بعدل والله لا يحبّ الظالمين . فالأمّة تنمو وتتمكن بالمحافظة على العدل وإن شئت قُلْتَ : ملاك عزّ الأمّة هو المحافظة على الأوامر والله يأمر بالعدل والإحسان . وأعظم بهذا فائدة لمن سلك من الأرض سبيلا فجاجا بعد استفادته ما يزيده علما في معرفة الله تعالى . ثم هو مع ذلك يقف على أحوال الدول ونسبتها من بعضها ويرى ارتباط جميعها في البوسطة كيف قام بجميع الأفراد والعموم وكذلك الارتباط التلغرافي .

وأما سكّة الحديد فهي رابطة المملكة بأعضائها حتّى إن الجهات التي لم تتّصل بسكّة الحديد هي في حيّز العدم من المملكة الأصلية . ويرى المواقع الحربية والدفاعية ويعلم لسهولة السير وصعوبته بحسب أحوال الطرق وتسويتها بكلّ ما يقيها الفساد وخرق الجبال بالتونيل (1) ومدّ الجسور على الأنهر للمرور على الطريق الأقرب إلى غير ذلك مما تختلف به الجهات والمراكب . ويشاهد مواقع الحذر ومهام الدفع وبذلك يحصل على حفظ موازنة الممالك ويستفيد أخلاق الأمّة وما تميل إليه ويتعلّم تجارة كلّ قوم ومنافعهم . ويرى اكتشاف المقاطع والمعادن ويتحقق الثروة والفاقة واحتياج الأمّة إلى غيرها في مَاذَا . ويعلم تحسين الصنائع وآلاتها وتحسين المزارع وخواصّها الكيماوية والصيدلية وتحسين الطرق بالأجنّة وتحسين الهواء بالأشجار وتنوير البلاد . ويتحرّى وظائف الطلب في كلّ ما يلزم طلبه . ويحصل من جميع ذلك على علم جديد وتصحيح أوهام كانت فاسدة ويزداد يقينا في معرفة الله وتحقّقا لآثار نعمته ويحفظ من ذلك فوائد طبيعية . ويرى تيسّر سبيل الاختراع وكيفية استعمال عدد كثير من الأمّة في العلم والحفظ وإقامة شعائر الدين [15] بالجوامع والمساجد والمكاتب والمدارس وذلك هو روح الحياة فيها ووقاية عدد من الفاقة والمرض بالجمعيات الخيرية وإعانة الجرحى والمزلزلين وسائر

[15]

---

(1) التونيل : كلمة دخيلة ومعناها : النفق . (Tunnel)

المصابين وإقامة التكايا المعدّة لإطعام العجّز والمستشفيات وديار حفظ المواليد وطريق أمن الهيأة من الغوائل الداخلية والخارجية . فالأوّل بكبح أيــدي الظلمة وإقامة الحدود والأحكام بالسوية . والثاني بحفظ القوّة الحربية والسياسية والماليــة .

وإذا تجرّد المسافر عن الأغراض رأى من كلّ أمّة أسباب نفعها وضرّهــا فهو يختار لنفسه ما يحلو . وبهذه الفوائد يظهر لك سرّ مزيّة السياحة التي تفيد علوما بالمشاهدة ربّما لم يصل إليها المعمّرون من الشيوخ . وصحّ أنّ توسعة ظرف المكان بالسفر بمثابة طول الحياة المستفاد من سعة ظرف الزمن .

ومصلحة الأمم المتسابقة للعمران بالسياحين والاكتشافات أظهر من أن تخفى. فهم المترجمون عن أحوال الجهات و اثارها ترجمة ناشئة عن مشاهدة . نعم لكل أمّة آداب وعوائد تختصّ بها لا تترجّح بها على غيرها إلا إذا كانت مضرّة بغيرها من حيث تنفعها هي بحسب طبيعة الأرض أو موقعها .

وقد اتّفق لي بعد إيّابي من هذا السفر أنّ المكلّف بالمعارف العمومية بتونس (1) سألني عمّا استحسنته واستقبحته من عوائد الجهات التي رأيتها ، فقلت له :

« قد استفدت أنّ كلّ عادة صالحة بأهلها لا يسوغ لغيرهم إنكارها لأني رأيت من الترك والهنود والأفغانيين وأهل جاوة والمغاربة والأورباويين من تباين العوائد ما نكرته عادتي أوّلا وبالمخالطة صرت أستحسن ما أنكرت

(1) لما أسست بتونس ادارة العلوم و المعارف في 28 جمادى الثانية 6/1300 ماي 1883 سمي مديرا لها لويس ماشويل الذي استقدمته إلى تونس وزارة التربية القومية الفرنسية من مدينة وهران بالجزائر حيث كان يدرس اللغة العربية . وكان قدومه إلى تونس في فيفري 1883 . والملاحظ أن ماشويل كان وجه رسالة إلى الشيخ محمد السنوسي في 22 جمادى الأولى 1302/مارس 1885 في شكره على خطاب صدر منه لأحد معلمي المدارس التونسية . وقد نشرت ادارة المعارف بتونس ذلك الخطاب في الرائد التونسي في 12 جمادى الاولى 1302/مارس 1885 . (راجع : الرحلة الحجازية ، ج 2 ، ص 157–161 . راجع أيضا : M. Bompard, *Législation de la Tunisie*. Paris 1888, p. 146

أوّلاً . والإنسان ابن عادته لا ينبغي له إنكار عادة غيره بعادته المنكرة عند غيره » .

فصدّق مقالي واستحسن تفصيلي وإجمالي . ولا يخفى أنّ كلّ إنسان لعادته أميل كما أنّه لوطنه أميل .

وعلى ذكر الميل للوطن قلت عندما دُعيتُ في أثناء السفر للإقامة ببعض البلاد [16] : (من الطويل)

[16]

وَرُبَّ فَتًى عَنْ حُبِّ تُونُسَ لاَئِمِي
يُرَاوِدُنِي عَنْ تَرْكِ أَرْضِي فِي الْحَالِ

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا بَنُوهَا وَلَمْ نَجِدْ
بَدِيلاً بِهَا فِي كُلِّ حَالٍ وَتِرْحَالِ

وَأَيُّ فَتًى يَرْضَى بَدِيلاً بِأُمِّهِ
عَلَى أَنَّهَا ذَاتُ السِّوَارِ وَخَلْخَالِ

ولا غرو أن رشح اليراع بقول مونس ، في وصف تونس ، الموصوفة بالخضراء ، المشهورة الذكر بلا مراء معتدلة الهواء ، عذبة الماء ، جيّدة التراب ، ليس على محاسن فصولها من حجاب ، ربيعها شباب الزمان ، ومنبت الأزهار المختلجة الألوان ، ومصيفها موسم الحصاد ، ومنزه الخلاعة ومرتع الجياد ، وخريفها مزرع الزارعين ، ومسقى الدّمَنِ على خير المناهل من الكارعين ، وشتاؤها موسم الزيت والزيتون ، تتفنّن فيه التجارة إلى فنون ، وجميع فصولها مُعَنَاة معلودة للتعليم في الجوامع القائمة الشعائر على الوجه المستقيم والمكاتب والمدارس ، التي هي منبت البارعين من الفوارس ، وعلماؤها لهم شهرة الذكر ، الذي أورثهم مزيد الشكر ، وتآليفهم معروفة بالتحقيق والتحرير ، ثم يقتنيها كلّ عالم نحرير ، لولا ما في نفوس كثير منهم رضي الله عنهم من البخل بالكتاب ، وإبقائه في زوايا الإهمال لمجرّد الانفراد والإعجاب ، إلى أن تلاشت من ذلك كتب كثيرة ووضعت بعد الرفع ، ولم يحصل بها لمؤلفيها شيء من النفع ، فرحم الله من ألّف

وسمح * ومن ساعد على بذل كتاب أوقعه الدهر في يده عندما سنح * ويغفر الله لمن أمسك ما بيده * وقطع من مؤلفه أو جامعه نفع مادده * .

أما صناعة التدريس فهي والمنّة لله في المقام النفيس من التحقيق والتدقيق وانتهاج أعجب طريق لولا ما فيها من الإطالة ولو في كتب المبادىء مع الوقوف عند علوم معلومة تترك تجاوزها غير باد . ومعظمها من النحو الذي منزلته من الكلام منزلة الملح [17] من الطعام . استغفر الله انّ للعلوم الشرعية فيه لمجالا يسلكه الرجال وإنّ للعلوم العقلية من المنطق والبيان لمعهدا لا يختلف في كماله اثنان وانّ للفحول فيه لجولة في ميادين الإفهام برزوا بها عمّن سواهم من الأعلام وليس لمجرّد الحفظ عندهم من مقام يحشر به صاحبه مع الاعلام والاعتبار إنما هو لإدراك غوامض المسائل والتنبّه لمغزى كل سائل ولجولتهم في ميادين النظر مقام معتبر لا ينكر الا بعمى البصيرة والبصر .

[17]

أمّا الأدب فرياضة قد أفرعت (1) في البلاد التونسية وكُسِيَتْ من آثار أدبائها بالحلل السندسية (2) . ولهم في ذلك يد تضرب بسهم مصيب وأثر ربّما أربى على أفراد الأندلس بأوفر نصيب لولا كساد سوقه في هذا الزمان لالتحاق كثير ممّن بيدهم رواجها بالحيوان سيّما وقد كدّر صفوه ورود طائفة قلّما يخلو الدهر من مثلهم فوقفوا فيه معلنين بجهلهم ولكن فضل الافراد لا يشينه ذلك الاستطراد . ولم يزل الواردون إليها من سائر الأصقاع يرون آثار فضائلهم كالنار على يفاع (3) وقد كان ورد إليها مفتي بلد طرابلس الغرب ونال من فضلائها مزيد القرب في ربيع الأنور سنة ثمان

---

(1) أفرع الشيء : طال وعلا .

(2) الحلل السندسية : هنا اشارة إلى تأليف محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج وهو كتاب الحلل السندسية في الاخبار التونسية (تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة. الدار التونسية للنشر 1970) .

(3) اليفاع : التل المشرف أو كل ما ارتفع من الأرض . ج : يفوع .

وتسعين (1) فنظم مزدوجة (2) أوردني وردها المعين نثبتها مع ما أجبته بـه وبالله نستعين ، قال : (من الرجز)

حَمْداً لِمَنْ مَيَّزَ أَهْلَ الفَضْلِ   بِمَا حَبَاهُمْ مِنْ تُقًى وَعَدْلِ
وَجَعَلَ الصِّدْقَ خِيَارَ القَوْلِ   تَنَزَّهَتْ أَقْوَالُهُ عَنْ مَيْلِ
بِهِ أَقُولُ مُنْبِئاً عَنْ قَصْدِي

لَمَّا قَدِمْتُ تُونُسَ البَهِيَّةَ   فِي رَاحَةٍ وَسَاعَةٍ هَنِيَّة
رَأَيْتُ فِيهَا أَنْفُساً زَكِيَّةً   ذَوِي عُلُومٍ وَذَوِي رَوِيَّه
يُزَادُ فِيهِمِ عِنْدَ ذَاكَ وَجْدِي

[18] رَأَيْتُهُم فِي فَلَكِ المَعَالِي   يرقونَ مِنْهُ كُلَّ بُرجٍ عالِي
كَالشَّمْسِ دَائِماً عَلَى التَّوَالِي   يَنْتَقِلُونَ فِي ذُرَى الكَمَالِ
لَهُم مزَايا ما لها مِن عدّ

قَدْ وَقَفُوا لِنُصرَةِ الشَّرِيعَةِ   وَأَيَّدُوا بِحُجَجٍ مَنِيعَة
فَيَالَهَا مِن نِعْمَةٍ وَسِيعَة   لَيْسَ لِغَيْرِهِم لَهَا ذَرِيعَة
أُولَئِكَ السَّادَةُ أَهْلُ الحَمْدِ

لَهُمْ مِنَ الهِمَمِ أَعْلَى هِمَّة   أَكْرِمْ بِهِمْ مِنْ سَادَةٍ أَئِمَّة
فَفَاقُوا بِفَضْلِهِمْ جَمِيعَ الأُمَّة   نُجْلِي بِهِمْ عَنِ القُلُوبِ الغُمَّة
حَازَتْ بِهِمْ تُونُسُ كُلَّ سَعْدِ

وُجُوهُهُمْ فِي حُسْنِهَا بُدُورُ   وَفِي المَجَالِسِ هُمُ الصُّدُورُ
تَعْلُوهُمُ مَهَابَةٌ وَنُورُ   وَسَبْقُهُمْ لِغَيْرِهِمْ مَشْهُورُ
أُعِيذُهُمْ مِنْ حَاسِدٍ وَضِدِّ

(1) يوافق : فيفري 1881 .
(2) يلاحظ في هذا القصيد أن فيه استعمال المزدوج وفيه يعتمد الشاعر على تصريع أبيات القصيدة جميعا وأيسر ما يكون ذلك في الاراجيز ... والقافية في المزدوج تفصل بين شطر وشطر ... وقد يكون المزدوج مثلثا أو مربعا أو مخمسا أو مسلسا ويعرف في جميع الاحوال بالمشطر (انظر : صفاء خلوصي. فن التقطيع الشعري والقافية، بيروت 1966، ص : 288–289).

وَسَادَةٌ مِنْ أُمَرَا وَكَتَبَة قَدْ أَحْرَزُوا مُسَابِقِين الْقَصَبَة
ما تَرَكُوا لِغَيْرِهِمْ مِنْ مَنْقَبَة وَقَدْ رَقُوا فِي الخَيْرِ أَعْلَى مَنْقَبَة
بِدَوْلَةٍ سَعِيدَةٍ وَجُنْدِ

لَهُمْ سِيَاسَةٌ وَرَأْيٌ ثَاقِبٌ قَدْ نُزِّهُوا عن جُمْلَةِ المَعَائِبِ
وَالحَزْمُ دَائِمًا لَهُمْ يُصَاحِبُ رَأْيُهُمُ الثَّبَاتُ فِي النَّوَائِبِ
فَاقُوا وَسَادُوا بِالْهُدَى وَالرُّشْدِ

سَادُوا الْوَرَى بِقُوَّةِ الدِّرَايَةِ وَجَوْدَةِ التَّعْبِيرِ وَالرِّوَايَةِ
رَايَاتُهُمْ تَسْبُقُ كُلَّ رَايَةِ قَد بَلَغُوا فِي الفضل أقصى غَايَةِ
وَقَاهُمُ اللَّهُ المُعِيدُ المُبْدِي

[19] قَدْ أَحْرَزَتْ بِلادُهُمْ جَمَالاً وَقَدْ حَوَتْ فِي شَكْلِهَا كَمَالا
بِنَاؤُهَا بَيْنَ الْبِنَا تَعَالَى وَحَازَ لُطْفًا وَبِهِ تَغَالَى
وَقَدْ رَقَى فِي الْحُسْنِ أَعْلَى حَدِّ

طُرُقُهَا وَاسِعَةٌ نَظِيفَةٌ قَدْ أُصْلِحَتْ فَرَجَعَتْ ظَرِيفَةْ
يَمْشِي بِهَا الماشِي بِدُونِ خِيفَةْ مِيَاهُهَا تَجْرِي عَلَى الصحِيفَةْ
مَعَ انْحِدَارٍ عِنْدَ صَوْتِ الرعْدِ

وَأُجْرِيَتْ بِهَا عُيُونُ مَاءٍ مِنْ عَيْنِ زَغْوَانَ بِلاَ خَفَاءِ
لَذِيذَةٌ تُزِيلُ كُلَّ دَاءِ مِنْ نِعَمِ المَوْلَى بِلاَ امْتِرَاءِ
أَحْسِنْ بِهَا مِنْ نِعْمَةٍ وَرِفْدِ

جَنَّاتُهَا من كلِّ حُسْنٍ جَمَعَتْ وَشُيِّدَتْ قُصُورُهَا وَوُطِّدَتْ
وَزُيِّنَتْ أَشْكَالُهَا وَزُخْرِفَتْ وَرُتِّبَتْ أَزْهَارُهَا وَنُظِّمَتْ
مِنْ نَرْجَسٍ وَمِنْ حِسَانِ الوَرْدِ

وَمِنْ مُحَسَّنَاتِهَا المَصُونَةِ جَامِعُهَا المَعْرُوفُ بِالزيتُونَةِ
مُشَيَّدًا بِدَاخِلِ الْمَدِينَةِ مُزَيَّنًا بِكُتْبِهِ الْمَتِينَةِ
نُجُومُهُ السَّادَةُ أَهْلُ النَّقْدِ

قَدْ عَمَّرُوهُ بِالْفُنُون النَّافعَة   وَنَوَّرُوهُ بِالْعُلُوم السَّاطعَة
حُجَجُهُمْ في كُلّ فَنّ لاَمعَةٌ   حَجُّوا بها الخَصْمَ لدى المُدَافعة
هُمُ الرِّجَالُ قَدْ سَمَوا في المَجْدِ

قُلْ مَا تَشَاءُ فيهِمْ منْ مَدْحِ   وَاصْدَعْ بِهِ وَلاَ تَخفْ من قَدْحِ
وَاسْأَلْهُمُ طُرّاً جَمِيلَ الصفْحِ   عَنِ القُصُورِ في مَقَامِ الشَّرْحِ
هُمُ الكِرَامُ دامَ فِيهِمْ وِدِّي

[20]

تَقْرِيرُهُمْ أَشْهَرُ مِنَ المُدَامَة   فَصَاحَةُ القَولِ لَهمُ عَلاَمَة
أَدَامَ رَبِّي لَهُمُ السَّلاَمَة   مَا صَدَحَتْ في غُصْنِهَا حَمَامَة
وَلاَحَ فِي السَّمَاءِ نَجْمُ السَّعْدِ

وقد أجبته عن ذلك بقولي : (من الرجز)

قَدْ عَطَّرَتْ أرْجَاءَنَا بِالنَّدّ   خُودٌ بَدَتْ مَا ان لهَا من قَدّ
زَارَتْ وَلَمْ تُخْلِفْ لنَا من وَعد   وَأَطْلَعَتْ إِشْرَاقَ نَجْمِ السَّعْدِ
في تُونِسَ مِنْ بعْدِ طُولِ البُعْدِ

وَافَتْ لَنَا بِحُلَلِ البَهَاءِ   رَافِلَةٌ مُشْرِقَةَ السَّنَاءِ
مَصُونَةٌ صِيَانَةَ العَذْرَاءِ   تَرْمُقُهَا العُيُونُ بِاعْتِنَاءِ
فَتُبْصِرُ العِقْدَ جَمِيلَ النَّضْدِ

يَحَارُ فِي جَمَالِهَا اللَّبِيبُ   وَيَنْتَقِي إِنْشَادَهَا الأَدِيبُ
وَكُلُّ مَنْ قَرَضَهَا يُصِيبُ   إِذْ أَنَّهَا أَنْشَأَهَا حَبِيبُ
يُعْرِبُ فِيهَا عَنْ كَمَالِ الوِدِّ

تَطْبَعُ فِي مِرْآتِهَا الوَضِيَّة   مَحَاسِنًا مِنْ تُونِسَ البَهِيَّة
قَدْ أَبْصَرَتْهَا عَيْنُهُ الرَضِيَّة   إِذْ نَفْسُهُ عَلَى الرِّضَا مَطْوِيَّة
لَيْسَ يَرَى غَيْرَ جَمِيلِ العَهْدِ

أَكْرِمْ بِهِ مِنْ عَالِمٍ نَبِيهِ   رَأَى الكَمَالَ وَهْوَ مِنْ ذَوِيهِ
لِذَاكَ أَبْدَاهُ بِهَا مِنْ فِيهِ   يخرج مِنْ دُرّ لِمُصْطَفِيهِ
يُزْرِي بِكُلّ لُؤْلُؤٍ فِي عِقْدِ

يَجْلُو لَنَا بِمَدْحِهِ النَّفَائِس تَخْتَالُ بَيْنَ النَّاسِ كَالعَرَائِس
[21] وَكُلَّمَا رَنَتْ بِطَرْفٍ نَاعِس تَهْتَزُّ مِنْ فِعَالِهِ القَلاَنِس
نُعِيذُهَا بِاسْمِ الإِلَهِ الفَرْدِ

تَشْدُو لَنَا بِصَوْتِهَا الرَّخِيمِ فَتَسْلُبُ اللبَّ مِنَ النَّدِيمِ
إِذْ يَغْتَدِي مُعَطَّرَ الشَّمِيمِ مُشْفِقًا بِدُرِّهَا النَّظِيمِ
لِمَا تُرِيهِ مِنْ عَزِيزِ القَصْدِ

وَهْيَ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِالخَصْلِ فِي السَّبْقِ إِذْ جَادَتْ بِحُسْنِ الوَصْلِ
وَعَرَضَتْ فِي حَمْدِهَا بِالقَوْلِ حَمْدًا لِمَنْ مَيَّزَ أَهْلَ الفَضْلِ
وَمِنْهُمُ مُنْشِئُهَا ذُو المَجْدِ

قَدْ أَنْبَأَتْ بِغَايَةِ التَّوْضِيحِ عَنْ مَقُولٍ مِنْ أَبْدَعِ الفَصِيحِ
إِنَّ أَبَاهَا ذَو النُّهَى الرَّجِيحِ حَائِزُ خَصْلَ السَّبقِ فِي المَدِيحِ (1)
بِهِ يُسَرَّى لَهُ حُسْنُ الرِّفْدِ

مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ عِلْمٍ رَاسِخٌ وَهْوَ لَهُ ذَاكَ الكَمَالُ البَاذِخ
يُجِيبُ إِنْ نَادَى إِلَيْهِ الصَّارِخُ بِشَمْسِ فِكْرٍ لِلضَّلاَلِ نَاسِخ
وَلَيْسَ يُبْقِي شُبْهَةً لِلنَّقْدِ

وَإِنَّهُ الإِبَّةُ فِي حُسْنِ الوَفَا لِمَ لاَ وَذَا مُحَمَّدُ بْنُ مصطفى
مُفْتِي الأَنَامِ مِنْ خِيَارِ الحُنَفَا يَبْرِي بِحُسْنِ الرَّأْيِ مِنْهُ مَا خَفِي
فَيَغْتَدِي مِنْهُ صَحِيحُ الحَمْدِ

لِلَّهِ مَا أَبْدَى لَنَا مِنَ البَهَا إِذْ أَنَّهُ اسْتَلَذَّهُ أَهْلُ النُّهَى
فَهْوَ الجَدِيرُ بِالثَّنَاءِ المُشْتَهَى لأَنَّهُ كُلُّ عُلاً لَهُ انْتَهَى
لاَ زَالَ فِي حِفْظِ المُعِيدِ المُبْدِي

---

(1) الخصل : اصابة الغرض . الخطر الذي يخاطر عليه في النضال . ما يتقامر عليه . يقال : أحرز خصله وأصاب خصله : أي غلب . ج . خصول .

ولما استحسن الجواب ارتجل في مخاطبتي قوله : (من الرجز)

ذي تُحْفَةٌ جاءَتْ منَ الأنيسِ   مُحَمَّدِ الْمَعْرُوفِ بالسَّنوسِي [22]

بَنَاتُ فِكْرٍ مِنْهُ كَالشُّمُوسِ   تَزْهُو بِمَا حَوَتْ منَ التَّأْنِيسِ

لِلضَيْفِ مَعَ تَقْصِيرِهِ فِي الحَمْدِ

فَقُلْتُ طِبْتَ يَا شَقِيقَ الرُّوحِ   وَطَابَ مِنْكَ النَّظْمُ في المَدِيحِ

وَسُدْتَ كُلَّ سَيِّدٍ فَصِيحِ   يُلاَحِظُ الأَحْوَالَ مَعَ تَوْضِيحِ

لاَ زِلْتَ تَسْمُو فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ

وبما أنّ حبّ الوطن من الإيمان ومزية السفر لا ينكرها إنسان ، فإني لما فرغت من شغل إنشاء الرائد (1) تشوفت لأن نرد من السفر أعذب الموارد وتطلّبت الاستراحة بنوع من السياحة . فما كان من الدولة أوّلا إلاّ منعي . من غير إنكار لصنعي . فتأخّرت إلى اقتبال موسم الحجّ الشريف ، وأخذت سراحا من الدولة بدون تعنيف .

وجمعت أمري وأزمعت السفر على ما ندري وتجدّدت لي أشواق عذبة المذاق نرتجي معها الوصول إلى الحرم المكّي والبلد الأمين للتنعّم بزيارة خير المرسلين . وقد كنت ليلة عرفات من عام ثمان وثمانين (2) نظمت قصيدة جاريت بها القاضي عياض (3) في الاشتياق إلى سيّد المرسلين تنبىء عمّا انطوى عليه الفؤاد من الشوق لخير العباد وهي قولي : (من الكامل)

شَوْقِي يَسُوقُ تَصَعُّدَ الزفَرَاتِ   لِحِمَى فُؤَادٍ مُوقَدِ الْجَمَرَاتِ

قد شَفَّهُ أَلَمُ الجَوَى حتى اكتوَى   بِلَظَى حَمِيمٍ طَمَّ بِالعَبَرَاتِ

(1) في 5 رجب 3/1298 جوان 1881 . والملاحظ أن صحيفة الرائد التونسي تأسست في غرة محرم 9/1278 جويلية 1861 وأن الشيخ محمد السنوسي ابتدأ العمل بالرائد في 5 شعبان 26/1293 أوت 1876. (راجع : Chenoufi Moncef, *Le problème des origines de l'imprimerie et la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la renaissance « Nāhḍa » 1847-1883*, thèse dactylographiée (Bibl. Sorbonne, W. 1970 (35), 4°) p. 501.

(2) يوافق ؛ 19 فيفري 1872 .

(3) انظر أسفله صفحة : 174 .

فَأَفَاضَ بَحْرَ مَدَامِعٍ مِن مُقْلَتِي   مُتَصَبِّبًا حَدَرًا عَلَى الوُجُنَاتِ
شَوْقًا لِطِيبِ الطَّيِّبَاتِ بِطِيبَةَ   طَابَتْ بِمَضْجَعِ سَيِّدِ السَّادَاتِ
خَيْرِ البَرِيَّةِ أَحْمَدَ الهَادِي الَّذِي   عَمَّ الفَضَاءَ بِالفَضْلِ وَالبَرَكَاتِ
أَصْلِ الوُجُودِ وَمَنْبَعِ الأَسْرَارِ مَنْ   قَدْ خُصَّ بِالقُرْآنِ وَالآيَاتِ
[23] فَيْضِ الشَّرِيعَةِ بَحْرِ كُلِّ مَعَارِفٍ   ذُخْرِ الإِلَهِ لِخَائِضِ الزَّلَّاتِ
حَامِي ذِمَارَ الدِّينِ مُظْهِرِ سِرِّهِ   وَمُجَمِّعِ الأَدْيَانِ بَعْدَ شَتَاتِ
نُورِ الهِدَايَةِ قُطْبِ دَائِرَةِ الوُجُـــودِ المُلْتَجَا الحَامِي مِنَ الآفَاتِ
أَوَمَا اصْطَفَاهُ اللَّهُ خَاتِمَ رُسْلِهِ   وَأَمَدَّهُ بِالفَضْلِ فِي العَرَصَاتِ
طَمَسَ الضَّلَالَ بِنُورِ تِلْكَ المُعْجِزَا   تِ البَاهِرَاتِ خَوَارِقِ العَادَاتِ
وَسَرَى بِهِ جِبْرِيلُ مُخْتَرِقًا بِهِ   سَبْعَ الطِّبَاقِ فَطَافَ كُلَّ جِهَاتِ
حَتَّى دَنَا مِنْ رَبِّهِ وَرَأَى مَعَا   لِمَ سِرِّهِ فِي أَرْفَعِ الحَضَرَاتِ
مَاذَا أَقُولُ وَذَاكَ ذُو الخُلُقِ العَظِـــيمِ المُرْتَقِي لِأَبَاعِدِ الغَايَاتِ
وَهُوَ الَّذِي لَبِسَ الرِّسَالَةَ حُلَّةً   وَاخْتَالَ فِي حُلَلٍ مِنَ الطَّاعَاتِ
وَتَدَرَّجَ العَلْيَا وَدَاسَ مَطَالِعَ الـــأَفْلَاكِ حِينَ رَقَى إِلَى القُرُبَاتِ
مَنْ لِي بِزَوْرَةِ رَوْضَةٍ قَدْ حَلَّهَا   فَغَدَا بِهَا كَالبَدْرِ فِي الهَالَاتِ
فَأُبَرِّدَ الأَحْشَاءَ مِنْ لَوْعَاتِهَا   وَأُنَعِّمَ الأَحْدَاقَ بِالنَّظَرَاتِ
وَأَفُوزَ مِنْ نَيْلِ المُرَادِ تَوَسُّلًا   بِجَنَابِهِ وَالصَّحْبِ وَالزَّوْجَاتِ
وَأَقُولُ يَا رَبَّ البَرِيَّةِ إِنَّنِي   يَمَّمْتُ فَضْلَكَ رَاجِيًا لِنَجَاتِي
وَرَجَوْتُ ذَاكَ بِالنَّبِيِّ المُصْطَفَى   خَيْرِ الوَرَى المَرْجُوِّ لِلأَزَمَاتِ
لَا سِيَّمَا فِي لَيْلَةٍ جَمَعَتْ بِهَا   سُعَدَاءَ خَلْقِكَ فِي ذُرَى عَرَفَاتِ
وَأَنَا الَّذِي قَدْ أَثْقَلَتْهُ مَوَانِعُ   مِنْ ذَنْبِهِ بِتَرَاكُمِ الشَّهَوَاتِ
فَامْنُنْ عَلَيَّ بِزَوْرَةٍ تَمْحُو بِهَا   ذَنْبَ المَشُوقِ لِذَلِكَ المِيقَاتِ
وَأَنِلْنِي الآمَالَ بِالمُخْتَارِ خَيْرِ   الخَلْقِ بِبَابِ مَسَالِكِ الجَنَّاتِ
وَأَعِذْ بِذَا عِرْضِي مِنَ الحُسَّادِ   وَالسُّفَهَاءِ وَكُلِّ رَذِيلِ طَبْعٍ عَاتِ
وَاحْرِقْ كُبُودَهُمُ بِقَيْظِ الغَيْظِ لَا   يُطْفَى لَهُمْ بِمُجَرَّدِ الحَسَرَاتِ
[24] وَأَدِمْ صَلَاتَكَ وَالسَّلَامَ عَلَى الَّذِي   يُرْجَى لِيَوْمِ الحَشْرِ وَالكُرُبَاتِ /
مَا حَنَّ ذُو شَوْقٍ لِطِيبَةَ قَائِلًا   شَوْقِي يَسُوقُ تَصَعُّدَ الزَّفَرَاتِ

ولمّا أتممت استعدادي ولم نتّخذ غير التوكّل على الله زادي خرجت من جبل المنار إلى حلق الوادي بعد أن بلغت من الزيارات غاية مرادي فوجدت هنالك وَفْدَ الأحباب مشيّعين لم يتخلّف منهم أحد من البارعين سوى أنّ الأستاذ أبا حاجب (1) عاقته شدة مرض حفيده فكتب إلي من درّه بمفيده :

(من البسيط)

يَا مُزْمِعَ الارْتِحَالِ عَنَّا	أَسْعَدَكَ اللّهُ فِي ارْتِحَالِكَ
كَانَ لَكَ اللَّهُ خَيْرَ وَاقٍ	أَمَّنَكَ اللَّهُ فِي المَسَالِكِ

بعد تحيّة التشييع والأدعية اللائقة بحال التوديع فإني أستودع الله تعالى دينك وأمانتك وخواتم عملك وهو المسؤول أن يحفظك حيثما كنت ويحرسك بجنود لطفه أينما توجّهت وقد كدّرني لا كدّر الله صفوك عدم مصادفتي لملاقاتكم الشريفة وقد كنت عازما على مقابلتكم ساعة السفر بحلق الوادي واتّفقت في ذلك مع ودود الجميع الشيخ سيدي أحمد فعاقني عن التشرّف بذلك تزايد مرض حفيدي نظر الله إليه بعين رأفته ولطفه ، فالمرغوب أن تقبلوا عذري في ذلك ، سلك الله بكم أقوم المسالك ، كما نرغب إنهاء التحية الشفاهية إلى كلّ من تتأنّسون بملاقاته من الأحبّة والسلام من الداعي بحفظكم : سالم بوحاجب كاتبه في 6 رجب سنة 1299 (2) .

وقد تأخّر السفر في هذا اليوم لتأخّر الفابور فأقمت تلك الليلة بحلق الوادي ، وفي يوم الخميس الثامن من رجب (3) ركبنا الفابور المسمّى : لبرنس دي نابلي (4) وهو فابور بوسطة يسافر بعد كل نصف شهر وكان

(1) انظر أسفله صفحة 29 ، تعليق 3 .

(2) يوافق 23 ماي 1882 .

(3) يوافق 25 ماي 1882 .

(4) Prince de Napoli

البحر يومئذ في غاية السكون والفابور يخرق البحر بمسيره فقلت : (من الكامل) [25] [25]

لِمَسِيرِ فُلْكِ البَحْرِ آياتٌ تُرَى	بَهَرَتْ بِأَعْجَبِ قُدْرَةٍ بين الوَرَى
بَيْنَ الرِّياحِ وَمَاءِ بَحْرٍ أُجِّجَتْ	نَارٌ وَسَيْرُ الفُلْكِ مِنْهَا سُخِّرَا
وَمُسَخِّرُ الكُلِّ الإِلَهُ بِأَمْرِهِ	سُبْحَانَهُ لِجَمِيعِهَا قَدْ يَسَّرَا

وحيث إنّ هذا أوّل ركوب لي في البحر وجاءت من دواره ما لم أعهده . وهذا الدوار البحري قد عجز الأطباء عن إيجاد دواء له سوى أنّ بعضهم عيّن وجها باستنشاق الهواء عند ارتفاع السفينة وإخراجه عند هبوطها . فإذا فعل المسافر ذلك عند أوّل دخوله للسفينة لا يلبث حتّى يعتاد عليه ويصير يمارسه بلا تكلّف .

وقد لا يكون للراكب غنى عن استفراغ الصفراء أمّا أنا فلم نستعمل إلاّ ملازمة السكون . ومن عجيب أمر الدوار البحري سرعة زواله بمجرّد وقوف السفينة أو نزول الراكب حتّى لا يبقى له أثر . وقد قضيت في هذا الركوب ليلتين ويومًا (1) وأصبحنا في اليوم الثاني بين جزر إيطاليا نجتلي منظر البركان . ونستقبل النزول إلى أفرج مكان فنزلنا أحسن النزول ورأينا أثر سكّان تلك السهول .

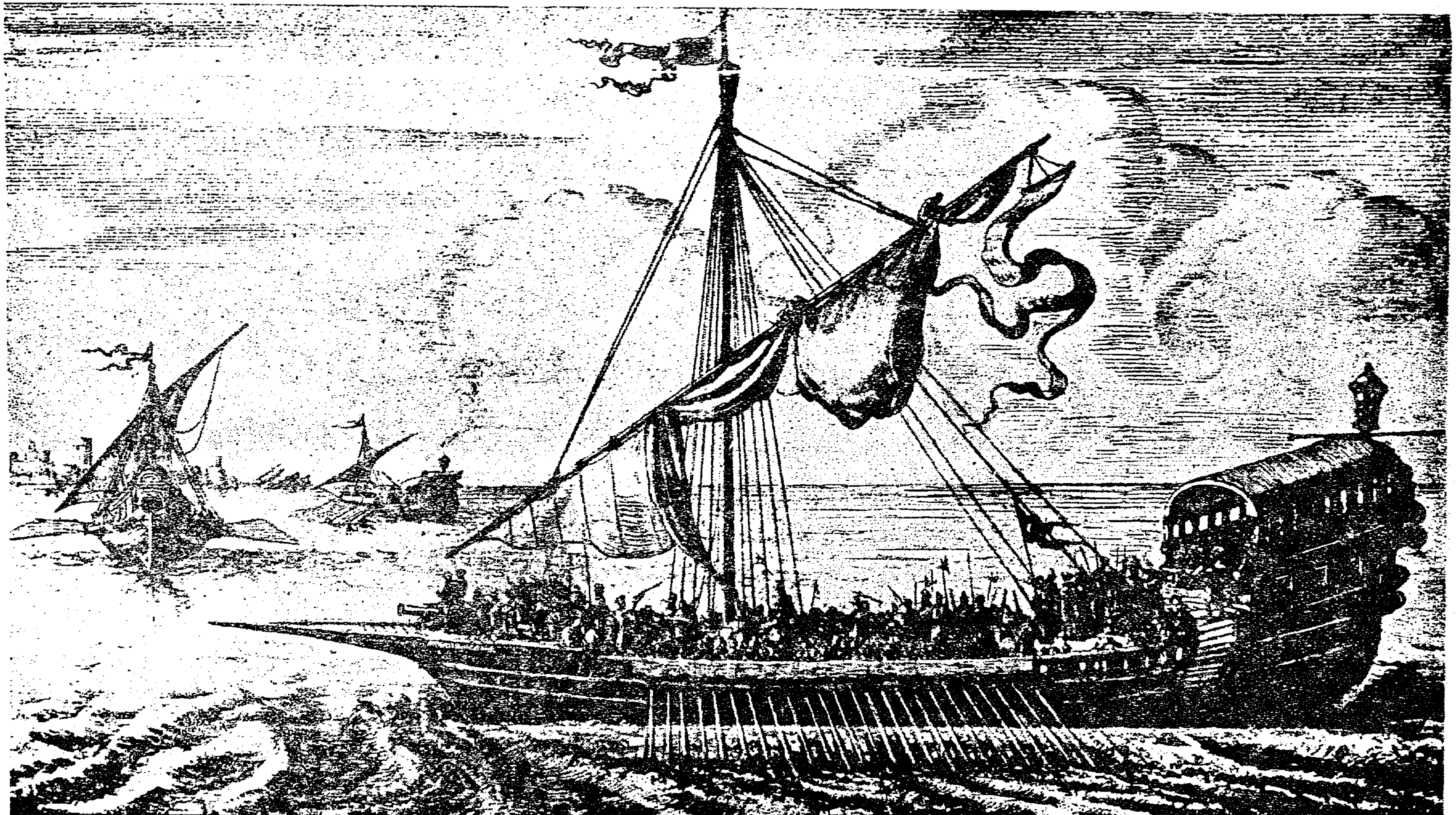
(1) بالأصل : ويوم .



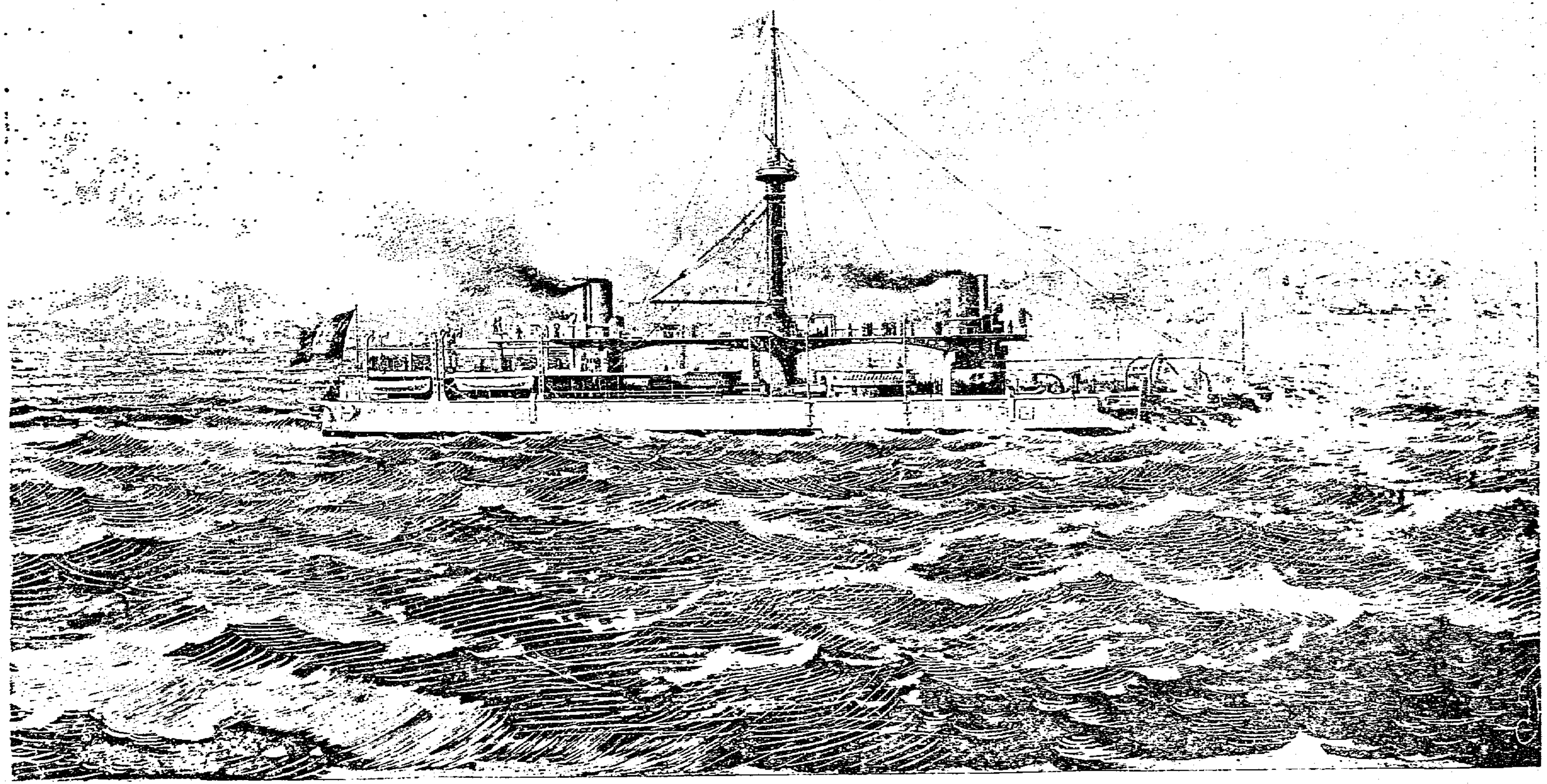
سفينة عربية قديمة



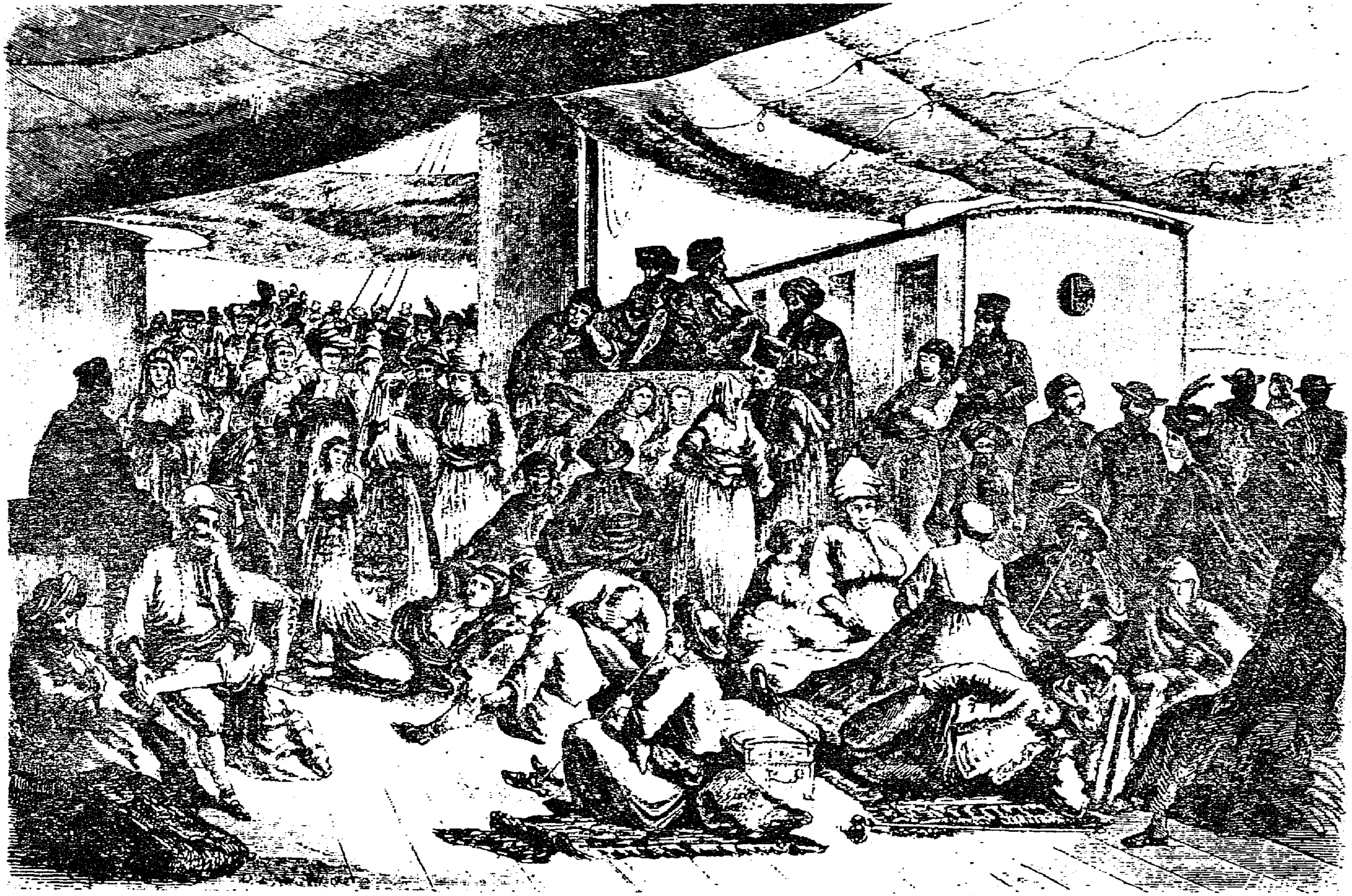
سفينة رافعة لثلاث رايات احداهما تمثل الخلافة العثمانية والثانية كتب عليها الشعار التالي : « الجنـة تحت ظل السيوف » والثالثة كتب عليها الشار التالي : « حب الوطن من الايمان » اما اطـار الصورة فقـد كتب بأعـلاه : « لا الـه الا الله محمد رسـول الله » وبأسفله : « نصر من الله وفتـح قـريب » .



سفينة عثمانية من سفن القرن السادس عشر



الباخرة الايطاليـة ايل اندلو IL Dandolo وهي احدى البواخر التي كانـت تربط المواصلات سنـة 1882 بين تونس وايطاليا



اخذت هذه الصورة سنة 1882 وهي تمثل المسافرين على متن باخرة تربط مواصلات الملاحة عبر نهر « الدانوب Le Danube »

الجزء الأول فيما رأيته بأوروبا

قسم إيطاليا المعتبر

اعلم أنّ الكرة الأرضية منقسمة إلى يابسة وماء والماء منها منقسم إلى أُوقيَا نُوسَات وأبحر وبحيرات وخلجاوات وبواغيز وأنهر . واليابسة منقسمة إلى أقسام وهي إفريقيا وآسيا وأروبا وأستراليا وأميريكا الجنوبية والشمالية . وكل قسم من هاته الأقسام يحتوي على ممالك وبلدان وجبال وسهول مما جميعه مبيّن في علم مستقلّ وإنّما نجمل الكلام هنا على تقسيم قارّة أوربا التي منها بلدان إيطاليا .

أروبـا

قارّة من قارّات الكـرة الأرضيـة الخمـس أصغـرها مساحـة وأكثرها أهميّة [26] في تاريخ التمدّن . واسمها مأخوذ من اسم أروبا المعدودة لليونان ومعناه في الأصل اليوناني العين النجلاء سميت به ابنة أغينور (1) ملك فينيقية من الجنّة ميلي وكانت هاته البنت في أقصى درجات الجمال حتّى زعموا أن

[26]

(1) اغينـور : Agenor هو ملك فينيقية وابنته أوروبـا هي أخت قدمـوس Cadmus اختطفها المشتري Jupiter بعد أن تمثل لها في صورة ثور وقـادها إلى جزيـرة كريت حيث ولدت مينوس Minos (أسطورة) راجع : *Grand Larousse Encyclopédique*, T. 1, p. 152

المشتري عشقها وتمثّل لها في صورة ثور وتلطّف لها إلى أن ركبته فأسرع بها نحو البحر وسبح إلى أن وصل إلى جزيرة كريت ، فدخلها من مصبّ نهر ليتي (1) وتزوّج بها وأولدها . واتّخذ الفينيقيون والكريتيون أروبا معبودة واتخذوا لهاعيدا . ولهذا كانت صورة المشتري عند الفلكيين صورة ثور .

وكان اليونانيون يطلقون اسم أروبا على أقرب أقسام القارّة الأروباوية إليهم ولم تزل تنكشف شيئا فشيئا إلى أن تبينت شبه جزيرة من القارّة الآسياوية يحدها شمالا الأوقيانوس الاركتيكي وشرقا جبال أورال والنهر المسمى بها وبحر الخزر وجنوبا سلسلة جبال قاف والبحر الأسود والبحر المتوسّط وغربا الأوقيانوس الأتلنتيكي .

وهي منقسمة إلى ممالك الروسيا وقاعدتها سان بترسبورغ (2) والسويد والنرويج وقاعدتها استوكهلم (3) والدانمارك وقاعدتها كوبنهاك ، والبرتغال وقاعدتها ليشبونة واسبانيا وقاعدتها مدريد وفرنسا وقاعدتها باريس وجزر بريطانيا وقاعدتها لندرة ، والبلجيك وقاعدتها بروسل ، وهولاندة وقاعدتها استردام ، وسويسرا ومن مدنها جنيف ، وألمانيا وقاعدتها برلين ، والنمسا وقاعدتها فينّا ، والسلطنة العثمانية وقاعدتها الآستانة ، ومملكة اليونان وقاعدتها أثينا ، وإيطاليا وقاعدتها روميّة .

والكلام على الأبحر التي تبلّ شطوط هاته القارّة وما فيها من الخلجاوات والبوغازات والأنهر والجبال وطبيعة هوائها ومعادنها ونباتها وحيوانتها وأممها ومتاجرها ودولها مبسوط في الفن الجغرافي ، وليس من علم تعاطي سرد الجغرافية [27] وما حوته الأرض من المساحة بل هذا علم انفردت له [27]

(1) نهر ليتي : Léthé هو نهر السعير ومعنى « ليتي » النسيان وكانت الاشباح تشرب من مياهه النسيان . (أسطورة) راجع : Grand Larousse Encyclopédique, T. 6, p. 705

(2) سان بترسبورغ : كانت إلى تاريخ ثورة عام 1917 عاصمة الروسيا فعوضتها موسكو وأصبحت تسمى لينينغراد منذ 1924 وهو تاريخ وفاة لينين الزعيم البلشفي المولود عام 1870 .

(3) النرويج : دولة في أوروبا الشمالية بقيت متحدة مع السويد من سنة 1814 إلى سنة 1905 ثم أصبحت مملكة مستقلة .

كتب من المبادىء التي يقرؤها التلاميذ في المدارس الابتدائية . والشأن في من يسوح للنظر في الآثار أن يكون قد فرغ من التحنّك بالتاريخ وعلوم أهل الاعتبار فضلا عن مبادىء الصغار ، وإنّما نتكلّم هنا على القسم الذي دخلناه في هذه السياحة خاصّة إجمالا لنتوصّل لتفاصيل البلدان التي نريد ذكرها .

إيطاليا (1)

شبه جزيرة في جنوب أروبا وجزيرتا سردانيا وصقلية ، أصلها باليوناني إيطالوس ومعناه عجل أو ثور ، سمّيت بذلك لكثرة البقر فيها . يحدّها من الشمال الغربي فرنسا وشمالا سويسرة والنمسا ومن الشمال الشرقي النمسا وشرقا بحرا أدريا وأيونيا وجنوبا وغربا البحر المتوسّط .مساحتها رسميّا 114.409 أميالا مربّعة ومعدّل عدد سكانها 26.806.154 نفسا . وقد كانت منقسمة إلى دول كثيرة يطلب بيانها من الجغرافية السياسية والآن اتّحدَتْ تحت قانون واحد وملك واحد بأسباب مبسوطة في أوائل العلوم الجغرافية . وكذلك الكلام على أحوالها الجغرافية كلها ممّا لا يهمّنا منه غرض في الموضوع وإنما نذكر أحوال البلدان التي شاهدناها بما شاهدناه فيها . وللجغرافية التاريخية والطبيعية والسياسية والأدبية والتجارية شروح ملأت أسفارا يمنعنا الاشفاق على الكاتب من سردها هنا لمجرّد تسويد صحف يطلب الغرض من غيرها . والله ولي الارشاد والتوفيق إلى أقوم طريق .

(1) ايطاليا : يحد ايطاليا في الشمال جبال الألب وتفصلها عن فرنسا وسويسرة والنمسا وفي الغرب البحر الابيض المتوسط وفي الشرق البحر الأدرياتيكي ويوغسلافيا وفي الجنوب بحر أيونيا . أما مساحتها فهي 301.000 كم . مربع وأما عدد سكانها فهو حسب احصائيات عام 1967 واحد وخمسون مليونا وتسعون ألفا من الانفس 51.090.000 وكانت ايطاليا مملكة وأصبحت جمهورية سنة 1946 .

نابلي (1)

هي اليوم من أشهر مدن إيطاليا وأكبر جميعها بل إنها رابعة أكبر مدن أوربا وهي لندرة وباريس والآستانة ونابلي . وموقعها جنوب إيطاليا واسمها [28] العربي نابلي ألِكتان بفتح الهمزة وكسر اللام وسكون الكاف . [28] وقد كانت هي ومملكة صقلية جميعا في حوزة الاسلام نحو المائتي سنة بعد انقراض الدولة الرومانية منهما وتسلط الاغريق . لكن بعد ذلك كله تسلط على سيسيليا رجير ثم جاء ابنه رجير الثاني (2) فجمع بين سيسيليا وجنوب ايطاليا بعد استيفاء إخراجهما من يد الاسلام (2) وسمّاهما ملك السيسيلياتين يعني صقلية ونابلي وكانت وفاته عام 1154 مسيحية . وبقي ملكهما في عائلته ثم تنقل منهم إلى أن صار إلى عائلة البربون (3) وخرج من أيديهم عدة مرار وعاد إليهم إلى أن سئم الأهالي ظلم تلك العائلة وهم ينظرون شمال إيطاليا في راحة من ذلك الظلم . ولمّا مات ملكهم فرديناند (4) سنة 1859 تسع وخمسين وثماني عشرة مائة وخلفه ابنه فرانسوا الثاني (5) فلم يمكث أيّاما

---

(1) انظر : *Nouveau Larousse Universel*. T. 2, Paris 1969, p. 283

(2) رجير الأول بن تنكريد دي هوت فيل احتل صقلية وملك بها بلقب الكونت الكبير من سنة 1071م . إلى سنة 1101م. أما رجير الثاني وهو ابن الاول فقد ملك الصقليتين من 1101 إلى 1154 والملاحظ أن صقلية استعمرها الفينيقيون واليونان قديما وغزاها الأمير زيادة الله الأغلبي سنة 827/212 ثم اجتاحها النرمان بقيادة رجير الأول . وأما مملكة الصقليتين فهي مملكة قديمة كانت تشمل نابلي وصقلية ومبدؤها منذ قيام النورمان سنة 1043 وتكونت منذ سنة 1130 وألحقت بايطاليا سنة 1860 . (راجع : H. H. Abdelwahab, *La domination musulmane en Sicile*, Tunis, 1905

(3) البربون : عائلة أمراء فرنسية ابتدأت بروبيرت دي كليرمون سادس أبناء القديس لويس . ومن هذه الاسرة فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر . وفيليب هذا هو رئيس الفرع البربوني الذي ملك مملكة نابلي التي انتهت بملك فرانسوا الثاني سنة 1860 .

(4) فرد يناند : هو فرديناند الثاني ملك الصقليتين سنة 1830 وكانت ولادته ببلارم سنة 1815 وتوفي سنة 1859 .

(5) فرانسوا الثاني : آخر ملوك الصقليتين (1859–1860) وتوفي سنة 1894 .

وأخرجه غاريبالدي (1) وأعلنت الاهالي باسم فكتور إيمنوئيل (2) ملك رومية . فاتّحدت إيطاليا كلّها وسيسيليا تحت حكم ملك واحد من يومئذ يمثلها قانون واحد منعّمة بحريّة ذلك القانون .

[وصول المؤلف إلى نابلي]

وقد كان وصولي إلى مرساها صبيحة يوم السبت عاشر رجب سنة 1299 هجرية (3) فإذا هي ذات ميناء أمينة تحيط بها جزر نابلي وجبل فيسوفيو (4) . وهي في غاية الاحكام والسلامة من أعظم مراسي إيطاليا تختلف إليها السفن في كل آن . وقد وجدنا هنالك دويليو (5) أعظم بوارج إيطاليا البحرية ، وبينما نحن على ظهر السفينة عند إرسائها أحاطت بنا الزوارق من كلّ جانب وفي أثنائها زوارق أصحاب الأوتيلات (6) الشهيرة المعدّة لنزول أعيان المسافرين ، فأردت النزول في أوتيل دي جنيف وكنت أخذت اسمه من بعض معارفي ، فتلقّاني كوندكتور (7) الأوتيل وأخذ أمتعتي وماكس أصحاب الزوارق كلّها ووقف على فتحها في القسرق وحملها على عجلاته وأخذنا كروسة سرنا بها إلى الأوتيل ، فتلقانا أصحابه أحسن التلقي [29] ونزلنا في بيت من الطاق الثاني منضّد الفرش والاصطفات الحرير . [29]

---

(1) غاريبالدي : في الاصل غاليباردي أو قاليباردي والصواب ما أثبتنا وهو يوسف غاريبالدي وطني ايطالي ولد بمدينة نيس Nice وقاوم في سبيل توحيد ايطاليا أولا ضد النمسا ثم ضد مملكة نابلي والبابوية ثم انضم إلى فرنسا سنة 1870—1871 . (1807—1882) .

(2) فكتور ايمنوئيل : هو فيكتور ابمنوئيل الثاني ملك سردانيا سنة 1849 ثم ملك ايطاليا سنة 1861 . وهو ابن شارل ألبارت ولد بتورين سنة 1820 وتوفي بروما سنة 1878 . وكان حليف فرنسا ضد الروسيا سنة 1854 وضد النمسا سنة 1859 . وهو المؤسس الحقيقي مع وزيره كافور للوحـــدة الايطاليـة .

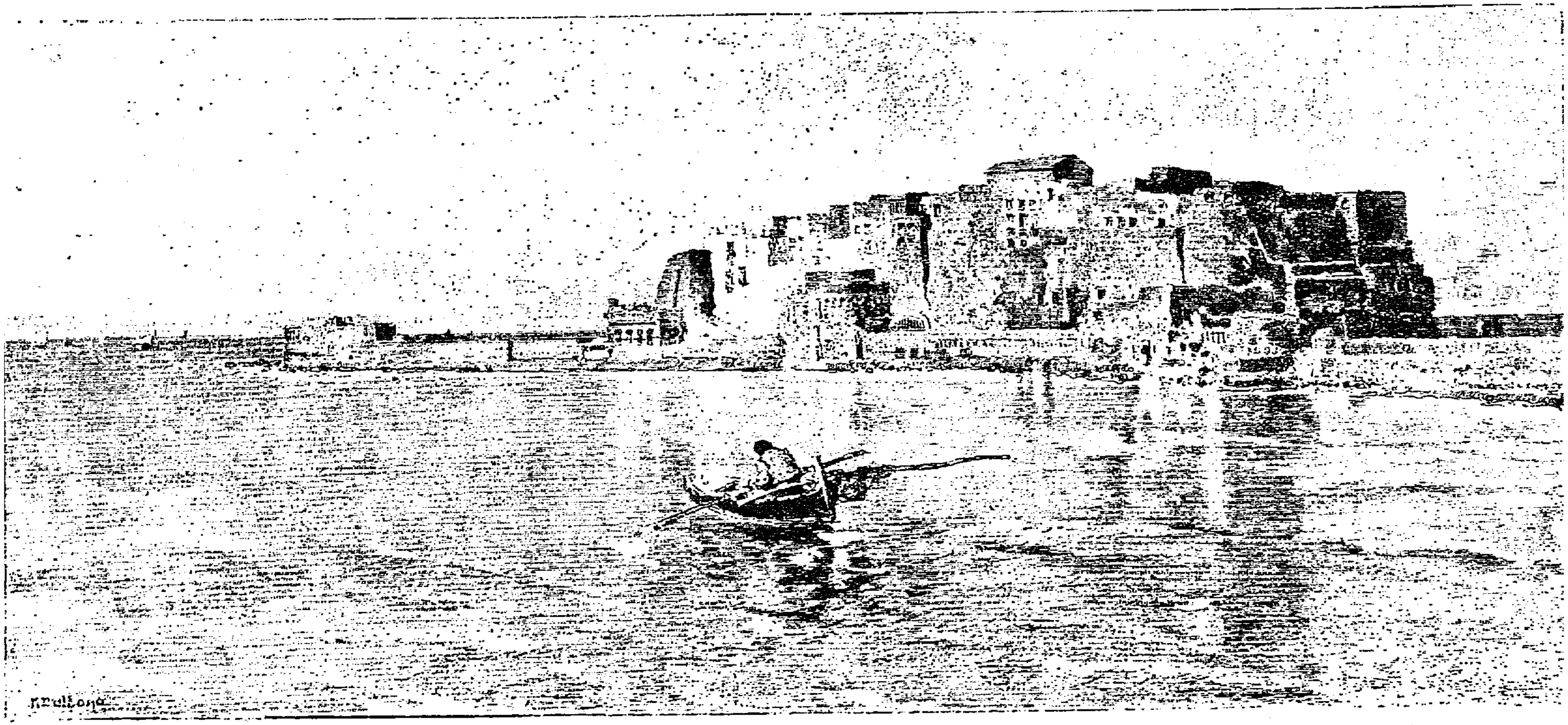
(3) يوافق : 27 ماي 1882 . انظر أعلاه صفحة 2 تعليق 3 .

(4) الفيسوفيو : بركان طوله 1.200م. يبعد 8كم. جنوب شرقي نابلي يرجع تاريخ أول انفجاره إلى سنة 79 بعد المسيح . وهو الانفجار الذي هدم وردم مدينتي هرقلنوم وبمباي .

(5) ديليو : بارجة ايطالية .

(6) الأوتيلات : كلمة من الدخيل وتعريبها النزل .

(7) كوندكتور : كلمة من الدخيل بمعنى المرشد أو المضيف .



منظر لمدينـة نابلي من البحر « قصر ديل اوفو Castell Dellovo »

وحضر عندي بالبيت المذكور صاحب الأوتيل بالترحيب وناولني دفتر المحلّ للتصحيح على عدّ البيت الذي نزلته في ذلك اليوم ، فصحّحت عليه (1) وأقمت هنالك . وهو من أفخر أوتيلات البلد رحب البناء على ستّ طبقات جميل المنظر أسفله معدّ للأكل والطبخ وطبقاته للسكنى إلاّ أن الطبقة العليا لبعدها إنّما يسكنها صاحب المحلّ ومستخدموه ، وهذه العادة الأورباوية في عموم الأوتيلات حيث انّ أوساطها هي المسمّيات بالبريمو (2) أي المنزل الرفيع وأسفلها وأعلاها لا يطلب النزول فيه إلاّ الضعفاء .

وإلى هذه العادة يشير أحد الأدباء في تعريف التقبيل وقد سئل عنه فقال : هو الطلب بلين ورفق من صاحب الطاق الأعلى هل يوجد محلّ للسكنى في الطاق الأوسط . وقد نظم هذا المعنى أستاذنا الشيخ سيدي سالم بوحاجب (3) بقوله : (من الوافر)

وَقَائِلَـةٍ نَـرَاكَ إذَا الْتَقَيْنَا	تُبَادِرُ قُبْلَتِـي عِنْدَ اللِّقَـاءِ
فَقُلْتُ لَهَا أنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ	أُفَتِّشُ مَا يَطِيبُ بِه ثَوَائِـي
وَفِـي التَّقْبِـيلِ نِسْأَلُ بِلُطْفٍ	لِـمَنْ هُـوَ نَـازِلٌ أعْلَى الْبِنَاءِ
أفِـي الطَّاقِ الْبَرِيمِـي مِنْ مَحَلٍّ	يُبَاحُ لِمَنْ يُنَافِسُ فِي الْكِرَاءِ

---

(1) صحح عليه : تعبير غير فصيح من العامية التونسية بمعنى وقع اما صحح فيقال صحح الكتاب أي أزال سقطه .

(2) البريمو : لفظة من الدخيل الايطالي ومعناها الرفيع .

(3) سالم بوحاجب : كانت ولادته سنة 1828/1244 ونشأ بالساحل التونسي وانتقل إلى الحاضرة ودخل جامع الزيتونة سنة 1843/1258 فأخذ عن الشيخ محمد بن ملوكة بزاويته خارج باب القرجاني وحضر درس الموطأ على شيخ الاسلام ابراهيم الرياحي بسقيفة داره وأخذ علوم العربية عن الشيخ محمد ابن عاشور المشهور بحمدة وعن شيخ الاسلام محمد معاوية وأخذ العلوم الشرعية عن الشيخ الخضار وشيخ الاسلام محمد ابن الخوجة والشيخ محمد النيفر ، وجلس مدرسا بجامع الزيتونة من 1849/1265 إلى 1912/1330 . وتعرف بالوزير حسين ومنه تعرف بالوزير خير الدين فأصبح لكل منهما صديقا وكان المتولي لاعانة خير الدين على تحرير كتاب أقوم المسالك . وارتحل إلى ايطاليا سنة 1874/1290 بمشاركة الوزير حسين في قضية محاسبة القائد نسيم شمامة وأقام فيها ست سنوات . وله ديوان شعر في جزءين لا يزال مخطوطا . وبلغ الشيخ سالم بوحاجب مقام مشيخة الاسلام سنة 1918/1337 . وتوفي في ذي الحجة سنة 1343/جويلية سنة 1925 . (انظر : محمد الفاضل ابن عاشور : تراجم الاعلام ، تونس 1970 . ص : 219–233) .

وهو من اللطف بمكان . أما بلد نابلي فهي أول بلد وقع عليه بصري
بلاد أوربا فرأيت من مصداق الثروة والعمران ما يعجز عن وصفه اللساذ
أبنيتها مختلفة الألوان جميلة الإتقان مرتفعة بما يبلغ بعضه سبع طبقات وثماد
واسعة الطرق المبلّطة جميعها بالرخام من نوع البلاط الغليظ المربع ذي نة
يمنع زلق الحافر تتخلّلها جميعا سكّة الحديد لمرور الترمواي (1) وربّما
المحجّ الواحد أربعة فروع في وسط المحجّة وممرّ الراجلين على جاذ
ومع ذلك فالطرق [30] دائما غاصّة بالكراريس وأكثرها من نوع الكليس
النصف قبّة مكسوّة بالملف تجرّها جياد الخيل في غاية النظافة فترى آلا
العجلات في سواد ذلك العمران الذي كان به البلد على طوله في جميع المحجّـ
كأنما هو سوق محتبك .

[30]

[ما وجد المؤلّف من ألم النوى]

وقد أصبحت يوم الأحد مقيما في روشن (3) منزلي نتفرّج في ذلك الس
الأعظم لكن لكثرة كنائس البلد لم ينقطع عن مسمعي قرع النواقيس مع ك
مرور العجلات في تلك المحجّات المبلّطة حتّى تألّمت أسماعي وسرى
ذلك إلى القلب بما وجدته من ألم النوى ، فردّدت بيتين رواهما الشيخ رف
بك (4) وهما قوله : (من البسيط)

---

(1) التراماوي : لفظة دخيلة من الانقليزية وتدل على حافلات النقل ، وقد عرفها الشيخ السن
(انظر أعلاه صفحة 9) .

(2) الكليس : لفظة عامية تونسية ومعناها عربة صغيرة تجرها الخيل وهي كلمة دخيلة الفرنسية : Calèche

(3) الروشن : الكوة . ج . رواشن .

(4) الشيخ رفاعة بك : هو رفاعة رافع الطهطاوي صاحب كتاب : تخليص الابريز في تلخ
باريس . ولد في طهطا (صعيد مصر وتعلم في الازهر وكمل ثقافته عام 1826 في فرنسا على
المستشرقين وعليه تخرج عدة رجال من الادباء كانوا معه في طليعة النهضة العصرية الاد
العلمية . وكان الشيخ رفاعة مديرا لمدرسة الالسن في عهد محمد علي . وكان يشرف على مر
واصلاح الكتب التي يعربها تلامذته وظل مديرا لمدرسة الالسن حتى أوائل عصر الخدي
عباس الاول (ولد الشيخ رفاعة سنة 1801 وتوفي سنة 1873) . راجع : دائرة المع
الاسلامية ، الطبعة الفرنسية القديمة ، ج 3 ، ص 1235—1236 . ابن أبي الضياف
اتحاف ، ج 1 ، ص 45 . خير الدين التونسي : اقوم المسالك ، ط . 2 ، تونس 72
ص 199 .

قَدْ جَـاءَ يَضْـرِبُ بِـالنَّاقُـوسِ قُلْتُ لَـهُ
مَنْ عَلَّمَ الظَّبْيَ ضَرْبًا بِالنَّوَاقِـيسِ (1)

وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ أَيُّ الضَّرْبِ يُؤْلِمُكِـي (2)
ضَرْبُ النَّوَاقِـيسِ أَمْ ضَرْبُ النَّوَى قِيسِي

وحيث إنّا في بلاد الإسلام كنّا لا نسمع النواقيس إلاّ قليلا وعندما نسمعها تسرع ألسنتنا إلى تلاوة الكَافِرُونَ وَالإِخْلاَصِ حفظا لإيماننا نسأل الله أن يثبّتنا بالقول الثابت .

كنت في ذلك اليوم مُغْتَمًّا كثيرًا ممّا نسمعه فضلا عن كوني لا نشاهد إلا لباس السواد وكشف الرؤوس أو تغطيتها إلاّ بالبرانيط (3) . وفي أثناء ذلك قلت : (من البسيط)

تَشَابَهَتْ نَابُلِـي عِنْدِي بِمَا جَمَعَتْ
وَإِنْ غَدَتْ مِثْلَ أَذْنَابِ الطَّوَاوِيسِ

إِنْ رُمْتُ تَنْزِيهَ طَرْفِـي فِـي مَحَاسِنِهَا
أَصَمَّ سَمْعِـي إِرْعَادُ النَّـوَاقِيسِ

وَفِـي مَرَاتِعِـهَا حُسْنٌ يَرُوقُ بِـهَا
وَالأَرْضُ تَضْطَكُّ مِـنْ ذِي الكَرَارِيسِ

مِـنْ كُلِّ سَيَّارَةٍ فِـيهَا يُـرَى قَمَرٌ
أَوِ الدُّمَى أَوْ ظُبَيْيَاتُ الْمَكَانِـيسِ (4)

أَوْ مَحْمَلٌ يَحْمِـلُ الجَمْعَ الأُولَى غَدَرَتْ
بِـهِمْ عَقَائِدُهُمْ مِثْلَ الأَبَالِـيسِ

---

(1) بالاصل : الناقوس وبالطرة صحح بالنواقيس .
(2) يؤلمكي : كذا بالنص والصواب : يؤلمك .
(3) البرانيط : ج . برنيطة وعربيها قلنسوة .
(4) المكانيس : ج . مكنس وهو مولج الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر .

وقد صرت بعد ذلك كلّ من سألني كيف وجدت نابلي قلت له : (من البسيط)

وَالأَرْضُ تَصْطَكُ مِنْ ذِي الكَرَارِيسِ
وَالجَوُّ يُرْعِدُ مِنْ قَرْعِ النَّوَاقِيسِ

[وصف بلد نابلي]

وبما أنّ البلد فيما بين سفح جبل فيسوفيو (1) وجزر اسكيا (2) وبرودبا (3) وكبريشن (4) [31] وبيكسول (5) وبسيلبُو (6) وبنيولي (7) ونيستة (8) كان جمال منظرها من البحر على أحسن ما يكون على شكل نصف دائرة في ميمنتها جبل فيسوفيو وعلى ميْسَرتها بوصلبو (9) ودخان البركان منقذف وبأعلى بوصلبو برج صانتيريمو الضخم البناء . قيل إن بابه غلق في الحرب الأخيرة على سبعين ألف نفس .

وهاته الجزيرة متكاثفة الأشجار المثمرة متواصلة الأبنية الفائقة . ومن أشهرها وأضخمها سراية البرنس باويس دي نابلي . وقد أحصيت شبابيك أحد أوجهه فكانت اثنين وسبعين شبّاكا . وهذا البلد منقسم إلى أربعة أقضية وتسع وستين ناحية . وسكانه تسعمائة ألف نفس وسبعة آلاف وسبعمائة واثنتان وخمسون نفسا أكثرهم من النابلطان وثمّ بقية الطليانيين ثمّ بقيّة

(1) Vesuvio
(2) Ischia
(3) Procida
(4) Capri
(5) Pozzuoli
(6) Posillipo
(7) Bagnoli
(8) Nisida
(9) بوصلبو : كذا بالنص ويبدو ان المقصود بوسيليبو Posillipo

الأجناس . وهي متّسعة المتجر ولذلك كانت مرْكَزًا لقِنَاصِل جميع الدول وفيها مراكز الشركات البريّة والبحرية في المتاجر والبواخر وسكّة الحديد والتلغراف والبوسطة المنتظمة والبنكيرات المتسعة المبالغ بحيث إنّ جميع وجوه التيسير فيها على أحسن حالة .

ولكثرة سكّانها مع خبث نفوس النابلطان كانت أيضا مركزا مشتهرا للسرقات والمفاسد التي اختصّت بها . أمّا السرقات فإن قوارع الطرقات مملوءة بلصوصهم المهرة في الصناعة ولهم في ذلك أخبار طويلة نبّهني عليها أوّلا قنصل النمسا بتونس حيث كان مصاحبي في فابور السفر الذي ركبته اليها وبنصيحته كنت محترسا مدّة إقامتي بها احتراسا . ونحمد الله على أن لم يصبني منهم ما نذكره في هذا الباب . .

وأمّا مفاسدهم في تَعَرُّض جميع نسائهم وغلمانهم فمع شهرتهم بها وكثرتها فيما بينهم كنتُ في بعض الليالي في أكبر أسواقها مع رفيق لنا فاعترضنا أحدهم يظهر من حاله حسن الهيأة واللباس وتكلّم مع رفيقي بلسان قومه فإذا رفيقي ضحك وأجابه بما صرفه . فسألته عن خبر الرجل فقال لي : إنّه هو أكبر قوّاد أهل البلد على الذكور والإناث وهو يعرض خدمته على من يرغب فأعلمته أنا لسنا من أهل [32] هذا السوق . وأقبح ما لاقيناه هنالك كثرة الملحّين في المسألة من فقرائها في سائر المحجّات والمنازه على كيفيّات من أقبح ما يكون فترى الأرملة تحمل رضيعها وتقود صبيانها وربما أغرتهم بالبكاء وهي تلحّ بهم في المسألة .

أما انتظام أبنية البلد فهو مختلف الانتساق والضخامة إذ طرفها ممّا يلي جبل فيسوفيو أقلّ انتظاما بكثير ومنه يتحسّن البناء والطرق شيئا فشيئا إلى أن يبلغ ذلك إلى حدّه الأقصى على مهبط الميناء هنالك . وأضخم الأبنية هنالك بلاص أو ريال (1) وأمامه الكنيسة الكبرى وبطحاء دي لروب (2) وسوق البلد الأكبر

(1) كذا بالنص والمقصود قصر ريال Palazzo Reale وكلمة بلاص لفظة دخيلة .
(2) أصبحت هذه البطحاء تسمى اليوم : Piazza Plebiscito

وهو سوق تولدو (1) ومنه إلى موضع الانطيكخانة وما بين ذلك كلّه من أضخم وأنسق ما يرى المتفرّج في حسن الأبنية والطرق والأجنّة الأروباوية ثمّ الطريق إلى طورد لكريكو (2) دون هاته الجهات .

وأشهر المباني في هذا الطريق على شدّة بعده سراية محاكم ملوك نابلي وهي من الضخامة والتنميق بمكان عجيب وبعدها منزل سكنى إسماعيل باشا خديوي مصر السابق (3) أيضا في ضخامة تناسب أبّهته . والأبنية بعد ذلك أحسنها الأوتيلات إلى جبل فيسوفيو . أما طول جميع البلد على خطّ واحد فهو أكثر من عشرين ميلا متواصلة الأبنية والسكك والطرق المبلّطة يقطعها الترامواي على محجّة الحديد في نحو ساعتين وربع أو أكثر . وهو هنالك لشركة بلجيكية موزّع على أربع جهات وهي جهة طوردلكريكو البالغة إلى سفح البركان . وجهة بوصلبو البالغة إلى نهاية طرف البلد من الجانب الثاني بحيث انّ طول البلد بينهما فقطع المسافة الأولى بساعة ونصف والثانية بساعة إلاّ ربع وأجر ركوبه الأولى ستون صنتيما والثانية ثلاثون صنتيما .

وأما الطريقان الآخران فهما في عرض البلد أحدهما طريق محطّ سكّة الحديد والثاني طريق الأنطيكخانة . والمسير إلى الأول بنحو سبعة أدراج (4) وإلى الثاني بنحو نصف ساعة . ولا يخلو طريق من هاته الأقسام [33] الأربعة من وجود الترمواي فيه سائرا من باكرة النهار إلى الساعة العاشرة من الليل بحيث انّ طريق طوره (5) يخرج فيه الترامواي بعد كل أربعة أدراج وطريق بوصلبو (6) بعد كلّ درجين . ومثله طريق الأنطيكخانة .

[33]

(1) كذا بالنص

(2) كذا بالنص والصواب : طور دل كريكو Torre del Greco

(3) إسماعيل باشا : هو اسماعيل (1830–1895) بن ابراهيم باشا بن محمد علي . تولى حكم مصر سنة 1863 ونال لقب خديوي من السلطان عبد العزيز ودشن قناة السويس سنة 1869 وأبدل المحاكم القنصلية بالمحاكم المختلطة وقام بالمشاريع العمرانية وفتح المدارس لكنه بالغ في اسراف المال فوقعت مصر في عجز وازداد دين الاجانب عليها مما أدى إلى تدخل الدول وإلى ثورة عرابي باشا وعزل إسماعيل سنة 1879 . انظر : دائرة المعارف الاسلامية . ط 2 . ج 3 .

(4) أدراج : الدرج يساوي خمس دقائق .

(5) Torre del Greco

(6) Posillipo

وأما طريق محطّ سكّة الحديد فهو يخرج فيه بعد كل خمسة دقائق ولذلك نرى محجّة البلد دائما مزدحمة بمروره . ومبلغ دخله اليومي نحو ثلاثة آلاف فرنك ، وفي يوم الأحد ربّما دخله إلى الستّة آلاف .

سوق تولدو

اسم هذا السوق في الأصل طليطلة باسم إحدى مدن الأندلس . وقد دخلت عشية يوم الاثنين الثاني عشر من رجب (1) إلى أكبر أسواق نابلي المسمّى تولدو . فقضيت عشية اليوم ماشيًا في طوله من أحد جانبيه نتقصّى أحوال الحوانيت والبضائع . وهو متّسع جدّا غاصّ وسطه بالكراريس وجوانبه بالمشاة . وحوانيته في غاية الرحابة والابتهاج ، وجوانب جميعها من الخارج من بلّور (2) وأواسطها في غاية الانتظام محوّطة بالخزائن من البلور ومبلّطة على سعة قاعتها . وفيها من نفائس الأمتعة ما يحار دونه الناظر . فحوانيت المصوغ تحوي من نفائس الأحجار والجواهر ومصنوعات الذهب والفضة مثمنين (3) . وحوانيت الأسلحة فيها من محلّى السلاح وأنواع مخترعاته ما يستغرق الوقت في التأمل . وحوانيت الأقمشة تحوي من حريرها ومزركشها وحاضر ألبسة النساء والرجال ما يحتاجه الراغب . وحوانيت أثاث البيوت تحوي من جميع أنواع الاصطفات (4) والأسرّة والخزائن والموائد والآلات العجيبة الصنع ما يطلبه الناظر إلى غير ذلك من نفائس التحف المثمنة الدالّة على قوّة متجر البلد مع لطائف المصنوعات السكّرية وغرائب الآلات بحيث انّ هذا السوق يوجد فيه كل مطلوب أهل البلد وبعض الجهات [34] فقد توجد منافذ إلى حوانيت تبيع الفواكه والخضر واللحوم والطيور .

[34]

(1) يوافق : 29 ماي 1882 .

(2) بالاصل : بلار وهي كلمة عامية تونسية وعربيتها بلور .

(3) بالاصل : مثمنان .

(4) كذا بالنص . والسياق يقتضي : المصطبات ، ج مصطبة .

ومما اختصّت به بلد نابلي من لطائف المصنوعات صناعة المرجان حيث إنّه يوجد بالبحر هنالك بكثرة فتراهم يتفنّنون في صنعه وتخريبه ونقشه أغرب تفنّن . وكثير من الحوانيت تختصّ بالمصوغات المرجانية مما يتّخذه النساء شنوفا وأسارو ووسائط وأمشاطا وغير ذلك على ما فيه من جودة النقش التي يباع لأجلها بأثمان المجوهرات . وبذلك تنبّهت إلى لطيفة من كلام الله في المقاربة بينه وبين اللؤلؤ في قوله تعالى (**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** (1)) اذ كل منهما يُعدّ عند أرباب الصناعة بعد إتقان الصنع اللائق من النفائس المثمنة ويتّصح دخوله في الحلية المستخرجة من البحر في قوله تعالى (**وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً** (2)) وبما أنّ المرجان مما اختلف فيه المقال نبسط الكلام عليه بما يزيل عنه الإشكال نظرا لكثرة ما رأيته في هذا البلد منه في جميع المحالّ .

المـــرجـــان (3)

لا خفاء في جمادية الجماد ونموّ النبات وحركة الحيوان وتفكّر الإنسان الذي ميّزه الله بالعقل وهاته الحلقات الأربع يستوي في معرفتها العالم والجاهل . وبما أنّ جميع ذلك خلقه الله من تراب فالجماد هو الأصل ثمّ النبات ثمّ الحيوان ثمّ الإنسان . غير أنّا إذا نظرنا إلى كل نوعين منها نجد بينهما تباينا لا يمكن أن تتصوّر مع التولّد بينهما فنظر العلماء في حلقات وسطى بين كل نوعين يظهر بها سرّ التولّد مثلا المرجان عند نشأته في البحر يكون بصفة نباتيّة وهو جماد فتكون بين الجماد والنبات فإذا علم أنّ من نوع الجماد ما فيه التغذّي والنموّ ظهر سرّ تولّد النبات عن الجماد . ثمّ بين النبات والحيوان تباين في الحركة الإرادية والإحساس فإذا نظرنا إلى نوع من نبات

(1) القرآن . سورة الرحمن (55) . الآية 22 .

(2) القرآن : سورة النحل (16) . الآية : 14 . والملاحظ أن تحريفا ورد بالأصل على الصورة التالية : وتستخرجون .

(3) انظر : Graig McGregor, « *La Grande Barrière* », Edit. Time-Life, Amsterdam, 1973.

البحر ينشأ نابتا وتكون له قوة غذائية [35] يأخذ بها الماء ويقذفه وفيه نوع إحساس يظهر عند وضع اليد عليه ظهر سرّ تولّد الحيوان من النبات وهكذا التردة أو القول بالنسبة إلى الحيوان والإنسان .

وبهذا يظهر سرّ تكوين الأشياء وارتباط بعضها ببعض وبهذا التقرير يكون المرجان متوسّطا بين الجماد والنبات وذلك مذهب كثير من المتقدمين . وقد رواه صاحب كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار (1) ثم علماء الطبيعة فيما بعد عدّوه متوسّطا بين النبات والحيوان وسمّوه حيوانا نباتيّا إلى سنة 1862 من هذا القرن (2) فثبت عندهم أنّه حيوان (غايته أنّه يتفرّع تفرّعا نباتيا غير أنّ تقريراتهم لحيوانيته مشكلة بل إنّها ربّما ترجع بنا القهقرى فنقول إنه جماد) (3) وهذا نصّ تقريرهم : إذا نظرت إلى مرجانة رأيت فيها ثقوبا صغارا ولا سيّما إذا كانت بيضاء فكلّ ثقب مقرّ لحيوان صغير مستقلّ بنفسه ومرتبط مع ما حوله بربط القرابة وله زوائد هدبية في سائر جوانبه ينتزع بها الكلس من ماء البحر ويصيغه مرجانا كما تصاغ العظام في جسم الإنسان ثم تتفرع عنه شعب كثيرة إلى جهات مختلفة فتتكون منه أنواع متخالفة شكلا ولونا تزري بالأزهار جمالا ورقّة (4) فتموت الأصول وتبقى الفروع ثم تتفرع هذه أيضا وتموت وتحيا فروعها وهلمّ جرّا هـ . بلفظ المقتطف (5) .

---

(1) كتاب أزهار الافكار في جواهر الاحجار تصنيف أحمد بن يوسف التيفاشي العنسي .

(2) سنة 1862 يقابلها في التاريخ الهجري سنة 1278–1279 .

(3) هذا تعليق من الشيخ السنوسي أقحمه بان وضع علامة : قح في أوله وآخره .

(4) بالنص : رتقا .

(5) مجلة المقتطف أنشأها يعقوب صروف (1852–1927) بالاشتراك مع رصيفه فارس نمر صاحب مجلة المقطم وهما ببيروت سنة 1876 ، وانتقلا بالمقتطف إلى القاهرة سنة 1885 . وقد ظل يعقوب صروف وفارس نمر يحرران المقتطف سوية إلى أن أصدرا مجلة المقطم سنة 1889 فانقطع فارس نمر لانشاء المقطم ويعقوب صروف لانشاء المقتطف . على أن يعقوب صروف كان الكاتب لكل أبواب المقتطف العلمية كباب الصناعة وباب الزراعة وباب تدبير المنزل وغيرها . والملاحظ أن يعقوب صروف كان قبل هجرته إلى مصر قد درس الكيمياء الوصفية والتحليلية بالمدرسة الكلية السورية فقرن العلم بالعمل وكان له في المقتطف الفضل بتقريب مناهل العلوم الغربية إلى قراء العربية فأثر في تطور اللغة طبقا للاحتياجات العصرية . وكان الشيخ السنوسي من المغرمين بمطالعة مجلة المقتطف . انظر أسفله صفحة 85 وصفحة 103 . (راجع : فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، ج 2 ص 124–129 وخاصة ص 125) .

قلت : وهذا التقرير يعطي أن مادّة تركب المرجان الحقيقية هي الكلس المصوغ من ماء البحر . وهذا لا فرق بينه وبين مكلّس الماء الذي ينجمد في منافذ المقاطع المعدنية . وأما الحيوانات الصغيرة التي فيه فهي صانعة له مثل صنع النحل للشهد أو الشمع ولا نسمّي شيئا منهما حيوانا فتأمّل . ثمّ إنّ الحيوانات المرجانيّة عندهم لا تعيش إلا إذا كان متوسّط الحرّ لا ينقص عن ثمان وستّين درجة ولا يعيش فوق وجه الماء ولا تحته بأكثر من مائة قدم ولذلك لا يكون إلا بقرب الشواطىء ويحيط بأكثر الجـزر ، وإذا بلـغ الفـرع [36] إلى أن انكشف للشمس ماتت فروعه المكشوفة كما تموت أصوله فتفتّته الأمواج وتلقي فتاته في تخاريبه وبعد أمد يصير جميعه صخرا صلدا يغطّيه فتاته وقطع الأصداف ونبات البحر وما تحمله الرياح والأمواج من الزبد والغُثاء فينمو بعضه على بعض إلى أن يصير أرضا صالحة للسكنى وربما أنبتت بعد حين ، وقد وجدوا من ذلك ما أنبت بعد أن ارتفع به الطين والرمل اثنتي عشرة قدما فوق سطح البحر وهذا النموّ في جزائر المرجان بطيء جدّا وقدّره بعضهم بثمن عقدة في السنة .

[36]

وقد وجدوا من هاته الجزائر ما سمك صخورها المرجانية ألفي قَدَم وبهذا المعدّل يكون عمرها 192.000 سنة . وأعظم جزائر المرجان شطّ المرجان بأستراليا وطوله أكثر من ألف ميل وعرضه من عشرة أميال إلى ثمانين ميـلا وعمقه في بعض الأماكن أكثر من ثماني عشرة مائة قَدَم . وقد قسّم علماء الصناعة صخور المرجان إلى خمسة أنـواع : أبيض صلـد كالصـوان وقطـع المرجان نادرة فيه لأنه تكون من حكاكته ، ونوع محبّب مندلج وفيه قطع مرجان كثيرة ، ونوع صلد كالأول وفيه قطع مرجان كاملة ، ونوع صلبه وكلّه قطع مرجان واضحة ، ونوع هيأته هيأة المرجان الطبيعية حال نموّه لكن تخاريبه مملوءة بالرمال والأصداف .



باب « كابريانو Capriano » من ابواب مدينة نابلي سنة 1882

(انظر اعلاه صفحة 33 بترقيم المخطوطة)

منزه فيـلا [كومنالي] (1)

عشيّة يوم الجمعة السادس عشر من رجب (2) ركبنا صحبة الترامواي إلى المنزه المسمّى : فيـلا رُبالي (3) وهو من أحسن المنازه حديقته يبلغ طولها نحو ميل على الساحل وبها مقاعد محاطة بالبلّور وموضع فيه حيوانات (4) ومقرّ للموسيقى . والبحر ممتدّ من وراء أشجاره المتكاثفة (5) وطرقه مقسّمة أحسن تقسيم ، وبمواجهته من الجانب الآخر أكبر أوتيلات البلد على ذلك المحجّ المشتهر الاتّساع والانتظام [37] إلى جنب الحديقة مايله ميدان لسباق الخيل منقسم إلى طريقين أحدهما للذهاب والآخر للإيّاب فسبحان لا يطأهما غير أصحاب السباق على جياد الخيل العتاق .

[37]

وفي عشيّ كلّ يوم ترى ذلك المحجّ لا يفتر عرضه من مرور الكراريس والترامواي وجانباه من مرور المشاة المتنزّهين . والحديقة هي مأوى كلّ غيداء وأغيد تختلف إليها نساؤهم وشبّانهم ولهم بين كثبان أشجارها غبـوق وتعريس (6) يألفه كلّ أنيس . وقد قطعت ذلك الطريق مرارا وتجاوزته إلى آخر البلد المسمّى بُوصِلِبُّو وهو ينتهي إلى قمّة جبل تمرّ له الراجل (والراخبل : كذا) والترامواي من غير شعور بالصعود لحسن الارتقاء به على نسبة هندسية ودونه طبقات من الطرق والأبنية في سفوح الجبل يختلف إليها

(1) كلمة : كومنالي ؛ غير موجودة بالنص ومعناها : عمومي . أما كلمة : فيلا فمعناها : منـزه .

(2) يـوافق : الجمعة 2 جوان 1882 .

(3) كذا بالنص ، والصواب : فيلا كومنالي : المنزه العمومي : Villa Communale

(4) هذا الموضع هو المركز المختص بعلم طبائع الحيوانات وفيه أحواض لحفظ الأسماك والنباتات المائيـة : Aquorium

(5) أشجار هذا المنزه هي النخيل والصنوبر والسنديـان .

(6) الغبوق هو ما يشرب في العشي وهو خلاف الصبوح . اما التعريس فهو من عرس القوم اذا نزلوا من السفر للاستراحة ثم يرتحلون .

الراكبون والمشاة . وعليها أسوار ممّا يلي مسقط الجبل من رخام أو درابزونات (1) من حديد وربّما كانت نحاسا أصفر فيكون لها أجمل منظر .

وليست جميع تلك الطرق المنحوتة في سفح الجبل تمرّ فيها الكراريس العامّة بل بعضها مدخل لخصوص بيت صاحبه فيكون طريقا خصوصيا ، ولذلك يتفنّنون في تحسينه وتبليطه بذوات الألوان مع ما يحفّه من الشجر المختلف الأفنان بحيث إنّي إذا وقفت على الطبقة الخامسة من تلك المحجّات المنحوتة في ذلك الجبل نرى الطرقات والأبنية والكراريس والمشاة بعضها فوق بعض . وإذا كان الليل نرى طبقات النور الهوائي ممتدّة سموطا . وبما أنّ جميع البلد في جوانبه مشاعل النور الكهربائي على أعمدتها مع شدّة طولها يرى ناظرها سلكا من النور عن اليمين وعن الشمال على مدّ البصر لا يعوز الراكب في الليل أن يقرأ جرنالا (2) في كَرُّوسَتِهِ . ولمّا قضينا أوّل عشيّة في ذلك المنزه ورجعنا إلى دي لروب وجدنا الخبر منتشراً بوفاة غاريبالدي (3) قد هاج له أهل البلد وماجــوا .

/غاريبالدي [38]

هذا الرجل كان مَلاحًا إيطاليانيا وخدم في بحرية تونس (4) ومال في بلاده إلى حبّ عتق النفوس من ربقة استبداد الملوك وتجمّع إليه الأحزاب إلى أن كان رئيس الحزب الحرّ . وعرف بالشجاعة والإقدام في كثير مـن الوقائع حتّى كان من أعظم أسباب الوحدة الطليانية التي اجتمعت لفكتور

---

(1) بالأصل : درابيز . والصواب الدربزين وهو قوائم منتظمة يعلوها متكأ .

(2) جرنال : كلمة دخيلة ومعربها جريدة أو صحيفة .

(3) بالأصل : غاليباردي والصواب غاريبالدي . انظر ترجمته أعلاه صفحة 28 تعليق عدد 1 .

(4) جاء غاريبالدي إلى تونس سنة 1834 كلاجىء سياسي (انظر غانياج . مصادر الحماية الفرنسية بتونس . ص 48 ...Ganiage : *Les Origines*)

إيمانيول (1) بعد خلع ملوك نابلي وغيرها من الممالك الصغرى . وحصل على رتبة جنرال (2) وتظاهر أهل حزبه في سائر جهات إيطاليا . وفي آخر أمره استقرّ في جهة واحدة والدولة ترمقه بعين الاعتبار والاحتراس مراعية لما له من الخصال الحميدة التي حبّبته إلى الأمّة وما سلف له من الخدمات .

وكان بمعيّته أكبر أبنائه منيوني مدّة مرضه إلى أن توفّي في أوائل يونية سنة 1882 أواخر رجب سنة 1299 . وخطب رؤساء المجالس في إيطاليا بخبر وفاته والثناء عليه . وتعطّلت المجالس إلى الثاني عشر من يونية ، وعيّنوا مصاريف دفنه على الدولة لا من ماله . وفتحت اكتتابا عموميا لإقامة تمثال له وأقامت مَأتَمَهُ جميع بلدان إيطاليا ونشرته جميع الصحف وجرى الكلام في وصيّته المؤرّخة بالسابع عشر من اشتمبر سنة 1881 التي عاهد بها زوجته على إحراق جثّة من يموت منهما أوّلا حتّى تصير رمادًا يوضع في صندوق يدفن تحت الشجرة المظلّلة قبور أولاده بمدينة كابريره (3) .

وقام أبناؤه الستّة من بعده بحقّ تنفيذ وصيّة أبيهم في إحراقه . واختلفت مجالس إيطاليا حيث إن الحكومة خافت بحرقه أن تعيد على نفسها شريعة الرومانيين في حرق الموتى مع أنها نسختها الديانة المسيحية . وللأهالي من عموم الطليانيين ميل عظيم لإعادة الحريق عليهم بسبب ما انتحله الطبيعيون في هذه العصور . وقد كانت الجُرْنَالات [39] جالت في مجال هذه المسألة منذ نحو أربع سنين ونشرت تقريرات حزب الحريق . ومن أقوى بواعيثهم على طلب تعجيله على أجسادهم بنيران الدنيا زيادة على ما أعدّ لهم في الآخرة أن دفن أجساد الأموات يتعفّن به الهواء ويعطّل منفعة الأرض التي يقع فيها

[39]

(1) دخل فيكتور ايمانيوئيل Victor Emmanuel مدينة نابلي صحبة غاريبالدي وسط هتاف الجماهير في 26 أكتوبر سنة 1860 . وحصل على نعت ملك لإيطاليا في 14 مارس 1861 . (انظر : ترجمته : أعلاه صفحة 28 تعليق 2) .

(2) كلمة جنرال من الدخيل ومعربها : أمير أمراء .

(3) مدينة كابريره Caprera التحق بها غاريبالدي في فيفري سنة 1861 وبها كانت وفاته .

الدفن ويفضي ببقايا الأجساد إلى الامتهان في الطرقات إلى غير ذلك ممّا سوّلته له نفوسهم المستعجلة للنـار .

واستقرّ القرار في ذلك العهد على أن مدينة دريسون قصبة سكسونية (1) استعدت لبناء هيكل لحرق الجثث وحفظ رمادها وجعله محتويا على قاعـة تسع تسعمائة ألف قارورة من القوارير التي يوضع فيها الرماد . وأحدثوا لذلك آلة نارية يوضع فيها الميت فيصير رماداً في آن واحد من غير ان يضيع من مبناه ما يمكن أن يتطاير مع الهواء لو حرق على غير هذا الوجه . ولذلك كان أغلب أمّة الطليان في واقعة غاريبالدي على تأييد وَصِيَّتِهِ لولا ما خافته الدولة على كثرة مفاوضات المجالس في ذلك .

ولقد رأيت من عجب تأييدهم بمذهب غاريبالدي أنّ شابّة من رود (2) بناتهم كانت معنا في مجلس طعام فدار الحديث في المسألة فقالت : إنّي أشتهي إذا متّ أن أحرق ، وإنّي نوصي بذلك جميع أهلي . ولمّا أنكرنا عليها ذلك وخوّفناها ألم الحريق قالت : إنّها تخاف من نهش الحيوانات وخشاش الأرض والحيّات أكثر من النار وإنّها تطلب أن تحرق مرّة واحدة لتحصل بذلك على راحة الجسد . قبّحهم الله وما يشتهون . وذلك كلّه ميل لما يرون عليه غاريبالدي وتقليد له حسبما تقتضيه الطبيعة في الولع بتقليد الغالب . ولذلك أكثر الطليانيون من إظهار علامات الحزن على هذا الرجل إيذانا بأنّهم من حزبه . ونشروا راياتهم المختصّة بهم إذ كلّ حزب من الطليانيين يتّخذون لأنفسهم راية يجعلونها علامة عليهم وهذه [40] الأحزاب في السياسـة تلحظها (3) الدولة بعين المراقبة لما تخشاه من بوادرهم . نعم من أنواع الأحزاب عندهم الفريماسون أي إخوة البناء وهو حزب عام في جميع الدنيا ولذلك نتكلّم عليه هنا بما يمكن .

[40]

(1) مدينة دريسون Dresden باقليم ساكسن Sachsen بشمال ألمانيا .
(2) رود : ج الرادة والرائدة هي المرأة الطوافة في بيوت جارتها . أما الرود فريح رود وريح رائدة أي لينة الهبوب .
(3) بالأصل : تلحظهم .



نرى في هذه الصورة الملك فيكتور ايمانيوئيل ممتطيا الجواد المقبل وغاريبالدي ممتطيا الجواد المدبر وهما على ابواب مدينة نابلي في 26 اكتوبر سنة 1860

الفريماسون (1)

أي جمعية البنّائين الأحرار ، وهم جمعيات سرّية من الافرنج لا يعلم مبدأ تاريخ ظهورهم ، وإنّما هم يقولون إنّ أصلهم طائفة من بنّائي صور (2) أرسلَهم ملكهم إلى سليمان (3) عليه السلام إعانة له على بناء الهيكل . فكانوا يجتمعون اجتماعات سرّيّة فيما بينهم هنالك ، ولذلك يحترمون هيكل سليمان احتراما عظيما . وبعضهم يقول : إن ظهورهم كان في القرون المتوسّطة ، وأصلهم من بنّائي كنائس القوطية (4) . وكانوا إذا باشروا بناء كنيسة ينزلون وحدهم في خيام حولها ، ولهم أسرار في صناعتهم لا يبوحون بها لمن سواهم ، ولهم تعصّب .

ثمّ منحهم الباباوات (5) حقوقا وتمييزات قويت بها شوكتهم حتّى رغب الناس في جمعيتهم وانضمّ إليهم غير أرباب صناعتهم ، والتفّت إليهم الملوك وأباحوا لهم احتفال ولائمهم وإجراء قوانين جمعيتهم ، فنموا وتقوّوا بكثير من العلماء والأغنياء وانتسخت هيأة الجمعية الأولى وزالت منها مادّة البناء الحسّية واجتمعوا على خصوص الاتّحاد والمساواة وتشييد البناء المعنوي في السعي لما يثمر تحسين العمران . ولم يزالوا في النموّ والازدياد محافظين على كتم أسرار قوانينهم بحيث الآن عمّت جمعياتهم سائر الممالك . ولهم فيها عدّة محافل كلّ محفل له عدد من المتوظّفين ينتخبون سنويا بأصوات وهم على ثلاث رتب متفاوتة بحسب تفاوت الناس في القيام بحقوق الفريماسونية يجتمعون في مجالسهم [41] السرّية ويلبس كلّ واحد منهم لباس الصناعة . [41]

(1) Les Francs-Maçons. انظر : مجلة المشرق عدد 8–9 . سنة 1910 «السر المصون في شيعة الفرمسون» مقالة للويس شيخو . راجع أيضا مقال آلان غيشارد Alain Guichard : «ذكرى مرور مائتي سنة على تأسيس «محفل الشرق الكبير لفرنسا «Le Grand Orient de France» نشره في جريدة «لوموند Le Monde » ص . 31 بتايخ 13–14 ماي سنة 1973 .

(2) صور مدينة ساحلية في لبنان ، يرقى تاريخ تأسيسها إلى الالف الثالث قم . منها هاجرت أليسا ملكة صور مؤسسة قرطاج (800 قم) .

(3) ملك سليمان عليه السلام ملك اسرائيل (نحو 1008–978قم.) وقام بمشاريع البناء لا سيما بناء هيكل أورشليم .

(4) القوطيون : شعب جرماني إليه ينسب الفن القوطي في البناء الممتاز بحنايا القوس المكسور . (القوطية أو الغوطية) .

(5) كلمة دخيلة ومفردها : البابا : وهو كبير الديانة النصرانية .

فمن كان في الرتبة الأولى يضع على فخذيه شبه منديل البناء من جلد ، فإن ارتقى إلى المرتبة الثانية تكون له من ملّف وأطرافها بحواش زرق ، فإن ارتقى إلى الثالثة يزدادُ له فيها من الحواشي الزرق في وسطها ، والكاهية (1) له فاشّة (2) من نوع الحاشية ، والرئيس له رقبة وأيدٍ (3) مطروزة . ولهم نياشين يلبسونها علامات على مراتبهم في الخدمة وتكثير الحزب ، مرسوم على تلك النياشين اسم الإله بالانكليزي وصورة قرطبون (4) وذابد (5) ومطرقة من آلات البناء ، ويختمون جلساتهم بجمع صدقات من جميع الحاضرين يُعِدُّونها لإعانة المحاجين .

ومن أعمالهم عند قبول أحد للدخول في جمعيتهم السرّيّة أنّه إذا وصل إلى باب محلّ الاجتماع يوقفونه خلف الباب ويغمضون عينيه ويقوده أحد للدخول يسير في طول مدخل المحلّ مرارا عديدة يخيّل له أنّه في طريق الوصول حتى إذا أعياه المسير ودخل إلى بيت الاجتماع أوقفوه وفتحوا عينيه فيجدهم جميعا موجّهين إليه سيوفا يختبرون بذلك تثبّته وربّما أخافوه بأشياء أخرى . وبعد تحقّق ثباته يحلّفونه بحسب ديانته على أسرارهم حتّى لا يخبر بها أحداً ولو بالكتابة أو الإشارة ولو أفضى به الحال إلى ما يتلفه . ومع ذلك فقوانينهم وتراتيبهم معروفة مدوّنة في تواريخ الافرنج وإن كانت تحت غيم الستر عندنا في البلاد العربية لشدّة سترهم حيث يخشون أن تنسب إليهم أعمال ليست من مساعيهم أو تفسد عليهم بعض أسرارهم .

ومن الناس من ينسب إليهم التديّن بدين لهم وهو غلطٌ فاحش لأنّ جمعياتهم مركبة من أصحاب أديان ومذاهب مختلفة ومع كثرتهم وشهرة

---

(1) الكاهية : كلمة عامية تونسية ومعناها النائب .

(2) الفاشة : كلمة دخيلة تونسية تعني : الوسام . (راجع : ليون برشي ، العضد الايمن ... الجزائر ، 1944 ، ص 160) .

(3) بالأصل : أيدي .

(4) قرطبون : كذا بالنص .

(5) ذابد : كذا بالنـص .

كثير منهم في ديانتهم يبعد كلّ البعد أن ينسلخوا جميعا عن أديانهم بل إنّ المنقول في أخبارهم أنّهم يختبرون [42] الرجل بتوثّقه في ديانته . ومن قوانينهم ترك الخوض في المسائل الدينية عند الاجتماع وهم يعدّون أنفسهم إخوة البشريّة يسعون في مصالحها بالسعايات السرّية التي تعود بالنفع إلى أبناء الجنس ، ويعينون أصحاب الفاقة والمرض بغاية ما في الوسع ، ويؤدّون نشر المعارف .

[42]

وقد كان صاحب صحيفة التايمس (1) الانكليزية ذكر في فصل من صحيفته أنّ رابع أبناء الملكة (2) في لندرة البرنس ليوبولد (3) قد ترأس على محفل الانتكوتي (4) باحتفال عظيم وهو أقدم محفل في بلاد الانكليز ، وأنّ الفريماسون لهم في بلاد الانكليز نحو ألفي محفل . وفي فرنسا مائتان وسبعة وثمانون محفلا . وفي إيطاليا مائة وعشرة محافل . وفي البلجيك نحو خمسة عشر محفلا . وفي المكسيك ثلاثة عشر محفلا . وفي البرازيل مائتان وستة وخمسون محفلا . وفي الولايات المتّحدة نحو عشرة آلاف محفل . وهكذا بحيث لا تخلو بلاد متمدّنة من محافلهم .

وعدَدُهُم يبلغ نحو الستّة ملايين . وقد دخل منهم إلى معرض أميريكا الماضي خمسة وسبعون ألفا في يوم واحد ، ولبس منهم ثمانية آلاف لباسا واحدا رسميّا فَريماسُونِيّاً في يوم آخر ودخلوا به المعرض فكان لهم موقع عظيم عند عموم الناس إذ أكثر الملوك والخاصّة والأغنياء منتظم في سلكهم مثل امبرطور ألمانيا (5) ووليّ عهده (6) ووزيره الأكبر (7) وملك الدانمارك (8) ووليّ عهد انكليتيرة إلى غير ذلك من خاصّة أفراد أبناء المعمور .

---

(1) صحيفة التايمس Times صحيفة سياسية وأدبية من كبريات الصحف الانجليزية أنشأها سنة 1785 دجوهن والتر . John Walter

(2) بالأصل : المملكة

(3) البرنس ليوبولد : هو رابع ابناء فيكتوريا ملكة انقلترة من سنة 1837 إلى سنة وفاتها عام 1901

(4) محفل الانتكوتي : أقدم محفل في انقلترة .

(5) هو غليوم الأول دي هو هانزولّيرن (1888-1797) Guillaume 1er de Hohenzollern

(6) هو غليوم الثاني حفيد غليوم الاول (1859–1941) .

(7) هو بيسمارك (1815–1898) Bismark

(8) هو كريستيان التاسع (1818–1906) . Christian, IX

ولهم في جنسيّتهم حقوق بحيث انّ السائح منهم يجب على أهل حزبه في كلّ بلد أن يتولّوا أمره ويكفوه ما أهمّه . ولهم علامات يتعارفون بها منها ما هو عند مصافحة السلام ، فإذا أراد أحدهم أن يختبر أحدًا هل هو من حزبهم الفريماسوني يَجس بإبهام يده على العظم الناتي أسفل سبّابة صاحبه فإن كان منهم أعاد له الجسّ بعينه فتعارفا [43] وإلاّ فلا يتفطّن لقصد الجسّ . ومن ذلك أنّ المجهول إذا أراد أن يعرّف بنفسه يَجُرُّ يَدَهُ من منكبه الآخر إلى منكبها وينزل بها مع صدره حتّى تكون إشارته على شكل القرطبون من آلات البناء .

[43]

لطيفـة

اتّفق للهمام حسين (1) المكلّف بالمعارف التونسية سابقا أن اجتمع به أحد الفريماسون الطليان فظنّ أنّ هذا الهمام من حزبه ولكن لتحرير أمره جسّه عند المصافحة بإبهامه فأعاد له ذلك الجسّ فلم يشكّ الرجل في أنّ الهمام من حزبه وأظهر سرورا عظيما وتملّقا زائدا اضطرّ ذلك الهمام أن قال له : يا حبيبي إنّك غالط لأنّي لست منكم . فأظهر الجرأة وقال له : أو أنت لست من العائلة الكبرى ؟ فلم يتريّث ذلك الهمام أن قال له : أنا من العائلة الكبرى . فقال له : ومن هي العائلة الكبرى ؟ فقال له : عائلة أبناء آدم . فأفحم الرجل ورجع خائبا بارتجال ذلك الجواب من ذلك الجناب . وهذه له شنشنة معروفة لا تحصى نوادره في أمثالها .

---

(1) حسين : هو رجل من الجراكسة أتى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الباي حسين وأدخل إلى مكتب الحرب بباردو فتعلم العربية والفقه والفرنسية والتركية والفنون العسكرية وتلمذ لمحمود قابادو وللشيخ بيرم الرابع والشيخ سالم بوحاجب وساهم مع خير الدين في الحركة الاصلاحية بتونس وتوفي بايطاليا بمدينة بيرنسي في 6 ذي القعدة 27/1304 جويلية 1887 . (انظر : حوليات الجامعة التونسية عدد 7 – ص 92) .



اسماعيـل باشـا خديوي مصـر
(1895 ـ 1830)
توله حكم مصر سنة 1863 وعزل سنة 1879

معرض الأهالي بنابلي

هذا المعرض بنابلي من أشهر مَحَلاّت الأنطيكة (1) في قسم إيطاليا. وأصل وضعه للملوك إيطاليا وسمّي باسم بعض عائلاتهم. ولذلك كان اسمه: بوربونيكو (2). والآن ينسب إلى الأهالي ولذلك يسمّى: مُزَايُو نَاشيُونَال (3). وقد دخلت إليه صبيحة يوم السبت السابع عشر من رجب الأصبّ سنة 1299 تسع وتسعين (4)، مصحوبا بالأديب الأبرع إبراهيم باي المويلحي (5) كاتب سرّ الخديوي إسماعيل باشا (6) وبناؤه في غاية الضخامة وبابه مرتفع يرتقي إليه بمدرج من رخام في غاية الاتّساع وموقعه في المحج المنسوب إليه وهو مِنْ أحسن محجّات نابلي في حسن البناء والتنميق. وعند مدخله بيت وحاجز دُولاَبِيّ [44] من حديد لا يدخله إلاّ من أخذ تذكرة الجواز من ناظر البيت بعد أن يدفع هنالك نصف فرنك. فإذا سلّم تذكرته عند الحاجز يؤذن الداخل بدفع ذلك الحاجز ويديره إلى حيث يجد منه مدخلا.

ولمّا دخلناه وجدنا أسفله مقسّما إلى ثلاثة أقسام، كلّ قسم منها مقسّم على حسب ما فيه من أنواع الأنطيكة.

القسم الأوّل ذُو مَدْخَلٍ واسع طويل وبيوت متّسعة جدّا نظيفة منتظمة، فيها حفظة ومعرّفون. المدخل الأوّل منه التماثيل والدُّمَى. ففي

٥

(1) الانطيكة: لفظة دخيلة ومعناها التحف الأثرية.

(2) بوربونيكو: نسبة إلى أسرة البوربون Bourbon

(3) مزايو ناشيونال: تعبير ايطالي وتعريبه: المتحف القومي Museo Natzionale:

(4) يوافق: 3 جوان 1882.

(5) إبراهيم المويلحي: (1845–1905) كاتب سياسي ومنشىء صحافي مصري وهو أحد مؤسسي جمعية المعارف ومطبعتها. (انظر ترجمته في مقدمة كتاب حديث عيسى بن هشام لابنه محمد المويلحي بقلم شارل الخوري. بيروت 1969) (انظر أيضا: ترجمته في مقدمة الطبعة السابعة لحديث عيسى بن هشام. القاهرة، دار المعارف، 1947).

(6) أنظر أعلاه صفحة 32 تعليق عدد 3.

مدخله الأوّل : تماثيل ملوك رومية من عهد ثلاثة آلاف سنة أو أكثر من رخام ، وتماثيل كثير من مشاهير رجالها . وهي مختلفة النحت فبعضها منحوت الرأس والصدر فقط ، وبعضها تامّ الصورة منقوش على كلّ تمثال اسمه ، وفي بعضها نقش تاريخه وهي مئات من التماثيل .

وهنالك وجدنا كثيرا من علماء التاريخ بأيديهم كتب تاريخية يتتبّعون بها أصحاب تلك التماثيل . وحيث إن النحت كان على أصل هيأة أصحابه في اللباس والطور ، استفدنا من هنالك ما كانت عليه رجالُ العصور السالفة وشجعانُها وملوكُها . ورأينا فوجا عظيما من الملوك عراة على قُبُلِ كلّ واحد منهم ورقة من ورق كرم العنب وجميعُهم بغير ختان وأغلبهم غضوب في حال إظهار أمارات الشجاعة . وهناك طائفة على كتف الواحد منهم رداء مضموم على أحد كتفيه أو هو مضطجع به . وهنالك أفراد عليهم أنواع من اللباس كلّ على حسب قومه في عصره . ومن تلك التماثيل تمثال هركولى (1) وإليه ينسب بيته ، وهنالك أمامه ثور منحوت أيضا ، وهنالك تماثيل حيوانات ضارية من رخام أيضا قائمة على هياكل منقوشة أعجب نقش .

وفي المدخل الثاني : التماثيل القائمة من نحاس ، وهي تماثيل ملوك ورجال مشهورين من الرومان جميعها مصنوع على عهد أهله منذ [45] آلاف السنين ، وأكثرهم عراة الأجساد على أصل الطبيعة بغير ختان . وهنالك حيوانات وحيّات من معبودات الكوانين (2) كلّ من نحاس على أتقن ما يوجد من حسن الصنع وأنواع أخر من الأصنام المعبودة للأمم السالفة .

وآخره الثالث يحتوي على أوان وأحجار من النوع القديم مجموعة كلّ شكل منها إلى جنسه في خزائن من بلّور مكتوب عليها ما عُرف من حالها أو تاريخها . والناس يختلفون إليه من سوّاحين وأهالي (3) .

[45]

(1) هو هركول Hercule بطل من أبطال الميتولوجيا عند الرومان . سماه اليونان هيراكلس .
(2) الكوانين : كذا بالأصل .
(3) كذا بالنص والصواب : أهال مفرده أهلي .

القسم الثاني من الأقسام السفلى يحتوي على آثار الأبنية القديمة والنقوش الصناعية المَنْحُوتة في الأحجار والجبس مدهونة وغير مدهونة . وفي هذا البيت أحجار منقوشة بكتابات تاريخية من اللاتيني (1) والاغريقي (1) وبعض تواريخ مسلمي صقلية منقوش عليها البسملة وآية من القرآن واسم صاحب القبر من غير تحلية في البعض وبها في البعض كالشيخ الفقيه أبي عمر أحمد ابن سعدي المالكي المتوفّى ليلة الخميس لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 412 (2) عليه رحمة الله .

القسم الثالث فمن عجيب ما فيه بساط مزايكو (3) جيّد جداً ملوّن طوله نحو ثلاثة ميتروات وعرضه نحو ميترو ونصف مسيّج بدربوز (4) من نحاس ، وفيه محاربة إسكندر (5) مع أريوس الثالث (6) ملك الفرس سنة 331 (7) قبل الميلاد . والرجال في معترك القتال من الصفين كلٌّ على زيّه وفي طوره ، جميع ذلك حاصل من دقائق المزايكو القديم . وهنالك مدرج ينزل به إلى أسفل يحتوي على المآثر المصرية المنقولة أخيرا ومن أهمّ ما هنالك الموميات (8) من أجسام ملوك مصر التي مضت عليها نحو خمسة آلاف سنة وهي أجسام محفوظة مصبّرة . ومنها يعلم أنّ الهيكل الإنساني على شكل واحد في الخلقة ، فليس في أجساد الفراعنة ما يشعر بزيادة القوّة بل هم ببسطة الجسم مختلفون كهيأة تنافي اختلاف ما نحن عليه من الطول والقصر والضعف والسمن [46] فسبحان من خلق الإنسان في أحسن تقويم . [46]

(1) بالأصل : الغريقي والمقصود الاغريقي أي اليوناني وأما اللاتيني فمرادفه الروماني .

(2) يوافق سنة 1021م .

(3) كلمة دخيلة ومعربها الفسيفساء وهذا البساط من الفسيفساء الممثل لمحاربة الاسكندر قد عثر عليه باحدى دور مدينة بومباي ونقل إلى ذلك المعرض .

(4) كلمة محرفة عن درابزون .

(5) هو الاسكندر الاكبر (356–324ق‌م) الملقب بذي القرنين . توفي في بابل .

(6) بالنص : أريوس والصواب : داريوس وهو داريوس الثالث الذي انهزم امام الاسكندر الاكبر ومات مقتولا سنة 330 ق‌م .

(7) انتصر الاسكندر الاكبر على داريوس الثالث في أربيل بالعراق .

(8) الموميا ، ج ، الموميات : جسم محنط على طريقة قدماء المصريين .

وهنالك تماثيل من نحاس ورخام بعضها من الأصنام وبعضها تماثيل أفراد من الإنسان والحيوانات مختلفة . وهنالك بعض حيوانات أيضا مصبّرة وبعض أحجار مصنوعة صناعة قدماء مصر .

وأمّا القسم العلوي من هذا المعرض الأهلي فله مدرجان يجتمع أعلاهما عند مدخله . وهو مقسّم أيضا أقساما كثيرة على حسب تقسيم أنواع الأشياء التي هنالك . ومن أعظم الأقسام هنالك قسم الصور التي من الدهن مرسومة على الأقمشة أو الكواغد الخشنة أو نفس الحائط . وهو مؤلّف من سبعة بيوت يدخل إليها بأربعة عشر بابا . كلّ بيت بلغ الغاية في الاتساع والكبر والضخامات وكثرة الشبابيك تحتوي على جميع صور الملوك والباباوات ومشاهير الشعراء والحكماء من اليونان والرومانيين .

وهنالك صور النسوة البارعات الجمال وصور الحيوانات الجميلة المنظر وأطوار من ألعابها ما يروق الناظر . وأعجب ما في ذلك التصوير صناعة الظلّ التي تظهر بها الصورة مجسّمة . وجميع تلك الصور مرسوم عليها اسم من رسمها من مشاهير علماء التصوير بحيث إن بعض تلك الرسوم يعجز عنها علماء العصر الحاضر لما هي عليه من كمال الإتقان والتسجيم (1) . ولقد رأيت امرأة مجرّدة من ثيابها مرسومة هنالك فوق أحد الأبواب فخيّل لي إتقان التصوير أن هنالك فراغا في الحائط والمرأة مستلقية فيه .

وجميع تلك البيوت بها علماء التصوير جالسون لانتساخ ما يريد كلّ واحد نسخه منها بحيث إن كلّ واحد جالس على كرسيّه تجاه الصورة التي يريد أخذها وأمامه طاولة أدهانه وهو ينسخ دقائق تلك التي لم يمكنهم الحصول على سرّ ما فيها من الإتقان ، وسبحان من انفرد بإيجاد الخلق على أكمل الصور . وهنالك قسم آخر يبلغ مبلغ هذا القسم أو أكثر يحتوي على نفائس

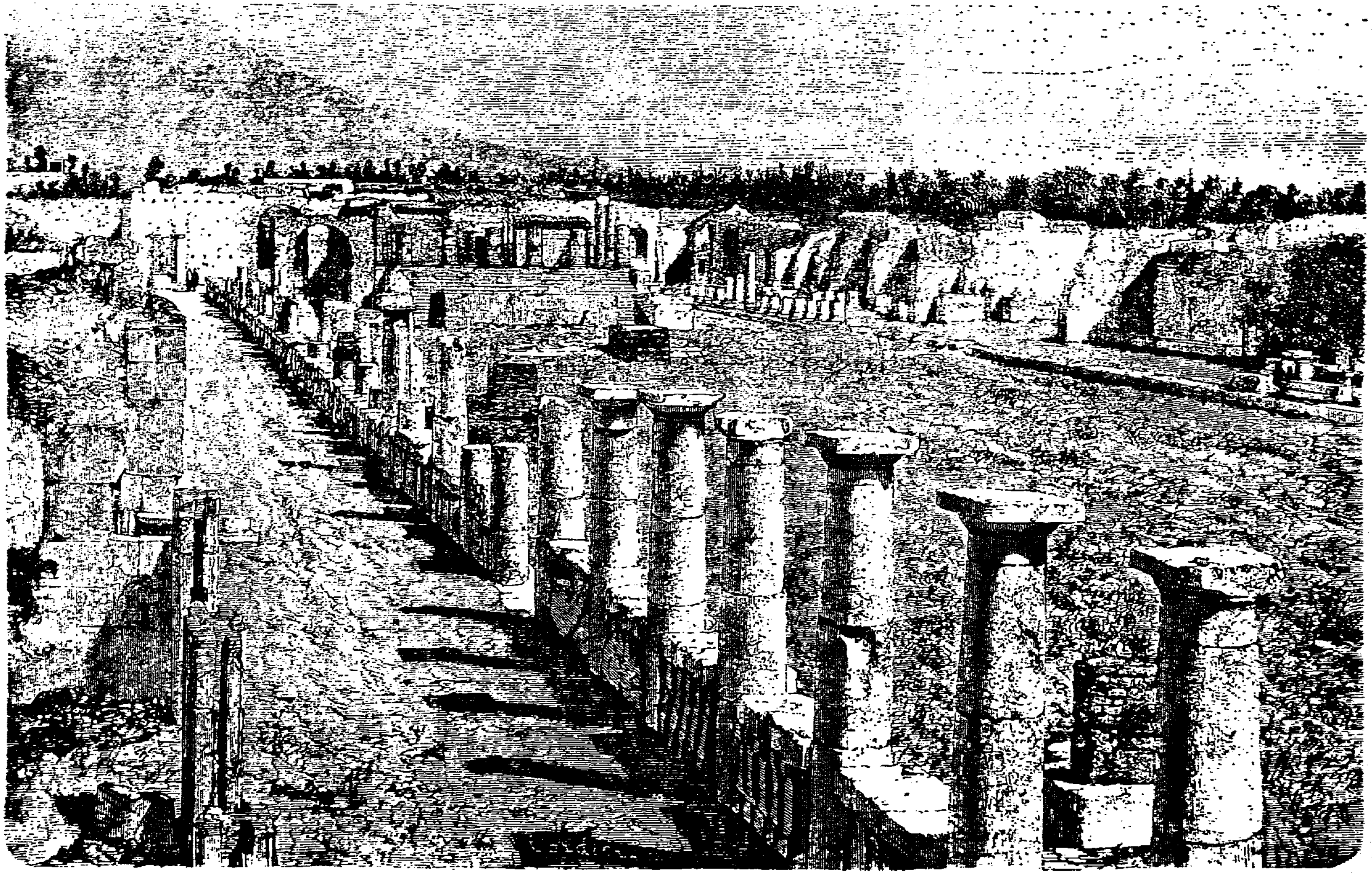
(1) التسجيم : من سجم تسجيما الماء أي صبه .

[47] الأمتعة والتماثيل النحاسية وقديم الأحجار [47] والأواني والآلات الرومانية وغيرها مما يدل على ما كانت عليه أمم العصور السالفة .

وهنالك قسم آخر يختصّ بأواني الفخّار المختلفة الكبر والصغر مما كان يستعمله الرومانيون وهو أيضا قسم كبير . وهنالك قسم الكتب وهو مكتبة نابلي الشهيرة وهاته المكتبة في بيت يبلغ طوله مدّ البصر بحيث أنّ دائر البيت على الطول مخطّطة بطريق حديد عليه كرسي بالعجلات يسير به القيّم لمناولة الكتب من جهات الخزائن إذ البيت محاط جميعه بخزائن الكتب ذات طبقتين . وأمام الطبقة العليا برطال (1) مسوّر بدربوز من نحاس على دائرة البيت وأسفله الطبقة السفلى . وفي جوانب البيت بيوت أُخَرُ متداخلة محاطة بالخزائن غاصّة بأفراد الناسخين والمطالعين . وفي مجموع المحلّ نحـــو المليونين من الكتب المختلفة الفنون ، وكلّ واحد من القيّمين مشتغل بعمله ولا يدخل أحد إلى محلّ المطالعة إلا خفيف الحركة ويمشي الهوينا خشية أن يشوّش على المطالعين .

وبالجملة فقد قضيت أكثر من ساعتين نطوف في أقسام هذا المحلّ العجيب ولا ننظر إلى أصناف ما فيه إلاّ شزرا ولا نقف عليها إلاّ مارّا : وفي جميع هاته الآثار القديمة عون عظيم لعلماء التاريخ والطبيعة على مباحث مهمّة فضلا عن كون الاطّلاع على تلك الآثار ربّما اهتدى به الناظر إلى شيء ممّا ينفع العموم ، ولذلك تجد القيّمين هنالك ملزومين بمساعدة الناظرين على ما يطلبون تحقيقه على أكمل وجه . وليس المراد من ذلك مجرّد التفرّج في أحجار وقطع من الأشياء لا قيمة لها عند بعض الناظرين . وقد خرجنا من هذا المحلّ العجيب عند الزوال . وحيث إن قسم آثار بُومْبَاي في هـذا المعرض من أعجب أقسامه نفرده هنا بفصل مستقلّ يقوم بحكاية تاريخها وشرح ما وقفت عليه من آثارها شرحا مفيدا [48] . [48]

(1) البرطال : لفظة دخيلة عامية تونسية ومعناها : الرواق .



مشهد من آثار مدينة بومباي سنة 1882

بومباي (1) [موقعها وتاريخها]

هي مدينة قديمة من إيطاليا الجنوبية تبعد 12 ميلا عن نابلي إلى الجنوب الشرقي . وموقعها حضيض فيسوفيو جبل النار الشهير بإيطاليا . وفي تاريخها من قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة سنة أنها كانت مدينة يونانية ثمّ خضعت للرومانيين واستوطنها كثير من أغنيائهم . وبعد المسيح بثلاث وستين سنة (2) حدثت فيها زلزلة عظيمة بسبب استيقاظ بركان أزوف (3) بعد خموده عدّة أجيال فهدمت أعالي مبانيها ونهت دولة رومية عن ترميم ما سقط منها . إلاّ أنّ أهاليها بعد حين استأذنوا الدولة وأخذوا في ترميمها على حسب الزي الروماني الجديد .

ولم يمض عليها غير زمن قليل ودهمتها الطامّة الكبرى بتزلزل متكرّر في عدّة أشهر وانفتحت به فوهة بقمّة جبل أزوف (3) كالهاوية انفجرت منه سحابة من الرماد طبقت الجوّ إلى أن وصل غمامها إلى شواطىء إفريقية وحجبت الشمس عن رومية . وفي خلال الرماد ما انضغط من حجارة الجبل وقليل من سواد البركان وانهالت على مدينة بومباي انهيال السيل فغمرتها وارتفعت فوق أرضها ثلاثة أقدام (4) .

وكان أهل البلد مجتمعين في أعظم مجامعهم بالمسرح (5) الكبير . ولما أشعروا بما حلّ بهم انثالوا من المسرح فارّين من كلّ جانب ، فحصل أكثرهم على منجاته سوى قوم رجعوا إلى بيوتهم يطلبون استخراج أمتعتهم

---

(1) مدينة بومباي : حدث فيها انفجار البركان سنة 79 بعد الميلاد. انظر : *Larousse*, Paris 1966, pp. 280-281

(2) بعد المسيح باثنتين وستين سنة لا ثلاث وستين أي في 5 فيفري 62 بعد المسيح حدثت الزلزلة التي هزت الاقليم الواقع جنوبي نابلي ومن أهم مدن هذا الاقليم بومباي إذ كان يقطنها قرابة 20 ألف نسمة .

(3) جبل أزوف : الصواب : فيزوفيو . وقد استيقظ هذا البركان فجأة في أوت من سنة 79 بعد الميلاد .

(4) يقدر ذلك الارتفاع بستة أو سبعة أمتار .

(5) بالأصل : المرسح والمشهور اليوم : المسرح .

أو نفائس ذخائرهم وآخرين أثقلهم العجز أو التواني . فإذا بالبركان انفجر بأباريقه وحميمه فصبّ عليهم الحميم من مذاب المواد البركانية في حالة الاشتعال واحترق بلظاه كلّ بارق في البلد من الناس والحيوان كما احترقت منها جميع المواد القابلة للاحتراق من الأخشاب والأمتعة حيث إن الحميم استمرّ انهياله على البلد إلى أن عمّ جميع طرقها فطغى تياره إلى داخل جميع [49] بيوتها إلى أن ارتفع فوق سطح أرض البلد ثمانية أقدام وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر آب سنة تسع وسبعين مسيحية (1) . [49]

وبعد انتهاء صبّ الحميم عاد صبّ الرماد وأعقبته الحُمَم إلى أن بلغ ارتفاع الجميع عشرين قدما فغطى على جميع البلد وأصبحت دفينة ذلك الرماد لم تبق منها باقية هي وهركولانوم (2) وستابيس (3) بحيث إن كُلا من الثلاثة زال رسمها ولم يبق إلا اسمها وقضت تحت الدفن ثمانية عشر قرنا بعد أن أقيمت في موقعها قرية أتى عليها هياج البركان سنة 472م . والتحقت بسالفتها . وبقيت تلك الأرض خالية إلى أن أتى عليها أيضا هياج سنة 1879 وعظم فيها الزلزال إلى أن تغيّر موقعها من الأرض وبعدت عن البحر عدة أميال بعد أن كانت على شاطئه وتحول نهر سارنو (4) عن مجراه الأصلي بحيث تعذّر على علماء الجغرافية تحقيق مركزها الأصلي إلى أن أراد أحد المهندسين (5) أن يجرّ قناة إلى بعض الجهات سنة 1592 فجرت القناة ببعض خرائب بومباي فعلم مقرّها .

ولم يقع تعاطي كشفها إلى سنة 1748 فأمر كالوس الثالث (6) ملك نابلي بالبحث عنها وجرى على ذلك عمل من بعده من الملوك حتى انكشف بعض

---

(1) صواب التاريخ ما أثبتنا وما بالنص خطأ : الثالث والعشرين من شهر آب سنة تسع وثمانين .

(2) هركولانوم : هي مدينة دفنت تحت رماد الكارثة ابتدأت الحفريات عنها سنة 1719 Herculanum (Ercolano)

(3) بالأصل : ستيبي والصواب ستابيس Stabies

(4) نهر سارنو Sarno

(5) هو المهندس د. فونتانة : D. Fontana

(6) كذا بالنص . والمقصود : كارلوس الثالث Charles III الذي ترك لابنه فرندناند الرابع عرش نابلي سنة 1759 كي يجلس هو على عرش اسبانيا .

آثارها . وفي سنة 1861 ساعدت الدولة على أعمال الحفر مساعدة كثيرة غير أنّ الحفر هنالك جرى بغاية التأني خوفا على الآثار الباقية من التلف . وقد بلغوا من ذلك بالمواظبة مع طول المدّة إلى كشف ثلثها . وقد قال أحد المهندسين : إذا كان الحفر بمعدّل عمق خمسة وعشرين قدما وكان عدد الحفارين أحد وثمانين فاعلا في اليوم ينتهي حفر المدينة سنة 1947 . وعلى كل حال قد اكتشف الآن أحوال بومباي اكتشافا عرف آثارها وأطوارها وآدابها كيف كانت منذ ثمانية عشر قرنا . وذلك أن الحميم السيال لما أحاط بأجرام جميع الأشياء الدقيقة والجليلة حفظها [50] من الأهوية وعوارض الفساد حتى بقيت آثارًا تامّة شاهدناها بأبصارنا في هذا العصر الحاضر بحيث إن جدرانَهـا البنائية وسقفَها وجدت على حالتها الأصلية وكذلك ديوانُ الأحكام الشرعية والمجلسُ البلدي والسجنُ والحمّامُ ذُو (1) الحياض المعدّة للماء البارد والسخن وبه موضع الجلوس للمحاورة وفسحة الرياضة حولها حديقة ذات مقاعد تتراجع بها القوّة بعد فتور الاستحمام . والدور التي على رسم ديار البلاد التونسية (2) وأمام أبوابها حوانيت أصحابها وكذلك الأرحية والأفران التي بداخلها خبز مكلّس .

[50]

فجميع تلك الأبنية قائمة بادية التزويق للناظر (تامّرت تحسيناتها بما يتراجع باليسر شيء = كذا في النص) ولم يتعدم من أبنيتها إلا بعض طبقات ثانوية كانت مبنية من خشب فاحترقتها المواد حين نزولها . غير أنّ ذلك لم يؤثر تأثيرا له بال وذلك أنّ الأعيان كانوا يبنون الطبقة السفلى من حجارة ويختصونها للسكنى ويجعلون الطبقة العليا من خشب لمجرّد وضع المونـة .

وأشكال البناء هنالك بين روماني ويوناني وأكثر البيوت صغير غير معتل وذو الطبقتين منها قليل وبعضها مزخرف . واكتشفت ثمانية أبواب للبلد وعند

---

(1) بالأصل : ذي

(2) راجع بخصوص ما لاحظه الشيخ محمد السنوسي من مشابهة بين رسم ديار بومباي وديار تونس : S. Gsell, *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*, IV, p. 193, 204, 396

بعضها بيت الحارس وربّما كان قائما بـآلة حراسته . وطرقها الخارجية متّسعة وعلى جوانبها مقبرة كبيرة من نوع مقابر الرومان وبيوتها مزخرفة تدلّ على ثروة أصحابها وذلك أنّ عادة الرومانيين إذا مات الميّت عندهم أقاموا له في المقبرة بيتا وبعد أن أحرقوه أتوا برماده في وعاء فوضعوه في زاوية من هذا البيت دفينا ويأكلون الطعام هنالك . ويبقى ذلك البيت هو مسمّى قبره يجتمع فيه أهل الميّت عند قصد زيارته .

أما سكان بومباي فقد قدّرهم ناظر الحفر بأنّهم لا يزيدون على الاثني عشر ألفا وقدّرهم [51] غيره بما بين العشرين والخمسين ألفا . وعلى كل حال فالرمم البشرية التي وجدت هنالك إلى هذا الوقت لا تزيد على الستمائة وسبب قلّة عددهم هو اجتماعهم قبل حلول الواقعة في مشهد المسرح العام خارج البلد وفرارهم عند الشعور ثم إنّ الناجين عادوا للكشف عن أقاربهم وأخرجوا ما أمكنهم الوصول إليه من الجثث والنفائس حسبما دلّ عليه التغيير الذي وجد في بعض الأماكن . وفيما اكتشف عليه من الرمم تاريخ يعبّر عن حال المصابين حين إحاطة العذاب بهم . فترى الأمّ ضامّة ولدها إلى صدرها وربّ البيت حوله زوجته وأولاده والمحبّين متعانقين على فراش الدعة والأسرى مقيمين في أصفادهم ، أتى على جميعهم سيل الحميم فدفنوا جميعا في قيد الحياة وعلى شرخ الشباب .

[51]

وقد جرى العمل هنالك في الرمم التي يعثرون عليها تحت منجّد الحميم أن يأتوا بـآلة للثقب على الرقة ويستفرغون موادّها الهبائية حتّى يبقى فراغها على هيأتها التي هي عليها فيفرغون فيه جصّا يملأه فينسكب هنالك على تلك الصورة الأصلية لا ينقصهم إلا الحياة . ومن ذلك أربعة أشخاص جاءت تماثيلهم تعجز أبرع النقاشين عن الإحاطة بدقائق ما هم عليه . أحدهم شخص امرأة وجدت مستلقية في بعض أزقة المدينة على جانبها الأيسر وعلى رأسها نقاب وفي إصبعها خاتمان وأعضاؤها منقبضة وإلى جنبها 91 قطع نقدية وكأسان يظهر من حالها أنها كانت قابضة على جميع ذلك ملتجئة به إلى الفرار فأدركها

الحميم في زقاق سقوطها وإلى جنبها امرأة من الرعاع لوجود خاتم من حديد في إصبعها وفتاة لا يزيد سنّها على الخمس عشرة سنة ظهرت فيها طيات ثوبها ونسيجه ويظهر من حالها أنها لما أدركها الحميم غطت رأسها بثوبها فسقطت على وجهها ولكن لما لم تستطع النهوض ألقت جبهتها على ذراعها [52] والشخص الرابع مستلق على ظهره وذراعاه منبسطتان وجُرموقاه (1) مشدودان وفي إصبعه خاتم حديد وفمه مفتوح سقط بعض أسنانه وعلى وجهه أمارات الشجاعة.

[52]

وقد وجد هنالك شخصان آخران احترقا فصار كلّ منهما قطعة من فحم وهما في حالة الفرار . ووجدت عظام أربعة وستين شخصا كانوا مجتمعين في محل واحد . كما وجد أيضا نحو السبعين تمثالا من نحاس منها تمثال شاب جالس ورأسه على يده وذراعه على ركبته في أقصى درجات الدقة من صناعة التصوير . ووجدت هنالك أسلحة وأمتعة كثيرة ونفائس كثيرة ، فمن الذهب ثمانية خواتم وست قطع معاملة وحلقتان وسوَارَان كبيران على كل منهما اثنا عشر زوجا من هنات ذهبية مستديرة على شكل نصف كرة متّصل بعضها ببعض بواسطة سلسلة ذهبية وطوق مصنوع من سلاسل ذهب ومن الفضة خاتم وثلاثمائة وثلاث وثلاثون قطعة من قطع المعاملة وثلاث قطع كبار من النحاس .

ووجدت هنالك أوان من صناعة مصر القديمة مصنوعة من مادّة خصوصية مركّبة من الجبس الأبيض والبلّور وهي مكلّلة بنقش مصوّر فيه أصنام من الحيوان الذي كان يعبده المصريون . هذا وجميع آثار بومباي من حبوب وأمتعة وأوان وأثاث وغير ذلك كلّها جمعت في معرض الأهالي بنابلي يوم السبت السابع عشر من رجب (2) وقد مضى الكلام على تفصيل عجائب هذا المحلّ وانّما نذكر هنا ما شاهدته في أحد أقسامه العلوية من آثار بلد بومباي وهركولانوم (3) .

---

(1) الجرموق : ما يلبس فوق الخف الصغير ليقيه من الطين .

(2) يوافق : 3 جوان 1882 .

(3) انظر أعلاه صفحة 49 تعليق عدد 2 .

[ما شاهده المؤلف في أحد أقسام معرض الأهالي بنابلي من آثار بومباي وهركولانوم]

ومن أعجبه عندي بيت وجدته على طوله وعرضه محاط بمعاقات (1) من بلّور ذات زنار مذهب وتحت صفحة البلّور من كل واحد منها ورقة محترقة سوداء تظهر فيها آثار نقوش كتابية كانت فيها كما هو شأن الأوراق المكتوبة إن احترقت . وأكثر تلك الأوراق مستطيل والكتابة به على العرض . ووجدت [53] هنالك خزائن وجوهها من بلّور وفي وسطها لفائف من ورق محترق على حالة احتراقها بلفافها الذي هي ملتفّة به قبل الاحتراق ، فبحثت عن جدوى هاته الآثار فإذا هي آثار مكتبة بومباي التي وجدوها تكلّست بالاحتراق وصارت كالفحم فعالجوها حتى أمكن لهم أخذ جعبة كما هي عادتهم ففتحوها بأكمل لطافة وحفظوها بين أطباق البلّور وتتبّعوا آثار نقوشها ونسخوا منها بعض كتب فطبعوها بقلمها اللاتيني ، وأكثرها في الفلسفة فأصبحت تلك الكتب مقروءة للعارفين باللسان اللاتيني بعد مضي سبعة عشر قرنا وهي محترقة (2) .

[53]

[انتقاد المؤلف علماء تونس]

فلينظر الإنسان إلى الاعتناء بالأشياء إلى ماذا يبلغ بصاحبه . وهنالك وقفت مليّا أفكّر في أمْر أمَم هذا الجيل وما لهم من الاعتناء بتكثير المعارف والتنقير عليها ونشرها إلى نفع عموم الجنس البشري حتّى وصلوا إلى هاته الغايات . وبذلك تحقّقت سبب تقهقر أمرنا بين أمم العالم فلاحظت أن أفراد علمائنا

---

(1) بمعاقات : كذا بالنص والصواب : عوائق مفرده عائق من عاق : تقول عاقه عن كذا : صرفه عنه .

(2) تظهر في الفقرة السابقة شدة عناية الشيخ محمد السنوسي بملاحظة كل ما يشاهد والملاحظ في الفقرة الموالية جرأته وواقعيته وانتصاره لمذهب الاصلاح الذي يعتبر الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها .

يتباهون بأنّ الواحد منهم له كتاب غريب يبخل به عن بني جنسه ، وبعضهم يكتم ما يجد لأسلافه من الآثار العلمية ، ثمّ لنا في خزائن الكتب من تآليف الفحول التي تتوق إليها النفوس ومع ذلك منها ما لم تزد نسخه على نسخة المؤلّف ، ومنها ما تلاشى بعضه ، وهذه المطابع العربية كلّها تجارية لا تطبع إلا ما يتحقق المشتركون فيه رواجه . ولا توجد عندنا جمعية لطبع غرائب التآليف وإخراجها من كنّ خزائنها فضلا عمّن يتتبّع محترق الأوراق لينشر ما تضمّنته في سائر الآفاق .

[بقيّة مشاهدات المؤلف بمعرض الأهالي بنابلي]

ودخلنا إلى بيت صغير هنالك يحوي آثارا دقيقة من خواتيم وفصوص وأساور وأشباهها وجدرانها محاطة بقطع من رخام مُسَرْمَرٍ بألوان الخضرة والحمرة والصفرة وبعضها مبني في نفس الجدار وكلها صور أنكحة كلّ صورة فيها كيفية اجتماع [54] المتناكحين على كيفية تغاير سواها وهي صور كثيرة جدّا . وفيها من صور اللواطة الكثير قبّحهم الله فيما صنعوا . وذلك مصداق سوء عادة أهل بومباي التي غضب الله عليها فأصابهم بما يستحقّون إذ في أخبارها أنّ أهلها تعمّقوا في اللواط وتجاهروا به تجاهرا بلغ إلى أنّ أحد ملوكهم تزوّج بغلام وأولَم لزفافه وليمة أشهرها على قانون التزوّج عندهم ، نعوذ بوجه الله من ذلك الفحش المبيد ، (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (1)) .

وهنالك بيت آخر محاط بخزائن وموائد مغلقة بأطباق البلّور وفيها جميع حبوب بومباي من فواكه وأفاويه (2) وتوابل كالقمح والشعير والحمص واللوز وما شاكلها كلّها على أصل خلقتها سوى انها مسوّدة من الاحتراق

---

(1) القرآن : سورة فصلت (41) ، الآية : 46 .

(2) أفاويه : الانواء وجمعه أفاويه : التوابل .

ولا يزيد حجم شيء منها على ما هو متعارف عندنا . كما هنالك من بيض الدجاج واللحم في أوانيه والخبز المكلّس وقطع الفواكه ما يرى به الانسان طور ما عليه ذلك الجيل . وهنالك من الألبسة جميع أنواع ثيابهم متكلّسة بالاحتراق محفوظة على أكمل حالة .

ثم دخلنا إلى قسم عظيم رأيت فيه جميع أنواع آلاتهم كلّ نوع منها على حدة . فالمطبخ منها يحوي جميع أواني الطبخ والأكل والشرب من نحاس وقوالب تحويل بعض المأكولات . وجميع الأوعية والأواني الفخار كبيرها وصغيرها وهي على اختلاف أشكالها فخارها أحمر أملس عليه نقوش صور ملوّنة بين الأسود والأبيض ورأيت هنالك آلات الكيل والوزن وبعضها حجري وأنواعا من القناديل وبعضها من ذهب وبعضها تحف تصنع برسم النذور لآلهتهم من طسوت وموائد وأنواعا من الأسلحة ومنها بنادق يودّ حملها أفراد من الرجال يحتمل أن يكون الضرب بها وهي موضوعة على حائط مثلا أو أنها صنعت لمجرّد تزيين محلّ الأسلحة لأنّي كنت رأيت خزنة [55] السلاح بتونس وفيها بعض قطع لا يمكن حملها وإنّما توضع لمجرّد تزيين الزنة . ورأيت هنالك جميع العدد العسكرية والآلات الموسيقية إلى غير ذلك من الآثار التي مضت عليها تلك الأعصار .

[55]

وفي وسط ذلك القسم هيكل من خزائن على طول البيت أبوابها بلّور وفي وسطها نفائس الآثار منها مرآة من معدن صقيل يرى بها الوجه وصندوق من فضّة وقطع من حليّ ونفيس الأمتعة والمصوغات والمسكوكات وقطع من العظام يقرب عرضها من طولها بكتبة منقوشة وقطع النرد إلى غير ذلك مما جميعه على شكل ما هو مستعمل عندنا وسبق تفصيل بعضه . وفي آخر هذا القسم من ميمنة البيت قطع من فخّار أحمر موضوعة بوضعها الذي وجدت عليه مرتفعة نحو العشرة صانتيمتر في مجموع مساحتها صورة خريطة رقيم بلد بومباي .

وعند نزولنا إلى أسفل هذا المعرض دخلنا إلى قسم آثار أبنية بومباي فإذا فيه قطع من النقوش على الجبس وبعضها ملوّن منها ما فيه صور حيوانية ومنها ما هو ذو أشكال لطيفة . وبالجملة فإنّ جميع ما عثر عليه في بلد بومباي نقل إلى هذا المحلّ ليشاهد المطالع آثار عوائدهم الغابرة . ثمّ إن أهل بلد نابلي لكمال اعتنائهم ببومباي أجمع بعض مصوّريهم على تصوير المقدار المكتشف من بلد بومباي الذي هو مساحة ستّة آلاف وثمانمائة ميتر وصوّره فوق أنواع من التلّ أقيمت في محلّ داخل بلد نابلي في طريق كاثهونا يسمّى بومباي . ونوع التصوير يسمّى بوناوما دخلته عشية يوم الخميس الخامس عشر من رجب (1) وكان بمعيّتي أحد الجواهرجية (2) من يهود مصر يسمّى سيمون ، المقيم هنالك بمعية إسماعيل باشا خديوي مصر السابق .

فدخلنا إلى ذلك المحلّ فإذا هو ذو درجات من لوح يصعد منها إلى دائرة يبلغ قطرها نحو ستة متروات [56] يحيط بها دربوز وعليها سحابة من زجاج عليها ستار أسود ينحصر بها نور الشمس انحصاراً يظهر معه سرّ صناعة ذلك التصوير . ولمّا وقفنا في وسط الدائرة رأيت نفسي قائما في وسط بلد بومباي والبلد محيطة بي من الجهات الأربع وجبل فيسوفيو بيميني والبحر أمامي والبركان يقذف بدخانه ورماده وشراره في مبدا أمره . وحيث إن الطريق التي كانت أمامي إلى البحر لم نر إلاّ الفارّين له والراكبين في زوارق الفرار . وهكذا حال الحيوانات العجم في الفرار ونعوذ بوجهه من شرّ الشرار وعذاب النار . ورأيت في بقية الجهات صفة الأبنية كلّها على أصل وضعها من تشييد دواوين الأحكام وتوسعة المراسح (3) وتحسين الأدهان ومبلغ ارتفاع الأبنية وضيق الطرقات التي لا تتجاوز ممرّ الكرّوسة الواحدة وكيفية الحدائق وغير ذلك من أحوال البلد . ومع إعمال غاية التأمّل في التوصّل إلى ما نعلم به أنّني

[56]

(1) يوافق : غرة جوان 1882 .
(2) الجواهرجية : تعبير عامي تونسي ومعناه النسبة إلى المشتغل بالجواهر .
(3) بالأصل : المراسح والكلمة المستعملة اليوم : المسارح وكذا أثبتناها في بقية النص .

نرى مثالا لا وضعا حقيقيا لم يمكني ذلك لكمال إحكام صناعة ذلك التصوير حتّى غلب عليّ الخيال وتأثرت منّي النفس بحالة تفجّر البركان التي اكفهرّ وجه الجوّ واغبرّ الأفق وأظلم النهار فخرجت مستعيذا من تلك الحال بالعزيز الجبّار سائلا منه دوام اللطف والوقاية من عذاب النار فخرجت وأنا في دهشة الخيال متعجّبا من إتقان تلك الصناعة التي لا تظهر إلا مع نور الشمس . أمّا اذا تستّرت الشمس بسحاب أو ليل فلا يظهر في ذلك المحلّ شيء .

[إسماعيل باشا وأبناؤه ونسوته وأتباعه كلّهم يلبسون البرانيط]

وعند خروجنا اعترضنا شابّ عليه لباس آحاد الطليانيين برنيطة قصيرة وعصاه طويلة وهو مسرع السير ، فوقف مع رفيقي يخاطبه باللسان الطلياني وبما أنّي لا معرفة لي بالرجل ولا باللسان لم نقف معهما وأخذت أتماشى قليلا ريثما يدركني رفيقي إلى أن انفصلا وقصدني رفيقي في مسيره ثم تذكّر شيئا عند صاحبه [57] فلم نشعر إلاّ وهو ينادي : يا أحمد أفندي . فبقيت أنظر من هو المسمّى بهذا الاسم ، فإذا هو صاحبه الأوّل ، فاندهلت من ذلك وتنقّلت من عجائب صناعة تصوير بومباي إلى عجائب تسمية ذلك الرجل بأحمد ، ورجعت إلى أن وصلت إليهما على حين انفصالهما ، فسألت عن الرجل فأخبرني بأنه مسلم من معيني إسماعيل باشا . ولما رأى ما بي قال لي : إنّ إسماعيلَ باشا وأبناءَهُ ونسوتَه وأتباعَه كلّهم يلبسون على رؤوسهم البرانيط ، فقضيت من ذلك عجبا وقلت **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** (1) كيف وهي من اللباس المختصّ بأهل الكفر ولبسها ردّة ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

ثمّ بلغني عن أفراد كثيرين من أعيان المسلمين إذا حلّ الواحد منهم في بلاد الكفر لبس برنيطة وانخرط في سلكهم ، نعوذ بالله من هذا الضلال

(1) القرآن : سورة الرعد (13) . الاية : 11 .

المبين . مع أني ما رأيت قطّ نصرانيًا دخل إلى بلاد الإسلام فلبس عمامة يطوف بها الأزقّة وإنّ هذا لمن موجبات ازدراء الافرنج بالمسلمين إذ يرونهم متهافتين على عوائدهم وما كان من شعارهم مع أنّ الواحد من النصارى اذا حلّ في غير أرضه يفتخر بالمحافظة على عوائده وما كان شعار بلاده إيذانا بأنّ لجنسه عوائد في نظام العالم . ولعمري إن المنسلخ عن عوائده سيّما الراجع إلى الدين لمن أسخف الناس عقلا وإلاّ إن كنّا نعتقد أنّ لهم عوائد يختصّون بها ولنا عوائد مثلهم فما بالنا نؤثر عوائدهم ولا يؤثرون عوائدنا ؟ وأنا أقول هذا في غير ما يعود بالمنفعة الدنياوية التي لا تمنعها الشريعة الاسلامية وإلاّ فمن العقل أن يقتدي الانسان بغيره فيما يعود عليه بالمنفعة ، لكنّ كثيرا ما رأيت في الأمم الشرقية المستضعفة التي لا يمنعها الدين في هذا الزمان مصداق تقرير ابن خلدون (1) في ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه [58] ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، وهو تقرير مهمّ في الفصل الثاني من الكتاب الأوّل الذي تكلّم فيه على أحوال العمران البشري من مقدمة تاريخه . وإني إن بسطت بساط هذا المبحث هنا خرجت عن الموضوع ولكن عسى نجد محلا لافراغ ما تكنّه الصدور في صفحات تملؤها السطور (2) .

[58]

امّا مسألة لبس البرنيطة للمسلم فهي مقرّرة في دواوين الفقه . وقد طلبت من أخصّ أحبّتي فيها تحرير القول في المذهب الحنفي (3) فكتب في ذلك كتابة بناها على أصول متينة وحرّر ما عليه المذهب في المسألة أحسن تحرير يشهد له من وفور العلم والتثبت في الفهم . ولحسن موقع تحريره في النفس نُثبتُهُ هنا بلفظه العذب السلسال وهذا نصّه :

---

(1) ابن خلدون : عبد الرحمان بن محمد ولد بتونس سنة 1332/732 وتوفي بالقاهرة سنة 1406/808 (راجع دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الثانية ، ج 3 ، ص 849–855) .

(2) انظر الصفحات : 84–85–98–155–161 بترقيم مخطوطة هذا الكتاب .

(3) هو الشيخ محمد ابن الخوجة المتوفى سنة 1325هـ./8–1907 . وهو من مشاهير العلماء وفحول الشعراء الذين قامت على كواهلهم حياة الأدب في انتقالها بين القرنين كما كان في ذلك صديقاه ورفيقاه الشيخ محمد السنوسي والشيخ محمد جعيط . (راجع : محمد الفاضل ابن عاشور ، تراجم الاعلام ، تونس 1970 ، ص 319) انظر أسفله ص 60 . وص 146 .

أمّا بعد فهذا تحرير فيما يتعلّق بلبس البرنيطة سألنيه بعض الأعزّة ممّن لا تسعُني مخالفته ولابدّ قبل ذلك من مهاد هو الأساس الذي غفل عنه كثير من الناس فأقول : قد حقّق عمدة الأعلام الشيخ الكمال بن الهمام في المسايرة أنَّهُ لابدّ في حقيقة الايمان من عدم ما يدلّ على الاستخفاف من قول أو فعل إلى أن قال : وبالجملة فقد ضُمّ إلى التصديق بالقلب أو بالقلب واللسان في تحقيق الايمان أمور الاخلال بها إخلال بالايمان اتفاقا كالاستخفاف بنبيّ وبالمصحف وبالكعبة كان ذلك دليلا على أنّ التصديق مفقود . ثمّ حقّق أن عدم الاخلال أحد أجزاء مفهوم الايمان فهو حينئذ التصديق والاقرار وعدم الاخلال بدليل أنّ بعض هاته الأمور تكون مع تحقّق التصديق والاقرار ... إلى أن قال : والاعتبار التعظيم المنافي للاستخفاف كفّر الحنفية بألفاظ كثيرة وأفعال تصدر من المُتَهَتِّكِين لدلالتها على الاستخفاف بالدين كالصلاة بلا وضوء عمداً بل بالمواظبة على ترك سنّة استخفافا بها بسبب أنّه فعلها النبيّ عليه الصلاة والسلام زيادة . انتهى كلامه .

وفي شرح العقائد (1) [59] أنّ الاستخفاف في حكم التكذيب وهو أمارة عدم التصديق ودليل الاستخفاف كالاستخفاف في حاشية ردّ المُحتار (2) قال مؤلّفها المحقّق : [59]

قلت : ويظهر من كلامهم أنّ ما كان دليل الاستخفاف يكفّر به وإن لم يقصد الاستخفاف لأنه لو توقّف على قصده لما احتاجوا إلى زيادة عدم الاخلال لأن قصد الاستخفاف مناف للتصديق أي جميع قصد الاستخفاف

---

(1) شرح العقائد : المقصود عقائد نجم الدين أبي حفص النسفي (م. 537هـ/1142م) . راجع : حاشية عصام الدين ابراهيم بن محمد الاسفرايني على عقائد نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي . طبعة الآستانة ، 1849/1265 .

(2) حاشية رد المحتار : هي حاشية العلامة الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين المسماة رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار في فقه مذهب الامام الاعظم أبي حنيفة . طبعة بولاق ، 1869/1286 . أما كتاب الدر المختار فمؤلفه محمد علاء الدين الحصكفي ، واما كتاب تنوير الابصار فمؤلفه شمس الدين محمد بن عبد الله بن أحمد بن تمرتاش الغزي الحنفي . طبعة القاهرة ، 1881/1298 .

لم يحصل التصديق أصلا حتى يزاد عليه عدم الاخلال فتبيّن أن المراد عدم التلبّس بما يدلّ على الاستخفاف لأن التلبّس بذلك قد يكون مع التصديق لكن ذلك التصديق كَلاَ تصديق ولذلك قالوا من هزل بلفظ الكفر ارتدّ وإنْ لم يعتقده للاستخفاف . قال الفقهاء : لأن التصديق وإن كان موجوداً حقيقة لكنه زائل حكما . وقد طفحت دواوين الفقه باعتبار الاستخفاف . ولذا ترى صاحب البحر (1) في باب المرتدّ عندما أكثر من ذكر المسائل التي توجب الردّة والعياذ بالله تعالى إذا ذكر الخلاف فيها يقول : وهذا الخلاف ما لم يكن استخفاف وهذا كرّره مرارا .

وفي منظومة ابن وهبان : (2) (من الطويل)

وَمَنْ قال في الدبّاء لستُ أحِبُّهَا يُكَفَّرُ قالوا المُسْتَخِفُ المُحقِّرّ

فمن قال في القَرْع الذي هو الدبّاء لست أحبّها لا يقال له إنك كفرت بمجرّد ذلك . كما يحكى عن بعض المتوغّلين في الاعتقاد من الترك أنّ ابنه أظهر عدم محبّة الدبّاء فشهر سيفه وقتله . نعم إذا انضاف إلى ذلك الاستخفاف برأي مَنْ مال إلى الدباء هنا يحكم بكفره ولعلّ هذا التركي ظهر له من ولده ما يدلّ على الاستخفاف ، على فرض ثبوت هذه الحكاية .

وإذا تمهّد لديك هذا المهاد الوثير واطمأن عليه عقلك المستنير فنقول : إن لاَبِس البرنيطة يحكم بكفره على الصحيح وسندنا في ذلك ما نقله صاحب البحر في واضع قلنسوة المجوس على رأسه من أنّ الصحيح أن [60] واضعَها يكفّر لغير ضَرورة حرّ أوْ بَرْدٍ وكذلك نقله صاحب الفصول العمادية واستظهر أنه لا ضرورة تدعو إلى لبسها لإمكَانِ تمزيقها وجعلها على هيأة أخرى . [60]

---

(1) كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود تاليف عبد الوهاب الشعراني . طبعة حجرية 1278/ 1862 .

(2) ابن وهبان : أمين الدين عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الهمامي الحارثي المزني الحنفي ولد سنة 1330/730 وتوفي سنة 1366/768 . من تآليفه قيد الشرائد ونظم الفرائض الوهبانية المنظومة المحبية أو عمدة الحكام ومرجع القضاة في الاحكام . (راجع : Brockelmann G.A.L. II, 79

والعجب من سليمان الحرائري (1) عفا الله تعالى عنه ، ألّف رسالتين ، إحداهما في إباحة لبس البرنيطة والأخرى في حرمة قهوة البنّ (2) ولو عكس لأصاب . وقد استند في الرسالة لكلام العمادية ، والحال ان كلام العمادية ما تلوناه عليك . على أنه في هذا الزمان لا ضرورة في ذلك قطعا ولا يحتاج إلى تزيقها وجعلها على هيأة أخرى لوجود الشاشية (3) الاسلامبولية والتونسية فلم يبق الا التهافت على التشبّه بالكفّار والتلذّذ بالتزّي بزيّهم ، نسأل الله العفو والعافية . وأحوال من بلغنا أنهم لابسوها تدلّ على استخفافهم بديانتهم .

ومتى قامت القرائن القاطعة على الاستخفاف يحكم بالكفر إذ القرائن القاطعة كما قال الزيلعي (4) لا ينكرها إلا مُكَابر . وهذا يدفع ما عساه أن يورد من أن الفقهاء قالوا : لا يُفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه أو فعله على الصلاح . وإنّه لو كانت تسع وتسعون رواية في التكفير ورواية في عدمه يفتى بها وإن كانت ضعيفة . فإن ذلك كلّه مع عدم القرائن القاطعة على الاستخفاف . وقد علمت من كلام الشيخ ابن عابدين آنفا أنّ دليل الاستخفاف كالاستخفاف هذا مع عدم تراكم القرائن القاطعة على الاستخفاف فكيف فيمن علم منه قطعا الاستخفاف ، نسأل الله تعالى العفو والعافية ، وأن يهدينا وإيّاهم إلى الصراط المستقيم .

---

(1) أبو الربيع عبده سليمان بن علي الحرائري الحسني الحنفي الفارسي الأصل ، ولد في تونس سنة 1824 وتوفي في باريس سنة 1874 . أول صحفي تونسي ، ترجم من الفرنسية إلى العربية كتاب : قرطاجنة تأليف الأب بورقاد ، طبعة حجرية تونس 1850 ، ومن هذه الترجمة انطلقت التهمة إليه في دينه وعمره اذاك 26 عاما . هاجر إلى باريس سنة 1856 حيث درس العربية في مدرسة اللغات الشرقية واستلم سنة 1861 مهمة تحرير صحيفة : البرجيس انيس الجليس (برجيس باريس) خلفا لرشيد الدحداح اللبناني ومن مؤلفات سليمان الحرائري رسالته المسماة : القول المحقق في تحريم البن المحرق . كما أنه عرب بعض الكتب الاوربية في العلوم المستحدثة والاختراعات الجديدة . (راجع : فيليب دي طرازي ، **تاريخ الصحافة العربية** ، بيروت 1933 ، ج 1 ص : 61—و—119 . راجع أيضا : **الملحق الصحافي لصحيفة العمل** عدد 148 تونس 11 فيفري 1972) .

(2) رسالتان تدخلان في صنف الفتاوى الفقهية .

(3) الشاشية كلمة دخيلة ومعربها القلنسوة .

(4) عثمان بن علي بن محجن فخر الدين الزيلعي . انظر أسفله ص 93 تعليق 4 .

فإن قلت : لعلّ شبهة سليمان الحرائري قول العمادية بعد ذلك الكلام وهذا بخلاف قلنسوة المغـول (1) . قلت : تلك علّلها بأنّها من العلامات الملكية فمن قَاس البرنيطة على ذلك فآفته من الفهم السقيم . هذا ما تيسّر لي تحريره وفَوق كلّ ذي علم عليم . كتبه : محمد ابن الخوجة كان الله تعالى له وللمسلميـــن (2) .

[مسألـة ملبوس الكفّـار في المذهب المالكي]

[61] [61] وأمّا مذهب المالكية فهذه عبارة أبي الضياء (3) في مختصره : الردّة كفر المسلم بصريح أو لفظ يقتضيه أو فعل يتضمّنه كالقاء مصحف بقذر أو شدّ زنّار . قال شارحه الزرقاني (4) : ومثل شدّ الزنّار كلّ ما يختصّ بالكافر كلبس برنيطة نصراني وطرطور يهودي إن سعى بذلك للكنيسة ونحوها ، وقيّده أيضا بما إذا فعله في بلاد الاسلام . وان لبس ذلك على وجه اللعب والسخرية لم يرتدّ .هـ.

وكتب عليه البنّاني (5) : انّ محلّ الردّة بملبوس الكفّار الخاصّ بهم إن فعل ذلك محبّة في ذلك الزيّ وميلا لأهله ، وأمّا إن فعله هزلا ولعبا فهـو محرّم إلا أنّه لا ينتهي إلى الكفر . وأمّا إن كان ذلك لضرورة كأسير عندهم يضطرّ إلى استعمال ثيابهم فلا حرمة فضلا عن الردّة . قاله ابن مرزوق (6).هـ.

---

(1) المغول : هم سكان منغوليا . أسس امبراطوريتهم جنكيز خان سنة 1206–1227 واضمحلت سنة 1806 .

(2) انظر أعلاه : ص 58 تعليق عدد 3 .

(3) هو خليل بن اسحاق بن شعيب أبو المودة ضياء الدين المشهور بابن الجندي فقيه مالكي مصري مات بالقاهرة 1374/776 . هو صاحب المختصر في الفقه (راجع : الزركلي ، الاعلام ج 2 ص 364) .

(4) هو عبد الباقي بن يوسف بن احمد الزرقاني ، فقيه مالكي ولد بمصر (1611/1020 – 1688/1099) من كتبه شرح مختصر سيدي خليل . (راجع الزركلي، الاعلام ، ج 4 ص 46).

(5) هو عبد الله محمد بن حسن بن مسعود البناني . (انظر أسفله صفحة 90 تعليق عدد 4) .

(6) ابن مرزوق : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني الجد الملقب بالرئيس الخطيب ، محدث وخطيب ولد في تلمسان سنة 1310/710 وتوفي في القاهرة سنة 1379/781 (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الثانية ، ج 3 ص 890–892) .

وقريب من هذا مسألة كشف الرأس وحلق الناصية خاصّة ممّا هو من خصائص الكفّار . ولهذا قال عياض (1) يكفّر بكلّ فعل أجمع المسلمون على أنّه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرّحا بالاسلام مع فعله ذلك الفعل كالسجود للصنم وللشمس والقمر والصليب والنار والسعي للكنائس واجتمع مع أهلها بزيّهم من شدّ الزنانير وفحص الرؤوس .هـ.

[ما فعل الجنرال حسين عند وفاة البابا بروميّة]

وقد كان الهمام حسين (2) المكلّف بالمعارف بتونس سابقا أخبرني أنه عند وفاة البابا (3) بروميّة كان هنالك . وأقبلت الملوك وخاصّة الافرنج وعامّتهم لدفنه في يوم أيوم (4) عليهم في الكنيسة الكبرى . قال : فأردت أن أدخل الكنيسة في ذلك اليوم أنظر ما يصنعون بالبابا الذي مات وبعضهم يعتقدون عصمته . ومن أحكام الدخول للكنيسة عندهم كشف الرأس . لكن حيث كنت لابسا شاشية حمراء فلا شكّ أن ذلك الحكم لا يتناولني إلا أن النصارى لمّا رأوني في وسط سوادهم كانوا يتعرّضون لمزاحمتي قصدا ، فكشفت رأسي بينهم ، ودخلت إلى محلّ وضع البابا .

فقلت له [62] : وكيف يصحّ لك أن تكشف رأسك في تلك الحالة ؟ . [62]

فلم يتريّث أن قال لي : انّما كشفته بنيّة دفع الأذيّة عن نفسي لا بنيّة التشبّه بهم . فجزاه الله خيرا عن حسن نيّته التي تفصّى بها من ذلك المحذور ، وإنّما الأعمال بالنيّات .

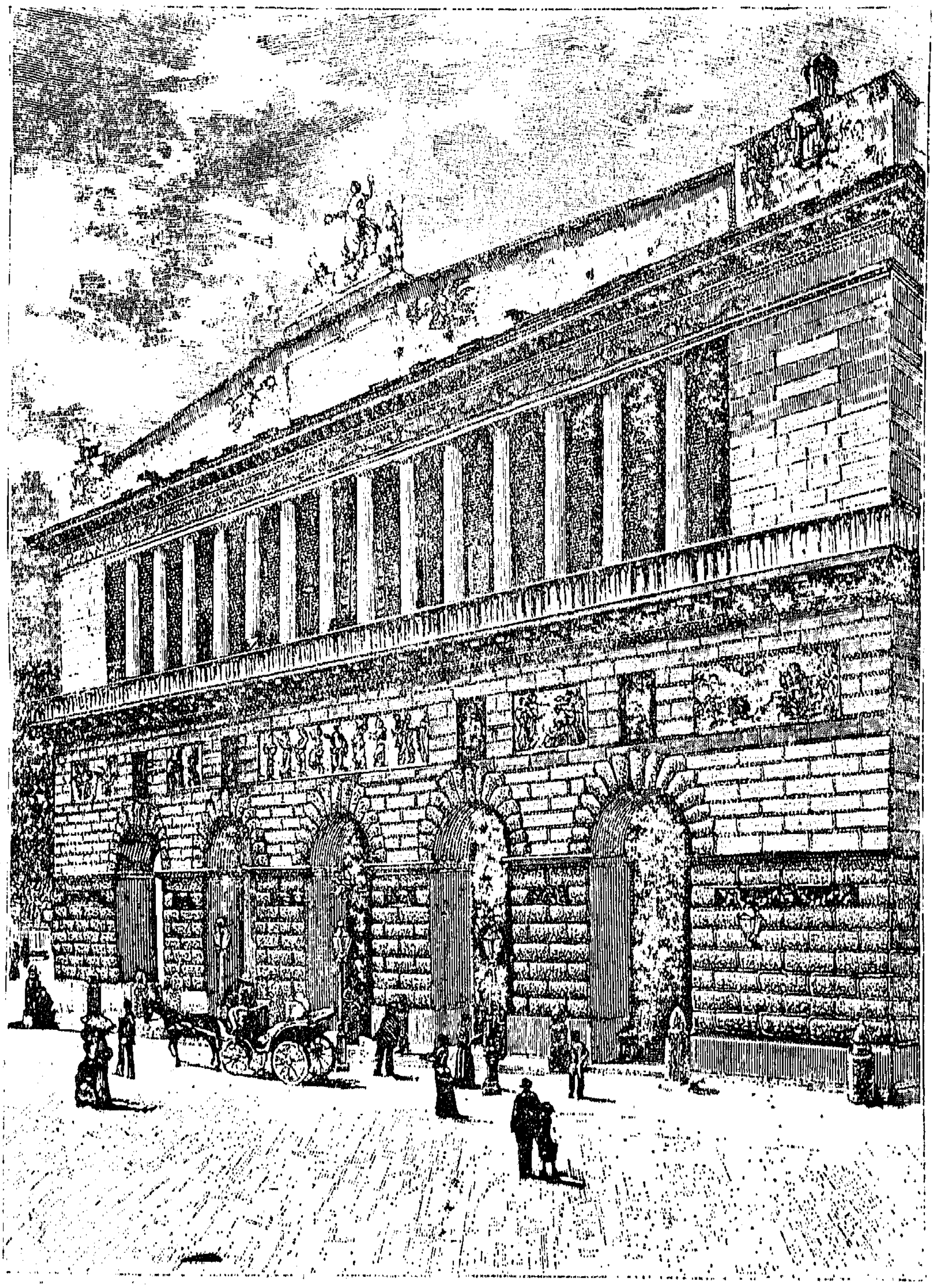
---

(1) راجع أسفله صفحة 174 تعليق عدد 3 .

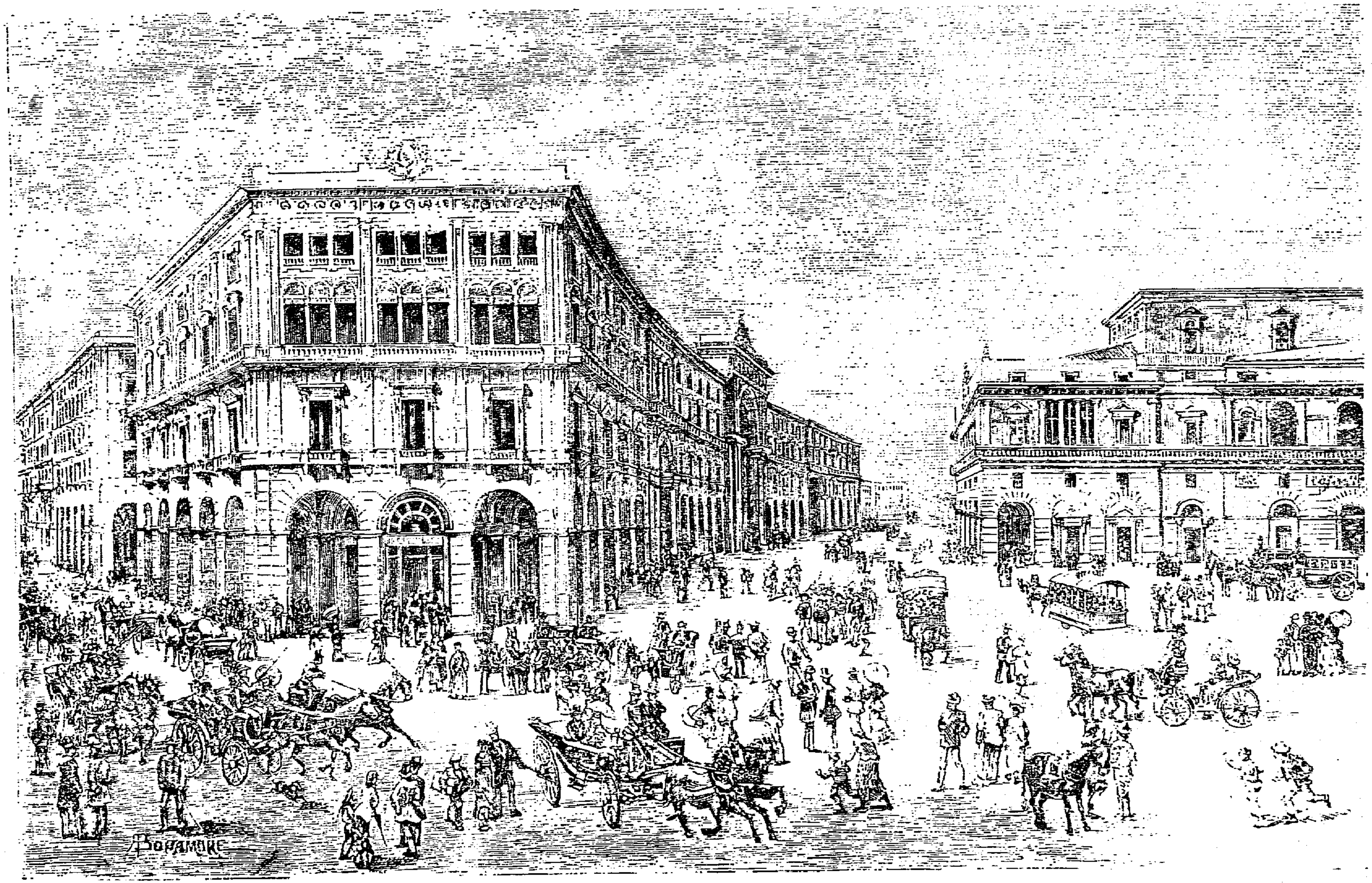
(2) انظر أعلاه صفحة 43 تعليق عدد 1 .

(3) البابا بيوس التاسع Pie IX هو جيوفاني ماريا مستاي فريتي ، ولي البابوية من سنة 1846 وتوفي سنة 1878 انظر أسفله صفحة 98 (Giovanni Maria Mastai Ferretti)

(4) يوم أيوم : شديد ، طويل لشدته .



واجهة مسرح القديس كارلو بنابلي سنة 1882



منظر اخذ سنة 1882 للنشاط بالساحة الكبرى امام مسرح نابلي حيث يلاحظ الناظر اصناف عربات النقل عصرئذ .

وفي ليلة الثلاثاء الموفيّة عشرين من شهر رجب سنة 1299 (1) دخلت أوّل تياترو (2) في البلاد الأوربيّة . وبما أنّ هاته الصناعة قد عمّت سائر الجهات وقد حضرت منها على ما راقني نبسط عليها مقالا يشرح خفيّها على أحسن وجـه .

التياترو (3) وهو المحـلّ المعـدّ لاجتمـاع الألعاب

أحسب أنّ الأصل في هاته الألعاب الاجتماعية في نظام العالم هو ألعاب أولمبيّة (4) وهي من أشهر المواسم الاحتفاليّة في افريقيّة (5) واشتهرت بذلك نسبة إلى مدينة أولمبية المسمّاة الآن مريلا أو لنقنيكو (6) على نهر الفيوس (7) التي كانت تقام فيها تلك الألعاب بعد كلّ أربع سنين تامّة بحيث يكون

---

(1) يوافق في التاريخ الميلادي : 6 جوان 1882 . انظر أسفله صفحة 73) .

(2) كلمة دخيلة وتعريبها كلمة مرسح في عهد المؤلف والمستعمل اليوم كلمة : مسرح .

(3) عرف المؤلف الشيخ محمد السنوسي التياترو في كتابه : الاستطلاعات الباريسية فقال : وأما التياتروات فهـي مجامع تهذيب الشعب وتدريبه ، ومدارها على تشخيص روايات وضعيـة في تهذيب الاخلاق أو تدبير المنزل أو السياسة المدنية أو نوادر التواريخ القديمة والحديثة . (انظر : محمد السنوسي ، الاستطلاعات . تونس 1891/1309 . ص : 44) والملاحظ أن الشيخ محمد السنوسي نبه في كتابه الاستطلاعات الباريسية إلى أنه سبق له الحديث عن التياترو في الرحلة الحجازية ، قال : وقد سبق مني في رحلتي السابقة شرح لأصول الأمفيتياتر بحسب التاريخ الروماني ... (راجع الاستطلاعات ، ص 45) .

(4) الألعاب الأولمبية خفيت أصولها عن المؤرخين ، والرواية تجعلها من ابداع هرقل بن المشتري Hercule fils de Jupiter وقـد عطلت هـذه الألعـاب مـرارا ، ثم استؤنفت وابتـدىء الاحتفال بها بانتظام ابتداء من سنة 76 قبل الميلاد .

(5) لعل المؤلف يرمز إلى افريقيا في عهد الرومـان .

(6) أولمبية : مدينـة قديمـة من اقليم بلوبـونيز Péloponnèse في الجنوب الغربي منه بجنوب بلاد اليونان . وفي اولمبي كانت تقام الألعاب احتفالا بعظيم آلهة اليونان في الميتولوجيا : زوس Zeus واللاتينيـون يسمونـه : جوبيتيـر Jupiter المشتـري ، وابنـه هيـراكليس (عند اليونان) وهيركول (عند الرومان) وهرقل (عند العرب) . أما تسمية مدينة أولمبي الآن مريـلا أو لنقنيكو فالصواب تسميتهـا موريـا Moréa أو مـوري Morée وهي اقليم بجنوب اليـونـان كان يسمى شبـه جزيـرة بلبونيـز Péloponnèse وكان يشمـل الأرقوليد Argolide ولاقـوني Laconie ومسيني Messénic وأوليـد Elide وأكاي Achaie وأركادي Arcadie وكلهـا تسمى اليـوم : مـوري Morée . (راجع : Daramberg. Ch. *Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines*, t. 4, pp. 172-196)

(7) كذا بالنص ، والملاحظ أن لا وجود لهذا الاسم في الخرائط الجغرافية المعروفة .

موسم اللعب في السنة الخامسة من الموسم الذي قبله . وعلى هذا الحساب انبنى تاريخ أولمبياذة اليوناني ، ومدّتها خمسة أيّام مبدؤها الحادي والعشرون من حزيران الموافق ليونيــة .

أمّا مبدأ استعمــال تلك الألعاب عند اليونـان فممّا خفيت أصوله عن المؤرخين ، وغاية ما أمكن وصولهم إليه هو تاريخ العصور التي دخلت فيها عادة إقامة التماثيل والأبنية تذكارًا لانتصار المنتصرين في مصارعة تلك الألعاب وذلك سنة ستّ وسبعين وسبعمائة قبل الميلاد مع أنّ إدخال عادة إقامة التماثيل كانت بعد رسوخ رونق تلك الألعاب بمائة سنة وثماني سنين بحيث إنّ تاريخ أولمبياذة إنّما يبتدىء من مبدأ عادة التماثيل لا من مبدأ أصل الألعاب .

وأوّل من أقيم له تمثال في ذلك أشهر المصارعين من اليونان رجل يسمّى كوريوس (1) انتصر في أربعة مواســم متوالية . وقد كانوا ينظمون [63] حرس الألعاب وينتخبون لها قضاة من أشهر أهل أوطانهم . وقبل افتتاح الألعاب يستدعون المصارعين ويحلّفونهم أمام تمثال المشتري على أنهم قد أتمّوا جميع نظام الألعاب وحفظوا شروطها المرسومة على جميع أنواع المصارعة في مـدّة العشرة أشهـر الفارطـة .

[63]

وممّا يحلّفونهم عليه أنّ المصارع لا يلتجىء في المصارعة إلى الخداع أو الحيلة لأجل الجزاء . وكان عدد المصارعين أوّلا ثلاثة أنفار ثمّ تقدّموا في المصارعة إلى أن بلغ عددهم إلى اثنـي عشر رجلا وقبلوا في أثنائهم الصبيان ، غير أنّه يلزم المتقدّم للمصارعة عندهم أن يأتـي بالبيّنة الكافية لاثبات أنّ

(1) أول منتصر في أول احتفال أولمبي كان سنة 776 قبل الميلاد المسمـى كوروابوس Koroibos انتصر في السباق . ثم فاز بالجائزة الأولى المسمى كيونيس دي سبارت Chionis de Sparte في مواسم متوالية ثلاثة وهـي الموسم 29 والموسم 30 والموسم 31 من الالعاب الاولمبية التي كانت في اول أمرها تدوم يوما واحدا ثم ابتداء من سنة 472 قبل الميلاد أصبحت تـدوم خمسة أيام وكانت تقام خلال فترة ما بين آخر شهر جوان ومنتصف شهر جويلية وكانت تلك الفترة تسمـى الشهر المقدس لا تقام فيه حروب أو معارك وهو شهر حرام عند اليونانيين القدامـى وكان السن القانوني للمشاركة في الالعاب بلوغ 20 سنة ثم نظمت منذ سنة 632 قبل الميلاد العاب خاصة بمن تتراوح أعمارهم بين 17 وبين 20 سنة .

أصله يوناني وأنّ نسبه فيهم صحيح لا ريب فيه ليثبت عندهم اسمه واسم بلده في سجلّهم وَلَهُم في ذلك تشدّد عظيم ولو مع خاصّة ملوكهم الذين يطلبون نيل ذلك الشرف حيث إنّ هاته الألعاب كانت قسما من العبادة الدينية عندهم ولذلك يفتتحونها بذبائح عظيمة على ما سيأتي .

وكانوا عند حلول إبّانها يعلنون إيقاف الحروب وذلك من أهمّ مقاصدهم في تشريفها لحفظ العمران وإبقاء السلم حتّى كانت لهم أعياد اتّحادية يجتمع إليها جميع أمم بلاد اليونان ومستعمرات الاناظول وايطاليا وجزائر البحر المتوسّط . وهنالك تظهر آثار الخطباء والمؤرخين والشعراء (1) وتتآلف الأمم بعضها ببعض ولأن هيكل المشتري هنالك تحيط به غابة اسمها تيس (2) تحوي جميع تماثيل المنتصرين في الألعاب الأولمبية ويقدّسون تلك الأرض حتى إنّه لا يطأها أحد بسلاحه .

أما ترتيب اللعب الذي انتهوا إليه هنالك في الأيام الخمسة المذكورة فاليوم الأول للذبائح (3) كما مرّ : واليوم الثاني لسباق الرجّالة وهو أوّل عمل جرى في تلك الألعاب . واليوم الثالث تقع فيه المصارعات الخمس وتسمّى حرب البنكراسيوم (4) وتقع فيه المصارعات البسيطة والمصارعون يتصارعون عراة ولذلك لم يسمح [64] للنساء بالحضور في هاته الألعاب . وكانوا يقتلون من [64]

(1) اشتملت أيضا الألعاب الأولمبية على مباريات في الموسيقى والمسرح والشعر والتصوير والنحت . وقد ساهم في هذه المباريات هيرودوت Hérodote وتوسيديد Thucydide بأن قرئت قصصهم التاريخية كما أنشدت أشعار امبيدوكل Empédocle ومثلت مسرحيات ايشيل Eschyle وسوفوكل Sophocle واوريبيد Euripide كما عرضت التآليف الفنية لبراكسيتيل Praxitèle وفيدياس Phidias وميريون Myron وليسيب Lysippe

(2) تيس هي تيساليا : تشير الأساطير الميثولوجية الاغريقية إلى ان مسكن زيوس أبي آلهة الاغريق يقع في مقاطعة تيساليا فوق جبال اولالمب حيث تحيط به سائر الالهة الاخرى . اما تمثال زيوس في معبد أولمبيا فقد أنجزه النحات الاغريقي القديم : فيدياس . وهذا التمثال يمثل الاعجوبة الرابعة في العالم العتيق .

(3) كانت الذبيحة إما خروفا أو معزا أو بقرا ، وكانت تحرق عظامها وشحمها اما لحومها فياكلها المحتفلون . واحيانا كان عدد الحيوان المذبوح يبلغ مائة رأس من البقر .

(4) البنكراسيوم هو نوع من الصراع الحر وقد ادخل في الالعاب الاولمبية سنة 648 قبل الميلاد في الموسم الثالث والثلاثين (Pancrace).

تخالف هذا القانون . والسبب في التزام التجرّد عند المصارعة انحلال ثوب أحد المصارعين عند اشتداد المصارعة حتّى خسر الظفر منذ الأولمبياذة الثانية والثلاثيـن .

وأما الجوائز التي كانت تعطى للمنتصرين فأهمّها جوائز سباق الخيـل والمركبات حتّى أن الملوك ينزلون بهذا الميدان لينازعوا في هذا الشرف حيث إن الانتصار هنالك هو غاية المجد عند اليونان ولا يمكن مطامع الانسان أن تتجاوز إلى ما فوق ذلك الشرف . ولذلك يكلّلون الظافر بإكليل من أغصان الزيتون ويطوفون به بضرب البوق وأمامه مناد يعلن اسمه واسم أبيه وقبيلتـه ومدينته على رؤوس الملأ ويكتبون خبر ظفره في السجلّ عندهم ويأخذون الظافر لوليمة عامّة حافلة يوضع تمثاله في غابة هيكل المشتري .

وعند رجوعه إلى وطنه يهرعون لاستقباله باحتفال الظفر . ورُبّما خرقوا له من سور المدينة مفتحا رحبا ويحملون أمامه المصابيح وتقوم الحكومة بجميع احتياجاته وتقيم له تماثيل من رخام عليها شارات الانتصار تخليدا لذكـره .

وأما أصل هاته الألعاب في التاريخ الروماني فمحلّه أمفيتياترو (1) وهو محلّ اهليلجـي (2) الشكل مكشوف الأعلى في وسطه فسحة اهليلجية يعجّون (3) فيها رملا لتخفيف القدم (4) وترسيخ أرجل المتبارزين . ويرفع من ذلك الرمل من الحائط الأسفل المحيط بها بصفوف من مقاعد معضودة بقناطير على شكـل الدرجات تكاد آخرتها أن تبلغ أعلى الحائطِ الخارج ومحله قرّرنا طولَه 513 قدمـًا وعرضه 410 أقدام وارتفاع حائطه الخارجي 119 قدم ويسع 22000 (5)

---

(1) امفيتياترو : مسرح ذو درجات .
(2) بالنص : اهليجي والصواب : اهليلجـي اي على شكل بيضة .
(3) عج وأعجت الريح : اشتدت فاثارت الغبار . ومنه العجاج : الغبـار .
(4) بالنص : الدم أو الرم والسياق يقتضـي : القدم .
(5) بالنص : ويسع 22000 ألفا . والصواب ما حققنا اذ أعظم مسارح روما في القديم كان مسرح مكسيموس Maximes وكان يسع 255 ألفـا من البقـاع واذا كان الأمـر كذلك فلعل مقصود السنوسي 220 ألفا .

من المتفرّجين ، وتقع في فسحته ألعاب عمومية ومبارزة بين الرجال والوحوش . ثم تفنّنوا فيها حتّى إنّهم رُبَّمَا مَلَئُوا الفسحة مــاء وجعلـوا فيـه حيوانات بحرية وتماسيح وغيرها [65] للتفرّج في القتال الذي يجري بينها . وكـان بناؤها من خشب وارتفاعها من 8 إلى 18 قدما . ثم بني من حجر وجعلت مقاعده من خشب وأشهرها وأعظمها الامفيتياترو الفلافياني (1) في رومية فُتِح سنة ثمانين من الميلاد .

[65]

وكان يسع المائة الف من المتفرّجين . واجتمع فيه نحو التسعة آلاف مـن الوحوش معدودة للتفرّج ، قُتل منها في يوم فتحه خمسة آلاف . وهكـذا تقدّمت التياتروات في هاته القرون تقدّما ترتاح له النفوس وانتشرت في عموم البلدان الشهيرة من المعمور وتوسّعت دائرة الالعاب والروايات عندهم حتّى صار علما يدرّس بين التلامذة . وعلى خفّة الجمستيك (2) يتدرّبون من لدن نشأتهم كما يتدرّبون على المسابقة والمناضلة وحفظ الروايات والطور بالأطوار واتقان المشي على الحبال واستعمال الرقص عليها وسرعة التناول للأشياء والقائها إلى غير ذلك من أبواب الصناعة . ثم زادوها في الروايات تحسينا ، حتى صارت التياتروات أنموذجا للسياسة وكشفا لغابر التواريخ. وبذلك كانت التياتروات التي أمكن لي الحضور فيها لا تخرج عن قسمين كلّ قسم له صورتـان .

[صور التياتروات]

فصور التياتروات أربع : **الصورة الاولى** تشخيص نازلة حالية تجري في بعض الدول أو من بعض الحكّام تستدعي التفات (3) الأنظار إليها لدقّتهـا

(1) الامفيتياترو الفلافيـانـي Amphithéâtre Flavien بروما أمر ببنـائه الامبراطور فيسباسيان Vespasien سنة 72 ميلاديـا ودشن سنة 80 ميلاديا وهو المسرح الذي سمي في القرون الوسطى كوليزي Colisée

(2) الجمستيك : كلمة دخيلة تعريبها : الرياضة البدنية .

(3) بالنص : الالتفـات .

مع حسن ما تعاطاه فيها الحاكم أو سوء ما صنعه . وقد يكون صاحب النّازلة من أعضاء حكومة البلد والنازلة وقعت منه فيحضر التياترو فلا يلبث أن يرى من انتصب في ذلك المجمع منصبه ونشرت النازلة بين يديه بسرّها وعلنها فيرى جميع الحاضرين وهم عشرات آلاف من الأعيان جميع ما كان من الحاكم المذكور في النازلة مما يزين أو يشين وهو بين أظهرهم ينظرونه وهذه الصورة أعلى صور التياترو لانها تعين على كبح أيدي ظلمة الحكّام ، ففائدتها [66] عائدة على عموم الأمّة . [66]

الصورة الثانية تشخيص روايات تاريخية من وقائع مشاهير الرجال من الملوك أو غيرهم ممن مضت عليهم العصور السالفة وأحسن ما يطلب في هذه الصورة استحضار الأطوار والعوائد والآداب السالفة حتّى يكون الحاضرون مشاهدين لحالة عصر الواقعة التاريخية وهيأة أصحابها ، وهذه الصورة تفيد في رسوخ أخبار التواريخ بحيث إنّ الحاضرين ينقلون ذلك التاريخ عن مشاهدة . ولا يخفى تمكّنها أكثر من مجرّد المطالعة .

الصورة الثالثة ألعاب تنبئني على خفّة أصحابها في المشي على الحبال والرقص فوقها ، وفيها تتدرّج المسابقة على الخيل والحركات في حالتها والمصارعة وحسن الرماية إلى غير ذلك من أنواع الألعاب والآلات .

الصورة الرابعة أنواع من الشعبذة الآئلة إلى قلب الحقائق وهاته نادرة . وجميع صور التياترو لا بدّ وأن تصحبها الموسيقى ابتداء وفي خلال اللعب عند راحة اللاعبين أو عندما يدعو اللعب للموسيقى .

[حضور المؤلف تشخيص نازلة حالية في تياترو قرنة]

وقد حضرت في الثلاث صور الأولى فقط . أما الصورة الأولى أعني تشخيص نازلة حالية وهي أعلى صور التياترو فلم نحضرها إلاّ مرة واحدة

في تياترو قرنة . وحضرت هنالك بمعية عائلة دعونني للحضور معهم في ثلاث نسوة ورجلين يحسنون العربي وهم أصحاب الترجمة تلك الليلة .

فكان تشخيص نازلة رئيس مجلس فرينسة التي لم يأنف فيها من إظهار زنى زوجته لعصمة دم مظلوم في مجلس حكمه ولم تنفعه أنفة الحكم والميل إلى زوجته من غمص (1) المظلوم بتبرئته زوجته فأصبح بذلك حديثا يتلى في مجامع مسامرات ايطاليا والأمة كلّها يصفّقون عليه تصفيق الاستحسان كلّما رأوا روايته ظهرت في مجامعهم . وها أنا ألخّص هنا ما حضرت عليه في تلك النازلة :

[67] وهو أن رئيس المجلس جلس في مجلس حكمه [67] ومعه كاهيته وجلس كاتب الجلسات على طاولته وقام الأفوكاتية (2) وكلاء الخصام لابسين ستراتهم وحرّاس المجلس لابسين لباس الحراسة الرسمي في الدولة ، كلّهم عند باب بيت الحكم من البهو . ثم دخل أحد الأفوكاتية وأطال الشكاية في نازلة قتيل وقعت تهمته على رجل مسجون ولم يقع تحقيق نازلته فأذن الرئيس بإحضار السجين فحضر وعلى ذراعه الأيمن الشريط الأحمر علامة على أنه تعلّقت به شبهة في القتل وهاته العلامة لا يلبسها إلا من حكم المجلس باتّهامه ، وأما مجرّد الدعوى فلا يلبس بها الشريط . فدخل الرجل بين يدي رئيس المجلس في طور مندهش مما تعلّق به وووراءه أختان له تظهران الأسف على أخيهما تتراءى من ثلاثتهم حالة أمثالهم على الحقيقة . وطال الخطاب مع المتّهم في الاستنطاق ولم يقع منه اعتراف البتة إلى أن ا ذن الرئيس باخراجه ريثما يستريح هو ويقع إقراره من الأفوكاتية خارج مجلس الحكم . وعند خروج النازلة من بين يديه قام هو وكاهيته والكاتب وخرجوا أيضًا للاستراحة . وكانت عنده في بيت الحكم زوجته فجلست على اصطفة هنالك يظهر من حالها التفكّر فإذا

(1) غمصه : احتقره .
(2) الافوكاتية : كلمة من الدخيل تعريبها : المحامي ، ج ، المحامون . وقد شرحها المؤلف بقوله : وكلاء الخصام .

بشابّ دخل عليها فأحسنت تلقّيه وأجلسته إلى جنبها وتحادث معها مليّا بالسرّ لكن كَانَ آخر الحديث أن المرأة ضربت على صدرها وأغمي عليها حتّى سقطت من مقعدها فقام لها بغاية الأناة وأجلسها وناولها الماء وأظهر لها في هيأة حديثه ما يسكن بالها وخرج . فبقيت في اندهاش عظيم . ولمّا دخل زوجها ومن معه أظهرت جلدا وتصبّرا وكانت مصفرّة الوجه من الوجل تعضّ على شفاهها من الألم ولم يتفطّن زوجها لشيء من ذلك لبعد مقعدها من مجلسه : ثمّ أعيدت النازلة بأضغاث المتّهم حتّى توعّده الرئيس بانفاذ الحكم عليه بأثقل [68] وكانت حالة أختيه تفتّت الأكباد وربّما دخلتا إلى الكُونتِيسيتّة (1) بحالتهما يطلبان منها التوسّط عند زوجها في أن لا يعجّل على أخيهما بالقتل وهي تعدهما (2) ولها كبد مرضوضة من النازلة . وبما أن المتّهم مصرّ على عدم الاعتراف اذن باخراجه والتشديد عليه . وقام الرئيس ومن معه للاستراحة وجلست الكونتسيتة فدخل عليها الشاب وقال لها : كيف يسوغ لنا مع الربّ انّا نرى هذا البريّ يريدون قتله ونحن عالمون بحقيقة الحال فلابدّ لنا من أن نؤدّي شهادة في النازلة كما رأيناه : فصاحت به وسقطت مغشيّا عليها . وأخذها بيديه وأجلسها وأعاد عليها الحديث بلين وذلك يزيدها الخافقة وهي تارة تبكي وتارة تلاطفه ، ومثال حالتها منعه منعا كلّيا من أن يتعرّض للشهادة بوجه . ولما لم يجد معها وجها لأداء الشهادة قال لها : على كلّ حال لا نترك البريّ يموت في النازلة وأنا نفديه بنفسي لنخلص مع الربّ تعالى . فزادها ذلك فزعا ومنعته . وبينما هما كذلك اذ قرع ناقوس حضور الرئيس للجلسة الثانية . فبادر الشابّ إلى الخروج مسرعا من باب آخر حتى لا يراه أحد . وبقيت المرأة تضرب كفّيها تارة وتعضّ أصابعها أخرى . ودخل زوجها وهو لم يشعر بحالها فخرجت هي إلى بيت آخر وأصرّ في تلك الجلسة على قتل المتّهم بما عنده من علامات الاتّهام بعد طول جدال

[68]

(1) كلمة دخيلة ايطالية معناها السيدة النبيلة .

(2) بالأصل : تعدهم .

الأفوكاتية جداً الا ّ اضطرّه إلى ذلك وكان ذلك الشابّ قد انخرط في سلك المتفرجين . ولما شعر من الرئيس بالحكم دخل إلى دائرة النازلة وخرق سياج الافوكاتية ووقف بين يدي الرئيس وقال : هذا الرجل لم يقع منه قتل البتّة . فأبهت جميع الافوكاتية والرئيس وأطار عقل المتّهم وأختيه فرحا واندهل من ذلك جميع الحاضرين وخرج من حينه فاستعيد فسئل عن وجه ذلك فلم يجب . وبعد أشدّ الملاحّة والوعيد تأجّل لأيّام ثلاثة قضاها في مراودة [69] الكنتيسة على أداء الشهادة ومنعها الخجل والوجل فأصرّت على ممانعته والتزم هو بالاعتراف بأنّ القتل وقع منه ليخلص ذلك المسكين فحضر بعد انقضاء الاجل ودخل بحالة من أعدّ نفسه للموت لم يفته منها شيء . ولما طالبه الرئيس بشرح براءة المتّهم ارتعش وطلب محبرة وقرطاسا ليكتب الجواب بخطه فلم يتريّث أن كتب أنه هو الذي قتل المقتول وأنّ المتّهم بريء منه وأمضاه وختمه في ظرف ناوله الرئيس إلى كاتب الجلسة . فلما قرأه ألقاه من يده وأعلم الرئيس بمضمونه فقام له وقعد وظهرت على الشاب هيأة اضطرب لها جميع الناس من الافوكاتية وغيرهم وقال له الرئيس أأنت مجنون ؟ فأنكر جنونه وعند ذلك أمر الرئيس براحة ينظر فيها غريبة هذا الاعتراف . أمّا المتّهم وأختاه فكأنهم نشطوا من عقال وطارت قلوبهم . فأخرج الشاب وجميع الحاضرين ولم يبق غير الرئيس وكاتبه ، فصوّب بصره إلى الأرض وأخذ يفتل لحيته ووجهه مصفرّ من أمر النازلة يفكّر في أمرها .

وبينما هو كذلك اذ دخلت عليه زوجته وقلبها يرجف من وجفة الاضطراب الذي سمعت وقوعه ثم لمّا رأت هيأة زوجها لم تشكّ في أنّ الشابّ أخبر بالخبر . وبينما هي على شفا من الخوف فإذا بزوجها رفع رأسه فرآها وهو لا علم له بشيء من جهتها . وعندما رآها قال لها : أسمعت مقالة الشاب فلان ؟ بصيغة تعجّب . فحقّت عندها الظنون ولم تتمالك أن قالت : أو أنّه أخبركم خبر القاتل فلان ؟ وضربت على صدرها . فبهت الرئيس

لذلك وقال لها : ما هذا الكلام ؟ فكأنها استيقظت لسبق لسانها (فقالت) (1) : ظننت ذلك . فلم يصدّق منها دعوى الظنّ وقال لكاتب الجلسة . اكتب مقالة الكنتيسته كلّها .

فإذا بالكاتب امتنع من ذلك ، فانتهره وقال له : ينبغي للحاكم اذا جلس في محلّ حكمه يقطع علائقه حتّى مع زوجته وأبنائه ويعدّهم كما يعدّ آحاد الناس [70] وإلاّ يكون خائنا لوظيفته ولبلاده . (تصفيق استحسان عمومي) فكتب عنها ما وقع منها . وعند ذلك أمرها الرئيس بان تخرج من بيت مستقرّها وتنحاز إلى الخصوم في النازلة . فامتثلت أمره بكل اندهاش . وعندما خرجت وجاءت الشابّ في دهشة الالتقاء بنفسه للموت ، فقالت له : أو أنّك أخبرت بقصّة القاتل ؟ فقال لها : إنّي اعترفت بأنّ القتل كان منّي حتّى لا نضطرّ إلى ذكر القصّة . فأخبرته بما وقع منها عند زوجها حتّى صارت مسؤولة عن النازلة وبذلك هان عليه أمره .

أما الرئيس فلما عظمت حيرته أدخل كاهيته وأرسل لبعض الأعضاء فأحضرهم . وقصّ عليهم خبر الشابّ والكنتيسته وأذن كاهيته بالجلوس لاستنطاق الكنتيسته ، فاستقال الكاهية أوّلا ولم يسعه إلاّ الجلوس بحضر الرئيس ودخلت النازلة وأمر للكنتيسته بكرسي جلست عليه امام الكاهية فسألها عن اسم الشخص الذي ذكرته ووصفته بالقاتل كيف حصل لها العلم بوقوع ذلك منه ؟ فقالت : اني قلت ذلك غلطا مبنيّا على ظنّ أنّه نسب إليه القتل . فاكتفى الكاهية بجوابها واعتذر عنها للرئيس فإذا بالرئيس نظر إليه نظر المنصف الحازم المتأنّي وقال له : إن مراعاة الخصوم تضيع بها حقوق الأمة وتعدّ خيانة كبرى وليس من وظيفتك الاعتذار للخصوم . والتفت إلى الوكيل العامّ ، وكان واقفا في موقف الوكلاء وأذنه بأن يتقدم لمعارضة الكنتيسته . وطلب استنطاقها وأخذ كرسيّه وتأخّر عن مجلسه وأمر الكاهية بالتحرّي في النازلة .

(1) عبارة غير موجودة في النص فزيدت لاستقامة المعنى .

فأطرق الكاهية مليّا ووجهه مصفرّ من الشفقة على حال المرأة بل إنّه أسبل دموعه ممّا رأى بها ، وخاطبها بشفاه مشفقة . أما هي فعندما رأت صرامة زوجها وعلمت أنّها غير متروكة لم يسعها إلا أنّها جنحت لذكر الخبر كلّه . وكان المتّهم والشابّ ووكلاؤهم وأهلهم كلّهم واقفين (1) . فقالت : نعم نخبر بحقيقة الواقع . وعند ذلك تقدّم زوجها [71] لمقعده الأوّل وأشار إلى كاتب الجلسة بالمبادرة للكتابة ، وهو مطرق برأسه ينتظر عجائب النازلة .

[71]

فقالت : إنّ المقتول قتله فلان الفلانـيّ وراء سياج بستاننا منذ شهرين ونصف : وأنا شاهدت قتله ومعي في المشاهدة الشابّ الفلاني ، وأشارت إلى ذلك المعترف . فسألوا الشابّ . فأجاب بنعم . وعند ذلك أشار الرئيس إلـى الوكيل العمومـيّ بالبحث في ذلك . فقال لها الوكيل : ومن أين لهذا الشاب أن يصل إلى هذا المحلّ الذي ذكرت أنّه شاهد معك فيه القتل والمحلّ ليس من محلاّت اجتماع العامّة ؟ فقالت : إنّا شاهدناه من شبّاك بيتنا أوّلا . فقال الوكيل : وكيف له أن يصل إلى الشبّاك ؟ ومتى كان لهذا الشابّ ما يصل به إلى مسكن جناب الرئيس ؟

فأطرقت تتأوّه وهي من الخجل والوجل في غاية الاضطراب وقالت : أنا أدخلته إلى محلّنا ، وبينما نحن هنالك اذ قرع الباب جناب الرئيس ، فاضطررت بالشابّ إلى الشبّاك الفلاني لينزل منه إلى البستان ويخرج . وعندما وصلنا للشبّاك شاهدنا فلانا يقتل فلانا ، فراعنا ذلك وعلى كلّ حال أنزلت الشابّ ولم ندر ما كان منه حتّى رأيته منذ الأسبوع الفارط حضر عندي في بيت المجلس وأراد أداء الشهادة لانقاذ المتّهم . ولما منعته أخبرني الآن أنّه اعترف بأنّه هو القاتل للتوصّل إلى إنقاذ المتّهم مع أنّـي عند دخولي إلى حضرة الرئيس واخباره إياي بشأنه ظننت أنّ الشابّ قصّ عليه القصّة ففرط منّـي ما فرط ليجازي الله هذا الشابّ ببراءته أيضا .

---

(1) بالنص : واقفون .

وعند ذلك لقّنها الكاهية بصورة استفهام فقال لها : هل دخول الشابّ إلى منزلكم كان هذه أوّل مرّة ؟ فقالت : نعم هذه أوّل مرّة رأيته فيها فأدخلته للتحادث معه . وكان الرئيس في جميع ذلك مطرقا برأسه يسمع بغاية الأناة . ثم قامت الكنتيسة وأجلس الشابّ للاستنطاق فابتدأ بيانه بما لقّنه (1) إليه الكاهية : إنّـي هذه أوّل مرّة رأيت فيها الكنتيسة فاستأذنتها في الدخول [72] عندها لمحادثتها وبينما أنا آخذ في ابتداء الحديث اذ قرع الباب فمنعتني من الاقامة وأتت بـي إلى الشباك الذي ذكرته ، فصادفنا فلانا يقتل فلانا في ذلك الموضع : ومع ذلك أنزلتني من الشبّاك وذهبت . ولمّا أردت الخروج من بعض منافذ السياج ارتعد منّـي القاتل وأراد الهجوم عليّ فخشيت أن يمسكني فقلت اتركني وأتركك فتركني وتركته . وكنت أظنّ أنّ جناب الرئيس أحسّ بحركتي عند دخوله فخشيت أن يكون حصل عنده إشعار بـي ولذلك بادرت من طريقي إلى سكّة الحديد فسافرت إلى جنوة وركبت منها البحر إلى مالطة : فأقمت هنالك شهرين إلى أن تحقّق عندي أنّه لا أثر لشيء ممّا ظننته فرجعت إلى بلدي فإذا بعض أحبابي ذكر لي منذ الأسبوع الفارط أن فلانا قد اتّهم بقتل فلان وقويت عليه الشبهة في القتل ولم يعترف والآن يراد الحكم عليه . وبما صادفته من حقيقة النازلة حضرت عند الكنتيسة واستاذنتها في آداء الشهادة . لكنّها للمحافظة على شرفها منعتني من ذلك . ولما لم نجد بدّا من ممانعتها وأنا نرى لها الحقّ في الممانعة قصدت تبرئة ذمّتي مع المتّهم والمحافظة على شرفها الذي راعته فاعترفت بأنّ القتل وقع منّـي . (تصفيق عامّ) لكنّ جناب الكنتيسة استعجلت بما فرط منها .

وعند فراغه من القاء الشهادة فرغ الكاتب من تقرير جميع ألفاظهما وقام وقرأ كلاّ (2) من التقريرين بدون أن يدع منهما حركة في ذلك المجمع . ثم صادق عليهما الشابّ والكنتيسة وأمضيا عليه وأمضى عليه الأفوكاتو العموميّ

(1) بالنص : لقنهم .
(2) بالنص : كل .

والكاهية والرئيس . وعند ذلك أمر الرئيس بالاتيان بالقاتل وتخلية سبيل المتّهم . فخرج المتّهم وأختاه (1) في سرور وتعلّقوا بالشابّ يقبّلونه ويشكرون فضله . وأما الرئيس فبعد خروج الجمع نادى زوجته [73] فقدمت إليه مطرقة من الحياء فأمرها بالجلوس على كرسيّ أمامه . فامتنعت حياء . ولما ألحّ عليها جثت على ركبتيها بين يديه استعطافا له فقال لها : بما أنّ هذا الشابّ الصادق قد بذل نفسه شفقة عليك وحفظا لحقّ الشهادة وأنت قد أعملت ما يلزم لصاحبات الشرف وهذه أوّل زلّة منك والانسان يقع في الأغلاط ما دام حيّا فأنا قد عفوت عنك وسامحتك فيلزم أن يسكن خاطرك (تصفيق استحسان عامّ) فشكرت فضله وتبرّأت من السوء وأجلسها بيده على كرسيّها .

ونزل الستار وانفضّ موكب النازلة فازدحم الناس على الخروج مبتهجين بصنيع الرئيس والشابّ . وركبنا كرّوستنا ورجعنا إلى دارنا .

[73]

[الصورة الثانية : تشخيص روايات تاريخية]

الصورة الثانية من صور التياترو تشخيص رواية تاريخية من وقائع العصور السالفة . ويلزم فيه وفي الذي قبله أن تكون الرواية والنازلة مدوّنة في كتاب بيد رجل يسمّى المُملي يكون مقرّه في كوّة من قاعة البهو أو بين طبقات حائطه بحيث لا يراه أحد من الحاضرين ، يتكلّم بصوت للخفاء أقرب يسمعه المباشرون لالقاء الرواية تلقينا لهم مع اتقانهم حفظ خطاباتها على أكمل تهذيب.

ويدخل في الروايات التاريخية تشخيص النوادر المضحكة وهي أحبّ إلى العامّة سيّما والوقائع التاريخية ربّما تستدعي عدّة ليالٍ لا يعتني للمحافظة على الحضور في جميعها إلاّ عارف بمزية التاريخ . وأوّل حضوري في هذا النوع من التياترو ليلة الثلاثاء موفّى عشرين من رجب (2) ببلد نابلي ، دعاني إلى

(1) بالنص : وأخواته .

(2) يوافق 6 جوان 1882 .

تياترو قرب سوق توليدو هنالك الأديب ابراهيم باي المويلحي المصري كاتب إسماعيل باشا . وكان بمعيّتنا في تلك الليلة شابّ يهودي من أبناء منشه (كذا) أحد صرافي الاسكندرية وفد إلى نابلي قبل ذلك بيومين فيمن فرّ من اضطراب الاسكندرية (1) وهو شابّ مليح الصورة فصيح اللسان العربي يحسن اللسان [74] الطلياني بحيث كان ترجمانا تلك الليلة أكثر من إبراهيم باي ، وثلاثتنا في بيت مستقلّ . [74]

غير أنّ التياترو المذكور كان صغيرا وتشخيصه نوادر مضحكة من ألطفها واقعة رجل ضعيف العقل زعم أنه طبيب وكلّما أتته امرأة للتداوي راودها عن نفسها وربّما لاقى منهن ضربا أو شتما . ثم إنّه ترك الطبّ باشارة بعض أحبّائه وأراد أن يتعاطى وظيفا . وكلما حسّنوا إليه خطّة لم يتهيّب أن ذهب إلى رجال الدولة وطلبها . ثم إنّه يأخذ في استحضار لوازم تلك الخطّة وتجريب أعمالها وشراء لوازمها وافساد ما كان عنده مما هو ليس من علائقها . وهكذا فعل في عدّة خطط طلبها من الكتابة والنظارة والرئاسة إلى أن انتهى به الأمر إلى الوزارة فرأى لزوم بيت وزارة وبستان للتنزّه مع ما يناسب الخطّة وتعاطى جميع ذلك بما يطول شرحه . غير أنّه آخر الأمر رأى أنه لابدّ أن يكون مقعده أرفع من مقعد جلسائه عندما يولّى الوزارة ففكّر في ذلك . وكان حين تفكّره مقيما في بيت أحد رجال الدولة ممّن يعده بالوظائف . ولما استقرّ رأيه أخذ طاولة كتابة الرجل وألقى جميع ما عليها من الكتائب شذر مذر ووضع فوقها كرسيا وجلس عليه ثم رأى مكانًا أرفع من ذلك فوضع كرسيين وعليهما كرسي ثالث وصعد فجلس عليه فوقع به وسقط فانكسرت رجله ودخل صاحب البيت فأتي بمن رفعه إلى بيته .

(1) أسهب الشيخ محمد السنوسي الحديث من خبر اضطرابات الاسكندرية في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية في الباب الخاص بترجمة أحمد عرابي باشا ولا سيما في الصفحة 222 وما بعدها ، والملاحظ أن الاسطول الانقليزي أطلق المدافع على قلاع الاسكندرية يوم 12 جويلية 1882 .

وأما الوقائع التاريخية فحضرت منها على بعض من تواريخ ملوك فرانسا وملوك إيطاليا في بلدان إيطاليا ووقائع غيرهم باللسان التركي والأرمني بالآستانة . غير أنّي لعدم معرفتي باللسان مع ضعف من نستصحبه للترجمة لم يمكني ضبط واقعة تامّة سيّما مع عدم المواظبة إلى الاستيفاء فيما تلزم فيه عدّة ليال .

[حضور المؤلف لتشخيص رواية تاريخية بتياترو دمشق]

وأحسن ما وقع في نفسي موقعا عظيما من هذا النوع تياترو دمشق الشام باللسان [75] العربي ووقائع تواريخ ملوك العرب من صنيع رجل منهم يسمّى أبا (1) خليل (2) حضرته بدعوة الامير أحمد والأمير علي ابني الامير عبد القادر الحَسَني(3) وبمعيّتنا محيي الدين ابن عمّهم والتاجر أمين مدور (4) صاحبنا في الطريق . وعبد القادر باي رفيقي .

وكان تلك الليلة تشخيص رواية الأمير محمود فرأيت فيه من أطوار ملوك العصور السالفة وأطوار وزرائهم بملابسهم الرسمية والاعتيادية وأطوار حواشيهم وأتباعهم وآدابهم وأخلاقهم ما يرى به الانسان نفسه قد تنقّل إلى عصور كان يراها على صفحات الأوراق . وأحسن من ذلك فصاحات الخطابات والخطب وحسن نثرها ولطافة شعرها العربي المولّد وطور إلقائها من الملك أو وزيره وعذوبة مخاطبة غلمان الحاشية برائق تلحينها مع صدح الموسيقى العربية والتغنّي بنوادر الشعر بحيث إنّ ذلك كان عندي أعلى من جميع الوقائع التاريخية التي حضرتها في اسلامبول باللسان التركي والتي

(1) بالنص : أبو .
(2) أبو خليل هذا كنية لرجل لم نعثر على ترجمته .
(3) ترجم الشيخ محمد السنوسي للأمير عبد القادر الحسني في الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ص : 114—150 . راجع أيضا : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج ا ، ص 69—70 . محمد مخلوف ، شجرة النور ، ص 406—407 .
(4) أمين مدور : تاجر لبناني من أسرة مشهورة في لبنان .

لمحت (1) باللسان الأرمني وايطاليا باللسان الطلياني والفرنساوي حتى إنّي اتّبعت ميل طبيعتي العربية لما هي به أعلق من تلك الأذواق . لكن أكّد لي رفيقي التركي الفصيح بلسانه واللسان الفرنساوي العارف بأذواقهما أكمل معرفة أنّه بما عنده من الذوق العربي القليل وجد بهذا التياترو موقعا أعظم وألذّ من غيره من تياتروات الألسن الأخرى حتّى قال لي : كان حقّا على الدولة تمييز صاحب هذا التياترو بنيشان تُعرف به مزيّته .

[أعجب ما رآه المؤلف في تياترو رومية وفرنة واسلامبول]

الصورة الثالثة الألعاب المبنية على الخفّة . وهي أنواع كثيرة . حضرت منها عدّة لطائف في عدّة من التياتروات أمّا ممّا يترجّع للمسابقة وهي أوّل الألعاب المبنية السابقة فأعجبُ ما رأيت منه في تياترو رومية تسابق لاعبية (2) الراجلين فوق اصطبل من لوح منحدر انحدارا عظيما والمتسابقون بأرجلهم أنعلة من نحاس ذات عجلات متكاثرة يقفون بها [76] في أعلى الانحدار وينزلون إلى أسفله ويدورون على جميع جوانبه ارتفاعا وانحدارا بسرعة البرق . ثم يتّخذون لهم عجلات كبيرة يبلغ قطر الواحدة نصف ميترو وفي قطبها محلّ نبتوا فيه النعال ممّا يلي الكعب الخارجية بكون الواحد واقفا على عجلتين رفيقتين لا يكاد الانسان يستقرّ عليهما في مستوى من الأرض ومع ذلك ينزلون بها من أعلى الانحدار إلى غايته ويسيرون على آخر طرف منه وهكذا يقع السير بالتسابق السريع مع اتّخاذ حركات في أثناء المسابقة وتماسك عدّة أشخاص بأيدي بعضهم وتسابقهم مع آخرين في تلك الحالة وهي حالة لا يشكّ من رآها في أنّ جميعهم يسقط سقوط الهلاك من أعلى الاصطبل إلى الأرض . ولدقّة هاته المسابقة كان اللاعبون حين وقوعها كلّ واحد منهم

[76]

(1) كذا بالنص .

(2) لاعبية : كلمة عامية تونسية ، جمع لاعب .

لابسا أفخر اللباس متقلّدا بجميع ما عنده من علامات الامتياز الصناعيــة والدّوْليّــة .

ومن أنواع المسابقة ما رأيته بالتياترو المذكور وهو أنّ المتسابقين وكانت بنتين وقفت كلّ منهما على كرة من نوع لوملاسطيك (1) يبلغ قطرها ميترو إلاّ ربعا (2) وتلازم كلّ واحدة منهما الجري وهي قائمة على الكرة بحيث إنّ حركتها تكون في نفس الكرة وتصعد بها على لوحة من الأرض معتمدة طرفها الأعلى فوق قائم يبلغ ارتفاعه ثلاث ميتروات ، فترتقي تلك المسافة في سرعة تامّة وتنزلها كذلك .

وأما المسابقة على الخيل فهي على أنواع ويزيدون فيها حركات تقع مع المتسابقين من الوقوف حال سرعة جري الخيل والجلوس والاضطجاع والنزول إلى الأرض والرجوع إلى ظهر الفرس في تلك الحالة وزيادة على ذلك ينصبون حبالا في طريق المسابقة مرتفعة أكثر من نصف ميترو اذا وصل الفرس إلى واحد منها تجاوزها في حالته وكذلك يقطع أعوادا تعترض لهم فيقطعونها مسابقة وتنصب لهم حال المسابقــة دوائــر متماسكــة بقرطــاس ترتفع عــن الأرض أكثر [77] من ارتفاع الفرس فإذا وصلها الراكب ترك الفرس يخرج من تحتها ويخرق لنفسه ذلك القرطاس ويتجاوزه بسرعة فيصادف ظهر الفرس وربّما تكرّر ذلك ولا يخطىء (3) المسابق فيــه . [77]

وأغرب من ذلك أنّ المسابق يلبس عدّة ألبسة مختلفة الألوان ومنها لباس عسْكريّ بجميع أدواته فإذا جدّ يرى فرسه تولّى عليه قائما وأطلق له عنانــه وأخذ ينزع ما عليه من الأدوات ثمّ الكسوة الأولى بسراولها ثمّ الثانية كذلك وكلّها ينزع معها جوارب . وبعد انتزاع الرابعة بقيت عليه كسوة حــرب

(1) كلمة دخيلة تعريبها : مطاط .
(2) بالأصل : الاربع .
(3) بالأصل : يخطا .

حمراء من لباس الغاريبالدي (1) نشر معها راية طليانية صفّق لها جميع الحاضريـن .

والشيء بالشيء يذكر : حضرت مرّة بأحد التياتروات الشهيرة فـي إيطاليا وكان ذلك على عهد وفاة غاريبالدي (2) رجل الحرب الذي اجتمعت به كلمة إيطاليا تحت سلطة ملك واحد وبعد تماديه على الحرب منعته الدولة من ذلك حتّى صارت حروبه ضدّا للدولة ووقّفت أحزابه وحجزته . واتّفق لي ليلة حضوري في ذلك التياترو أنّ الموسيقى ضربت أنغاما منسوبة إلى غاريبالدي فصفّق لها الحاضرون وتمادوا على التصفيق لها وكلّما انتهى أصحاب الموسيقى استعادوهم بالتصفيق وتمادوا عليه حتّى خشيت أنّ أولئك الآلاف يخرجون من هنالك حاملين راية غاريبالدي لإعادة الحروب ، ومع ذلك لم يمكن للموسيقى أن تسكت إلاّ بعد تمليّهم من ذلك ، وقد مضى من الليل جُزْءٌ عظيم : وهذه من حرّية الأمّة في أفكارهم .

أما الجري فوق الحبال والالقاء بالنفس منها والتعليق بها بل تعلّق أفراد متعدّدين ببعضهم وأعلاهم معلّق من رجله ، وسرعة التنقّل من معلاق إلى آخر فهذه أمور صارت في هذه العصور من معلومات صبيّات اللاعبين . وأمّا ما يرجع للرماية فرأيت من ألعاب الصينيين أنّهم يوقفون [78] رجلا مستندا إلى لوح وراء ظهره ويشرع يديه ويفرّج أصابعه ورجليه ويقابله آخر فيلقي عليه خناجر مشحذة الشرار واحدا بعد واحد يرميه بالواحد فيصيب اللوحة إلى جنب عنقه الأيمن رميا يقف به في اللوحة ثم يكون الآخر من الجهة اليسرى كذلك وكذا عند أذنيه (3) وأعلى رأسه وبين منفرج أصابعه وتحت إبطيه وبين رجليه إلى أن يستكمل نحو العشرين قطعة يرميه بها ولا يضرّه منها بشيء .

(1) انظر أعلاه صفحة : 28 ، تعليق 1 ، وصفحة : 38 ، تعليق 4 .
(2) بالأصل : غاليباردي .
(3) بالأصل : آذانه .

وأما ضرب البنادق ففي تياترو رُوميّة ضرب أحد اللاعبين غرضا واحدا خمسين مرّة متوالية لم يخطىء (1) في واحدة ، وضرب ذبالة مصباح فأطفأها ببندقة وضرب عصفورا صغيرا قائما فوق رأس كلب صغير فأسقطه وتلقّاه الكلب عند سقوطه بفمه ، وضرب مشعلا لنوع الشماريخ فاشتعل من الرماية وتفجّر شراره المختلف الأطوار .

وأما أنواع اللعب الأخرى فرأيت منها في التياترو الجابوني بقرنة لطائف منها وضع سلّم على سطح أقدام رجل مسطح رافع برجليه إلى أعلى يبلغ طوله نحو الخمسة عشر درجة لا يعتمد على غير رجلي الرجل بأعلاه سلّم آخر على عرضه فيه خمس درجات مربوط إلى يمين السلّم القائم وهو ممتدّ من جهة واحدة ثمّ إنّ حامل السلّم على رجليه بسط يديه حذاء رأسه فوطأهما (2) غلام يبلغ نحو العشر سنين ، فرفعه بهما إلى وجه السلّم فتنقّل الغلام يرتقي درجات السلّم وربّما دخل من بين الدرجتين وخرج من الجهة الأخرى إلى أن وصل إلى أعلاه وصنع مثل ذلك في السلّم الصغير المنعكس فكانت تلك الحالة تشفق كلّ ناظر ونزل على الوجه الذي صعد به ، وأوتي الرجل الرافع رجليه بلوحة يبلغ طولها نحو الميترو عرضها نحو النصف فوضعها على إحدى رجليه وقلبها بالأخرى شيئا فشيئا إلى أن بلغ أمرها في السرعة أن صارت ترى شبه ناعورة يديرها بين رجليه وهكذا وضعها [79] على جنبها وفعل بها فعله الأول على عرضها وعلى ملتقى زواياها فكانت شبه دولاب بالسرعة كلّ ذلك برجليه خاصّة .

ومن أنواع اللعب التي رأيتها في تياترو رومية واسلامبول في حمل الأثقال أنّ رجلا واحدا يحمل اثني عشر رجلا بين قائم على أكتافه وعلى ذراعيه ومتعلّق به في مخاصره . ومن لطائف النوادر التي رأيتها في تياترو رومية في

(1) بالأصل : لم يخطا .
(2) بالأصل : فوطئتها .

أثناء قصّة طباخ اقترحت عليه محبوبته الموسيقى على حين لا يجدها ، فوضع أواني طبخه التي من نحاس وفخّار وبلّور على المطبخ وأتى بأعواد من لوملاستيك وأخذ يضرب الموسيقى فوق تلك الأواني بعد أن وضعها وضعا مخصوصا فلم تبق نغمة وتر إلا سمعناها من ضربه حيث كان وضع تلك الأواني على وضع المنازل ، وبذلك أغرب بين جميع الحاضرين . إلى غير ذلك من الألعاب التي شاهدنا ممّا لا يحصل إلاّ بكمال التعلّم والتأنّس كإدخال السيف المستوي الطويل في الحلق إلى أن يبلغ المعدة .

[أنواع الشعبذة]

وبالجملة فقد شاهدنا من تلك الملاعب والمغاني ما لا يفي به التعبير . وهنالك من أنواع الشعبذة أمور كثيرة لم يزل أرباب الصناعة يتقدّمون فيها ومن أعجبها أنّ مسكلين وكوك ساحري هذا العصر (1) صنعا ببّغاء يتحرّك ويتكلّم لا فرق بينه وبين الحقيقي ، وصنعا حيّة تنساب في المسرح (2) وتلتفّ على ذراع ماسكها وتقبّله ، وصنعا موائد ودفوفا وعصيّا كلّها تسعى من مكان إلى آخر كأنّها حيّة . وقد تأبّط مستركوك رأسه أي قطعه بالظاهر وحمله تحت إبطه ثمّ ارتفع مستر مسكلين في الهواء أي وقف بين الأرض والسماء . كلّ ذلك جرى بالمسرح المصري . وأوّل ما يتمرّن عليه المشعبذون خفّة اليد والقبض بباطن الكفّ فيمسك بباطن كفّه دراهم وليمونا وبيضا وساعات وما أشبه ذلك بمجرّد انقباض عضلات الكفّ دون أن يطوي يده عليها فلا [80] يفطن الناظر إلى ما فيها من الأمتعة . وبذلك يمكنه إخراج أجسام غريبة من أبدان الناس إلى غير ذلك من الاظهارات العجيبة .

(1) هما ساحران انقليزيان اشتهرا في القرن التاسع عشر .

(2) بالأصل : المرسح وكانت هذه الكلمة مستعملة للدلالة على المسرح .



محمد الناصر باشا باي
(1922 - 1855)

[تحرير الامير الناصر باي في حكاية ألعاب حضرها عند عمّه علي باشا أمير تونس]

ومن لطائف عنوان هذه الألعاب ما حرّره جناب المنفرد في آ لِه ِ بمحاسن أعماله المتقدّم في التقدّم والتبصّر بالبراعة والابداع الذي لا يحصر صاحب الآثار الحميدة والآراء السديدة الحازم الشهم الهمام الأمير الناصر باي (1) في حكاية ألعاب حضرها عند عمّه علي باشا (2) أمير تونس ، فلخّص في ذلك أنموذجا من إنشائه الرائق بتعبيره الفائق وكم له من الانشاء الطالع غررا في جباه الأيّام الشاهد على أنّ كلام الملوك ملوك الكلام ولذلك رأيت أن أثبت هذا الأنموذج في الغرض وهذا نصّه :

هذه حكاية تشخيص ألعاب ليلة حضورنا عند الحضرة العليّة بالمرسى (3) في يوم الاثنين الخامس من جمادى الأولى سنة 1301 (4) بعد الزوال بساعتين . حضر عندي أحد معيني ودودي الأحبّ * وصديقي الأقرب * الهمام المرفّع شأنه سيدي محمد الهادي باي (5) يستدعيني عن إذن الحضرة العلية بحضور تشخيص ألعاب تلك الليلة بسانية المرسى . فركبت كرّوستي بعد الزوال بأربع ساعات وتوجّهت .

وعند وصولي تلقّاني سيدي أحمد باي (6) فذهبنا جميعا إلى أن وصلنا مقرّ أخي سيّدي محمّد باي (7) فتلقّاني في نصف ممشى بيته وأحسن قبولي وأدخلني في

(1) هو محمد الناصر بن محمد باي ولد في 28 شوال 14/1271 جويلية 1855 وجلس على العرش الحسيني في 17 ربيع الاول 1324/ ماي 1906 وتوفي ي 15 ذي القعدة 10/1340 جويلية 1922 . (راجع : م.ص. مزالي الورالة : ص 12 ، 41—42) .

(2) هو علي بن حسين ولد في ربيع الاول 26/1233 جانفي 1818 : جلس على العرش الحسيني 1882-1902 .

(3) المرسى ضاحية من ضواحي تونس الحاضرة .

(4) يوافق 3 مارس 1884 .

(5) هو محمد الهادي بن علي باي : ولد في 24 جوان 1855 وجلس على العرش الحسيني 1902—1906

(6) هو أحمد بن علي باي : ولد 13 أفريل 1862 وجلس على العرش الحسيني 1929—1942 (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2 ، ج 1 ، ص 290) .

(7) هو أحد أمراء البيت الحسيني .

موضعه ولامني على تأخّري لذلك الوقت . فاعتذرت له بأشغالي التي صرمت عنّي الزمان فعذرني وأنّسني . ثم سألني : هل لقيتَ الحضرة العلية أم لا ؟ فقلت له : انّي متشوّق إلى لقائك أوّلا بما عندنا من ألم الفراق . فاستحسن منّي ذلك المقال لما يعلم منّي من حقيقة الحال . وبعد فراغنا من تلك المحادثة أرسل معي شقيقه سيّدي إسماعيل [81] باي لملاقاة الحضرة العلية . [81]

فتشرّفت بالملاقاة ورجعت إلى محلّ جلوسنا الأول . وكان هنالك صهراي السيّد أحمد السنّي (1) وأخوه السيّد محمد الصالح (1) . ثمّ قدم حفيداي للأخت السيد محمد قارة والسيد أحمد قارة . وحضر معنا صهر أخي المذكور وهو أمير اللواء السيد محمد قائجي (2) . فجلسنا للمحادثة .

ولمّا طال بنا المجلس أمر أخي المذكور السيد أحمد بأن يضرب البيانو (3) فضرب ساعة زمانية . ثم أخذني أخي المذكور وذهبنا جميعا لداخل الدار . وعند وصولنا وجدنا زوجة المشعبذ أحضرت جميع لوازمها وهي تنتظر الاذن . فبادر بالارسال لاعلام شقيقه الشهم الهمام الأرفع سيدي مصطفى باي (4) فحضر وأرسل يعلم الحضرة العلية بأن الوقت قد حان للحضور .

وبعد هنيهة (5) قدمت الحضرة العليّة تجُرّ أذيال عزّها وجلست على كرسي استُحضر لجلوسها عليه . ثم دخل الوزيرُ وأميرُ لواء العسّة والمعينون والحاشية والأتباع وقبّلوا يد الحضرة العلية . وقام المرفّعون أبناء عمّي وأنا

---

(1) أحمد وأخوه محمد الصالح السني هما من عائلة اسماعيل السني وهو رجل أصله من الروم من مماليك الباشا حسين باي ، زوجه من شقيقته ، ومات اسماعيل مخنوقا بأمر من المشير محمد الصادق باي في 1867/10/4 (راجع : ابن أبي الضياف ، اتحاف ، ج 8 ، ص : 151—154) .

(2) محمد قائجي من عائلة علالة قائجي التركي ربيب الباشا حسين باي أنجب أولا دا من جارية تزوجها بعد وفاة زوجته الاولى بنت الباي حسين . (راجع : ابن أبي الضياف ، اتحاف ج 8 ، ص 94—95) .

(3) هي آلة موسيقى .

(4) هو أمير من البيت الحسيني .

(5) بالنص : هنيأة .

بينهم في ميمنة المجلس وجلس الوزير ومن معه واصطفّت المعينون في مواقفهم عن اليميـن والشمــال .

وبعد الاستقرار ، دخل معلّم الشعبذة ومعه ترجمانه يحمل عدّة نياشين ، فقبّلوا يد الحضرة العليّة وأذنته بافتتاح اللعب .

وأوّل لعبة صدرت منه كانت بورق الكارطة (1) يرسلها بقوّة الالقاء من يده اليسرى إلى يده اليمنى ثم يأخذها من داخل يد كبّوطه (2) ممّا يلي إبطه .

2) ثمّ أخذ أوراقا من الكارطة وطلب من الحضرة العليّة تقسيم ورقة منها ثمانية أجزاء وأخذها فضمّها بيده لبعضها وأعادها صحيحة ثم استعـاد تقسيمها مثل المرّة الأولى وسلّمها قطعا ليد سيّدي مصطفى باي . فأمسك منها قطعة ليعلم هل يقع تبديل الورقة أم لا فإذا هو لمّا ضمّها إلى بعضها أخرجها لا تنقص [82] الا مقدار القطعة التي أمسكها . وتعجّب الحاضرون من ذلك . [82]

3) ثمّ أتى بزوج حقق ووضع في إحداهما أشياء من اللوبيا ثمّ وضع تلك في الأخرى وبعد هنيهة فصلهما من بعضهما ، فإذا إحداهما مملوءة قهوة وبخارها متصاعد وأدارها على الحاضرين ، فشربوا منها .

4) ثمّ بعد ذلك أتى بمنديل أسود وقال : إنّه إذا الصحراء (كذا) يضع ذلك المنديل على يديه ويخرج منه ماء وسمك ، وعند ذلك وضع المنديل على صدره وأدخل يده تحت المنديل فأخرج زوج دواقر (3) مملوءتين ماء وحوتا ، وكلّنا ينظر إليه .

5) وبعد ذلك طلب دون علم زوجته ثلاثة خواتم فأعطوها له ووضعها في حقّة من نحاس ثمّ أتت زوجته وأخذت عكّازا في يدها ورفعت الخواتم بما هي عليه وأشار بالعكّاز إلى جهة الحقّة فإذا بالخواتم الثلاثة معلّقة في

(1) الكارطة : لفظة دخيلة من اللاتينية Charta والمقصود بها أوراق اللعب .
(2) كبوط : لفظة دخيلة من الفرنسية Capot والمقصود بها المعطف .
(3) زوج دواقير : تعبير عامي تونسي المقصود به المثنى من كلمة داقرة بمعنى الاناء كالقدر .

العكّاز والحقّة فارغة ليس فيها شيء مع أنها لم يقع لها فتح ولهذا بهت الحاضرون من ذلك .

6) ثمّ أتى بقفل كبير أدخلته الحضرة العلية في عكّاز قفلت عليه بنفسها ثمّ أتت زوجة اللاعب وأشارت إلى القفل من بُعْدٍ ثلاث مرّات ، فانحلّ في الحال .

7) ثمّ أخذ منديلا وشوّكها وجعل يفتلها ويقطعها وهي تتمغط في يده كأنّها من لستيك (1) حتى ازداد فيها أكثر من الثلث ، فتعجّبنا من ذلك .

8) ثمّ أخذ يصوّت بفيه فسمعنا منه صوت طنين الذباب الكبير فكان مثل ذبابة تدور حولنا بطنينها المشتدّ عند الامساك ثمّ ينقطع الحسّ ويعود كأوّل مرّة ونحن متعجّبون .

9) ثمّ أخذ ورق الكارطة وطاف على الحاضرين وأخذوا منها أوراقا غير معروفة له ثمّ خلطوها مع بعضها وأعطوها له فأخذها وأخرج ظرفا مختوما عليه وفكّ ختمه فإذا فيه ظرف آخر . وهكذا إلى أن استكمل سبعة ظروف ، فأخرج من آخرها جميع أوراق الكارطة التي اختارها أولئك واشتدّ تعجّبهم من ذلك .

10) ثمّ قال لأحد الحاضرين : أضمر عددا في نفسك وبعد [83] أن أضمره أخرج له ذلك العدد المجهول مرقوما من ظرف مثل الظرف الذي أخرج منه الكارطة .

11) ثمّ أخذ سبيرة (كذا) وملأها ماء ونحن ننظر في صنيعه ثمّ أخذ حفنة رمل أصفر ومثله أزرق وخلطه حتّى تغيّر لونه ثمّ خيّر الحضرة العليّة فيما تريد الاخراج منه الأزرق أو غيره ، فاختارت الأصفرّ ، فحمل صحنا فارغا وأدخل يده في الماء وأخرجها تقطر ماء وصبّ من الرمل الأصفر في ذلك الصحن جافّا كأنّه لم يخلط ولم يقع في الماء .

(1) لستيك : كلمة دخيلة من الفرنسية Elastique تعريبها : مطاط . انظر أعلاه صفحة 76 وصفحة 79 .

12) ثمّ نظر إلينا وقال : يوجد دواء لوجع الرأس والمعدة وأخرج قطعة مثل القلم وأدخله في منخره وأخرجه من قفاه .

13) ثمّ أخذ شيئا مثل الزنبرك (1) وله عين كعين الابرة وأدخل فيه رقيقة حمراء وأدخله في جوفه وأخرجه من خلفه .

14) ثمّ أخذ ورقة حمراء وقدّمها للحضرة العلية ومعها قلم وقال له : اكتب عليها ما شئت فكتب . ثمّ كتب فيها الوزير ، ثمّ قدّمها لسيدي مصطفى باي وأمير لواء العسّة ، فكتبوا عليها ما شاؤوا ، ثمّ أخذها وأحرقها ووضعها في كأس وقال للحضرة العلية : اقترح عليّ أين تمضي هاته الورقة إلى الصين أو إلى الغرب ؟ فاقترح عليه الصين . وبعد هنيهة أخرج ظرفا مختوما عليه بختم بوسطة ومزّقه ، ولما يمزّق ظرفا يظهر آخر ، وكلّ منها مختوم عليه ولا يمزّقه حتى يتحقّق الحاضرون إلى آخر ظرف أخرج منه الورقة الحمراء بالخطوط التي رقمت عليها . فتعجّب الحاضرون من هذه الشعبذة .

15) ثمّ وضع طاولة وجلس هو والرومي الحلواني (2) وجعل يلعب في الشكوبة (3) معه ويسرق له من غير أن يفطن الآخر .

16) ثمّ طلب من القبابجي (4) أن يجلس معه فوق الطاولة وأخذ الكارطة وقال له : خَلِّطْهَا مع بعضها وَاقْتَرِحْ عَلَيَّ ماذا تُرِيدُ من الألوان الأحمر أو الأسود ؟ . فَاقْتَرَحَ الأحمرَ . وبعد ذلك التخليط أمره بوضعها فوق الطاولة وضربها ضربتين وافترشها فوق الطاولة فإذا هي كلها ورق أحمر وذهبت منها الأوراق السود فبهت الذي حضر من [84] فعله . فقال له القبابجي : أين وضعت بقيتها ؟ فقال : ذهبت فاتركني نذهب للاتيان بما بقي منها . فلمّا وقف وجدت الأوراق السود كلّها تحته .

[84]

---

(1) بالأصل : الزنبراك وهو تحريف شائع في اللغة العامية التونسية لكلمة الزنبرك .

(2) الرومي الحلواني هو رجل يعمل بقصر البايات اختصاصه اعداد الحلويات .

(3) لعبة = الشكوبة = : لعبة من ألعاب الأوراق . (الكارطة) . ولفظة الشكوبة : كلمة دخيلة من اللغة الايطالية : Scopa

(4) هو أحد الأعوان بقصر الباي بالمرسى ، ضاحية تونس الحاضرة .

17) ثمّ قال بعد ذلك لأحد الحاضرين استحضر عددا في ذهنك أو جملة وعندما أضمر ذلك أعلمه بما في ذهنه . فبهت الحاضرون من فعله .

18) ثمّ أخذ ورقا من الكارطة وقدمها للحضرة العليّة لتأخذ منها ورقة . ففعلت وأمره بوضعها في يدها اليسرى وتختار ما شاءت من الألوان . فقالت : نريدها سوداء مع أنها حمراء . وعندما قلبها وجدها كما اقترح .

وتكرّر منه ذلك الفعل حتّى استغرب الحاضرون صنيعه . وكذلك استغربت الحضرة العليّة فعله وأكثرت تعجّبها من تلك اللعبة . وكانت آخر لعبة شعبذة عنده .

وبعد فراغه قبّل يد الحضرة العليّة وخرج ثمّ إن الوزير قبّل يد الحضرة العليّة وفعل الباقون كفعله وتقدّمت أنا وقبّلت يد الحضرة العليّة عند قيامها أنا وأبناؤه . ثمّ وادعت أخي سيّدي محمّد الهادي وركبت كروستي وقصدت سيّدي أبا سعيد أنا وأصهاري . وعند وصولنا الزيتون أذنت الكرارسي بالوقوف لنذهب (1) راجلين والمطر هاطل علينا فتحمّلنا ذلك المقدار خشية انقلاب الكروسة . وكان وصولي إلى منزلي قبل نصف الليل بساعة .

(من الرجز)

هذا الّذي أخْرَجْتُهُ منْ فِكْرِي أرْجُو به إغْضَاءَكمْ عنْ وِزْرِي

[الألعاب من شواهد العمران]

قلت (2) : وجميع هذه الألعاب من شواهد تعاظم العمران في تلك الممالك اذ التفنّن في ذلك ليس من أصول العمران الحضري وإنّما ينشأ عن استبحار العمران وتوسّع الحضارة ، وهو مصداق ما ذكره ابن خلدون (3) في

(1) بالنص : لنذهبوا .
(2) المتكلم هنا هو الشيخ السنوسي .
(3) انظر أعلاه صفحة 57 ، تعليق عدد 1 .

مقدّماته (1) بعد أن ذكر الضروري والحاجي والتحسيني من أنواع الصنائع المحتاج إليها في العمران البشري حيث قال : وقد تخرج عن الحدّ اذا كان العمران خارجا عن الحدّ كما بلغنا عن أهل مصر أنّ فيهم من يعلّم الطيور العجم والحمر الانسية ويتخيّل [85] أشياء من العجائب بايهام قلب الاعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع : = هـ. (2) . [85]

[الأنموذج في التمثيل من صحيفة المقتطف]

وبمزيد الترقّي بلغ العمل إلى الصور السالفة مع حسن التمثيل . وقد رأيت في المقتطف (3) أنموذجا في التمثيل نصّه :

الناس ميّالون بالطبع إلى التمثيل فترى الرواة الماهرين يقصّون عليك خبرا من الأخبار ويمثّلون الذين يروون عنهم الخبر في أصواتهم وحركاتهم كأنهم يصوّرون لك صورة ناطقة وقد يختلقون الخبر اختلاقا ويؤلّفون على أسلوب بديع قصد الترغيب والترهيب والمدح أو الذمّ ويمزجونه بما يقتضيه من الحركات والاشارات حتّى كأنّه عن المروي عنهم حقيقة وهذا هو فنّ التمثيل أو التشخيص بأوسع معانيه .

(1) انظر أسفله صفحة 85 تعليق عدد 2 .

(2) بالنص كما يلي : وقد تخرج الصناعات عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحمر الانسية وتخيل [85] الأشياء من العجائب إلى قلب الأعيان وتعلم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع . هـ. — انظر : ابن خلدون : المقدمة . الباب الخامس من الكتاب الاول ، الفصل السابع عشر في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته . ص : 401 مطبعة مصطفى محمد . مصر .

(3) انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1933 ج II ، ص 124—129. انظر أعلاه صفحة 35 .

والظاهر أنّ أوّل من برع فيه اليونان فإنّهم وضعوا نوعيه المشهورين أي التراجيديا (1) والكوميديا (2) قبل المسيح بنحو ستمائة سنة وأتقنوهما غاية الاتقان .

ويراد بالتراجيديا الروايات الجدّيّة التي تمثّل الشهامة والشجاعة والاقدام بحوادث محزنة غالبا . وبالكوميديا الروايات الهزلية التي يقصد بها التنديد بالعيوب أو مجرّد المزح والمؤانسة . ولذلك ترحّب اليونان بالتراجيديا وأدخلوها المحلّ الأوّل لميلهم إلى الأخلاق النبيلة ولم يلتفتوا إلى الكوميديا الا بعد أن وجدوا لها فائدة في ردع أهل البغي والفساد .

أمّا الرومان فلا يعلم كيف وجد فنّ التمثيل عندهم ، ولكن الأرجح أنهم اقتفوا خطوات اليونان وترجموا عنهم وتمثّلوا بهم . ثمّ انتشرت الديانة المسيحية فأهمل هذا الفنّ وبقي مهملا إلى أن أحياه الايطاليون في أوائل القرن السادس عشر للميلاد . والحاصل ألّف تَاسُو (3) أوّل كوميديا وأرْيُسْطُو (4) أوّل تراجديا . ثمّ قام فصحاء الكتّاب في فرانسا مثل كرنيل (5) ومولير (6) وبعضهم مثّل روايته بنفسه حتّى اشتغل التمثيل [86] الفرنساوي واشتهر في انقلترة شكسبير (7) الذي بلغت به الروايات الشعرية حدّا لم يتجاوزه إلى الآن .

[86]

(1) La Tragédie

(2) La Comédie

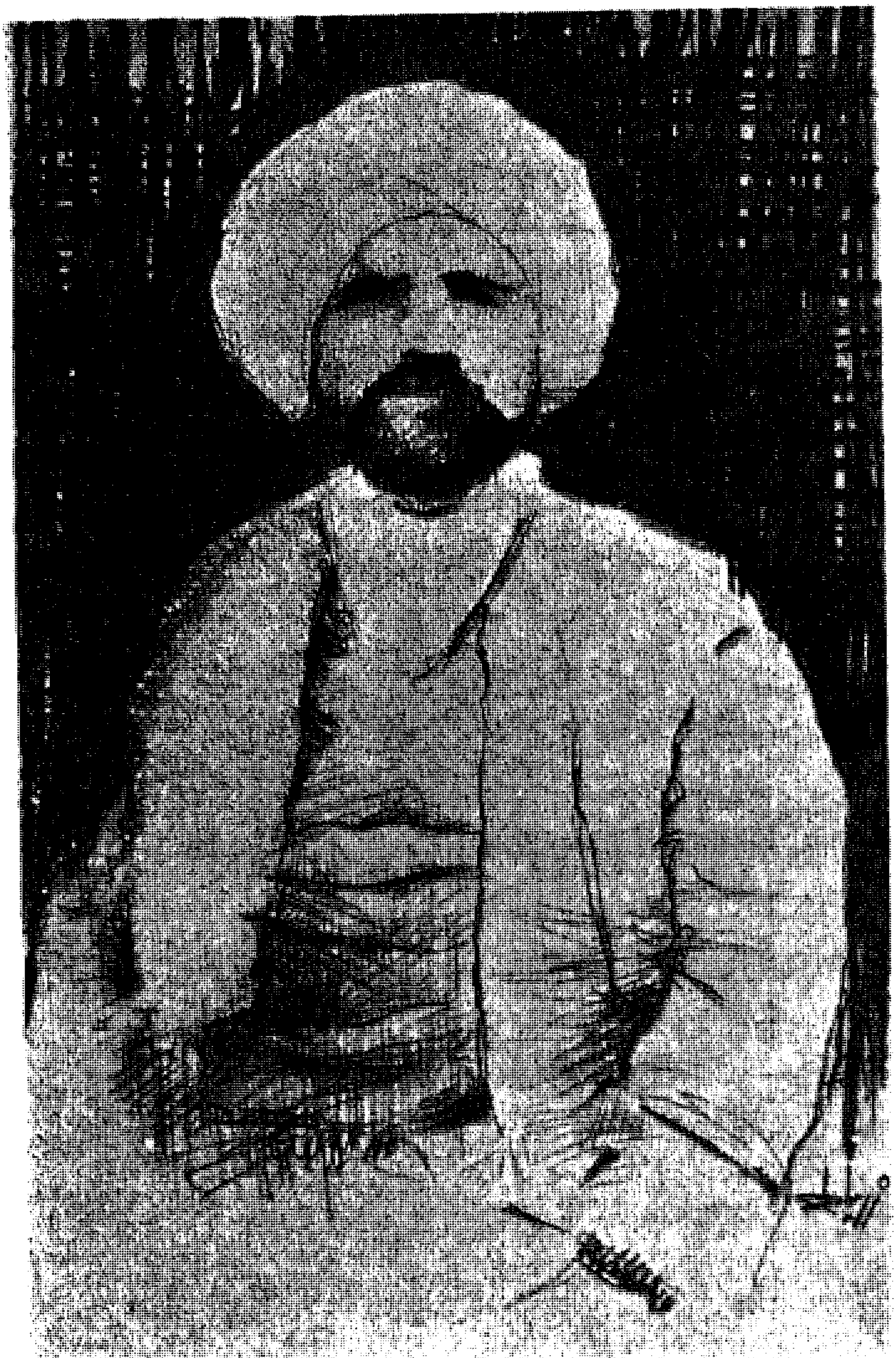
(3) بالاصل : تَرسنو ، وصوابه : تاسو وهو توركاتو تاسو Torquato Tasso شاعر ايطالي ولد سنة 1544 وتوفي سنة 1595 .

(4) هو لودوفيكو أريوسطو Ludovico Ariosto شاعر النهضة الايطالية ، ولد سنة 1474 وتوفي سنة 1533. (راجع : Michaud, *Biographie universelle anc. et mod., nouv. éd.*, t. 2

(5) هو الشاعر الفرنسي كورنماي Corneille ولد سنة 1606 وتوفي سنة 1684 .

(6) هو المؤلف الهزلي والممثل الفرنسي موليير Molière ولد سنة 1622 وتوفي سنة 1673

(7) هو أكبر شعراء التمثيليات المأسوية بانقلترة شكسبير Shakespeare ولد سنة 1564 وتوفي سنة 1616 .



الشيخ محمد بيرم الخامس
(1840 ـ 1889)

حكم التياترو [الصحف وعلاقتها بالتاريخ]

لمّا كان القسم السياسي والقسم التاريخي ليس فيهما الاّ حكاية حالة نازلة أو تاريخ عصر سالف فلا يخفى أنّ حُكْمَه حكم التواريخ المؤلّفة نظرا وحكاية وفيه فائدة التاريخ بل إنّها تحصل عن مشاهدة والمشاهدة أقوى دليل ولا شكّ أنّ هاته الصناعة على هذا الوجه بها يزداد علم التاريخ رسوخا وهي من فوائد هذا العصر الحاضر أجرى وأنفع والغاية المقصودة منها ومن التياترو التاريخي أمور أدناها مجرّد التفريج عن النفس باستطلاع الأخبار وأعلاها استحصال علم السياسة وبين الرتبتين فوائد كثيرة إن لم توجب بعضها .

وبما أنّ هاته الصناعات لم تكن بين الناس منتشرة لهذا الحدّ لم تصرّح دواوين فقهاء الاسلام بأحكامها غير أنّ أتقن ما رأيته في حكم مطالعة الصحف اليومية تحرير صحيفة الإعْلاَم (1) المصرية من القلم البيرمي التونسي (2) في مقدّمة أوّل عدد المؤرّخ بيوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثمائة وألف (3) .

وقد رأيت أن نثبته هنا على طوله لما فيه من الفائدة المناسبة لهذا المقام ، قـال :

إنّ هاته الصحف قسم من علم التاريخ وقد عرّفوه في كتبهم بقولهم : علم التاريخ هو الإخبار عن الكائنات السالفة في العالم والحادثات سواء عهد حالها أو تقادم . فهذا التعريف ينبئك عن انقسام التاريخ إلى قسمين : أحدهما الإخبار عن الماضي ، والثاني الإخبار عن الحال . ومن المعلوم أنّ الماضي

(1) انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، 1933 ج 4، ص 164—165، ج 1 ص 139

(2) المقصود هنا هو الشيخ محمد بيرم الخامس ، ولد سنة 1840/1256 وتوفي سنة 1889/1307 . (راجع ترجمته : محمد بيرم الخامس : صفوة الاعتبار ، القاهرة . 1302—1311 . ج 5) .

(3) يوافق 11 جانفي 1885 . والملاحظ أن صحيفة الاعلام انقطعت عن الظهور في غرة جمادى الاولى 1306/3 ديسمبر 1889 . (انظر أسفله صفحة 107 تعليق 2 . راجع A. Abdesselem, *op. cit., p. 61*

لا يكون ماضيا إلاّ بعد أن كان حالا . فالصحف المخبرة عن الوقائع الحالية تكون بعد برهة مّا تاريخا للماضي . وإذا علمنا أن هذه الصحف مندمجة في علم التاريخ فما قيل فيه من الحكم [87] الشرعي يكون شاملا لها . وذلك الحكم وإن كان مبسوطا على أكمل وجه في كتب التاريخ المطوّلة وفي دواوين الفقه في كتاب الحظر والاباحة بل وفي صحيح كتب الحديث كما هو مدوّن في أوّل صحيح مُسْلِم (1) عند الكلام على الرواة لكن نأتي على شيء ممّا يقتضيه الحال هنا .

[87]

[الاخبار عن الوقائع الحالية]

فاعلم انّ الإخبار عن الوقائع الحالية قد وقع في القرآن العظيم كما في سورة الروم حيث قال تعالى : (آلمّ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ (2)) . اذ نزلت معلنة بهاته الواقعة الحربية بين أعظم الدول اذاك وهم الروم وفارس يوم حصول الواقعة قبل أن يعلم بها أحد من أهل الحجاز . ثمّ أخبر تعالى عمّا سيقع بين تلك الدولتين أيضا .

وليس ما تجول فيه الصحف الآن إلاّ ضربا من ذلك فهو تشريع لنا بجواز الخوض في مثل ذلك غير أنّ الفرق هو أنّ ما أخبر به في القرآن عمّا وقع وما سيقع هو من الخوارق التي خصّ بها رسول الله (صلعم) وفي القرآن من هذا النوع كثير مثل ذكر قصص الحروب مثل بدر وحنين (3) وما وقع

(1) مسلم بن الحجاج : (202هـ./817م. – 261هـ./865م.) ولد في نيسابور . سافر إلى جزيرة العرب ومصر والشام والعراق وجمع الحديث . شهرته كشهرة البخاري . له : الصحيح فيه 300.000 حديث . وهو الثاني من الكتب الستة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية : الطبعة الفرنسية القديمة ، ج III

(2) القرآن : السورة : 30 . الآيات : 1–2–3–4 .

(3) بدر : قرية إلى الجنوب الغربي من المدينة حدثت فيها الوقعة بين المسلمين وأهل مكة (17 أو 19 رمضان العام الثاني من الهجرة) (623) انتصر فيها المسلمون وتوطد سلطان النبي . وكانت سببا لانتشار الاسلام بعد ذلك . حنين : وادي بين مكة والطائف . شهد الوقعة التي حدثت بين المسلمين والبدو ... وكان النصر حليف المسلمين وغنموا غنائم وافرة أربت على 24 ألف جمل .

فيها من النصر وكيفيات الحرب وهكذا ذكر وقائع حالية مثل ما قيل في المنافقين والإخبار عن دسائسهم وما وقع من غيرهم من التأييد للدين وغير ذلك من الوقائع الحالية .

[الاخبار عن الوقائع الماضية]

أمّا الإخبار عن القصص الماضية وتواريخ الأمم السابقة فهو كثير وفي الحديث الشريف من ذكر الوقائع الحالية والأخبار عن المعاصرين ما يفوق الإحصاء مثل إخباره صلّى الله عليه وسلّم عمّا وقع لأصحابه عند النجاشي ملك الحبشة (1) وإسلامه مع قومه . وإخباره صلّى الله عليه وسلّم بموت ذلك الملك يوم موته وصلاته عليه إلى غير ذلك ممّا هو مشهور في كتب الحديث والسير ممّا لا يحتاج في إثباته إلى نقل وحديث .

وقد كان سيّدنا عمر الخليفة الثاني (2) رضي الله عنه في زمن البعثة خرج هو وصاحب له إلى عوالي المدينة لتغيير الهواء وجعل مع [88] صاحبه تَنَاوُبًا يوما بيوم في الذهاب إلى المدينة لاستطلاع الأخبار وأحوال الوحي حتى جاءه صاحبه يوما وأخبره بإعراض رسول الله (صلعم) عن نسائه إلى آخر القصّة التي ذكرها البخاري في صحيحه (3) وترجم لها بباب التناوب في العلم .

[88]

(1) النجاشي : لقب ملوك الحبشة والحبشة أو أثيوبيا هي امبراطورية في افريقا الشرقية .

(2) عمر بن الخطاب : ثاني الخلفاء الراشدين . أصله من بني عدي بن كعب من قريش الظواهر . حضر وقائع الاسلام الأولى وزوج ابنته حفصة من النبي . على أيامه نشات المؤسسات الاجتماعية الكبرى منها الديوان لدفع رواتب الجيش والامصار لتحديد قاعدات الاجناد ومدن الاسلام الكبرى ومراكز القضاة . اتخذ لقب أمير المؤمنين . عرف بسداد رأيه وحكمته وحنكته العظيمة في السياسة . قتل سنة 23هـ./644م.

(3) البخاري : محمد الجعفي : (194هـ./810م. — 256هـ./870م.) ولد وتوفي في بخارى . من علماء الحديث . في 11 من عمره أخذ يدرس الحديث ثم حج وسمع علماء الحديث في مكة والمدينة وسافر إلى مصر وجال في بلاد آسيا مدة 16 سنة . اشتهر بكتابه = الجامع الصحيح = اخرجه عن ستمائة ألف حديث ورتبه على ترتيب علم الفقه . شرحه ابن حجر العسقلاني وابو زيد الفاسي . وله أيضا التاريخ الكبير عن تراجم رجال السند . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الفرنسية الجديدة ، أ ، 1336–1337) .

فهذا الحديث مع ترجمته يفيد جواز الاعتناء بالأخبار الحالية التي ينبني عليها عمل وأنها قسم من أقسام العلم الذي ينبغي تحصيله والاعتناء به .

وقد ذكر في الدُرَرِ (1) وغيره أنّه يحلّ سماع الأعاجيب والغرائب من كلّ ما لا يُتيقنّ كذبه . وقالوا إذا كان الرجل يصوم ويصلّي ويضرّ الناس بيده ولسانه فذكره بما فيه ليس بغيبة حتّى لو أخبر السلطان بذلك ليزجره لا إثم عليه . وكذا لو ذكر مساوئه على وجه الاهتمام لا يكون غيبة ومثل ذلك ذكر أهل قرية بما فيهم من القبائح من غير تعيين لواحد . وهكذا المتَظاهر بالقبيح . ويجوز أيضا التشكي من الظلم . فدلّت جميع هاته النصوص على جواز الاعتناء بالصحف وسماع أخبارها ما لم تكن معروفة بالأغراض في شيء مخصوص وهكذا ذكر سياسات الدول بل وأعمال أفراد أرباب الأمر والنهي إذا أضرّوا بمن تحت أمرهم لكي تعلم بهم الحكومة فترفع ضررهم .

على أنّ ما ذكروه في جرح الرواة يدلّ على جواز ذكر الأفراد بما يحذّر العموم من شرّهم بما المدار فيه على اعتبار المصلحة وعدم قصد الاذاية لغرض خاصّ .هـ. انتهى محلّ الحاجة من الإعْلاَم .

قلت : وبالوقوف عند حدّ الصدق وسلامة القصد لم يبق مانع في الحكاية بالمثال في المسارح . هذا إن نظرنا إلى مجرّد العمل أمّا إن نظرنا إلى ما يصحبه من الاجتماع الذي لا ينبني إلاّ على النساء والغلمان من اللاعبين المتفرّجين ونظرنا إلى أنه عمل جاهلي في الأصل نصراني في الحالة الراهنة فأصول شريعتنا الإسلامية تمنعه بدون نزاع . وكذلك تشخيص الروايات للسخف

(1) الدرر : درر الحكام في شرح غرر الأحكام تأليف محمد بن قرامرز الشهير بمنلاخسرو المتوفي سنة 885هـ. طبعة القسطنطينية . وقد اعتمد هذا الكتاب في التدريس بجامع الزيتونة والمدارس بتونس ابتداء من العهد التركي بمقدم الشيخ المفتي الحنفي التركي رمضان أفندي إلى البلاد التونسية . انظر أسفله صفحة 93 . والملاحظ أن حسن بن عمار الشرنبلالي له حاشية على درر الحكام . انظر أسفله صحفة 94 .

ممّا نهي عنه . وفي الحديث : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ مِنْهُ ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ » . وهو من اللغو المجتنب لا محالـة .

[حكم الشعبذة والكهانة وخفّة اليد]

[89] وأما القسم الثالث فمرجعه إلى [89] الشعبذة والكهانة وخفّة اليَدِ وهي علوم محرّمة . وقد عدّ صاحب الدرّ المختار (1) المحرّم من العلوم الفلسفة والشعبذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبائعين والسحر والكهانة . قـال عليه صَاحِبُ رَدِّ المُحْتَار ما نصّه : والشعبذة خفّة في اليد كالسحر ترى الشيء بغير ما عليه أصله . وأفتى ابن حجر (2) في أهل الحِلَق في الطرقات الذين لهم أشياء غريبة كقطع رأس إنسان وإعادته وجعل نَحْوِ دراهم من التراب وغير ذلك بأنهم في معنى السحرة إن لم يكونوا منهم فلا يجوز لهم ذلك ولا لأحد أن يقف عليهم . ثم نقل عن المدوّنة من كتب المالكية (3) أنّ الذي يقطع يد الرجل أو يدخل السكين في جوفه إن كان سحرا قوتل وإلاّ عوقب.هـ .

وقد ذكر ناصر الدين البيضاوي (4) في قوله تعالى : (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (5)) بعد أن أوضح حقيقة السحر ما نصّه : « وأمّا ما يتعجّب منه

---

(1) صاحب الدر المختار هو محمد علاء الدين الحصكفي . اما صاحب رد المحتار فهـو محمد أمين ابن عمر بن عابدين (م. 1252–1836) فقيه حنفـي من مواليد دمشق . انظر تعليقنا أعلاه ص 59 . (راجـع : الزركلي ، الأعلام ، ج 4 ص 267–268 .

(2) ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المصري القاهري محدث وفقيه ومؤرخ شافعي المذهب . ولد بمصر سنة 1372/773 وتوفي سنة 1449/852 . (راجع دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ج 3 ، ص 779–802) من تـآليفه : فتح الباري في شرح صحيح البخاري .ط. بولاق ، 1300 . والاصابة في تمييز الصحابة . ط. القاهرة ، 1323–1325 . وتهذيب التهذيب . ط. حيدر اباد ، 1325 .

(3) المدونة : لفقيه افريقية أبـي سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد حوالي سنة 160هـ. وتوفي سنة 240هـ. (راجع بخصوص تأليف كتاب المدونة وعلاقته بالاسدية = كتاب أسد بن الفرات : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج III ، ص 840) .

(4) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي : أحد مفسري القرآن ، وهو ابن قاضي قضاة فارس ، ولي القضاء في شيراز ، وتوفي في تبريز سنة 1286/685 ومن أهم تصانيفه : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 2 ص 1163) .

(5) القرآن : سورة البقرة ، 2 الآية : 102 .

كما يعمله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفّة اليد فغير مذموم » . قال محشّيه (1) : أي ليس بكفر . وأمّا أصل الحرمة فهي ثابتة له حيث إنّه لعب . وقد صرّح الفقهاء بحرمته وحرمة أخذ الأجرة عليه لما ذكره الفقهاء من أن كلّ ما لا يجوز فعله لا يجوز أخذ الأجرة عليه . وقد اختلف الناس في السحر : هل هو أمر حقيقي أم أنه مجرّد تخيّل لا حقيقة له ؟ وعليه الأكثرون من علماء العصر الجديد .

وقال ناصر الدين البيضاوي في قوله تعالى : (**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** (2)) أي أنهم طلوا الحبال بالزئبق فلمّا طلعت الشمس خيّل لموسى (3) أنها تسعى .

ولبعض أدباء العصر مخمّسا أبيات القسّ لويز صابنجي (4) صاحب النحلة بلندرة بقوله : (موشّح من الكامل)

يَا مُدَّعِي إِثْبَاتَ سِحْرٍ مِلَّةً — أَنْشَأْتَ فِي دِينِ النُّهِيمِين نِحْلَةَ
قَالَ الَّذِي فِي الْعِلْمِ أَنْشَأَ نِحْلَةً — زَعَمَ الْمُنَجِّمُ وَالْمُشَعْبِذُ جُمْلَةً
أَنَّ الطَّبِيعَةَ تَحْتَ أَمْرِ كِلَيْهِمَا [90]

فَلَكُ الْمُنَجِّمِ خَانَهُ مُتَوَاتِرًا — وَجَثَا(5) الْمُشَعْبِذُ لِلْحَقَائِقِ صَاغِرًا
وَكِلَاهُمَا هَيْهَاتَ يَلْقَى نَاصِرًا — كَذِبًا عَلَى أَهْلِ الْغَبَاوَةِ ظَاهِرًا
وَأَخُو النَّبَاهَةِ لَا يَمِيلُ إِلَيْهِمَا

(1) هو شهاب الدين الخفاجي (ت : 1659/1071) صنف حاشية الشهاب المسماة بعناية القاضي وكفاية الراضي . طبعة بولاق ، 1869/1283 . 8 أجزاء في 4 مجلدات .

(2) القرآن : سورة طه ، 20 الآية : 66 .

(3) موسى عليه السلام ، كليم الله .

(4) بالنص : لويز صابنجي ، والصواب لويس صابونجي (ولد حوالي 1843 ، وتوفي سنة 1928) وهو من السريان الكاتوليك ، تعلم في دير الشرفة بلبنان وفي رومية بايطاليا واتخذه السلطان عبد الحميد مدرسا لأولاده في الجغرافية ، له ديوان شعر النحلة المنظوم خلال الرحلة . (راجع : محمد السنوسي ، الاستطلاعات الباريسية ، تونس 1891/1309 ، ص : 273) راجع بخصوص صحيفة النحلة : فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ج 2 ص : 71—73 .

(5) بالنص : جثى .

أهْـلُ الْكِـهانَةِ في الضَّلالِ ترَافقَوُا
لـمّـا علَـى كَيْـدِ الأنـامِ توَافقـُـوا
وَعزَوْا إلى الشَّيْطانِ مَا قدْ عَافقَوُا (1)
لَمْ يَشْتَرِكْ إبْلِيسُ (2) فِيمَا نَافقَوُا
وَمِـــن الْعَـلاءِ سُخْـطُ الإلَهِ علَيْهِـما

[مسألة المسابقة والرماية]

وأما مسألة المسابقة والرماية وجواز المخاطرة عليهما مع ما فيهما من تعذيب الحيوان وفي أخذ المخاطر به من القمار فهي منظور فيها لمصلحة دينية ترجع إلى التدرّب على ما تحصل به نكاية العدوّ لحديث : لاَ سَبْقَ إلا فِي خُفٍّ أوْ حَافِرٍ أوْ نَصْلٍ (3) ولذلك أجازها الفقهاء في غير الثلاثة على شرط أن تكون فيما ينتفع به في نكاية العدوّ . وهو مجاز بدون مخاطرة كالسفن والطير لإيصال الخبر بسرعة وعلى الاقدام . ورمي الحجارة والصراع مما ينتفع به في الانتصار . وأما ما يقع من ذلك لمجرّد المغالبة بدون قصد نكاية العدوّ فممنوع ولذلك قال البنّاني (4) من فقهاء المالكية : فخرج بقولنا مما ينتفع به ... الخ جري المجري بمصر فانه حرام قطعا . على أن الشاطبي (5) في موافقاته قرّر في المسألة السادسة من كتاب المقاصد انه قد جاء النهي عن معاقرة الأعراب وهي ان يتبارى الرجلان فيعقر كل واحد منهما ما يجاود به صاحبه فأكثرهما

(1) عافق : خادع .

(2) ابليس : علم جنس الشيطان ، ج. أباليس وأبالسة . (راجع دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 3 ص : 690—691) .

(3) النصل من نضله نضلا : سبقه وغلبه في النضال . وناضله نضالا : باراه في رمي السهام .

(4) أبو عبد الله محمد بن حسن بن مسعود البناني ، توفي 1780/1194 ، له حاشية لشرح مختصر خليل بن اسحاق الزرقاني ، وله شرح سلم الاخضري ، طبعة القاهرة 1318 (راجع : محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج أ ، ص : 357) .

(5) أبو اسحاق ابراهيم الشاطبي (توفي سنة /1388م.) عالم بالاصول والتفسير والفقه والحديث واللغة .

عقرا أجودهما نهى عن أكله لأنه ممّا أهلّ لغير الله به قال الخطابي : وفي معناه ما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهم البلدان وأوان حدوث يتجدد لهم في نحو ذلك من الأمور . وخرّج أبو داود (1) : نهى عليه السلام عن طعام المتباريين أن يؤكل ، وهما المتعارضان ليرى أيّهما أغلب [91] يغلب صاحبه . فهذا وما كان نحوه إنما شرع على جهة أن يذبح على المشروع بقصد مجرّد الأكل فإذا زيد فيه هذا القصد كان تشريكا في الشروع ولحظا لغير أمر الله تعالى وعلى هذا وقعت الفتيا من ابن عتاب بنهيه عن أكل اللحوم في النيروز وقوله فيها إنّها ممّا أهلّ لغير الله به وهو باب واسع .هـ. وهنا انجرّ بنا الكلام إلى مسألتين :

[91]

[مسألة المخاطرة]

المسألة الاولى مسألة المخاطرة وقد أتينا على طرف منها من مذهبنا وقد رأيت للشافعية فيها شروطا نظمها الشيخ محمد الأبياري (2) في كتابه سعود المطالع بقوله : (من الطويل)

وَعَشْر شُرُوطٍ لِلنِّضَالِ وَسَبْقِهِمْ
فَعِلْمُ مَسَافَاتٍ كَذَا الوَصْفُ فِيهِمَا
وَتَعْيِينُ مَرْكَزٍ وَتَعْيِينُ رَاكِبٍ
وَإِمْكَانُ قَطْعٍ لِلْمَسَافَةِ مِنْهُمَا

(1) أبو داود السجستاني ، سليمان بن الاشعب ، محدث ، ولد سنة 817/202 وأقام بالبصرة ومات في شوال 275/فيفري 889 . له كتاب السنن (راجع : ابن الصلاح ، علوم الحديث ، حلب ، 1931/1350 . راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج ا ص : 117) .

(2) هو عبد الهادي نجا بن رضوان نجا بن محمد الابياري المصري (1821/1236–1888/1305) له 40 كتابا منها كتاب صعود المطالع لسعود المطالع . (راجع : الزركلي ، الاعلام ، ج 4 ، ص : 322–323) .

كَذَلِكَ إِمْكَانٌ لِسَبْقٍ وَعُدَّةُ الْـ
ـقِتَالِ لِخَيْلٍ مَعْ رُكُوبٍ كِلَيْهِمَا

وَعِلْمٌ بِمَشْرُوطٍ مِنَ الْمَالِ مُطْلَقًا
تَجَنَّبْ شَرْطَ مُفْسِدٍ فِيهِمَا افْهَمَا

وقوله مطلقا أي جنسا وقَدْرًا وصفة كسائر الأعراض فلا يَصِحُّ العقد بمجهول أو غير موصوف وعوض المسابقة هو المال الذي يخرج فيها من أحد المتسابقين فإن سبق صاحبه استردّه وإن سبقه صاحبه أخذه السابق ولا يجوز إخراجه منهما معا إلا أن يدخل بينهما محلّلا بالكسر إذا سبقهما أخذ عوضيهما وإن سبق لم يغرم شيئا . وبهذا يعلم محلّ جواز المخاطرة من محلّ منعها . وعليه فسائر التراهن على الألعاب بالمخاطرة الجارية ممنوع . ومنه اللعب بالأزلام وهو أن يفرض لشيء مأكول أو نحوه سبعة أنصباء مختلفة الأسهم فالنصيب الأول من سهم واحد والثاني من سهمين والثالث من ثلاثة أسهم والرابع من أربعة أسهم والخامس من خمسة أسهم والسادس من ستة أسهم والسابع من سبعة أسهم ثمّ تجعل عشرة أقداح أي عيدان من قصب يتولاها عشرة أشخاص يكتب كل واحد [92] اسمه على واحد منها وتجمع القداح في خريطة وعند ذلك تسمّى الربابة فتعطى ليد من يوثق به فيخلطها وسط الربابة ثم يخرجها قدحا بعد قدح فمن خرج قدح اسمه أوّلا أخذ النصيب الواحد ويسمّى القدح الفذّ والثاني يأخذ السهمين ويسمّى قدح التوأم (1) وهكذا يسمّى القدح الثالث الرقيب والرابع الحلس والخامس النافس (2) والسادس المسبل والسابع المعلّى فيأخذ السبعة الأسهم وبقية العشرة لا نصيب لهم وعليهم غرم ثمن الملعوب عليه فالثامن سدسه ويسمّى الشفيع والتاسع ثلثه ويسمّى المنيح والعاشر نصفه ويسمّى الوغد .

[92]

---

(1) التوأم : سهم من سهام الميسر .

(2) في الاصل : والرابع النافس والخامس الحليس . والصواب ما أثبتنا .



المشيـر الأول أحمـد بـاي
(2 ديسمبر 1806 ـ 30 ماي 1855)



محمود بن عياد

(1810 ـ 18 فيفري 1880)



المشير الثالث محمد الصادق باي

(1882 ـ 1814)

[مسألة طعام أهل الكتاب وسؤال أحمد باي المشير الأولُ عن ذلك]

المسألة الثانية في حكم (طعام أهل الكتاب) (1) طعام الافرنج وذكاتهم .
وقد كان الأمير أحمد باشا (2) عند سفره (3) أرسل بالسؤال عن ذلك إلى شيخ الإسلام (4) وصورة السؤال من قلم كاتب سرّه (5) ما نصّه :

مولانا شيخ الاسلام وعمدة الأئمّة الأعلام جوابكم الشافي في طعام أهل الكتاب المباح لنا بنصّ الكتاب ، هل يتناول الطعام ذبائحهم أم لا ؟ وهل يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا أم لا ؟ وهل يشترط في إباحة طعامهم تحقّق سلامته من النجاسة أم لا ؟ فقد أفتى ابن العربي (6) من أئمّة مذهبنا (7) بما نصّه : أفتيت بأن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها تؤكل لأنّها طعامه وطعام أحباره .هـ. بناء على عموم الآية المراد أن تحرّر لي ما في النازلة من أقوال أئمّتكم وهل فيهم من أفتى بمضمون قول ابن العربي . وفي غالب ظنّي أنّ لبعض أجدادكم كتابة في النازلة فإن كانت فأرسلها ولا نستغني بها عن جوابكم والسلام من معظّم قدركم المعروف .

---

(1) عبارة زيدت بالطرة بقلم المؤلف .

(2) المشير الاول ولد في 2 ديسمبر 1806 وجلس على العرش الحسيني في 10 أكتوبر 1837 وتوفي في 30 ماي 1855 .

(3) زار الديار الفرنسية في ضيافة الملك لوي فيليب من خامس نوفمبر 1846 إلى موفي ديسمبر 1846 . (راجع : م.ص . مزالي ، الوراثة على العرش الحسيني ، تونس 1969 ، ص 32) .

(4) هو أبو عبد الله محمد بيرم الرابع (آخر جمادى الاولى 26/1220 أوت 1805—4 جمادى الاولى 5/1278 نوفمبر 1861) كان المشير أبو العباس أحمد باي يستشيره ويدينه .. (راجع : ابن أبي الضياف ، اتحاف ج 8 ص : 125) انظر أسفله صحفة 97 تعليق عدد 2 .

(5) كاتب سر المشير أحمد باي هو أبو العباس أحمد ابن أبي الضياف ولد في عام 1802/1217 وتوفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من شعبان سنة 29/1291 سبتمبر 1874 . (راجع : حوليات الجامعة التونسية عدد 5 ، ص 113—118 ، وعدد 6 ، ص 57—58—59) .

(6) أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي المعافري ولد باشبيلية سنة 1076/468 وتوفي بفاس سنة 1148/543 (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 3 ص 729 . ومحمد مخلوف ، شجرة النور ، ص 136) .

(7) المذهب المالكي .

[جواب شيخ الاسلام محمّد بيرم الرابع]

فكان جوابه الشافي ما نصّه :

الحمد لله وعليكم السلام المزري بسحب الغمام وبعد فقد تصفّحت السؤال وأجلت فكري فيما تضمّنه من المقال فاذا أمره يدور على الكشف على ثلاثة أمور وها نحن نحرّر فيها الكلام على طبق ما دوّنه أئمّتنا الاعلام فنقول امّا قولكم فهل يتناول الطعام ذبائحهم [93] فجوابه نعم هو متناول لها ففي البرهان (1) شرح مواهب الرحمان (2) وشرطها يعني الذكاة ان يكون الذابح على ملّة التوحيد اعتقادا أو دعوى فحلّ ذبيحة المسلم لأنه على ملّة التوحيد اعتقادا والكتابي لانه يدعي التوحيد سواء كان ذميّا أو حربيا . والأصل قوله تعالى (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) (3) هـ.

فأنت ترى كيف جعل الآية الكريمة أصلا في إباحة ذبائحهم وما ذلك إلا لتناول لفظ الطعام فيها للذبائح بل قضيّة كلام الفخر الزيلعي (4) إنما المراد بالطعام في الآية مذكاهم على سبيل الخصوص فكأنه قيل ومذكى الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم إذ غير ما للذكاة أثر فيه ما للطعام من الطعام يحلّ من غير أهل الكتاب فإنّه إثر استدلاله بذلك النظم الشريف قال : والمراد به يعني بطعام أهل الكتاب مذكاهم لأنّ مطلق الطعام غير المذكّى يحلّ من أيّ كافر كان ولا يشترط فيه أن يكون من أهل الكتاب . واقتفى أثره في حمل

---

(1) البرهان هو كتاب البرهان في شرح مواهب الرحمان في مذهب النعمان لابراهيم بن موسى الطرابلسي نزيل القاهرة المتوفى سنة 922 هـ .

(2) شرح مواهب الرحمان ألفه إبراهيم بن موسى الطرابلسي .

(3) القرآن : سورة المائدة 5 الآية 5 .

(4) الفخر الزيلعي ، فقيه حنفي قدم القاهرة سنة 705 وتوفي فيها سنة 1343/743 من تآليفه تبيين الحقائق في شرح كنز الدقائق للنسفي . (راجع : الزركلي ، الاعلام ، ج 4 ، ص 373) .

الطعام على ذلك صاحب الدرر (1) وكذلك الحموي (2) في شرح الكنز (3) حيث قال بعد استدلاله بتلك الآية : والمراد ما تلحقه الذكاة من حميتهم لأنه خصّ أهل الكتاب بالذكر وما لا تلحقه الذكاة يستوي فيه الكتابي والمجوسي فثبت بهذا ما ادعيناه في صدر الجواب ثبوتا لاخفاء فيه .

وأما قولكم وهل يشترط أن تكون ذكاتهم موافقة لذكاتنا فجوابه أيضا نعم يشترط في ذكاتهم ما يشترط في ذكاتنا كما يشهد بذلك تدوينهم لأحكام الذكاة غير فارقين بين كون الذابح مسلما أو كتابيًا ففي الأجناس بنقل الحموي (2) يُعتَبَرُ في الذكاة أربعةٌ : **أحدُها** صفة في الفاعل بأن يكون مُعتقدا لكتاب سماوي منزّل في دين مقرّ عليه . **الثاني** صفة في الفعل وهي ذكر الله تعالى عليه . **والثالث** صفة الآلة بأن يكون لها حدة . **الرابع** صفة الوقع بأن يكون فيه قطع الأوداج . فهذا الكلام يدلّ على عدم الفرق . هذا وفي الهندية (4) ثمّ إنّما تؤكل ذبيحة الكتابي إذا لم يشهد ذبيحه ولم يُسمع منه شيء [94] أو شهد وسُمع منه تسمية الله تعالى وحده لأنه إذا لم يسمع منه شيء يحمل على أنه قد سمّى الله تعالى تحسينا للظّنّ به كما في المسلم ولو سمع منه ذكر الله تعالى لكنّه عنى بالله عزّ وجلّ المسيح عليه السلام . قالوا يؤكل إلا إذا نصّ فقال : باسم الله الذي هو ثالث ثلاثة فلا يحلّ فأما إذا سمع منه أنّه سمّى المسيح عليه السلام وحده أو سمّى الله سبحانه وسمّى المسيح لا تؤكل ذبيحته .هـ.

[94]

---

(1) هو محمد بن فرامرز الشهير بمنلاخسرو توفي في استنبول سنة 1480/885 . قاضي القضاة وشيخ الاسلام وفقيه . نال شهرة واسعة بكتابيه : درر الحكام في شرح غرر الأحكام ، ومرقاة الوصول في علم الأصول . انظر أعلاه صفحة 88 .

(2) الحموي : الفاضل الحموي له حاشية على شرح ابن نجيم للكنز .

(3) شرح الكنز : للعلامة منلا مسكين ، والكنز هو كتاب كنز الدقائق لأبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي .

(4) الهندية : الفتاوي العالمكيرية المعروفة بالفتاوي الهندية في مذهب الامام أبي حنيفة تأليف جماعة من علماء الهند ، طبعة القاهرة 1865/1282 ، في ستة أجزاء .

وخلاصته أنه تحرم ذبيحته إذا عدل عن ذكر الله تعالى أصلا أو شرّك معه غيره . ولا يظنّ مع تصريحه باسم الله تعالى علمنا بأنه يعتقد المسيح إلهًا ويوافقه ما في الشُّرُنْبلاليّة (1) عن الاختيار من قوله : ولو قال باسم الله وهو يعني المسيح يؤكل بناء على الظاهر . فهذا هو المعوّل عليه . وأما ما نقله الحموي عن المستصفى من قوله : هذا إذا لم يعتقد أنّ المسيح إله فإن اعتقد فهو كالمجوسي فقد أوهنه ناقله بأنّه مخالف لعامّة الروايات لظاهر قوله تعالى : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ » (2) ومع قولهم المسيح ابن الله قال : وسُئل ابنُ عبّاس (3) عن ذبائحهم فقال : قد أحلّ الله لكم . فقيل يهلّون لغير الله . فقال : الذي أحلّ ذلك منهم أعلم بما تقولون . وفي الشُّرُنْبُلاليّة أثر نقله لما في المستصفى وقد قدّمنا أنّه يبقى الحكم على ما يُظهِرون لا ما يُضمِرون .

وأما قولكم وهل يشترط في إباحة طعامهم تحقّق سلامته من النجاسة فجوابه أن التحقّق لا يشترط بل الشرط هو عدم تحقّق النجاسة الذي هو أعمّ من تحقّق الطهارة . وخلاصة ذلك أنّه ما لم تتحقّق النجاسة يجوز الأكل ففي شرح السير الكبير للامام السرَخْسِي (4) ما نصّه : ولا بأس بطعام النصاري أو اليهود من الذبائح وغيرها لقوله تعالى : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » (5) ولا بأس بطعام المجوس كلّه الا الذبيحة لقوله عليه السلام : سُنُّوا بِالْمَجُوسِ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ غَيْرَ نَاكِحِي

---

(1) نسبة إلى حسن بن عمار الشرنبلالي ، فقيه حنفي توفي 1659/1069 له تصانيف عدة منها حاشية على درر الحكام (راجع : الزركلي ، الاعلام ، ج 2 ص 225) .

(2) القرآن : سورة المائدة 5 ، الآية 77 .

(3) هو المسمى أبا العباس . ابن عم الرسول . ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وتوفي في الطائف سنة 688/68 . لقب بحبر الأمة وهو من رواة الحديث المشهورين . ناصر عليا ثم والى الأمويين . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 1 ، ص : 41—42) .

(4) السرخسي : محمد بن أحمد بن أبي سهل الحنفي ، توفي سنة 1090/483 ، من تآليفه كتاب المبسوط .

(5) القرآن : سورة المائدة 5 الآية 5 .

نِسَاءَهُمْ وَلاَ آكِلِي ذَبَائِحَهُمْ . فإن قلت : هذا إنّما يدلّ على أصل حلّ الطعام المبحوث [95] عنه الآن كون طعامهم محمول على الطهارة فيحلّ أكله أوّلاً فلاً وليس فيما سقت دليل عليه . قلت : يظهر من سياق كلامه وسياقه حمل الطعام على الطهارة وسيرد عليك من تمامه ما فيه شفاء الغليل .

[95]

فمن ذلك ما ذكره في معرض الاستدلال على ما تقدّم وهو ما روي عن سويد (كذا) غلمان سلمان (1) قال : أتيت سلمان يوم هزم الله أهل فارس بسلّة وَجَدْتُهَا فيها خبز وجبن وسكّين فجعل يطرح لأصحابه من الخبز ويقطع لهم من الجبن فيأكلون وهم مجوس فعرفنا أنّه لا بأس بطعامهم ما خلا الذبيحة . ومنه ما رواه عن ابن سيرين (2) من أنّ أصحاب رسول الله (صلعم) كانوا يظهرون على المشركين فيأكلون في آنيتهم ويشربون فتلخّص أنّ تحقّق الطهارة ليس بشرط في جواز الاقدام على الأكل بل يبنى الأمر على أصل الطهارة حسبما دلّ عليه ما تلوناه عليك مما ليس فيه لزوم الكشف ويدلّ عليه أيضا ما في الهندية (3) من أنّ محمّدا قال : ويكره الأكل والشرب في أواني المشركين قبل الغسل ومع هذا لو أكل وشرب فيها قبل الغسل جاز ولا يكون آكلا ولا شاربا حراما . وهذا إذا لم يعلم بنجاسة الأواني فأمّا إذا علم فإنّه لا يجوز أن يشرب فيها ويأكل منها قبل الغسل ولو شرب أو أكل كان شاربا أو آكلا حراما . وهو نظير سؤر الدجاجة إذا علم أنه كان على منقارها نجاسة فإنّه لا يجوز الوضوء به والصلاة في سرَاوِيلهم نظير الأكل والشرب من أوانيهم إن علم أنّ سراويلهم نجسةٌ لا تجوز الصلاة فيها وإن لم يعلم تكره الصلاة فيها ولو صلّى فيجوز .هـ.

---

(1) سلمان الفارسي (توفي سنة 656/36) . أصله من مجوس اصبهان ، أسلم على يد الرسول ودل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب . (راجع : **دائرة المعارف الاسلامية** ، الطبعة الفرنسية القديمة ، ج 4 ص 120—121 . راجع أيضا : الزركلي ، **الاعلام** ، ط. 2 ، ج 3 ص : 169—170) .

(2) محمد بن سيرين ، كان معاصرا للحسن البصري (ولد سنة 654/34 وتوفي سنة 728/110) محدث مشهور وكان معبرا للرؤيا . (راجع : **دائرة المعارف الاسلامية** ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 3 ص : 972 .

(3) الفتاوى العالمكيرية المعروفة بالفتاوي الهندية . انظر صفحة 93 تعليق عدد 4 (أعلاه) .

فيؤخذ من صريح هذا الكلام أنّ القادم على الأكل من آنية مشرك والشاربَ فيها غير مُتحقّق أنّها نجسة ليس بمرتكب حراما وإن كان الاحتياط في الدين صرف النظر إلى الوقوف على تحقّق الطهارة فرارا من ارتكاب المكروه وَوِزَانُ الأكل من الآنية وِزَان الأكل من الطعام لما علم أنّ السرّ في الجميع إنّما هو البحث عن الطهارة والنجاسة ليس إلا [96] إذ ما يتعلّق بالذكاة قد تقدّم الكلام فيه مُستوفى . [96]

هذا الذي شاهدناه وسمعناه ممّن تقدّم موثقا بدينه وعلمه الاقدام على التناول ممّا يجلب من بلاد الكفر من الأشربة والمركّبات السكّرية ونحوها فليسعنا ما وسعهم وليس هذا زمان اتّقاء الشبهات بكفر المرء نبلا في هذا التجافي عن الهجوم عن الحرام البحت . فهذا ما لديّ الآن من الجواب عن فصول السؤال .

وأمّا ما ذكرتم من فتوى القاضي أبي بكر (1) فاني لا أعلم في المذهب الحنفي (ما) يوافقها بل المنصوص لأئمّتنا أن الذكاة عبارة عن تسييل الدمِ النجسِ فإنّ المحرّم في الحيوان المأكول الدم المسفوح لقوله تعالى : « أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا » (2) فكانت الذكاة إزالة للخبث وتطييبا بتمييز الطاهر عن النجس . فأين ذلك التطهير في فتل عنق الدجاجة وليس لأسلافي رحمهم الله في هاته المسألة كتابة فيما أعلم غير أنّ للجدّ الأقرب (3) نقلا في حلّ الجبن المجلوب من بلدان النصارى ها أنا موردُه لما أنه يعضد ما سطرته بجوابي هذا من حلّ أكلِ طعام الكُفار ونصّه : (من الرجز)

(1) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني القاضي الفقيه الأشعري المشرع المالكي توفي سنة 1013/403 ولد بالبصرة وعاش ببغداد ، له تآليف منها اعجاز القرآن والتهذيب والانصاف (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 1 ص 988) .

(2) القرآن : سورة الأنعام 6 ، الآية 145 .

(3) هو شيخ الاسلام أبو عبد الله محمد بيرم الثاني (راجع : ابن أبي الضياف ، اتحاف : 8 ص 54) انظر أعلاه ص 93 .

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ وَسِعَا … عِبَادَهُ فَضْلاً بِمَا قَدْ وَسِعَا

فِي شَرْعِ طَهَ المُصْطَفَى الأَوَانِ … عَلَيْهِ تُشْرَى صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَجَعَلَ اخْتِلاَفَ أَهْلِ الْعِلْمِ … لِلنَّاسِ رَحْمَةً بِهِمْ فِي الحُكْمِ

وَبَعْدَ ذَا فَإِنَّنِي أَقُولُ … مَا مُحْكَمُ الذِّكْرِ لَهُ دَلِيل

ما يَصْنَعُ الإِفْرَنْجُ من جُبْنٍ وَقَد … كَانَ بِجُزْءِ مَيْتَةٍ قَدِ انْعَقَد

أَعْنِي بِهِ أَنْعِجَةً حَلاَلْ … عِنْدَ الإِمَامِ مَا بِهِ إِشْكَال

لِكَوْنِهِ يَقُولُ تِلْكَ طَاهِرَة … فَعِلَّةُ الْحُكْمِ بِهَذَا ظَاهِرَة

وَكَوْنُهُ يُصْنَعُ فِي أَوَانِي … لَيْسَتْ من التَّنْجِيس (1) في أَمَانِي

لا يُوجِبُ التَّحْرِيمَ إِذْ لَو وَجَبَا … كَانَ طَعَامُهُمْ لَنَا مُجَنَّبَا

[97] وَاللَّهُ قَدْ أَحَلَّ فِي الْكِتَابِ … لَنَا طَعَامًا يَا أُولِي الأَلْبَابِ

والله تعالى أعلم بالصواب . قاله وكتبه محرّره الفقير محمد بيرم (2) لطف الله به في نهار الاثنين ثامن شعبان من شهور سنة إحدى وستين ومائتين وألف(3)

---

(1) بالنص : التجنيس .

(2) هو محمد بيرم الرابع : ولد آخر جمادى الاولى سنة 26/1220 أوت 1805م . ونشأ بين يدي أبيه واستأثر به جده وأخذ عنهما الفقه الحنفي ... ودرس بجامع الزيتونة والمدرسة العنقية والباشية وتقدم لخطة الفتوى عند وفاة جده ... وكان المشير أحمد باي يستشيره ... تولى مشيخة الاسلام بتونس خلفا لأبيه وتوفي ليلة الرابع من جمادى الاولى سنة 5/1278 نوفمبر 1861م . انظر : ترجمته : أحمد ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان . ج : 8 . ص : 124–126 . انظر أعلاه صفحة 92 تعليق عدد 4 .

(3) يوافق في التاريخ الميلادي : 11 أوت 1845 .

رُومِيَة (معلومات تاريخية)

هي قاعدة مملكة إيطاليا في هذا العهد، وهي قديمة العهد تأسّس بناؤها سنة سبعمائة وثلاث وخمسين (1) قبل المسيح عيسى عليه السلام في خبر أشبه شيء بحديث خرافة يذكره أصحاب التاريخ الروماني. وعلى كل حال فمؤسّس بنائها اسمه رومولوس (2) المنتسب إلى المريخ كوكب الحرب المسمى بلسانهم مارس (3) حيث إنّه لم يُعرف له أب واستمرّت حكومتها ملوكية إلى سنة

---

(1) بالأصل: سنة سبعمائة وخمسة وثلاثين، والصواب ما أثبتنا أي سنة 753 قبل الميلاد. ورومية أو روما عاصمة ايطاليا تأسست في مقاطعة لاسيوم Latium الايطالية (753قم) وكانت أول العهد مملكة (753–510قم) ملكها سبعة ملوك على ما قيل. ثم جمهورية (510–31قم) تناوب فيها حكمان: الدكتاتورية والقنصلية في خصام عنيف بين الاشراف Patriciens والشعب Plébéins انتهى في بلوغ العامة إلى سائر الوظائف (300قم). وقويت اركان الدولة فضمت إليها اقاليم ايطاليا (496–270قم) ثم ظفرت في الحروب البونيكية ودمرت قرطاجة (146قم) واحتلت اليونان ثم مكدونيا وآسيا الصغرى وسوريا وحولتها إلى أقاليم رومانية. غير ان الحروب الاهلية زعزعت اركان الجمهورية وانتصر اكتافيوس على انطونيوس في معركة اكسيوم (31قم) وتسمى اوغسطس واعلن الامراطورية (31قم). ولما قسمت الامراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية (395) بقيت روما عاصمة الامبراطورية الغربية إلى أن سقطت بهجوم البربر عليها (476) ثم اضحت روما مركز البابوية وحاضرة مملكتهم الزمنية وازدادت عظمتها بمن وفد إليها من رجال الفن والعلم. ولما تمت الوحدة الايطالية (1870) اغتصب الايطاليون روما وجعلوها عاصمة لدولتهم فاحتج الاحبار الاعظمون واحتبسوا في القصر الرسولي إلى أن استعادوا ملء استقلالهم المدني بعد ابرام معاهدة لاتران مع الحكومة الايطالية (1929).

(2) بالأصل: روملوس. والصواب: رومولوس Romulus وهو مؤسس روما الاسطوري واول ملوكها (753–715قم). غذته ذئبة بحليبها وهو طفل مع أخيه التوأم ريموس Rémus واحتضنه أحد الرعاة ونشأ بطلا مغوارا واستعان بصعاليك القوم في القبض على زمام الامر.

(3) مارس Mars: إله الحرب عند الرومان. ابن جوبيتار وجونون. قالوا انه أبو رومولوس مؤسس روما.

خمسمائة وعشر (قبل الميلاد) فصارت جمهورية . وفي أثنائها أخذوا في توسعة رقعة المملكة شيئا فشيئا وباشروا الحروب مع قرطاجنّة (1) إلى أن أخذوا سيسيليا (2) وسردانيا (3) عام أحد وأربعين ومائتين قبل الميلاد . ثم حاربوا سكّان قرطاجنّة ودخل الأمير حنّبعل (4) من أمراء قرطاجنة إلى أرض إيطاليا من جهة جبال آلب (5) الواقعة بين فرانسا وايطاليسا وتقابل مع جيوش إيطاليا على نهر ترابيسا (6) سنة تسع عشرة ومـائتين (7) وانتصر عليهم الانتصارات التي ملأت صفحات صحف التاريخ إلى أن بلغه الخبر بتوجّه جيش من أرض ايطاليا لمحاربة قرطاجنّة ، فرجع إلى افريقيّة وتقابل مع الرومانيّين بالقرب من أرض القيروان . فانهزم هنالك وأخذ الرومانيّون أموالا باهضة مـــن القرطاجنّيين بعد أن أفنوا رجالهم وأعدموا متاجرهم . ثم عاودوهم بالحرب إلى أن أهلكوهم وأرسلوا كثيرا من عائلاتهم لعمران قرطاجنّة .

[الحكم الروماني وعلاقته بـافريقيـة]

وبعد محاربة الرومانيين للغريك (8) واستيلائهم على اسبانيـا (9) صيّروا افريقية جزءا من مملكتهم وقسّموها ثلاثة أقسام : قسم قرطاجنّة ، ومنه

---

(1) قرطاج : مدينة هي اليوم أنقاض قرب تونس العاصمة . أسستها ديدون الفينيقية أخت بقماليون ملك صور (القرن 9قم) . صارت عاصمة امبراطورية جبارة قاومت روما مدة . الا أن الرومان كانت لهم الغلبة فقضوا على قرطاج وخربوها سنة 146قم .

(2) هي جزيرة صقلية : كانت قرطاج تنافس اليونانيين والرومان وتسعى لامتلاكها .

(3) هي جزيرة سردانيا : كانت قرطاج تسعى لا متلاكها .

(4) حنبعل : (247–183قم) قائد قرطاجي من اعاظم رجال الحرب . كان فينيقي الاصل . ابن عملقار . حمل على الرومان عن طريق اسبانيا وجنوبي غوليا فقطع قمم الآلب وانتصر في ترابيا (218قم) وتراسيمان (217قم) وكان (216قم) وانقطعت عنه نجدة قرطاج فعاد إلى افريقيا للدفاع عن وطنه ضد الرومان فغلب في وقعة زاما (202قم) . شرب السم لئلا يسقط في أيدي اعدائه حيا .

(5) هي كتلة جبلية ضخمة في أوروبا (فرنسا–ايطاليا–سويسرا–النمسا) رأسها الاعلى الجبل الابيض.

(6) بالنص : تيران والصواب نهر : ترابيا – Tréhie وبه انتصر حنبعل على القنصل الروماني سامبرونيوس Sempronius (218قم) .

(7) كان ذلك الانتصار سنة 218 قم. لا 219قم .

(8) للغريك : كذا بالأصل ، والمقصود بلاد الاغريق أو اليونان . وقد صارت خاضعة للرومان ابتداء من سنة 146قم. .

(9) كانت اسبانيا خضعت لهيمنة قرطاج ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد حتى احتلها الرومان بعد انتصاهم على قرطاج .

تونس . وقسم أدرومات (حدروماتوم) ومنه سوسة . وقسم أوتيك (1) ومنه [98] بوشاطي (2) . [98]

وبعد ذلك اضطربت المملكة واختلفت أنصار الجمهورية حتّى تغلّب أحد مزاحميها (3) قرب تونس بمكان يقال (له) تبسوس (4) سنة سبع وأربعين (5) قبل الميلاد . وبعد ذلك قتل وعادت الجمهورية إلى سنة ثلاثين قبل الميلاد ، فاضمحلّ أمرها وصارت ملكية . وأوّل ملوكها يومئذ أكتاوؤكوست (6) فقسّم مملكة الرومان ثلاثين قسما منها ايطاليا أحد عشر قسما . ورتّب القوانين (7) . وتعاقبت عليها الملوك تعاقبهم في الممالك فمن محسن ومن ظالم

---

(1) أوتيك : مدينة قديمة لم يبق منها سوى أنقاضها . وبها انتحر كاتون Caton بعد خيبة تبسوس سنة 46ق‌م. وكاتون هو حفيد كاتون الاكبر (238–142ق‌م.) الذي دعا الرومان إلى القضاء بالحرب على قرطاج عدوة روما .

(2) بوشاطي : كذا بالنص والصواب : بوشاطر .

(3) هو يوليوس قيصر Jules César (101–44ق‌م.) فتح غوليا وهزم بومبيوس في فرسال . وقتل في مجلس الندوى .

(4) تبسوس Thapsus مدينة قديمة اندثرت ومكانها يعرف اليوم برأس الديماس قرب قرية البقالطة بين طبلبة والمهدية ، وكانت تسمى تبصة ، ذكرها المالكي في رياض النفوس . وبهذه المدينة افنى يوليوس قيصر بقايا جيش خصمه بومبيوس Pompée سنة 46ق‌م. والملاحظ أن رأس الديماس هو المكان الذي نزلت به سنة 517هـ./1137م. جنود روجير الثاني Roger II ملك صقلية في حملتهم على المهدية وأن الشاعر ابن حمديس الصقلي قد نوه بانتصار الامير الزيري على جنود الملك النورماندي في قصيدة بديوانه . (راجع : ح.ح. عبد الوهاب ، ورقات ، تونس 1966 ، ج 2 ص 18 . راجع أيضا :

H. H. Abdal-Wahab, *Villes arabes disparues*, in Mélanges William Marçais, Paris 1950, pp. 14-15;

S. Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, vol. II, p. 133, et vol. VIII, p. 123.

(5) كذا بالنص والصواب : ست واربعين .

(6) كذا بالنص والصواب : أوغسطوس أوكتافيوس ولد سنة 63ق‌م. ومات سنة 14 ميلاديا . وهو أول امبراطور روماني وفي عهده كانت ولادة السيد المسيح عيسى عليه السلام .

(7) على أيام أوغسطوس أوكتافيوس تمتع العالم بالسلم الروماني .

إلى أن آل بهم الظلم إلى ما آل به في عموم ممالك الملوك المستبدّين إلى أواخر المائة الخامسة من الميلاد (1)

[حكم البابوات والحرب الصليبية على تونس]

فعظم ضعف الدولة إلى أن طمع فيها الضعفاء . وبالآخرة تلقّف البابوات من رؤساء الديانة المسيحية سياستها واستقرّ البابا ليون الثالث (2) برومية وتداخل في السياسة إلى أن صار كأحد الملوك . واستمرأمر البابوات إلى أن استفحل في عموم الممالك وبلغ من أمر البابا (3) أن أشار على القدّيس لويس (4) ملك فرانسا بمحاربة تونس وطرابلس والاسكندرية ومصر أوّلا

---

(1) قسمت الامراطورية الرومانية إلى قسمين : امراطورية شرقية وعاصمتها بيزنطة ، وامبراطورية غربية وعاصمتها روما (رومية) وذلك بعد موت الامبراطور الروماني تيدوسيوس الاول Théodose 1er (346–395) . ثم غـزا ايطاليا البرابرة الهيروليوس Hérules بزعامة أحد مشاهير قوادهم أودواكر Odoacre الذي انتصر فخلع رومولوس أوغسطس Romulus Augustule آخر ملوك الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة 476 ميلاديا ومات أودواكر Odoacre قتيلا سنة 493 ميلاديا بعد أن أتم فتح ايطاليا . ثم أسس تيودوريك الكبير Théodoric (488–526) مملكة الاوستروغوتين Ostrogotho في ايطاليا وحاول اعادة الامبراطورية الغربية إلى عزها بالتوفيق بين الرومان والغوثيين . وبعد حكم الغوثيين على ايطاليا خلفهم ملوك بيزنطة ثم ابتداء من سنة 568 ميلاديا شرع الامبارديون Lombards بقيادة ألبيون Albion في الزحف على ايطاليا فقسموها إلى ثلاثة أقسام لكل قسم عاصمة ، فمدينة بافية Pavie مقر سلطة اللامبارديين ، ومدينة رافينة Ravenne مقر سلطة الروم البيزنطيين ، ومدينة روما Rome مقر السلطة البابوية .

(2) البابا ليون الثالث Léon III كان بابا من سنة 795م. إلى سنة 816م. وهو الذي أشرف على تتويج شارلمان Charlemagne ملك الافرنج الغول أمبرطورا للغرب سنة 800م. وشارلمان هو أول من بسط حمايته على الاراضي المقدسة .

(3) هذا البابا هو اينوشنتيوس الرابع Innocent IV كان بابا من سنة 1243م. إلى سنة 1254م. وهو الذي أعان على خلع امبراطور ألمانيا فريد يريك الثاني Frédéric II

(4) هو لويس التاسع (1215م.—1270م.) قاد الحملتين الصليبيتين السابعة (1247م.—1254م.) والثامنة (1270م.) . أما الحملة السابعة فذلك لما علم أن فلسطين وقعت في حكم سلطان مصر فحمل الصليب ووصل إلى دمياط سنة 1249م. وخاب في وقعة المنصورة سنة 1250م. ووقع في الاسر فدفع الفداء وبقي بفلسطين إلى سنة 1252م. ثم عاد إلى فرنسا ليتولى الحكم بنفسه عند وفاة أمه بلانش دي كاستيل Blanche de Castille فقام باصلاحات من أهمها احداث معهد السوربون La Sorbonne . أما الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة فذلك في سنة 1270م. قصد الملك لويس التاسع تونس وملكها اذاك أبو عبد الله المستنصر بالله الحفصي (1249م.—1277م.) الا أن لويس التاسع ما ان أرسى أمام أنقاض مدينة قرطاج حتى أهلكه الطاعون وبعد موته بسبع سنين أعلنت البابوية بقداسته ، ومن ذلك الحين صار يسمى القديس لويس . (Saint Louis) (راجع :

Brunschvig (Robert), *La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle*, t. I, Paris 1940

Pernoud (Régine), *La Reine Blanche*, éd. Albin Michel, 368 p., Paris, 1972

ولاقى فيها من الأسر ما لم يكن في حسبان . ثمّ بعد اطلاقه قصد تونس في جيش عظيم .

وفي ذلك قال أحد شعراء تونس (1) : (من الخفيف)

يا فرنسيسُ تونسُ أختُ مصرَ فتوقّعْ لما إليه تصير (2)
لكَ فيها دارُ ابنِ لقمانَ بيتٌ وطواشيكَ منكرٌ ونكير (3)

وقد أصيب جيشه بالطاعون ومات هو وولده حول قرطاجنة فدفن هنالك . وعقد ابنه الثاني فيليب (4) شروطا مع دولة تونس تسمّى شروط صان‌لويز (5) كتبها ابن زيتون (6) قاضي القضاة يومئذ أثبتها ابن خلدون في تاريخه (7) .

---

(1) هذا الشاعر هو أحمد بن إسماعيل الزيات . راجع : المقريزي : **الخطط** . ا ص : 393 . لبنان 1959 .

(2) روى ابن أبي دينار هذين البيتين كما يلي :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

(راجع : ابن أبي دينار : **المؤنس** . ط. تونس 1286 . ص : 128–130) . انظر أسفله الملحقات II

(3) منكر ونكير : ملكان يفحصان حالة الميت ويعذبانه في قبره على سيئاته ، وقيل هما الملكان اللذان وكلا بكل انسان في حيويته ، وقيل انهما ملكان غير الحفيظين على كل انسان . (انظر : عبد القاهر البغدادي : **اصول الدين** ، استانبول ، 1928/1346 ، ص 246 . راجع أيضا : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط : 1 ج 3 ص 1774) . الطواشي : الخصي : ج . طواشية (مولد وقيل أعجمي) وهذا الطواشي هو صبيح العظمي . راجع المقريزي : **الخطط**.ا ص : 391. دار ابن لقمان : موضع اعتقال لويس التاسع بالاسكندرية وهي الدار التي كان ينزل فيها القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان . راجع : المقريزي : **الخطط**. ا ص : 391 .

(4) هو فيليب الثالث الملقب بالجسور Philippe le Hardi ولد سنة 1245م. وتوفي سنة 1285م. تولى ملك فرنسا بعد وفاة أبيه لويس التاسع Louis IX سنة 1270م.

(5) هي معاهدة الصلح التي أبرمت بين أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي وفيليب الثالث ملك فرنسا وشارل دانجو ملك صقلية وطيبو ملك نافار في 21 نوفمبر 1270م. (انظر أسفله الملحقات IV) .

(6) ابن زيتون : هو أبو القاسم بن أبي بكر بن مسافر بن أحمد اليمني من علماء تونس وفقهائها في القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد . (راجع : محمد مخلوف ، **شجرة النور**. ط. القاهرة 1352 ، ص 144–145 . راجع أيضا أسفله الملحقات . راجع أيضا :

Bruxschirg (Robert), *op. cit.* p. 62

Fellegrin (Arthur), *Histoire de la Tunisie,* Tunis 1948, pp. 127-130)

انظر النص المعرب لهذا المرجع بالملحقات أسفله III

(7) انظر : ابن خلدون : كتاب العبر... القسم الاول ، المجلد السادس ، ط. دار الكتاب اللبناني 1959 ص 663–671 انظر أيضا أسفله الملحقات I

ولم يزل أمر الباباوات يستفحل وملوك ايطاليا بل وغيرها من الجهات تكابد منهم مضضا إلى أن أراد البابا ماريا ماستابي فريتي (1) مشاركة سائر الملوك في الحكم بحقّ الديانة سنة خمس وستين من القرن التاسع عشر الحاضر واتّخذ لنفسه وزيرا [99] انتخبه من غير الكردينالات (2) فأغروا به الأمّة [99]

[ثورة الأهالي ضدّ البابا وحماية نابليون الثالث له]

فثاروا عليه فخاف على نفسه وبادر إلى الفرار . وعند ذلك تنادى كثير من الأهالي بالجمهورية فرارا من سلطة البابا . فأرسل نابليون الثالث (3) عساكر من فرانسا لحراسة بلد اقامة البابا والاحتراس منه وردع ثائرة الأهالي . فأقاموا مدّة طويلة وبعدها قام البابا بدعوة دينية في عصمته (4) ونازعته فيها الدولة . وآل الأمر إلى الاقتراع لاختبار عقيدة الكاتوليك (5) وظهر من خريطة الاقتراع ان أغلب الأصوات على عدم القول بعصمته . وعند ذلك أرادت الدولة اخراجه من روميّة وآل الأمر إلى بقائه منعزلا عن الحقوق الدولية .

---

(1) بقي هذا الحبر الاعظم مدة طويلة بابا من سنة 1846 إلى سنة 1878 وعقد في مدته مجمع الفاتيكان في سنتي 1869 و1870 لاعلان عصمة البابا . ولقب هذا البابا : بيوس التاسع Pie IX . (انظر أعلاه صفحة 61) .

(2) الكردينالات : كلمة لاتينية جمع كردينال . والكردينالات هم مجموعة السبعين أسقفا الذين يتكون منهم المجمع المقدس الفاتيكاني ، وهم منتخبو البابا ووزراؤه ومستشاروه .

(3) نابليون الثالث : هو شارل لويس نابليون بوناپرت ، امبراطور الفرنسيس ، ولد بباريس سنة 1808م. قضى شبابه مغامرا وحاول سنة 1836م. في مدينة سترازبورغ Strasbourg ثم في سنة 1840م. بمدينة بولونيا Boulogne قلب الملك لويس فيليب Louis Philippe وحمل الناس على مبايعته بالامبراطورية ولكنه فشل وحكم عليه بالسجن لطول العمر وسجن في هام Ham وفر من سجنه متنكرا في زي بناء سنة 1846م. والتحق بلندرة Londres ثم عاد إلى فرنسا بعد ثورة سنة 1848م. ثم في 2 ديسمبر 1851م. بعد أن نجح يوم 10 ديسمبر 1848 فعين رئيسا للجمهورية ، أعلن انقلاب الحكم وتسمى في السنة الموالية (1852م.) امبراطورا ودام حكمه إلى غرة سبتمبر 1870م. وتوفي سنة 1873م. ومن أشهر نشاطه في السياسة الخارجية لبلاده اعانته ايطاليا على التحرر من النير النمساوي سنة 1859م. (راجع : *Grand Larousse Encyclopédique*, t. VII, p. 660-661, Paris, 1963

(4) هذه الدعوة الدينية هي التأم المجمع الفاتيكاني خلال سنتي 1869م. و1870م.

(5) الكاتوليك : هم المسيحيون التابعون الكنيسة الكاتوليكية وقد أسسها السيد المسيح ورتب مؤمنيها تحت سلطان الرسل والاساقفة من بعدهم يرأسهم القديس بطرس هامة الرسل والحبر الاعظم خليفته . وهي تتفرع في وحدة الايمان والسلطة إلى طوائف تتباين بطقوسها ولغاتها .

وامتلأت صحف الأخبار في ذلك التاريخ بخبر قبائح تواريخ الباباوات السابقين وشنائع فسوقهم وفسوق الكردينالات والقسيسين ممّا يطول بنا بسطه .

وقد أوقفني أحد معارفي في ذلك العهد على صورة مرسوم بها مثل البابا وعلى رأسه شكل قدر وضعته عليه امرأة من خلفه وهي كناية عن بلد رومية وهي بصدد إخراجه . وذكر لي الخبر فقلت في ذلك : (من الطويل)

أئِنْ عَصَمُوا البابا بقَوْلَةِ فَاجِرٍ فلِمَ سُلِّطَتْ عنْهُ النّساءُ الفوَاجِرُ
نرَى امرَأةً تَحشُو بِرَأسِهِ قِدْرَها وَتَصفَعُهُ زَجرًا وَمَا هُوَ ضَاجِرُ
أذو عِصْمَةٍ تَكسُو الطناجِرُ رَأسَه لَقَد ذَلّ مَنْ قَلنْسَتْهُ الطّناجِرُ

[ركوب المؤلف طريق الحديد من نابلي إلى رومية]

وقد ركبت إلى بلد رومية من نابلي مع طريق الحديد بعد الزوال بأربع ساعات من يوم الثلاثاء الموفي عشرين من شعبان (1) . وكان البعد ثلاثمائة وخمسين ميلا وسير الشمندفير (2) بمعدّل خمسين ميلا في الساعة . وشاهدنا في ذلك الطريق على طوله نموّ العمران بتوالي الزروع وتكاثف الأشجار المثمرة المحيطة بالجبال من جميع جهاتها . وعلمت به مصداق ما يذكره المؤرّخون في أحوال الأندلس من أنّ المسافر يمكنه أن يذهب في طرقها مدّة لا تنقطع عليه ظلال الأشجار [100] المثمرة ومجاري المياه العذبة . وذلك من أعظم أسباب بلوغها في العمران إلى ما بلغت إليه . [100]

(1) يوافق يوم الثلاثاء المذكور 18 شعبان لا 20= ويقابله ميلاديا 4 جويلية 1882 . انظر أسفله ص 149 وص 177 .

(2) الشمندفير : كلمة دخيلة معربها القطار أو الرتل .

وكانت محجة طريق الحديد هنالك مسيّجة عن اليمين بكرم العنب المتشابك بالتعليق في عيدان محكمة الربط ولله درّ الشيخ سالم بوحاجب (1) اذ قال :

(من الوافر)

كأن السُّكْرَ في العُنْقُود طَبْعٌ ... أصيلٌ ليس ذَا خُلْف وَنَقْص

لذاكَ ترَى دَوَالِيَ الكَرْم صَرْعَى ... وَقدْ قامتْ تُعانِقُ قصْدَ رَقْص

وكان دخولنا إلى بلد روميّة قبل منتصف الليل بساعتين الا ربعا (2) ونزلت بأوتيل (3) لمريك (أميريكا) وهو من أواسط أوتيلاتها ، غير أنّ وضعه كان على أبهج طرقها .

[وصف بلد رومية]

أمّا تأسيس البلد فكان بلغ في الاتّساع إلى شمول سبع هضاب داخل سور البلد : وهي هضبة كبتول (4) وهضبة بلتان (5) وهضبة سيليوس (6) وهضبة أفنتان (7) وهضبة كويرينال (8) وهضبة فيمينال (9) وهضبة اسكولان (10) .

---

(1) سالم بوحاجب : ارتحل الشيخ سالم بوحاجب إلى إيطاليا سنة 1874/1290 بمشاركة الوزير حسين في قضية محاسبة القائد نسيم شمامة وأقام في إيطاليا ست سنوات . ثم زار باريس ومعرضها سنة 1879 والملاحظ أن الشيخ سالم بوحاجب اتصل بالشيخ محمد عبده عند زيارته لتونس سنة 1884 وسنة 1903 وكان أول من افتتح الدروس بالجمعية الخلدونية سنة 1896 وشارك في تحرير جريدة الحاضرة من سنة 1888 إلى سنة 1912 . (انظر أعلاه صفحة 29 تعليق عدد 3).

(2) بالاصل : الاربع . والملاحظ أن قطع المسافة بين نابلي وروما تستغرق بالقطار أربع ساعات الا ربعا .

(3) أوتيل : كلمة دخيلة ومعربها نزل والجمع نزل بضم النون والزي ، وقد استعملها المؤلف باطراد .

(4) الصواب : كابتول Capitole احدى هضاب روما السبع وكان في القديم بقمتها معبد المشتري .

(5) هضبة باتان Palatin احدى هضاب روما السبع وبها كانت في القديم قصور الاميراطرة الرومان وحولها أقيمت المباني الاولى في روما .

(6) هضبة سيليوس Caélius احدى الهضاب السبع بروما وكان بها قديما مقر قوم من أصدقاء الرومان هم اللوسير Lucères

(7) هضبة أفنتان Aventin توجد داخل سور روما القديمة قرب نهر التيبر Tevere

(8) هضبة كويرينال Quirinal احدى الهضاب السبع بروما وكانت في القديم مقر قوم السابين .

(9) هضبة فيمينال Viminal احدى الهضاب السبع شرقي روما وبها كانت الحمامات العامة في عهد الامبراطور ديوكليسيا Dioclétien (245م.-313م.) .

(10) هضبة أسكولان Esquilin احدى الهضاب السبع شرقي روما .

و تنقسم الآن إلى خمس قاضويات ومائتين وسبع وعشرين ناحية . ولها مساحة أربعة آلاف وستمائة نياو (كذا) وبها من النفوس على مقتضى الاحصائيات الاخيرة ثمانمائة ألف وستة وثلاثون ألفا وسبعمائة وأربعة أشخاص . وهي حاضرة متمدّنة أهلها في غاية الحضريّة وحسن المعاملة مع جمال في نسائهم وولدانهم لم نر مثله في بلد نابلي ، وهنا ذكرت قول الشيخ علي الغراب الصفاقسي (1) في التورية بر ومي : (من الطويل)

وَعَاذِلَـةٍ قَامَـتْ بِلَيْـلٍ تَلُـومُنِـي
عَلَى حُبِّ مَنْ أَهْوَى وَقَدْ أَفْرَطَتْ لَوْمِي (2)

وَقَالَـتْ أَرُومُ الْيَـوْمَ مِنـكَ السُّلُـوَّ عَنْ
هَوَاهُ فَمَنْ تَهْوَاهُ ؟ قُلْتُ لَهَا : رُومِـي

وأما أبنية البلد فانها جميلة وطرقها متّسعة مبلّطة في غاية النظافة ومن أنزه طرقها محجّة بين طريق صان شارل (3) وقصر بونابارتي (4) . وهنالك ميدان العمود الذي أقامه ماركوريل (5) أحد ملوكها من رخام مصوّر فيه بالنحت حروبه التي [101] باشرها مع البربر على نهر (الطوقة : كذا) . وأمّا رومة القديمة هنا فكثير من آثارها قائمة شاخصة منها المنكسر ومنها غير المنكسر

[101]

---

(1) أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي ، أخذ العلوم عن أعلام عصره. كالشيخ أبي عبد الله محمد الغرياني والشيخ أبي عبد الله محمد سعادة وشيخ الاسلام الشيخ أبي عبد الله محمد بيرم الأول والشيخ أبي عبد الله الشحمي ... ولم يزل بعد ذلك مستوطنا بلاده صفاقس ... وجلس فيها للاشهاد ، ولم يحصل على ولاية الكتابة مع ما عاناه في الوصول إليها ... وكانت وفاته عام 1771/1185 . ترجم له الشيخ محمد السنوسي في مجمع الدواوين وخصه بجزء منه . والملاحظ أن علي الغراب الصفاقسي أجاد في غزل المذكر (راجع : محمد السنوسي : مجمع الدواوين ، الجزء : ترجمة الشيخ أبي الحسن علي الغراب ، مخطوط ، رقم 16633 ، دار الكتب الوطنية ، تونس ، ص 146–180 (عدد أوراق الجزء 193) .

(2) هذان البيتان مثبتان بالجزء المخطوط من مجمع الدواوين بالصفحة 157 . والملاحظ أن عجز البيت الاول هو كما يلي بتلك الصفحة : على قلب من أهوى وقد أفرطت لومي .

(3) Saint-Charles

(4) Buonapparti

(5) هو Marc-Aurèle مارك أوريل : امبراطور روماني ، حكم من سنة 161م . إلى سنة 180م. كان يحب الفلسفة ، اشتهر بتأملاته .

وفي أثنائها اسطوانة منحوت فيها تشخيص حروب تراجان (1) قرب (الطوقة : كذا) أيضا . وهنالك آثار بعض آلهتهم المنحوتة إلى غير ذلك ممّا لا داعي لوصفـــه .

غير أنّ من أعاجيب الأبنية بها قنوات الماء فإنّ منها واحدة طولها أربعة وستّون ميلا ولها في طريقها سلسلة من القناطر طولها ستّة أميال ونصف وارتفاع بعض قناطرها مائة قدم وأخرى طولها ثمانية وثلاثون ميلا وفيها سبعة آلاف قنطرة . وكان الماء الذي يأتي رومية يوميّا بقُنيّها نحو خمسين مليونا مـــن الأقدام المكعّبة . وكان أهلُها إذّاك نحو مليون من النفوس .

ولعدم طول إقامتي بالبلاد لم يمكني تتبّع ما فيها من الآثار : وفي عشيّـة اليوم رأيت في طرقات البلد أعوان البابا كلّهم من الغلمان حمر الملابس وعددهم يظهر له أثر في مارّة سكّان عموم البلد واعترضنا في منازه البلد ملك ايطاليا أمبيرتو (2) راكبا في كرّوسة نصف قبّة وحده وخلف ظهر الكرّوسة كرسيّ عليه رجلان يلبسان ثيابا حمراء وبرانيط طويلة وهكذا لباس الكرارسي ورجل إلى جنبه . فالراكبون معه ثلاثة أعوان وكرارسي لا غير . وهو يمرّ في الطرق مرور آحاد الناس ، فمن كانت له معرفة بشخصه رفع له برنيطته للسلام ، ومن لم تكن له معرفة بشخصه لم يلتفت إليه . وعند مروره على موقفنا أمعن النظر من هيأتنا وسلّم علينا فرددنا له السلام برفع اليد .

ورأينا في بعض المحجّات تماثيل متقنة وفوّارات وحدائق عمومية زادت في محاسن البلد . ومن الليل دخلنا إلى أحد تياتروات رومية وقد مضى ذكر ذلك وأردنا التوجه صبيحة الخميس لكنيسة صان بيترو أعظم كنائس الدنيا (3)

---

(1) هو Trajan ترابانوس (52–117) . ولد في اسبانيا . امبراطور روماني . انتصر في محاربة البارثيين في ما بين النهرين . وعمر البنايات الضخمة . اضطهد المسيحيين .

(2) بالأصل : أمبيرتو وهو هامبيرتو الأول . ولد سنة 1844م. وتولى عرش ايطاليا سنة 1878م. ومات مقتولا سنة 1900م. Humbert وباللسان الايطالي : Umberto

(3) البابا يوليوس الثاني (تولى البابوية من سنة 1503م. إلى سنة وفاته 1513م.) Jules II وهو الذي أمر بتقويض كنيسة صان بيترو القديمة ووضع سنة 1506 الحجر الأساسي للكنيسة الجديدة التي استغرقت أشغال بنائها أكثر من قرن (من سنة 1506م. إلى سنة 1626م.) .

فأصبح يوم عيد لهم يكثر فيه الزائرون لها منهم ويكثر بها الازدحام فتأخّرنا لسبب ذلك من الدخول [102] إليها . [102]

[صان بيترو [الفاتكان]]

الفاتكان اسم لمقرّ البابا برومة حول كنيسة صان بيترو . للكنيسة المذكورة قبّة من أعظم أبنية الدنيا ولا يوجد بناء أكثر منها ارتفاعا سوى أهرام مصر ، واتّساعها أكثر من اتساع قبة آيا صوفية بالآستانة وصان بول (1) بلندرة . ومبلغ ارتفاعها أربعمائة وستة وعشرون قدما (وطولها خمسمائة وخمسة وسبعون قدمًا وعرضها ثلاثمائة وسبعون (اضافة بالطرة) ومبلغ مصروف ما أقيمت به أربعمائة مليون . وقد أسّس بناءها البابا نيكولا الخامس (2) سنة 1450 من الميلاد وتعاقب عليها المعلمون والمهندسون (3) في دول كثيرة وعصور متوالية إلى ان تمّت على هذا الوجه من ضخامة البناء وإتقان التحلية بالميزايكو (4) العجيب وفي وسطها قبة من نحاس قائمة على أعمدة نحاسية أيضا يبلغ ارتفاعها ستة وثمانين(5) قدما أخذ نحاسها من بعض كنائس الرومان وأقيمت على عهد أورbان الثامن (6) لوضع الصليب خاصّة .

---

(1) آيا صوفية أو آجيا صوفيا : كنيسة في الآستانة بناها الملك قسطنطين (320م.) . حولت إلى جامع بعد الفتح العثماني : أما قبة كنيسة سان بيترو فالفنان ميكالنج Buonarroti Michel Ange هو الذي أشرف على أشغال إقامتها من سنة 1546م. إلى سنة 1564م. وأنهيت أعمال البناء خمسة وعشرين عاما بعد ذلك أي سنة 1589م. باشراف الفنان جياكومو ديلا بورتا Giacomo Della Porta والفنان دومينيكو فونتانا Dominico Fontana

(2) نيكولا الخامس : كانت مدته في البابوية من سنة 1447م. إلى سنة 1455م. Nicolas V

(3) تعاقب على بناء الكنيسة مهندسون كثيرون منهم برامانت Bramante ورافائيل Raphaël وميكال آنج Michel Ange ومساحة هذه الكنيسة 15160 مترا مربعا . وطولها 187 مترا . وارتفاع صحنها المركزي 20،46 مترا . وقطر دائرة القبة يبلغ 42 مترا . وعرض الواجهة 115 مترا . وارتفاع الواجهة 44، 45 مترا . وارتفاع الكنيسة إلى أعلى القبة : 50، 132 مترا . وتسع هذه الكنيسة قرابة 80.000 شخصا .

(4) الميزايكو : الفسيفساء .

(5) بالأصل : ثمانون

(6) أوربان الثامن : Urbain VIII كان بابا من سنة 1623م. إلى سنة 1644م.

ثم إنّ القبّة الكبرى لها مطلع في وسط الكنيسة من باب صغير يصعد منه على درجات سهلة تبلغ إلى سطح الكنيسة المفروش بالرخام. ثم هنالك دروج يصعد بها إلى نطاق القبّة في وسط جدرانها دائرة بها تبلغ إلى محيط دائرة القبة. وهنالك باب صغير ينفذ لدربوز داخل القبة دائر على سائر محيطها من حديد. وهنالك يظهر ما في ذلك المزايكو المكسوّة به القبّة من عجائب الإتقان عيانا. ومبلغ ذلك المحيط نحو ثلاثمائة وعشرين خطوة. وهنالك دروج أخر يصعد بها إلى محراب (1) القبّة داخل بنيانها بحيث إنّ الصاعد يتزايد ميلانه كلّما زاد طلوعا إلى قطبها. وعند القطب يوجد باب صغير يدخل منه إلى دربوز داخل القبّة مطلّ على وسط الكنيسة يظهر منه أهل الكنيسة مثل الذباب لشدّة البعد. وهنالك قبّة صغيرة مرفوعة على أعمدة يدخل منها الضوء الكافي [103] للقبّة الكبرى. وهنالك مدارج من لوح يصعد بها إلى هاته القبّة الصغرى من سطح الكبرى. وعلى سطح القبّة الصغرى سلّم من حديد يوصل إلى داخل الرمانة التي على القبّة وهي من نحاس تسع نحو عشرة أنفار مشتدّة الحرّ.

وأمّا بناء داخل الكنيسة فانه في أعلى طبقات الإتقان وحسن النحت وغرابة المزايكو. وجدرانها محاطة بقبور مشاهير البابوات، وقليل من الملوك. وعلى جميعها كتائب أسمائهم وتماثيل منحوتة تروق الناظرين باتقان الصناعة. وأمّا الإحاطة بجميع ما حواه الفاتيكان من المعالم (2) والآثار القديمة والمصانع الميزاكوية والمقابر والمكاتب والمدارس والقصور وغير ذلك فإنّه يصحّ لأن يختصّ به كتاب يعرب عمّا احتوى عليه من العجب العجاب. وقد ذكره

---

(1) بالأصل : محرب والصواب محراب لان المحرب : صاحب الحرب والشجاع . أما المحراب فهو صدر البيت .

(2) بالأصل : المعامل والسياق يفترض : المعالم .

صاحب المقتطف (1) في السنة الرابعة فقال : هو قصر البابا برومية ويضرب به المثل في الكبر والاتّساع فإنّ طوله اثنتي عشرة مائة قدم وعرضه ألف قدم . وقدّر عدد غرفه بإحدى عشرة ألف غرفة . وفيه من التحف ما لا تقدّر قيمته . ومن جملة تحفه مكتبة ليس لها مثيل في العالم ، وصور ومنحوتات فريدة في الاتقان وأعزّ من أن تثمن بالأثمان .

فوانيس الكهربـاء

أوّل ما وقع بصري على فوانيس الكهرباء فرأيت قوة نورها العجيب ليلة الخميس الثاني والعشرين من شعبان (2) برومية إذ كان التياترو الذي دخلناه تلك الليلة في محجّ متّسع مستطيل . وعند خروجنا إلى هذا المحجّ بهرني فيه نور رأيت به أواخره على ضعف بصري (3) ورأيت كأن الشمس طلعت فيه بنور أبيض أشبه بلون نور القمر وأشدّ قوّة منه . فإذا هنالك فوق باب التياترو فانوس كهربائي .

وهنا أردت أن نبسط القول على الكهرباء وهو صمغ شجرة صنوبرية وجدت في الطور الثالث [104] الجيولوجي كان منها غياض واسعة ثم انقرضت ولم يبق من آثارها الا الصمغ المذكور مستحجرا . وقد وجد لهذا الصمغ مناجم كثيرة في ألمانيا ولا سيّما شاطىء البلطيك مطمورة بالحمم (4) والرمال [104]

(1) انظر أعلاه صفحة 35 تعليق 5 . والملاحظ أن يعقوب صروف صاحب المقتطف كان حريصا على تعميم الفوائد فيبحث عن كل الخطب والمقالات التي تنشر في الصحف والكتب الافرنجية وأعمال الجمعيات العلمية حتى اذا وجد فيها فوائد يرغب ابناء العربية في الاطلاع عليها ترجمها أو لخصها أو اقتطف منها ما منه فائدة كبيرة . وليعقوب صروف طريقة مبتكرة في المقابلة بين أقوال المتقدمين والمتأخرين فاذا وصف حيوانا أو نباتا ذكر ما قاله فيه المتقدمون من علماء العرب واليونان . (انظر أعلاه صفحة 35 وصفحة 85 ، راجع : فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، ج 2 ص 127) .

(2) ليلة الخميس 20 من شعبان 6/1299 جويلية 1882 . انظر أعلاه صفحة 99 تعليق 1 ، وأسفله ص 149 .

(3) حاول الشيخ محمد السنوسي تلافي ضعف بصره باقتناء مرايا العيون وهو في أثناء السفر . انظر أعلاه ص 7 .

(4) بالأصل : الحماة والحماة هي أم زوجة الرجل . أما الحمم جمع الحمة فهو الفحم أو الرماد .

والمياه منذ آلاف من السنين . وكان الأقدمون يجهلون مناجمها ويطلبونها مما تقذفه الأمواج على شواطىء البحر ويستخرجونها من الطحالب (1) واليوم يستخدمون لاستخراجها أساطيل بخارية من السفن الجوارف ولفظها معرّب : كاه ربا بالفارسية أي جاذب التبن . قال الزبيدي (2) ويقال كهربا مقصورا لهذا الاصفر المعروف . وأوّل من تنبّه لجذب الكهرباء بالفَرْكِ الفيلسوف طاليس الفينيقي (3) في القرن السادس قبل الميلاد .

وبقيت هاته الخاصّية محصورة في هذا الحدّ إلى أن اكتشفت خصائص المغنطيس في آخر القرن السادس عشر من الميلاد . ثم إن من بعده أمعنوا النظر في الأجسام إلى أن اكتشفت الشرارة الكهربائية . ولم يزل أمر ذلك متدرّجا إلى أن صنعت منها الآلات وترقّت إلى استعمال التلغراف ثمّ استخدمها الحذّاق في هذا العصر للتنوير استعمال المصابيح العامّة .

[اختراع أديصون الاميركاني]

فانّ اديصون (4) مخترع الفونغراف اخترع اختراعا يغني الناس بالكهربائية عن الغاز وغيره من الأنوار . وذلك أن الكهربائية التي كان يضاء الغاز بها تمرّ على لفّات من سلك البلاتين (5) فإذا تكاثفت الكهربائية عليها يحمى سلك البلاتين حتّى يضيء من نفسه . ولكن إذا اشتدت فوق ذلك يذوب .

(1) الطحالب من الطحلب وهو خضرة تعلو الماء المزمن .

(2) الزبيدي (المرتضى) : (1732–1791) . أصله من اليمن . عاش في القاهرة وتوفي فيها . له مؤلفات منها : تاج العروس ، وهو شرح جواهر القاموس للفيروزابادي .

(3) كذا بالنص .

(4) أديصون : هو توماس آلفا أديصون . Thomas Alva Edison ولد بمدينة ميلان بولاية أوهايو Ohio بأميريكا سنة 1847م. وتوفي سنة 1931م. نجح سنة 1879م. في اختراع المصباح الكهربائي وبعث أديصون سنة 1882م. مهندسا إلى مدينة ميلانو بايطاليا لاقامة أول مركز مولد للكهرباء في أوروبا .

(5) البلاتين : الذهب الابيض .

فاخترع أديصون (1) المذكور اختراعا يضعف قوّة المجرى الكهربائي عن السلك فلا يذوب وعند شيوع ذلك سنة 1880 انحطّت قيمة أسهم شركات الغاز في بلاد الانقليز والبلاد المتّحدة وما لبث أن نجح الانكليز في تنوير بعض شوارع لندرة بالنور الكهربائي ونصبوا الفوانيس الكهربائية على ضفّة نهر [105] التيمس وفي شارع فيادركت وأماكن أخرى من العاصمة وأثبتوا أنّ الاستصباح بالنور الكهربائي سهل جدّا ورخيص الثمن فضلا عن شدّة ضيائه التي لم تؤثّر فيها شدّة الرطوبات والغيوم هنالك .

وقد رأى المعلّم أديصون الاميركاني أنّ الكربون يفتر شيئا فشيئا بالاشتعال فاعتاض منه بشريط مصنوع من معدن البلاتين وهو الذهب الأبيض المخلوط بمعدن ايريديوم الأبيض الشديد الصلابة فإذا لامس السيّال (2) الكهربائي هذا الشريط من هذين المعدنين الشديدي الصلابة قاوم مرور السيّال به أشدّ مقاومة ونتج من هذه المقاومة حرارة شديدة في أقصى درجة جعلت الشريط إنّما يحمى أشدّ حماوة فيبعث نورا ساطعا شديد البياض حتّى اشتهر مصباح أديصون الكهربائي بالإتقان والإشراق وقد جعله مصباحا مؤلّفا من أربعة عشر قنديلا وكلّ قنديل بقوّة عشرين شمعة وضوؤه أبيض ناصع يستمدّ الكهربائية من آلة كرامية (3) بقوّة حصانين ونصف . ثم أمكن لأديصون أن يوزّع مصباحه على الجمهور بنصف نفقة الغاز فكانت شهرة قنديل أديصون المفرغ من الهواء بآلته التي اختصّ بإتقانها أعظم أثر في المسكونة وزادت به شهرة معمله بما صار به موضوعا لبحث كثير من جرنالات أميريكا وأوربا . وتوسّعوا في استخدام الكهرباء وانتفعوا في عدّة مصالح .

فمن ذلك أنّ أديصون المذكور اخترع قلما كهربائيا عجب الناس منه في دار العلوم له زرّة اذا كتب أو صوّر أو رسم به مرّة أمكن أن ينقل عن

---

(1) بالأصل : أديوس. وهو تحريف أديصون .

(2) كلمة السيال يستعمل اليوم بدلها كلمة : التيار

(3) آلة كرامية : لعلها نسبة إلى معدن = الكروم = Chrome ومنه يتكون اللون اللامع .

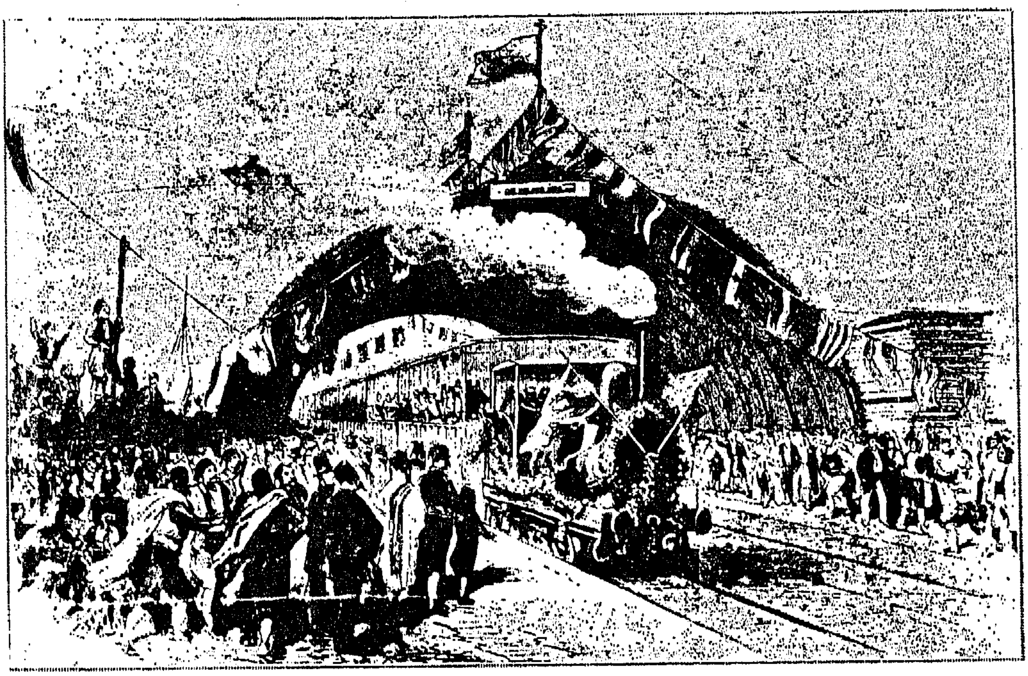
تلك الكتابة أو الصورة ألف مثلها بأسهل طريقة . وهو كقلم الكتابة إلاّ أنه له في أعلاه بطريّة كهربائية صغيرة مودعة في مثل تجويف فصّ الخاتم فإذا تهيّجت الكهربائية حرّكت إبرة في القلم فتثقب الورق خمسة آلاف ثقبة في الدقيقة . ولعظم سرعتها لا يشعر أحد بحركتها . وهي في غاية الضبط ليس على الكاتب أو المصوّر إلاّ أن يجرّ القلم [106] على القرطاس فتثقب الإبرة موضع الانجرار . ثم إذا أريد نسخ تلك الكتابة أو نقل تلك الصورة توضع ورقة أخرى تحت الورقة المثقوبة وتحبّر اسطوانة مدوّرة وتدار على الورقة المثقوبة فينفذ الحبر من ثقوبها إلى الورقة البيضاء التي تحتها فترسم عليها صورة على الورقة المثقوبة تماما . وينقل كذلك أربع أو خمس صور في الدقيقة إلى أن تنقل ألف صورة واضحة .

[106]

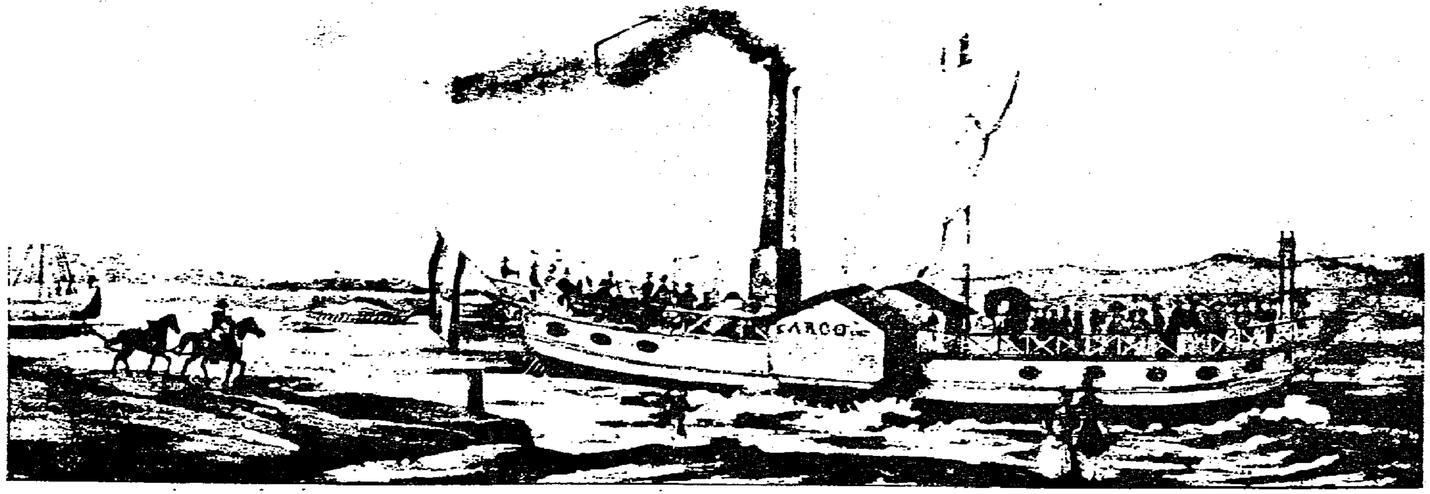
[مؤتمر عموم منفعة الكهرباء]

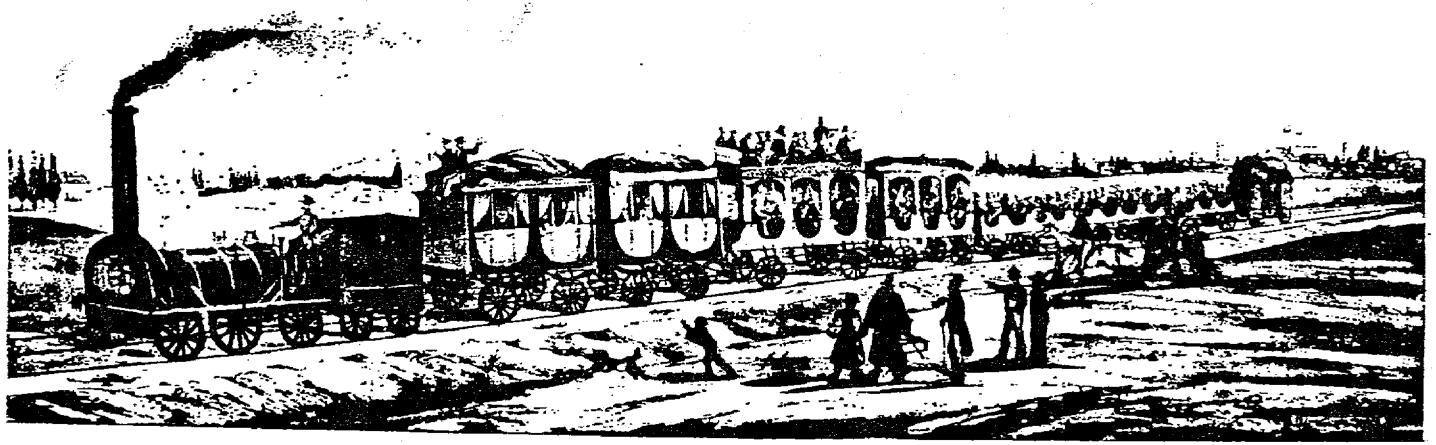
ثمّ إنّ اثنين من برلين اصطنعا مركبات تحمل عشرين رجلا تُسيّرها القوّة الكهربائية ونفقتها ليست كثيرة . ثم استعملها أديصون لجرّ قطار سكّة الحديد فسار بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة بالكهرباء . ثم ظهرت الساعات الكهربائية التي تستمرّ على الدوران من نفسها ما دامت الكهرباء متّصلة بها . وظهر بالامتحان أنّ قوّة أربع عشرة مائة شمعة من النور الكهربائي إذا وضع على ستّ أو سبع أقدام من النبات ساوت قوّة شمس آذار (مارس) في بلاد الانكليز . وحيث إنّ النبات لا يحتاج إلى راحة يومية كالحيوان فإذا عرض في النهار لنور الشمس وفي الليل لنور الكهرباء نما نهارا وليلا .

واستخدموا الكهرباء لدفع القوارب في المعرض الكهربائي . وهكذا استعملوا الكهرباء لجرّ آلات الحراثة والزراعة والجرس وغيرها . واستعملوها للطبخ وحركات دواليب كثير من الآلات زيادة على التوسّع بها في صناعة التلغراف بالتليفون والمكروفون ولعموم منفعة الكهرباء عقدوا لها مؤتمرا في

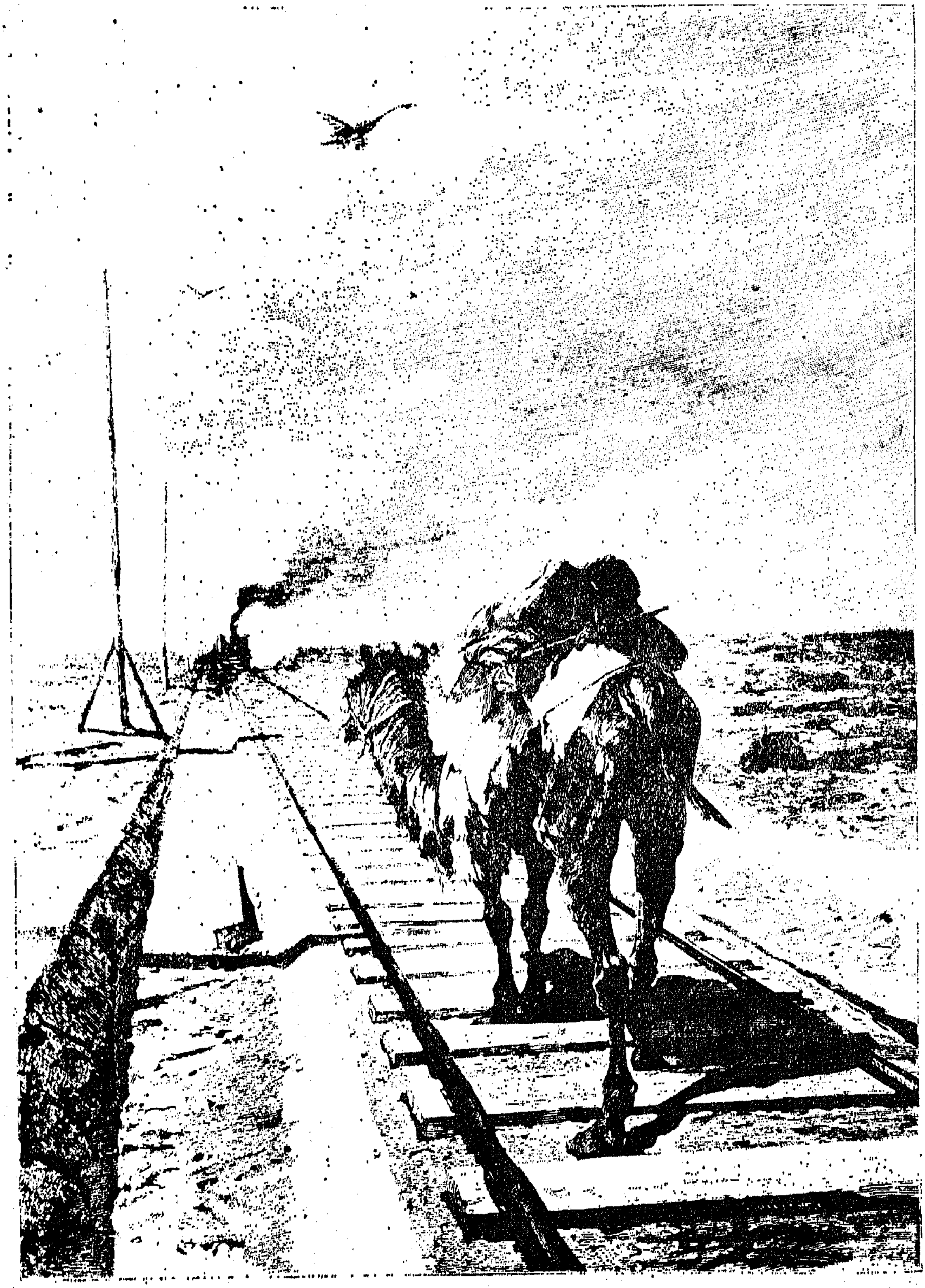


موكب افتتاح السكة الحديدية بين حلق الوادي وتونس في صبيحة يوم السبت 27 جمادى الثانية 1289 (31 اوت 1872) وحضر هذا الموكب محمد الصادق باي وولي عهده علي باي والوزير الاكبر مصطفى خزنه دار وقنصل عام انقلترا ريشار وود . (راجع الرائد التونسي عدد 25 وعدد 26 السنة 13 عام 1289 (1872) .

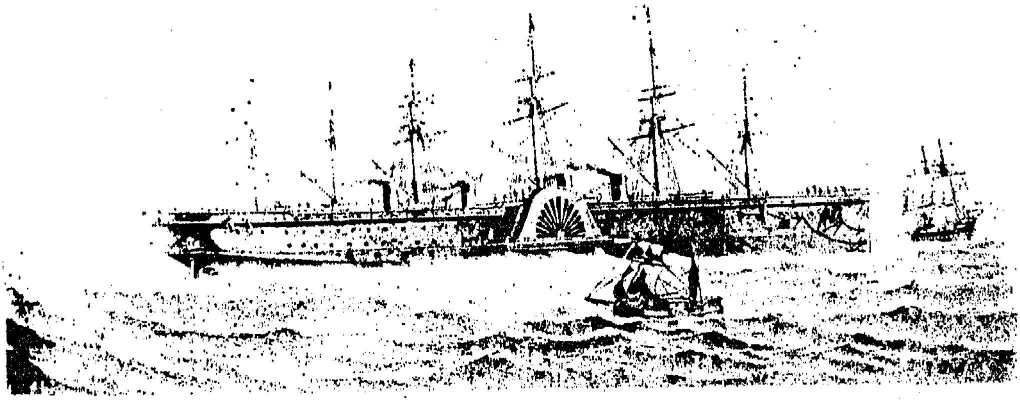


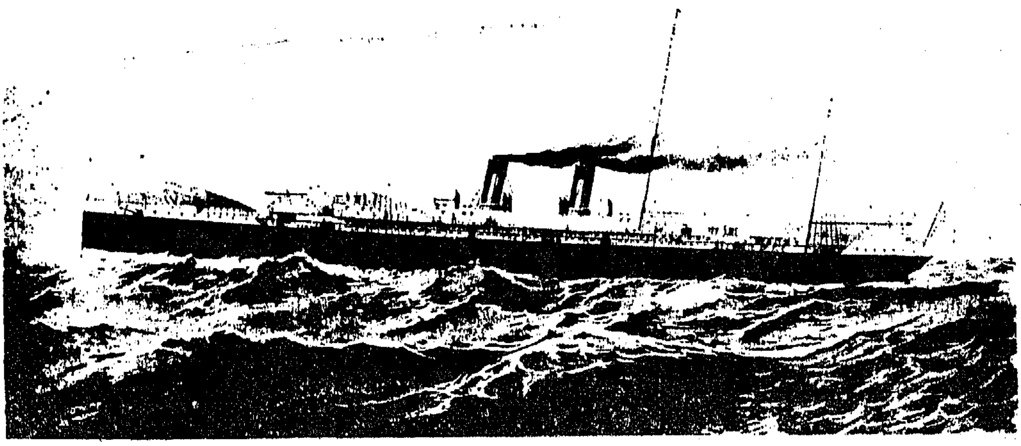


باخرة وقطار سنة 1882



مشهد جمل وقطار على سكة الحديد بآسيا الوسطى السوفياتية





باخرتان من بواخر سنة 1886

سنة 1299هـ. (1) وكانت موضوعات بحثه ثلاثة : الأول الاعتماد على قياس واحد للكهربائية والثاني الوسائط المسهّلة لخدمة التلغراف بين الممالك المختلفة . والثالث النور الكهربائي والتليفون والكهربائية الفيسيولوجية وقضبان الصواعق . واحتفل المؤتمر بحضور العلماء تحت رياسة كوشري (2) ناظر البريد والتلغراف .

[107] وبالجملة فان فوائد الكهرباء في هذا العصر [107] قامت مقام بخار النار في كثير من الصناعات الجديدة ومقام النور الشمسي وزادت على ذلك بما يتولّد بتجدّد العصور وتسابق العلماء إلى استخراج سرّ ما أودع الله في هذا العنصر العجيب الذي تقاربت به البلدان وانتفع به في كثير من المصالح نوع الانسان وكان جديرا بأن يعدّ من مفاخر هذا العصر فنسمّيه عصر الكهرباء .

[سبب نظم المؤلف لقصيدة المخترعات]

وعند زيارتي للمدينة المنورة (3) في هاته الرحلة قال لي أديب الحجاز الافندي عبد الجليل برّادة (4) : إنّ أدباء العصر الحاضر عليهم دين للكهرباء لم يف به واحد منهم وإلاّ فكيف يحسن بهم أن يقفوا عند حدّ تشبيه الغصن بالقدّ والورد بالخدّ وبين أيديهم من عجائب الاختراعات ما لم يسره من سبقهم ؟ ثمّ اقترح عليّ نظم أبيات في الشمندفير والتلغراف وتشبيه أحوالهما . وبعد الامتناع وعدته بالإجابة فنظمت في طريق إيّابي قصيدة سمّيتها : **الفريدة في المخترعات الجديدة** . فاستجادها كلّ من اطّلع عليها ونشرتها

(1) يوافق : 1881–1882 .

(2) كذا بالنص .

(3) أتم الزيارة للمدينة المنورة وخرج منها يوم الاثنين 16 محرم 27/1300 نوفمبر 1882 . انظر : الرحلة ، ج 2 ص 121 .

(4) عبد الجليل عبد السلام بن عبد الله بن عبد السلام بن أبي جيدة برادة الفاسي ثم المدني ولد بالمدينة سنة 1242هـ. أورد الشيخ محمد السنوسي ترجمته في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية . ص 75–84 .

صحيفة الجنان (1) في بيروت الشام وصحيفة الإعلام في مصر (2) والرائد التونسي (3) واقترح علي بعض المترجمين حلّ نظمها لتقع ترجمتها إلى اللسان الفرنساوي بسهولة فأجبته لذلك . وقد رأيت أن نثبتها هنا صيانة لها عن التلاشي مع تحليل معقودها وهذا نصّ جميع ذلك :

هذه قصيدة فريدة في المخترعات الجديدة من نظم العبد الضعيف . الحفيد السنوسي خادم العلم الشريف فتحت بها هذا الباب * للبارعين من أهل الآداب * والشعراء والكتّاب * عسى فينا بعدها أن يأتي من ينسج على منوالها بالعجب العجاب * حيث إن أداء حقّ المخترعات بقي دينا على لسان العرب * لم يقم واحد من أهله لجميعها بما وجب * وقد حملتني إجابة دعوة من طَلَبَ * إلى قضاء هذا الأرب * بهاته القصيدة التي نقدّمها في معرض محاسن [108] الاختراعات ليعلم بها ما لِلِّسَانِ العَرَبِـي من التوسّعات * الدالة على ما لأهله من الأذواق والإحساسات * وهي : (من الكامل)

[108]

أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَقَارَبَ البُلْدَانِ　　　　بِالمُزْجِيَاتِ جَرَتْ عَلَى القُضْبَانِ

---

(1) صحيفة الجنان : اسم لمجلة سياسية علمية أدبية تاريخية تصدر مرتين في الشهر أنشأها بطرس البستاني في غرة جانفي 1870 الموافق لآخر رمضان 1286 ، وانطفأ سراج هذه الصحيفة في العام السابع عشر لظهورها . (انظر : الرحلة ، ج 3 ص 172 . راجع : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1933 ، ج 2 ص 45) .

(2) صحيفة الاعلام أنشأها محمد بيرم الخامس (1840—1889) بعد أن هجر تونس وآثر الاقامة في مصر احتجاجا على انتصاب الحماية الفرنسية على مسقط رأسه سنة 1881 وصدر أول عدد من صحيفة الاعلام في 25 ربيع الأول سنة 1302/جانفي 1885 . (راجع : فيليب دي طرازي : تاريخ ... ج 4 ص 164—165) انظر أعلاه ص 86 تعليق 3 .

(3) العدد 26 يوم الخميس 28 جمادى الثانية 24/1301 أفريل 1884 ، بالصفحتين الثالثة والرابعة كما يلي : «هذه القصيدة البديعة من محاسن رحلة الفاضل الزكي واليلمعي الذكي الشيخ السيد محمد السنوسي أحد أعيان جامع الزيتونة عمره الله . وقد نشرتها صحيفة الجنان الغراء مقرونة بالثناء على ناظمها ، ومع شكره لذلك النشر تتبع اصلاحها في النسخ المطبوعة التي وردت إليه فرأينا أن ننشرها هنا بعد اصلاحها . وهذا نصها بمقدمتها النثرية : هذه قصيدة فريدة في المخترعات الجديدة نظمتها قضاء لما من دينها قد وجب على أبناء الأدب سيما والتشابيه الأدبية أكثر تأثيرا في أنفس العارفين بلسان العرب تدعوهم البارعين منهم أن ينسلوا إلى ذلك الابداع من كل حدب ولم نر من شعراء العصر الجديد من أتى بالارب فتطفلت على افتحام عذراء هذا المذب تنشيطا لفكر من تعلم ولقلم من كتب ولا أدعي الايعاب لجميع ما تقتضيه لطائف الآداب وما هي الا فتح باب وبما ظهر من بعده العجب العجاب من براعة الشعراء والكتاب وعلى كل حال يحمد منها الابتداء بدون عتاب ان لاحظتها عين الرضا من أرباب الفصاحة والاعراب وهي...» . والملاحظ ان هذه القصيدة توجد أيضا في مقدمة النازلة التونسية (مخطوط) مع تحريفات من الناسخ في كلمات ببعض الأبيات . (راجع : محمد السنوسي : النازلة التونسية ، مخطوط رقم 16635 ، الورقات 1—11 ، دار الكتب الوطنية ، تونس)

قد جاء في أخبار شريعتنا المحمّدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة أنّ من علامات قرب الساعة تقارب البلدان وبقي معنى هاته العلامة بهيما عند علماء الشريعة الإسلامية أكثر من إحدى عشرة مائة سنة حتى جاء عصر الآلات البخارية وأتى أصحاب الاختراع من الانقليز في أوّل هذا القرن التاسع عشر بما تمّ به نجاح سير المراكب النارية على قضبان الحديد سيرا سريعا صار به البعيد قريبا فانكشف بذلك سرّ الخبر الصادق بتقارب البلدان . والمزجيات جمع مزجية من زجاه بمعنى ساقه ودفعه أي هل رأيت أيها المخاطب ما كان مبهما من أمر تقارب البلدان بسبب وجود المراكب البخارية التي ساقت الراكبين ودفعتهم بسرعة سيرها على قضبان الحديد . وأول من سير المركبة النارية على قضبان الحديد ترفيثك وايفان (1) الانقليزيان سنة 1803م . وبعد سنين صارت في حالة تصلح للاستعمال وفي سنة 1829م . مدّت سكة الحديد بين ليفربول ومنشستر (2) .

يَمْتَدُّ مِنْ سِكَكِ الحَدِيدِ مَمَرُّهَا بِالأَرْضِ وَهِيَ جَوَالِبُ العُمْرَانِ

أي أنّ طريق مرورها في الأرض يمتدّ من مصنوعات الحديد وتلك السكك الحديدية بامتدادها تجلب العمران إلى الجهة التي تصل إليها فكأن العمران تابع لها مجلوب بامتدادها لأنّها كلّما وصلت إلى موضع ولو كان من الصحراء نشأ فيه عمران عظيم .

(1) تريفثك : هو ريشارد تريفيثيك Richard Trevithick ولد سنة 1771م. وتوفي سنة 1833م. بانقلترا وهو المهندس الانقليزي الذي يعتبر أول من صنع القاطرة البخارية . ولم يعترف باختراعه في حياته ومات فقيرا نكرة من النكرات . أما إيفان فهو أولفير ايفان Oliver Evans مهندس انقليزي أيضا معاصر لتريفيثيك وتعاون معه .
انظر :
Harry Edward Neal, *From Spinning wheel to spacecraft*. Popular Libary, New-York 1964, p. 53.

(2) تم هذا الحدث في 15 سبتمبر سنة 1830 . وهو يوم الاحتفال بتدشين ذلك الخط من السكة الحديدية الرابط بين ليفربول ومنشستر Liverpool-Manchester والملاحظ أن الاشغال لاقامة ذلك الخط استغرقت ست سنوات . وتم ذلك بقيادة جورج استيفنسون George Stephenson

وَفُروعُهَا بَيْنَ البَرَارِي خُطِّطَتْ
خَطًّا أُقِيمَ بِآلَةِ الإتْقَانِ [109]

[109]

أي أنّ سلك الحديد لها فروع وصلت إلى الصحاري الخالية وخطّت فيها مع خلائها خطًّا هندسيا على سمت مستقيم متقن الوضع حيث إنّه صنع بآلة الإتقان .

أشكَالُهُ صِينَتْ بوَضْعِ مُهَنْدِسٍ في مُلْتقاهَا حَارَ ذُو العِرْفَانِ

أي أن ذلك الخطّ الممتدّ من سكك الحديد له أشكال تتّصل به وهي جهات تعدّد الفروع الصادرة من خطّ الفرع الأصلي فتكون مثلّثة الشكل ومربّعة على حسب ما يقتضيه الحال وعلى اختلاف تلك الأشكال هي مصونة من الخلل بسبب وضع المهندس إياها وضعا هندسيّا صحيح النسبة إذا رأى صاحب المعرفة موضع اجتماع الأشكال بالخطّ الأصلي منها يحتار من اتّفاق ذلك الملتقى .

إذْ أنّها مِنْ جَدْوَلِ العُمْرَانِ أجْرَتْ ثَرْوَةً تُحْيِي بِكُلِّ تَدَانِ

أي وإنّما صينت تلك الأشكال والفروع لأنها قد جرت فيها الثروة للبلاد التي وصلتها وتلك الثروة جرت لها من جدول العمران وهو الموضع الأصلي من مواضع امتدادها لأنّها هنالك تكون شبه جدول كثير الفروع بسبب كثرة السكك الممتدّة إلى جهات متباينة . وحيث إنّ الجدول في الأصل العربي اسم لمجتمع الماء الذي يتفرّع منه إلى عدّة مسيلات والشأن في الماء اذا جرى في فرع أحيا أرضه فكذلك جدول سكك الحديد من العمران تجري فروعه بثروة البلاد التي تصل إليها فتحيا تلك البلاد باقتراب تلك الفروع حيث يسهل بها طريق المتجر من الصادرات والواردات وتتوارد عليها السيّاح والتجّار فينمو عمرانها إن كانت عامرة ويحدث فيها العمران إن كانت غامرة وذلك هو الحياة لتلك البلاد .

فَهِيَ الجَدَاوِلُ في فُروعٍ قَدْ جَرَتْ بِالأَمْنِ لا بِالمَاءِ ذِي الطُّغْيَانِ

أي أن جداول سكك الحديد قد امتدّت في فروع جارية بالأمن على الجهات الواصلة [110] إليها حيث تكتسب بوصولها عمرانا زائدا يؤثّل الأمن إلى تلك البلاد ولما كان الجدول في الأصل العربي اسم لما يجري بالماء والناس يرغبون جلب فروعه ليحيي مدن الأرض مع أن الماء ربّما طفى على جوانب فروعه فأفسدها وطغيان الماء قد خرّب كثيراً من الأرض بطوفاناته . والحاصل فحيث إنّ فروع سكّة الحديد جارية بالأمان ولا يخشى لها طغيان فهي أولى بالرغبة فيها لسلامتها من الغائلة .

[110]

وَلها دوَالِبُ تُستَدَارُ بِهَا الَّتي　　حَيْثُ الْمُرَادُ بِقَصْدِ أيِّ مَكَانِ

أي ولتلك الفروع دوالب من نفسها حتّى إذا أريد توجيه المركبة البخارية من مقصد الجهة الشمالية مثلا إلى الجهة الشرقية والفرع الذي هي عليه شمالي يتّصل به خطّ شرقي تقف المركبة في ملتقى الخطّين فتكون قائمة على الشكل المربّع الحاصل من الفرعين ثمّ يُدار الضلع الشمالي المنقطع من أصل الفرع بدُولاب إلى الجهة الشرقية فتتحوّل المركبة قاصدة الجهة الشرقية فتلك الدوالب بها تستراد الفروع إلى المكان المقصود للراكبين .

فَتَرَى عَلَى خَطٍّ جُمُوعَ مَحَامِلٍ　　وُصِلَتْ بِهِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ

أي أنّ دواليب الفروع إذا استدارت لقصد أي مكان يتسبّب عن دورانها أنّك ترى جموعا من المحافل وهي العربات التي تحمل الراكبين فقد تبلغ العشرين وأكثر وهي جموع مجتمعة على خطّ واحد متّصل بعضها ببعض بعد أن كانت منفصلة كلّ جمع منها في فرع لكن إذا دار دولاب أحد الفروع التقى به الجمعان من المحامل الحاملة لجمعي الراكبين وذلك يكون في موقفها .

حَتَّى إِذَا سَارَتْ فَكُلٌّ يَغْتَدِي　　في فَرْعِ مَقْصَدِ أَهْلِهِ الرُّكْبَانِ

أي أنّ تواصل المحامل يدوم في الموقف ما دامت مُقيمة وحين تسير تنفصل تلك المحامل من بعضها فيسير كلّ قسم منها إلى جهة من الجهات فوق الفرع الذي أراد الرّاكبون [111] الوصول منه إلى مقصدهم .

[111]

مَا إِنْ تَضِلُّ عَنِ الطريقِ وَلَمْ تُرَعْ　　مِنْ قَاصِدٍ إِمْسَاكَهَا بِبَنَانِ

أيّ أنّ تلك المحامل عند مسيرها إلى الجهات التي يَقْصُدُهَا الراكبون لا تحيد عن الطريق المقصود إلى أهلها ولا يزعجها من يريد إمساكها بيده بل إنّها تجدّ في مسيرها على أقصد سمت من غير خشية إلى أن تبلغ المقصد .

مَعَ أنَّها لَيْسَتْ تُرَى وَبَدَتْ لَهَا ‏ ‏ بِاللَّيْلِ مِنْ مِشْكَاتِهَا عَيْنَانِ

أي أنّها لا تحيد عن الطريق مع أنّها ليست عاقلة ولا لها صفة الرؤية . والحال أنّها اذا أظلم الليل ظهرت لها عينان من مشكاتها وهما فانوسان يوقدان في الليل بنور أحمر في مقدّمة المزجية البخارية ليعلم بهما الغافل أنّها في حالة المسير حتّى يتنحّى عن ممرّها ففي عجيب أوصافها جمع أضداد وتناقضات الأوّل أنّها لا تحيد عن الطريق وهذا الشأن فيه أن يكون ممن يرى الطريق وهي مع ذلك ثبتت لها عدم الرؤية . الثاني أنّ عدم الرؤية الذي ثبت لها يقتضي أنّها ليست لها عينان وهي مع ذلك لها عينان يَظهَرَانِ في الليل وهذا شبه تناقض أدبي يكفي فيه مجرّد التصوّر فلا يقال عليه إنه لا يلزم من وجود العينين وجود الرؤية وإلاّ فقد يكون ذو العينين بصيرا

خُرِقَتْ لَهَا شُمُّ الجِبَالِ بِمَسْلَكٍ ‏ ‏ سَهْلٍ يَرُوعُ حِمَاهُ كُلَّ جَنَانِ

أي أنّ تلك المحامل التي لا تحيد عن الطريق ولم يزعجها شيء هي أيضا لم تصدّها في مسيرها الجبال الشامخة حيث إنّها مع شموخها وعظمة قوّتها خرقت لأجل مرور تلك المحامل خرقا ينفذ من أحد جانبي الجبل إلى الجانب الآخر وتسوّى فيه طريق سهل المرور ولكن مع سهولة ممرّه يروع قلوب المارّين فيه بظلمته المشتدّة لطوله وشدّة اصطكاك الجري فيه [112] [112]

وَلَهَا رَأَيْنَا مُعْظَمَ الأَنْهَارِ قَدْ ‏ ‏ سُوِّيَتْ بِآيَةِ مُحْكَمِ البُنْيَانِ

أي وكذلك لأجل مرورها رأينا الأنهار العظيمة التي يكون مجراها في واديها العميق المتّسع قد سوّيت مع سطح الأرض بالبنيان المحكم الذي هو علامة كبرى على قوّة ممرّه .

تَلِجُ التُّنيلَ (1) ولُوجَ لاعِبِ مَرْسَح (2)
لِلْبَهْو يَخْفَى عَنْ مَحَلّ عِيَانِ

هذا راجع إلى خرق الجبال أي أنّها تدخل في منفذ الجبل المسمّى بالتنيل مثل دخول اللاعب في التياترو إلى بهو الاستتار بعد أن كان في محلّ المعاينة لتفرّج جميع الحاضرين في حركات ألعابه ففيه تشبيه جري المحامل في ممرّها بلعب صاحب التياترو وتشبيه اختفائها تحت خرق الجبل بدخول ذلك اللاعب بعد استيفاء نوبة اللعب إلى بيت الاختفاء ليظهر فيما بعد بنوع آخر من ألعابه .

وَتَبِينُ مِنْ فَوْقِ الْجُسُور كَمَا جَرَى
فَوْقَ الْحِبَال مُبَاهِيَا بِأَغَانِي

وَتَرَى مِنَ الْعَجَلاَتِ وَقْعَ رَشًا بِهِ
نَطَقَ الْبَيَانُ مِنْ بَنَانِ بَيَانِ (3)

هذا راجع لتسوية أودية الأنهار بالجسور أي أنها إذا كان في ممرّها جسور عظيمة وجرى مرورها فوقها تكون في تلك الحالة مثل لاعب التياترو إذا قام فوق الحبال وجرى عليها حيث إنّ جسور مرورها بعد تسويتها بمحكم البنيان يمتدّ عليها فرع سكّة الحديد على طولها العميق وبمرآها على البعد لا تختلف عن رؤية الحبال الممتدّة في الهواء . فإذا رأيت المحامل فوقها مسرعة السير كانت تلك حالة اللاعب فوق الحبال . وبما أن عجلات المحامل يتكون بسيرها على حديد سكة الجسور الممتدّة في الهواء اصْطِكَاكٌ زائد تحدث به نغمة غير اعتيادية واللاعب إذا قام يجري على الحبال قد يلتزم التغنّي في حال جريه والرقص على تلك الأغاني فهي به أشبه إذا كان في تلك الحالة [113] [113]

وَتَسِيرُ فِي سَطْحٍ مِنَ الْأَرْضِ اسْتَوَى وَلَهُ انْطَوَى صَعْبٌ مِنَ الْأَمْكَانِ

(1) لفظة دخيلة من الفرنسية Tunnel ومعربها النفق . انظر أعلاه صفحة 14 .

(2) يستعمل الشيخ محمد السنوسي كلمة : مرسح والكلمة المستعملة اليوم هي مسرح . أنظر أعلاه صفحة 11 .

(3) الملاحظ أن هذا البيت يوجد بنص الرائد التونسي فقط . لذلك لم يتصد له بالشرح .

أي أنّها لا تتوقّف عن مسيرها في جميع الأحوال فتقطع الجبال والأنهار وتسير على مستوى من الأرض انطوت منه الأمكنة الصعبة طيًّا لسرعته .

وَتَضُمُّ أَطْرَافَ البِلادِ جَمِيعَهَا   بِإِحَاطَةٍ لم تَخْتَلِفْ عَنْ آنِ

أي بسرعة سيرها تجمع جميع أطراف البلاد وتحيط بها احاطة تامة في وقت واحد .

فَهِيَ الّتِي التَهَمَتْ ثَعابِينَ الطَّرِيقِ   وَقَدْ طَوَتْ أَرْضًا أَتَتْ بِثَوَانِ

أي أنّها انفردت بابتلاع الطريق الذي مثل الثعابين أي قطعها قطعا يشبه الابتلاع في السرعة ففيه تشبيه امتداد فرع سكّة الحديد بامتداد الثعابين وقد تسمّى الطرق الممتدّة ثعابين وتشبيه المحامل بهامة تبتلع تلك الثعابين ولذلك أمكن لها فيما ظهر منها انّها طوت أرضا بعيدة في ثوان معدودة ، جمع ثانية وهي الجزء من ستّين جزءاً من درجة الساعة الوقتية .

وُصِلَ الجَنُوبُ مِنَ الشّمالِ بِهاوَمِن   شَرْقٍ إِلىَ غَرْبٍ وِصَالَ تَدَانِ

أي أنها تواصلت بها الجهات الأربع وصال اقتراب بسبب سرعة مسيرها وكلّما فرضت كرة الأرض بين يديك فأعلاها جهة الشمال وأسفلها جهة الجنوب وميمنتها جهة الشرق وميسرتها جهة المغرب ولا شكّ أنّ بين كلّ جهتين من هاته الجهات بعد المشرقين ومع ذلك تقاربت بسير المراكب البخارية

لَوْ مُدَّ فِي جَوٍّ لَهَا فَرْعٌ بِــهِ   بَلَغَ البَلُونُ لِمَرْكَزِ النِّيرَانِ

أي أنّ تلك المحامل لو أنّ فروع سككها الحديدية يمتدّ منها فرع في الجوّ إلى أعلى لأمكن به إلى البالون أن يبلغ في طيرانه إلى مركز النار الذي هو في أعلى أفلاك العناصر . والبالون هو المركبة الطيّارة في الهواء . وأوّل مَنْ صنعه من كتّان وبَطّنه بالورق الأخوان ايتيان (1) وجوزاف مونتقولفيير (1) وأضرما

(1) بالنص : استيفان وهو غلط . بالنص : مونتقويفيير . (الأخوان مونتقولفيير هما ايتيان ولد سنة 1745 وتوفي سنة 1799 . وجوزاف ولد سنة 1740 وتوفي 1810 وكان أبوهما تاجر ورق الكاغظ . وأصلهما من مقاطعة : الأرداش Ardèche بفرنسا .

تحته غثاء [114] إلى أن سخن الهواء في وسطه فارتفع نحو ميل . ولما خرج منه ذلك الهواء تنازل شيئا فشيئا وكان ذلك خامس حزيران سنة 1783 . ثم وقع التجاسر على ركوبه ووقع رفعه بحرارة الغاز الهيدروجني وهكذا تدرّجت صناعة القبّة الهوائية إلى أن بلغ ارتفاعها تسعة عشر ألف قدم ولا زال أرباب الصناعة في هذا العصر يحسنونه ويؤمّلون له (أن) يصير فيه سيارا إلى ما لم يعلم من مرتفع الجوّ وبهذا الأمل الذي يؤمّلونه حسن موقع هذا البيت في تدبير صناعة البالون بالمعنى الأدبي وإن لم يكن واقعًا وفيه ألغز يوسف الحائك بقوله (من السريع) [114]

جِسْمٌ نَسِيجِيٌّ البِنَاءِ إذا امْتَلاً غازًا بِرُمَّتِهِ يَصِيرُ إلى العُلاَ
لَكِنْ إذا ذَا الغَازُ أفْلَتَ جُزْؤُهُ يَعْلُو إلى حَدٍّ يَفُوقُ الأولَ
ذَا مُعْجِبٌ إذ هوَ أخَفُّ إذا امْتَلاً فَأبِنْ لنا أسْبَابَ ذَلِكَ مُعَلَّلاَ

وأجاب عن ذلك بقوله : (من السريع)

أَلْغَزْتُ فِي البَالُونِ لَكِنَّ جُلَّ مَقْـ
ـصُودِي بِهِ التَّعْلِيلُ عَمَّا أشْكَلَ
فَالْجِسْمُ أعْظَمُ ثِقْلُهُ النَّوْعِيُّ إذَا
لَمْ يَمْتَلِ بِالغَازِ مِنْهُ إذَا امْتَلاَ
فَإذَا امْتَلاَ يَعْلُو إلَى حَدٍّ بِهِ
ضَغْطُ الهَوَاءِ لِثِقْلِهِ قَدْ عَادَلَ
لَكِنْ إذَا ذَا الغَازُ أفْلَتَ جُزْؤُهُ
يَتَمَدَّدُ البَاقِي إذَا لَطُفَ الخَلاَ
وَبِذَلِكَ يُمْسِي ثِقْلُهُ النَّوْعِيُّ أخَفَّ
فَيَرْتَقِي حَتَّى يَفُوقَ الأولَ
فَبِهَا قَدِ ارْتَبَطَتْ مِنَ الأرْضِ الجِهَاتُ
الشَّاسِعَاتُ بِوَصْلَةِ اسْتِحْسَانِ

أي بسبب هاته المحامل ارتبطت جهات الأرض المتباعدة فما واصل بينها وصال استحسان لا كراهية فيه والرابط لها هو السكّك الحديدية .

وَتجرُّ آلافَ النُّفُوسِ لِمَا نَأَى فِي لَحْظَةٍ قَصُرَتْ عَنِ الحِسْبَانِ

أي أنّ تلك المحامل التي تواصلت بها الجهات المتباعدة تحمل آلاف النفوس للمحل [115] البعيد في زمن قصير جدّا لا يمكن تقديره بحسب الظنّ لأنّه دون المظنون وذلك بترقّي المركبات النارية في القوّة والسرعة والتحسين مع كثرة امتداد السكّك حتّى بلغت إلى أنّ منها ما يجرّ ما لا يقدر وزنه من الأرتال ويقطع ثمانين ميلا في الساعة وهي مسافة كانت تقطع بثلاث مراحل في ثلاثة أيّـــام .

[115]

فتَرَى بَنِي المَعْمُورِ في عَرَبَاتِهَا تَجْرِي بِهِمْ فِي سُرْعَةٍ وَأَمَانِ

أي حيث حملت آلاف النفوس ترى أفواج الناس الذين هم أبناء المعمور من الأرض راكبين في عرباتها وتلك العربات تجري بهم في أشدّ السرعة مع الأمان الذي لا يخشون معه لصّا ولا قاطع طريق

كَالرِّيحِ كَانَ غُدُوُّها شَهْرًا وَتِلْـــكَ رَوَاحُها بِمَسِيرِ شَهرٍ ثَانِ

أي أنّ سرعتها تشبه أن تبلغ بها إلى مقدار سرعة الريح التي تغدو مسير شهر وتروح مسير شهر آخر كما قال تعالى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » (1) . وذلك أنّ سليمان خرج من مكّة بمن معه صباحا تحملهم الريح وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وهي مسيرة شهر ونحن إذا اعتبرنا أسرع سير هاته المحامل ثلاث مراحل في الساعة فهي تسير ثلاثين مرحلة في عشر ساعات وذلك مسير شهر كامل فإذا اعتبرنا اعتدال النهار وأخذت تسير في أوّل وقت الغداة وهو من الصبح إلى الظهر تقطع مسير شهر في عشر ساعات فإذا كان العشي آخر وقت الرواح ترجع مسير الشهر

(1) القرآن : سورة سبأ (34) . الآية : 12 .

أيضا في عشر ساعات أخر وهذه السرعة وان لم تبلغ إلى سرعة سير الريح إلاّ أنّها أقرب سرعات المسير إليها وذلك بما خلق الله فيها من قوّة انضغاط البخار التي سهّلت لعقولنا القاصرة إدراك مقدار ما سخّره الله لنبيّه سليمان عليه السلام بمسير الريح ولله القوّة البالغة [116] .

[116]

قدْ حَارَ أمْرِي إذْ رَكِبْتُ بِهَا عَلَى بُعْدٍ لِرُؤْيَةِ آيَةِ الْعِمْرَانِ

أي أنّي لما ركبتها إلى مسافة بعيدة لنشاهد علامات العمران احترت من عجائب أمر سرعتها وكانت أطول مسافة قطعتها بركوبي هذا من بلد نابلي إلى مونتي كتيني على طريق رومية وقرنة من مملكة ايطاليا وهي مسافة تقرب من الألف ميل وكان السير بمعدل خمسين ميلا في الساعة وذلك أواخر رجب سنة 1299 (1)

لَمْ نَدْرِ تِلْكَ هِيَ الْبِسَاطُ يَسِيرُ فِي
أرْضٍ عَلَى رِيحٍ لِكُلِّ مُدَانِي (2)

أي أنّي من شدّة الحيرة التي وقعت لي عند اشتداد سيرها في طويل المسافة توهّمت أنّها هي البساط الذي يسير في الأرض على الريح لكلّ ما يدانيه ويقاربه من المواضع وكلّ موضع بالنسبة إليه قريب والبساط المعهود بالسير على الريح هو بساط سليمان الذي سخّر الله له الريح تحمل جنده ومن ذلك أنّه لما فرغ من بناء بيت المقدس تجهّز للخروج إلى أرض الحرم ومعه من الإنس والجنّ والشياطين والطير والوحش ما بلغ من عسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح ولا يخفى أنّ الكلام على التشبيه وإلاّ فأين المركبات ومحاملها من البساط المذكور والكلّ سار بقدرة الخلاّق العليم .

أمْ أنَّنَا فِي الْجَوِّ وَالْعُقْبَانُ قَدْ
خَفَقَتْ بِنَا فِي أسْرَعِ الطَّيَرَانِ

---

(1) يوافق : جوان 1882 .
(2) في الرائد : كل مكان .

أي أنّي لما توهّمت أوّلا أننا نسير على الأرض إلاّ أنّ سيرنا كان على البساط فوق الريح ثم توهّمت ثانيا أنّنا في الجوّ لا في الأرض وأنّنا متعلقّون بطيور من نوع العقاب وهي خافقة بنا تسير بطيرانها السريع والخفق كناية عن صوت المسير وحالة تعلّق الشخص بطيور تطير بمركبته معروفة فقد نقل من أخبار النمرود الجبّار أنّه رام الصعود إلى السماء فركب معه رجل [117] آخر في [117] ثابوت له بابان أحدهما من أعلاه والآخر من أسفله وربطه بأرجل أربعة أفراخ من النسور ربّاها له ونصب خشبات في أطرافه جعل على رؤوسها اللحم فطارت النسور متصاعدة طمعا في اللحم يومين إلى أن رأى انقطاعه على الأرض والسماء على بعدها الأصلي فأمر صاحبه أن ينكّس أخشاب اللحم فعادت النسور نازلة به إلى الأرض في اتّباع اللحم إلى أن وصل إلى الأرض . وما أولى هذه القصّة أن تكون مبدأ للبالون وإنّما كان تشبيه سير المحامل بطيران العقبان دون النسور لأن خاصّية النسور الطيران إلى الأعلى بحيث ترفع نفسها طبقة بعد طبقة في الهواء إلى أن تدخل تحت الريح . والعقبان تطير مع الأفق بخفّة جناح وسرعة طيران حتّى قيل إنّها تتغدّى بالعراق وتتعشّى باليمن وتلك حالة سير المحامل المذكورة .

أَمْ أنَّنا فَوْقَ السَّحَابِ الْجَوْنِ سِيــــقَ بِجَمْعِنا لِلْمَرْبَعِ العَطْشَانِ

أي ثمّ توهّمت أنّنا تجاوزنا الجوّ وارتفعنا فوق السحاب الأسود وحيث إنّ العربات تكون مسوّدة وإنّ ذلك السحاب الذي حملنا ساقه الله لِيُحْيِيَ بِهِ بلدًا ميّتا فأرسله مسرعا بنافذ حكمه وفي ذلك تلميح إلى أنّ الجهة التي تصل إليها تلك المحامل يستبشر أهلها لقدومها عند الانتظار استبشارهم بالسحاب المساق لمرابعهم عند العطش .

وَمِنِ اصْطِكَاكِ الْجَرْيِ خِلْتُ رُعُودَهُ
صَعِقَتْ بِبَرْقِ شَرَارَةِ الدُّخَانِ

أي أنّ توهّم كون ركوبنا على السحاب قد تأيّد عندي بظنون أخر تلائم السحاب وهي أنّ اصطكاك الجري فوق فروع السكّة كأنّه رعود أرعدت

باصطكاك السحاب بل لشدّة ذلك الاصطكاك من قوة المسير تخيّل لي أنّ تلك الرعود صعقت بصاعقة وتأيّد عندي هذا الاحتمال برؤية الشرار المصاحب للدخان الذي تقذفه [118] المزجية حيث تخيّل لي أنّه برق لمع عند صاعقة الرعود فقد رأيت عند الركوب حوادث الجوّ كلّها . [118]

مَعَ أنّنا فَوْقَ الحَرِيرِ جُلُوسُنَا   وَمَسِيرُنَا في مَنْزَهِ الأَعْيَانِ

هذا دفع لتوهّم الانزعاج الذي ربّما يقال إنّه يحصل للراكب بسبب وجود حوادث الجوّ أي انّ جميع ذلك كان مجرّد تخييل يعدّ من محاسن تلك المركبات حيث إنّنا حين الركوب كنّا جالسين فوق فرش الحرير ومسيرنا كان في مواضع تعدّ من منازه خاصّة الناس حيث كانت البساتين محاطة بنا يمينا وشمالا ونحن في مجالسة خاصّة الناس رفعة وأخلاقا .

وَتَحُوطُنَا خَيْرُ البُيُوتِ تَنَاسُقاً   وَتَسَابُقاً يَجْرِي مَعَ المَيْدَانِ

أي ممّا يدلّ على عدم انزعاجنا أنّا في حال الركوب كانت تحيط بنا أفضل البيوت متناسقة الفرش والوضع ولها تسابق عظيم فجرى مع طريق السكّة .

تَجْرِي بِمُزْجِيَةٍ إذَا اضْطَرَمَتْ حَشًا
قَذَفَتْ لَهِيبَ تَفَجُّرِ البُرْكَانِ

أي أنّ تلك البيوت كان جريانها بمركبة بخارية إذا توقّدت النّار التي في وسطها قذفت ما تشبه به انفجار البركان وهو جبل النّار الذي إذا تزلزل بالغليان قذف موادّه من رماد وأباريق وحميم يتّقد بين دخانه .

كَفُؤَادِ مُضْنًى بِالنَّجْوَى مُتَأَوِّهٍ   لَمْ يَصْطَبِرْ لِتَسَعُّرِ النِّيرَانِ

أي أنّ تلك المزجية عند اضطرامها تشبه فؤاد المريض بالحبّ حتى يكثر منه التأوّه ممّا يجده من اشتعال نار الحبّ في قلبه اشتعالا لم يصبر معه عن المحبوب حتّى أسرع إلى جهة ملاقاته إسراعا بمقدار اشتعال نار صدره

وَلِذَاكَ تَنْفُذُ بالركابِ لِمَغْرِبٍ   مِنْ مَشْرِقٍ كَالسَّهْمِ دُونَ تَوَانِ

[119] أي ولأجل شدّة اشتعال النيران ترى تلك المزجية تنفذ من المشرق إلى [119] المغرب نفوذ السهم عند الرميّة .

فَمِنَ المَحَطِّ إذا سَمِعْتَ صَفيرَهَا   رِيئَتْ عَلَى غَرَضِ المَحَطِّ الثَّانِي

أي أنّها لا يكون زمن بين سماع صفير خروجها من المحطّ الأوّل ورؤية وصولها إلى المحطّ الثاني وصول السهم إلى الغرض فهي أشبه برمية المصيب .

لَوْلاَ سَلاَمَتُهَا لَخِلْتَ خُرُوجَهَا   كُرَةَ الكُرُوبِي ارْتَمَتْ لِطِعَانِ

أي أنّها لشدّة نفوذها وسرعة مسيرها كانت أشدّ من السهم ولولا ما فيها من السلامة عند خروجها من المحطّ الذي ربّما كان على شكل نصف دائرة لظننتها كرة مدفع كروب (1) حين يرمي بها المدْفع للطعان ومبلغ مسير الكرة بالقوة الدافعة من مدفع كروب أسرع من نفوذ السهم بكثير .

وَتُرَى عَلَى بُعْدٍ لَهَا عَدْوٌ حَكَى
عَدْوَ الظِّبَا لِمَكَانِسِ اطْمِئْنَانِ (2)

أي أنّ تلك المزجية إذا كانت على بعد ما من محطّ وصولها يظهر لها في سيرها شبه القفز مع السرعة المسمّى بالعدو وهو أشبه شيء بعدو الغزلان اذا كانت في حال رجوعها إلى مكانسها (3) للاطمئنان فيها .

تَجْرِي بِمِدْخَنَةٍ حَكَتْ رَوْقًا لِذِي
أُمٍّ بِهِ تَعْدُو عَلَى جَرَيَانِ

أي أنّ تلك المزجية في حال جريانها تظهر مدخنتها التي هي صفراء من نحاس كأنّها قرن خشف من ولد بقر الوحش أو الغزلان وأمّه التي هي تلك المحامل من ورائه تعدو به على حالة الجريان .

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ يُمَدُّ بِأَسْوَدِ الدُّخَانِ

---

(1) Krupp.
(2) بالنص : لمكان
(3) بالنص : مساكن

أي أنّ أمّ ذلك الخشف التي هي المحامل بالنسبة إلى المزجية التي تجري أمامها شبه ولدها فهي حين يجرّها ويصفرّ في أثناء مسيره كأنّها تسوق من ولدها أغنّ صغيرا له قرن أصفر مثل القلم وأعلاه ظهر فيه السواد كما يظهر السواد [120] برأس القلم حين يصيبه المداد غير أنّ قلم المدخنة اسودّ رأسه بالدخان الأسود الذي مثل المداد . وهذا البيت مضمّن من بيت في وصف بقرة وحشية لأبي تمّام وهو قوله :

[120]

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدادَهَا

قيل إنّه لما انشد المصراع الاوّل في أثناء أصل القصيدة أشفق عليه بعض أعدائه من غرابة ما طلب تشبيهه فلمّا أنشد المصراع الثاني قال الحاضر لقد حسدته فيه فانقلبت الشفقة حسدا بسبب غرابة التشبيه ولا أدّعي أنّ قلب هذا التشبيه للمدخنة مع دخانها أغرب

وَيَخُطُّ صَفَحَاتِ الْجَوِّ مَا   نَفَضَتْ عَلَيْهِ سَوَادَهَا العَيْنَانِ

أي أنّ قلم المدخنة يرسم على صفحات الجوّ التي هي شبه الخدّ في الصفاء شيئا نفضت عليه العينان السواد وان سوادها (1) فهو أسود وبهذا يشبه أن يكون هذا الشيء عذارا وهذا التشبيه أخذ من قول الشاعر (من الكامل) .

لم يَكْسُ عَارِضَهُ السَّوَادُ وَإنَّمَا   نَفَضَتْ عليه سَوَادَهَا الأحْدَاقُ

سَطْرَاً بِطِلَسْمِ سِرُّسُرْعَةِ سَيْرِهَا   شَرَحَتْهُ عِنْدِي هَيْنَمَاتُ لِسَانِ

أي أنّ ذلك القلم خطّ سطرا إذ الدخان عند السير يكون في الجوّ شبه سطر كتابة من طلسم لا يفهم لكن صوت المركبة عند السير المشبه لهينمة اللسان شرح عندي ذلك الطلسم ببيان سرّ سرعته ذلك السير لأنّ الدخان يدلّ على وجود النار التي أمكن ببخارها هذا السير السريع .

ماطُولِبَتْ إلاَّ وَقَدْ سَبَقَتْ إلَى   مَا لاَ يُنَالُ بِقُوَّةِ الْحَيَوَانِ

---

(1) بالنص : السوه سوادها .

أي أنّ تلك المحامل التي يظهر من حالها أنّها تسوق شبه ولد لها لم يوجب لها سوقها له تعطيلا في سرعة السير ينالها به الصيادون بل إنّها مهما طلبها لاحق سبقته [121] إلى الغاية أي لا يمكن البلوغ إليها بقوّة الحيوانات من خيل أو جوارح وذلك لأنّ جريها كان بقوّة عنصر الحرارة التي هي الأصل في القوّة الحيوانية وأين منها القوّة الحيوانية .

[121]

فَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ مَعَارِفِ آصِفٍ ... إِذْ جَرَّ عَرْشاً شَاسِعاً فِي آنِ (1)

أي كأنّها من أسرار الله التي امتاز بمعرفتها آصف ابن برخيا كاتب سليمان عليه السلام حيث وصفه الله بأنّه عنده علم من الكتاب حتّى أمكن له به أن جرّ سرير ملكة سبأ بلقيس (2) من بلدها إلى مقرّ سليمان في وقت واحد وكان البعد مسيرة شهرين للمجدّ قيل إنّ طول السرير المذكور كان ثلاثين ذراعا وكذلك عرضه وارتفاعه وان مقدّمه من ذهب منضّدا بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ومؤخّره من فضّة مكلّلا بأنواع الجواهر واللآلي وله أربع قوائم واحدة من ياقوت أحمر وقائمة من ياقوت أصفر وقائمة من زبرجد أخضر وقائمة من درّ أبيض وصفائحه من ذهب وانّه كان في جوف سبع بيوت عليه سبعة أغلاق كل بيت داخل الآخر وهو في آخرها .

فَأَتَى بِهِ قَبْلَ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ بَيْـ ... ـنَ يَدَيْ سُلَيْمَانَ الرَّفِيعِ الشَّانِ

---

(1) روي هذا البيت بصدر آخر في مخطوط النازلة التونسية وهو الآتي :

لم تدر هل هي من معارف آصف ... اذ جر عرشا شاسعا في آن

(2) الملاحظ بشأن بلقيس ملكة سبأ أن أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس في الاصحاح العاشر روت خبرها كما يلي : وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها فأخبرها سليمان بكل كلامها لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به فلما رات ملكة سبأ كل حكمة سليمان ... فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك... وعن حكمتك ولم أصدق الاخبار حتى جئت وأبصرت عيناي فهو النصف لم أخبر به زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك ... (اسفار العهد القديم ـ الملوك الاول : 10 و11 ص ص : 553—554 . طبعة أوكسفورد سنة 1871) والملاحظ أيضا أن خبر ملكة سبأ ورد مرة أخرى في الكتاب المقدس إسفار العهد القديم في اخبار الايام الثاني 8 و9 في الاصحاح التاسع كما يلي : وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جداً وجمال حاملة أطيابا وذهبا بكثرة وحجارة كريمة فأتت إلى سليمان وكلمته عن كل ما في قلبها فأخبرها سليمان بكل كلامها ولم يخف عن سليمان أمر الا وأخبرها به فلما رأت ملكة سبأ حكمة سليمان ... فقالت للملك صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك » .

أي أنّ آصف بما عنده من علم السرّ الذي علّمه الله أتى بالعرش المذكور من ذلك البعد قبل ارتداد الطرف بين يدي سليمان عليه السلام وذلك أنّ بلقيس لما أجابت دعوة سليمان عليه السلام بعد أن اختبرت نبوّته سارت إليه في اثني عشر ألف فيل وتركت عرشها في بلدها فلما قربت من مقرّ ملك سليمان وأعلم بقرب وصولها قال لمن حوله أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ فقال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك قال أريد أسرع من ذلك فقال آصف أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك . فلمّا رآه سليمان بين يديه شكر [122] الله على ما آتاه وسخّر له . [122]

أَوْ أَنَّ مُخْتَرِعِي سَرِيعِ حِرَاكِهَا
طَلَبُوا اللَّحَاقَ بِذَلِكَ الْعِرْفَانِ (1)

أي أو كان الذين اخترعوا حركتها السريعة طلبوا ان يلحقوا بما عند آصف من السرّ الذي أتى به سرير بلقيس قبل ارتداد الطرف فأتوا بهاته المراكب البخارية على السكك الحديدية وأين هذا من ذلك .

وَلَوْ أَنَّهَا وُلِدَتْ لَقُلْنَا بِنْتُ مَا   كَانَتْ قَدِيمًا مَحْمَلاً لِلْجَانِ

أي أنّ هاته المركبات لو كانت سرعتها بقوّة حيوانية نشأت عن ولادة لاعتقدنا في خرافات السذّج من الأقدمين الذين ينقلون تعرّفهم بالجنون ويثبتون لهم أفراسا يركبون عليها في سرعة تامّة نظرا إلى غرابة هاته السرعة التي نراها ومن ذلك قول الشاعر : (من الخفيف)

نَحْنُ قَوْمٌ بِالْجِنِّ (2) فِي زِيِّ نَاسٍ   فَوْقَ طَيْرٍ لَهُمْ شُخُوصُ الْجِمَالِ
لَكِنَّهَا صُنِعَتْ بِقَوْمٍ أَشْعَرَتْ   فِيهِمْ بِقُوَّةِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ

أي أنّها لم تولد وهي مصنوعة صنعها أقوام أمثالنا فأشعرت صناعتها بأنّ فطرة الإنسان خلق الله لها قوّة وصلت بتسخيره إلى هاته الغاية والحاصل

(1) روي هذا البيت بعجز آخر في مخطوطة النازلة التونسية وهو الآتي :
أم أن مخترعي سريع حراكها   طلبوا لحوق السابق العرفان

(2) كذا بالنص .

نترك خرافات المذّج وذلك بإدراكنا سبيل الصنائع التي هي أصل العمران .

هَلْ كَانَ يَسْبُقُهَا سِوَى صَوْتِ امْرِىءٍ
قَدْ حَدَّثَ الأَسْلاكَ بِالأَشْجَانِ

أي ليس هنالك ما يسبق المركبات المذكورة في سرعة السير إلاّ صوت الشخص الذي حدّث الأسلاك بما في ضميره فسرى حديثه مع السلك بسرعة أشدّ من ذلك السير

[123] حتّى المَقَالَةَ بالتّليفونِ انْبَرَتْ للسّامِعِينَ على قَصِيّ مكان [123]

أي حتّى أنّ المقالة نفذت مع السلك للسامعين على بعد مكانهم بسبب التليفون وهذا اللفظ مركّب يوناني معناه الصوت البعيد سمّيت به هذه الآلة التي تنقل الصوت من مكان إلى آخر ولو اشتدّ البعد ما بينهما ومخترعها رجل أميريكاني (1) وهي عبارة عن قطعة كبيرة من المغنطيس على شكل اللامين وعلى طرفها لفّتان مفصولتان كلّفات التلغراف وأمامها صفيحة رقيقة من حديد سهلة التذبذب فإذا تحرّكت هذه الصفيحة حصل المجرى الكهربائي في لفّة الشريط فإذا تكلّم الإنسان أو غنّى أمام تلك الصفيحة اهتزّت وخرج منها صوت واضح يجري مع السلك إلى نهاية السلك يظهر في الصفيحة التي هنالك على صفته التي خرج بها ولو كان بين الصفيحتين بعد المشرقين .

إذْ أنّها تَسْرِي كَبَرْقٍ خَاطِفٍ وَيَحِلُّ مَوْقِعُهَا مِنَ الآذَانِ

أي أنّ المقالة التي تسري مع التليفون تكون في السرعة مثل البرق الخاطف وتبلغ إلى آذان المستمعين لها على بعد عظيم فيحلّ موقعها من تلك الآذان .

أوْ صَوْتِ مَنْ حَمَلَ الشُّعاعُ مَقَالَهُ بِالفُونُفُونِ المُحْكَمِ الإتْقَانِ

---

(1) أول مخترع للتليفون في سنة 1854 هو الفرنسي شارل بورسول (1829—1912) ثم تلاه الاميركي الاسكندر كراهام بيل (1847—1922) الذي حقق اختراعه في 10 مارس 1876 .

أي أو يسبق سير المراكب البخارية صوت الشخص الذي حملت مقالته مع الشعاع بالفوتفون فهو الآلة التي تنقل الصوت مع الشعاع اخترعها اسكندر كراهام بل وسمنز تنشر الانقليزيان سنة 1880 (1)

فَالصَّوْتُ يَنْقُلُهُ انْطِبَاعُ أَشِعَّةِ السِّـــيرْآةِ حَيْثُ تَقَابَلَ النُّورَانِ

أي أنّ الصوت مع الفوتفون ينقله انطباع أشعّة المرآة عندما يتقابل النوران بواسطة معدن السيليسيوم (2) وذلك بجعل مرآة مرنة من الزجاج الرقيق المفضض تقابلها مرآة إهليلجية تعكس النور على أيّ بعد كان فإذا وقع الصوت على ظهر المرآة الأولى وكان في بلدتها كلس السيليسيوم

[124] يسمع الصوت في مكان المرآة الثانية ما دامت الأشعّة متواصلة وبذلك يقع الاستغناء عن مدّ سلك في مواقع الحروب وأماكن المحاصرة فللّه درّ رجال الاختراعات .

وَبِذَا ذَكَرْتُ كَرَامَةَ الفَارُوقِ إِذْ   نَادَى فَسَارَ القَوْلُ سَيْرَ مَعَانِ

أي وبيسّريّان المقالة سواء كان مع التليفون أو الفوتفون تذكّرت الأمر الخارق للعادة الذي كان ظهر على يد الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطّاب عندما أرسل السيد سارية في سريّة وحين التقى الجمعان كادت أن تقع الهزيمة على جيش المسلمين فاكتشف أمرهم الخليفة فنادى بين أصحابه يا سارية الجبل وعلى بعد ما كان بين مقرّ الخليفة وحومة القتال سرى ذلك الإنذار إلى أذن السيد سارية وناهيك بها من كرامة .

لِيَدُلَّ سَارِيَةَ إِلَى الجَبَلِ الَّذِي   يَحْمِي بِهِ مِنْ كَيْدِ ذِي عُدْوَانِ

---

(1) الة الفوتفون اخترعها العالم الاميركي الاسكندر كراهام بيل المولود باسكتلندة بمدينة ايدمنبورغ (انظر : ص 95 *Harry Edward Neal : op. cit.*)

(2) السيليسيوم هو أحد المعادن يوجد بالصخور والطين والرمال ويتمثل وجوده في قشرة الأرض بنسبة 26 في المائـة .

أي أنّ نداء الفاروق كان ليدل السيد سارية إلى الجبل الذي كان حوله ليحتمي به من كيد الأعداء المقاتلين له .

فَـأتاهُ نَفَسُ الصَّوْتِ عَنْ بُعْدِ نَأْيٍ وَانْحَازَ مُمْتَثِلاً بِدُونِ تَوَانِ

أي أنّ السيد سارية سمع عين صوت سيّدنا عمر على ما كان بينهما من البعد فامتثل أمره وانحاز بجيشه بدون تراخ وبذلك أمكن له أن حصل على الانتصار بالاحتماء من كيد المقاتلين .

صَوْتٌ بِلاَ سِلْكٍ وَلاَ الـمِرْآةِ سَا رَ وَلاَ بِفُونُغْرَافِ ذِي الْعِرْفَانِ

أي صوت سيّدنا عمر الفاروق سار إلى السيّد سارية بمحض الكرامة لسيّدنا عمر إذ كان سيره بدون سلك حتّى لا يقال إنّه كان بينهما التلفون وبدون مرآة حتى لا يقال إنه كان بينهما الفوتوفون . وليس ذلك الصوت نُقِل بواسطة الفوتغراف [125] المنسوب إلى أهل المعرفة .

[125]

هُوَ آلَةٌ إنْ قِيلَ شَيْءٌ عِنْدَهَا حَفِظَتْهُ مُنْضَبِطًا كَخَيْرِ مُصَانِ

أي أنّ الفوتغراف (1) آلة حفظ الأصوات حفظا منضبطا بصفة النطق الذي صدر به من صاحبه بواسطة ورق من التوتيا يلفّ على اسطوانة الآلة فإذا وقع الصوت عندها أثّر فيها تموّج الهواء تأثير تلك الحروف من مخارجها فإذا وضع ذلك الورق على أيّ اسطوانة تدور كدورانها حين كان المتكلّم تسمع منها عين تلك الأصوات الأولى على الصفة التي صدرت بها أوّلا منضبطة بضبطها وكان اختراعها سنة 1877م .

وَتُعِيدُهُ مَهْمَا أُرِيدَ بِهَا مَعَ الْـ أَطْوَارِ بِالتَّحْرِيكِ وَالإِسْكَانِ

أي تعيد الصوت مهما أريد بها ذلك فيصدر عنها بالأطوار التي صدر بها عن صاحبه والنغمات والتحريك والإسكان بحيث إنّ سامع الصوت منها لا يفرق بينه وبين الصوت الأصلي .

(1) الصواب : الفونغراف .

نُطْقُ الْجَمَادِ بِهَا جَرَى بَلْ أغْرَبَتْ
بِبَقَاءِ نَفْسِ الصَّوْتِ وَالأَلْحَانِ

أي أنّ هذه الآلة ظهر بها عجب حيث ان الجماد نطق بها لانّها مركّبة من معادن جمادية ويظهر من حركاتها نطقها بالصوت الذي انطبع فيها وهذا فيه غرابة بل إنّها تجاوزت حدّ الإغراب ببقاء نفس الصوت مع الحالة التي صدر بها إلى أجيال متعدّدة فيستعيدون ذلك على آذانهم بعد انقراض أصحابها مع أن الصوت عرض لا يبقى زمانين .

تَأْتِي بِأَفْصَحِ أَحْرُفٍ مَعَ أَنَّهَا مَا إِنْ لَهَا حَلْقٌ وَلاَ شَفَتَانِ

أي أنّها تأتي بأفصح الحروف عند نطقها مع أنّها ليس لها مخرج من مخارج الحروف التي تخرج من الحلق والشفتين [126] .

[126]

فَهِيَ التِي لاَ تَكْتُمُ السِرَّ الَّذِي يُفْشَى لَهَا وَيُعَادُ بِالإِعْلاَنِ

أي أنّ الآلة المذكورة إذا نقلت صوتا وأريد منها إعادته لا تكتم منه شيئا وتعيده علانية بين المجامع ولو كان الحديث من الأسرار التي يلزم كتمها .

لَكِنْ لَهَا صِدْقٌ وَحُسْنُ حَدِيثِهَا قَدْ صِينَ عَنْ زَيْدٍ وَعَنْ نُقْصَانِ

أي أنها مع أنّها لا تكتم شيئا هي صادقة في الرواية حيث إنّ حديثها لا تشوبه زيادة ولا نقص ولذلك استعملت منها جرنالات من ورق التوتيا يستعيد بها مشتركوها أخبار صاحبها وانتشر منها جرنال الديلي فوتغراف في نيويورك من أميريكا (1) .

وَبِحِفْظِ نَغْمَتِهَا سَمَتْ عَنْ كُلِّ مَا
بِهِ تَبْلُغُ الأَصْوَاتُ لِلإِخْوَانِ

أي مع كون حديثها ليس فيه زيادة ولا نقص فهي بحفظ أصل النغمة قد فاقت على كلّ ما صارت الأصوات تبلغ به إلى الأحباب فيما بينهم مما مرّ الكلام عليه من التلفون والفوتفون .

(1) الصواب : الديلي فونغراف .

وَالْكُـلُّ بِضَبْـطِ صُورَةِ الأَلْفَـاظِ إِنْ
بَـاهَـى تَـلَغْـرَافٌ بِنَقْـلِ مَعَـانِ

أي أنّ الآلات الثلاث المذكورة كلّها يضبط صورة الألفاظ لإبلاغ الصوت عن بعد وهاته مزيّة فاقت بها على التلغراف الذي افتخر بنقل المعاني .

سِلكٌ كَوَهْمِ السَّائحينَ مَمَرُّهُ فِـي كُلِّ اسْمِ سَائِرِ الْبُلْدَانِ

أي أنّ التلغراف سلك يشبه فكر أصحاب السياحات حيث إنّ الواحد منهم إذا كان في موضع مختصّ يمكنه أن يفكر في جميع البلدان التي كان دخلها فهو في زمن واحد يمرّ على جميعها وهكذا حال التلغراف في مروره على جميع الجهات . ونظنّ أن استحضار هذا التشبيه من نوادر الأدب وفوائد السياحة وخاصّية السلك هي حمل المجرى الكهربائي ونقل العلامات [127] . [127]

طَرَفاهُ كُلٌّ يَنْتَهِي فِي مَرْكَزٍ نَاءٍ بِهِ قَدْ نَالَ وَصْلَ تَدَانِ

أي أنّ طرفي السلك الموصّل كلّ منهما ينتهي إلى محلّ بعيد نال مع بعده بسبب السلك مواصلة اقتراب من المحلّ الآخر .

وَكِلاَهُمَا مِنْ مَنْبَعِ السَّيَّالَةِ اشْـــتَفَّ الْحَيَاةَ بِأَسْرَعِ السَّرَيَانِ

أي وكلّ واحد من طرفي السلك الموصّل يتّصل بالبطارية القلطانية (1) التي تحدث المجرى الكهربائي فيشرب الحياة بحمل المجرى الكهربائي الذي يسري معه سريانا سريعا .

فَإِذَا سَرَى سِرٌّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ لاَ يَتَعَارَضَانِ وَيَبْلُغَانِ لِآنِ

أي أنّ سرّ المجرى الكهربائي إذا سرى على سلك واحد من طرفيه يحمل رسالتين مختلفتين إلى جهتين متقابلتين لا يتعارضان ويبلغان في وقت واحد وهذا عمل مستجدّ في التلغراف اخترعه سترك الانقليزي سنة 1855م .

وَإِذَا تَمَسَّ يَدُ الْحِرَاكِ رَقِيقَهُ يَتَحَرَّكُ الأَقْصَى بِدُونِ تَوَانِ

(1) كذا بالنص، والبطارية كلمة دخيلة معربها الخزان الكهربائي . (انظر أعلاه صفحة 105).

أي أنّ يد الحركة وهي مفتاح إرسال الكهربائي إذا تلمس رقيق طرف السلك القابل للمجرى الكهربائي يتحرّك بذلك المس طرفه البعيد بغير تراخ .

فَكَأَنَّ ذَاكَ السِّلْكَ حُبُّ تَوَاصُلِ الْـ ـمُتَعَاشِقَيْنِ عَلَى نُزُوحِ مَكَانِ

أي أنّ السلك القابل يشبه حبّ التواصل بين المتعاشقين كلّ منهما يجذبه الحبّ إلى صاحبه على بعد مكانهما .

وَكَأَنَّ مَنْبَعَ مَاسَرَى قَلْبَاهُمَا لَمَّا تَجَرَّدَا وَتَخَابَرَا بِتَفَانِ

والبطرية التي تحدث المجرى الكهربائي في الجهتين المتقابلتين تشبه أن تكون قلبي المتعاشقين إذا تجرّدا عن غيرهما وانفردا للتعلّق ببعضهما وقد قيل إنّ شدّة الحبّ تصل إلى درجة تأثّر المحبّ بأفعال نفس المحبوب مع تباعدهما [128] .

[128]

وَيَدُ الْتَحَرُّكِ كَمِثْلِ أَنْمُلَةِ الْحَكِيمِ يَجُسُّ نَبْضَ مَقَاوِمِ الْبُحْرَانِ (1)

أي ومفتاح إرسال الكهرباء في مسّه طرف السلك القابل يشبه أنملة الحكيم إذا جسّ بها نبض مقاوم شدّة المرض .

وَلِجَسِّهِ الْأَثَرُ انْبَرَى لِلْقَلْبِ إِذْ أَضْحَى يَرَى بِتَنَبُّهِ الْحَيْرَانِ

أي وأثر الجسّ نفذ للقلب الذي هو أقصى النبض حين ظهر على القلب تنبّه المتحيّر تشبيها لوصول أثر حركة المفتاح بمسّ طرف السلك في طرفه الآخر حتّى يتحرك لها ويضطرّ بالمقدار حركة مسّ يد الحركة .

وَلِذَا تَرَى ذَاكَ الْحَكِيمَ مُتَرْجِمًا عَنْ سِرِّهِ السَّارِي إِلَى الْأَبْدَانِ

أي ولأجل ظهور أثر مسّ النبض في حركة القلب المشبه به ظهور أثر مسّ مفتاح المجرى بطرف السلك في طرفه الآخر ترى الحكيم الذي جسّ

(1) البحران في عرف الأطباء : تهيج واختلال في القوى المدركة تسببه شدة المرض .

النبض المشبّه به ضارب التلغراف المفصح عن سرّ ما يتلقّاه من أخباره إفصاح الطبيب عن المرض الساري إلى الأبدان بجسّ النبض .

فَاعْجَبْ إِلَى الأَسْلَاكِ مِنْ سِرِّ الصِّنَا   عَةِ تُوَضِّحُ الأَسْرَارَ بِالتِّبْيَانِ

أي تعجب إلى الأسلاك الموصّلة كيف تبين الأسرار من سرّ الصناعة المودع فيها من المجرى الكهربائي .

تَمْتَدُّ فَوْقَ رُؤُوسِ أَعْمِدَةٍ زَهَتْ   إِذْ تُوِّجَتْ بِمُجَرِّدِ السَّرَيَانِ

أي تلك الأسلاك يكون امتدادها على رؤوس أعمدة وطولها من 25 إلى 30 قدما على بعد مائة بردفين العمودين وتلك الأعمدة ناشطة حيث كان فوق رؤوسها تيجان ممّا يجرّد السريان وذلك للتحرّز من إيصال الأسلاك التي معها الكهرباء بالأعمدة لأنّ الجسم غير الموصّل إذا وضع بين السلك والعمود صار متوصّلا عندما يبتلّ سطحه بماء المطر فاخترعوا لذلك شبه كؤوس بيضاء [129] من الخزف المعتاد أو غيره تعلق السلك بهناة منها فتتجرّد بها للكهرباء من السريان والتبدّد .

[129]

فَكَأَنَّ أَبْيَضَ مِنْ حَمَامِ رَسَائِلٍ   لَهُ فَوْقَهَا وَقْعٌ مِنَ الطَّيَرَانِ

أي أن تلك الكؤوس البيضاء التي في رؤوس الأعمدة لتجريد السريان كأنّما هي حمام الرسائل الأبيض اللون وقع على رؤوس تلك الأعمدة بعد طيرانه فصارت به الرسائل تتوارد مع السلك ففيه تشبيه وصول الخبر مع التلغراف بوصوله مع حمام الرسائل .

وَبِكُلِّ وَقْتٍ وَهْيَ قَائِمَةٌ عَلَى   سَاقٍ تُشِيرُ لِوَحْدَةِ الدَّيَّانِ

أي أنّ تلك الأعمدة في كلّ وقت ملازمة للقيام على ساق متوحّدة تشير بتوحدها إلى أنه ليس في الوجود إلاّ إله واحد لا إله إلاّ هو

وَلَهَا بِأَرْضِ مَقَرِّهَا غَوْصٌ إِلَى   عُمْقٍ كَمِثْلِ مَنَابِتِ الأَغْصَانِ

أي ولتلك الأعمدة غوص في الأرض التي فيها إلى عمق يشبه أصل الأغصان التي تثبت بها في الأرض ثبوتا لا تسقط معه .

وَعَلَى التَّوَالِي قدْ تَنَاسَقَ نَصْبُهَا فَتَتَابَعَتْ كَتَتَابُعِ ٱلْغِزْلاَنِ

أي ونصب تلك الأعمدة قد ترتب على التوالي وتتابعت مثل تتابع الغلمان ذوي القدود المائسة الشبيهين بالغزلان .

كُلٌّ يرُومُ وَصْلَ إِلْفٍ سَابِقٍ وَلهُ يَمُدُّ بِسِلْكِ وَهْمٍ فَانِ

أي كلٌّ واحد منها في متابعتها للآخر كأنّه يطلب وصاله ويمدّ إليه بسلك فانٍ من الوهم الذي يعتري المحبين في التعلّق بالمحبوبين .

فَغَدَتْ شَوَاخِصَ مِثْلَ مَنْ يَهْوَى فتًى
يَرْعَى بَدَائِعَ حُسْنِهِ ٱلْفَتَّانِ

أي فغدت تلك الأعمدة المشبّهة في تتابعها لطلب الوصال من إلف شاخصة [130] تشبه حالة المحبّ إذا شخص لمحبوبه ينظر ما فتنه من محاسنه . [130]

وَلِذَلِكَ أَسْتَحَلْتَهَا وَأَيْبَسَ جِسْمَهَا
طُولُ انْتِظَارٍ لَمْ يَطِبْ لِلْعَانِي

أي ولكونها تشبه حالة المحبّ انتحلت ويبست بسبب طول مدّة شخوصها بانتظار الوصل انتظارا لا يطيب لمن أتعبه الحبّ

وَتَشَذَّبَتْ وَنَضَتْ مَلاَبِسَ حُسْنِهَا وَتَشَقَّقَتْ بِالعِشْقِ شَقَّ سِنَانِ

أي من آثار شبهها بحالات المحبّين أنّها انقطعت منها الفروع وزال عنها نشرها زوال ثياب المحبّ إذا خلعها وتشققت بآثار العشق شقًّا كأنّه وقع سنان.

وَلَهَا زَئِيرٌ مِنْ شَجًى مَا قَدْ وَعَتْ مِنْ ذِي مَسَرَّاتٍ وَذِي أَحْزَنِ

أي وللأعمدة مع الأسلاك صوت يشبه ترديد الصوت في الجوف ثم مده من أجل الشجى وهو في الأصل ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه ويستعمل

للقصب التي لا ترتقي ولا تنزل وهو شجى الأخبار التي حفظتها مما يسرّ ويحزن والسبب الحقيقي في ذلك الصوت هو اضطراب الأسلاك بالتيارات الهوائية .

وَكَأَنَّمَا تَرْوِيهِ شَيَّبَ رَأْسَهَا   فَابْيَضَّ مِنْهَا مَرَّ بِالآذَانِ

أي وكأنّ الأخبار التي ترويها شيّبت رأسها الذي عليه كؤوس المجرد فابيضّ ذلك الرأس من أجل ما مرّ بآذانه وهي الهنات التي يكون فيها السلك .

إذْ مَرَّ عَنْهَا سِلْكُ بَرْقٍ قَدْ أَتَى
بِخَفِيِّ سِرِّ حَوَادِثِ الْبُلْدَانِ (1)

أي لأنّ الآذان مرّ عليها سلك مرور البرق الأبرق الذي يصحبه خبر سرّ حوادث الزمان من عجائب الأخبار التي يشيب لها الرأس .

كَالأَيْدِي مِنْ رُسْلِ الْبَرِيدِ تَوَاصَلَتْ
بِرَسَائِلَ مُدَّتْ مِنَ الأَعْوَانِ

أي أنّ ذلك السلك الآتي بغرائب الأخبار في امتداده بين الأعمدة يشبه الأيدي المشرعة للإعطاء من رسل البوسطة إذا كانوا في أيديهم المكاتيب مبيّضة [131] الظاهر يمدّ بها كلّ واحد منهم إلى صاحبه ففيه تشبيه حالة صورة التلغراف بحالة البوسطة عند وصول الرسائل فالأعمدة تشبه أعوان البوسطة الذين يتناولون المكاتيب والسلك شبه أيديهم المحدودة لمناولة المكاتيب بعضهم لبعض وكؤوس المجرد البيض شبه الرسائل المختومة ناولها أحدهم بيده للآخر .

تَسْرِي بِهِ الأَخْبَارُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى   غَرْبٍ فَيَبْلُغُ نَشْرُهَا فِي آنِ

أي أنّ الأخبار تسري بذلك السلك من الشرق إلى الغرب فيصل نشرها في وقت واحد فهو ينشر الأخبار مثل الجرنالات اليومية التي تنشر الأخبار

تَأْتِي عَلَيْهِ كَمِثْلِ طَيْفِ وَارِدِ   الوَهْمِ مَرَّ بِهِ عَلَى وَسْنَانِ (2)

(1) في مخطوطة النازلة : صدر آخر هو الآتي :
إذا امر عنهـا سلك برق أبرق   يأتي بسر حوادث الازمـان

(2) بالنص : مر به على سنان . أما مخطوطة النازلة ونشرة الرائد فبهما : وسنان كما أثبتنا .

أي أنّ الأخبار تأتي على ذلك السلك شبه الخيال الوارد إذا كان الوهم مرّ به على قائم فلا يكون له استقرار تعرف به سرعته

أَوْ مِثْلِ مَعْنَى رَقَّ فِي ذِهْنِ امْرِئٍ
أَمْسَى يُعَانِي فِي لَطِيفِ مَعَانِي

أي أو أنّ تلك الأخبار في سرعة مرورها على السلك تشبه لطائف المعاني إذا رقّت في ذهن أديب فتمرّ عليه مرورا بمقدار رقّتها في ذهنه لا يكون لها معه استقرار البتة

نَطَقَتْ عَلاَمَاتُ النُّقُوشِ بِهِ كَمَا
دَلَّتْ حُرُوفُ الْخَطِّ عَنْ تِبْيَانِ

أي أنّ ذلك السلك بسببه نطقت علامات النقوش حيث يتحرّك لتحرّك الراقم المجعول لتدوين العلامات المستعملة للدلالة على حروف الهجاء دلالة تشبه دلالة أصل حروف الخطّ على البيان الذي وضعت لأجله .

مَا مَانَ فِي الأَخْبَارِ إِلاَّ فِي الَّذِي
يَرْوِيهِ عَنْ دُوَلٍ وَعَنْ أَعْيَانِ

أي أنّ التلغراف مع نطقه لم يكذب في الأخبار إلاّ في الأخبار العاميّة التي [132] ينقلها عن الدول وعن أعيان رجالها التي يقصد أربابها إظهار خلاف ما يبطنون [132]

لَكِنَّ آفَاتِ الْحَدِيثِ رُوَاتُهُ وَهُوَ الْبَرِيدُ مُبَلِّغٌ بِأَمَانِ

أي غير أنّ ملامة الكذب في أخبار الدول وأعيان رجالها ليست تعود للتلغراف لأنّه رسول يبلغ ما أمر بتبليغه على وجه الأمان لا يزيد فيه ولا ينقصه وإنّما آفات الحديث من رواته الذين رووه على وجه الكذب ونقلوه للتلغراف على ذلك الوجه فنشره على ما رووه به .

وَمَزِيَّةُ الإِبْلاَغِ عِنْدَ تَخَابُرٍ بِهِ عَمَّمَتْ بِالنَّفْعِ كُلَّ مَكَانِ

أي ومزية التلغراف في تبليغ الخبر البعيد من غير التفات إلى صدقه أو كذبه لأنّ عهدة ذلك على الناقل وذلك التبليغ عند ما يقع التخابر به عمم نفعه كلّ جهة من الجهـات .

فِيهِ الإِدَارَةُ وَالتِّجَارَةُ تَرْتَقِي في كُلِّ وَقْتٍ بَيْنَ أَهْلِ الشَّانِ

أي أنّ جميع الادارات وأنواع التجارات ترتفع كلّ حين بين أربابها بسبب التلغراف المنبي عن الأحوال في الإدارة وأثمان البضائع في التجـارة .

وَبِهِ الأَيَادِي فِي البَوَادِي حَرَّكَتْ حِلْفَ السَّدَادِ لِسُؤْدَدِ العِرْفَانِ

أي وبسببه تحرّك صاحب الرأي السديد من أهل البادية البعيد عن معرفة المزايا فصار يرغب في نيل السيادة بالمعارف لما يرد عليه من الأخبار المنبئة بظهور النعم من الجوائز على المتقدّمين في المعارف .

وَبِهِ الفَوَائِدُ قَدْ غَدَتْ مَنْشُورَةً وَتَجَدَّدَتْ بِتَجَدُّدِ الأَزْمَانِ

أي وبإخباره انتشرت عموم الفوائد وتجدّدتْ على الراغبين بتجدّد الزمان

[133] فَلْيَنْظُرِ النِّحرِيرُ فِي أَسْرَارِ مَا لِلْكَهْرُبَاءِ وَقُوَّةِ النِّيرَانِ [133]

أي فلينظر العارف في سرّ القوّة الكهربائية التي نشأت عنها صناعة التلغراف والتليفون والفوتفون والفوتوغراف والقوّة النارية التي نشأت عنها صناعـة المراكب البخارية كلّها

لِيَرَى مَفَادَ الاِخْتِرَاعِ وَمَا لَهُ مِنْ صَالِحٍ لِلْمَجْمَعِ الإِنْسَانِي

أي لأجل أن يرى ما يفيد الاختراع وما له من مصالح للمجمع الإنساني

وَبِذَلِكَ يَقْدُرُ قَدْرَ حِلْفِ تَمَدُّنٍ لِعِنَانِ كَسْبِ العِلْمِ لَيْسَ بِثَانِي

أي وبرؤية العارف لفوائد الاختراع يعرف قدر المتمدن الذي لا يرجع عن طلب العلم والتوسع في المعارف

وَإِذَا الفَتَى بِالعِلْمِ يَقْصُرُ هَمُّهُ لِمَفَادِهِ فَتَرَاهُ أَعْظَمَ جَانِي

أي وليس المراد من المعارف المطلوبة للشخص ما يحصل به الإنسان على فائدته الشخصية كالاقتصار بالعلم على ما ينال به الوظيف أو نحو ذلك لأنّ من قصر همّته في المعارف على فائدته فقد ارتكب بذلك جناية على الجنس البشري حيث كان في وسعه أن ينفع الجنس بعلمه أو بما يعمل به من علمه فيصبح باخلا بما عنده .

وَأَخُو السَّدَادِ فَتًى يُجَاهِدُ نَفْسَهُ طُولَ الحَيَاةِ لِخِدْمَةِ العِمْرَانِ

أي وصاحب الرأي السديد هو الذي يتعب نفسه طول حياته لخدمة العمران البشري بما تحصل به المنافع العامّة والتسهيلات المرغوبة .

فَحَيَاتُهُ تَفْنَى وَزُبْدَةُ سَعْيِهِ يَبْقَى بِهَا فَخْرًا لِكُلِّ زَمَانِ

أي ولا يهتمّ العاقل للتعب الذي يلقاه في حياته بسبب قصد خدمة الجنس البشري لأنّ مآل الحياة لا محالة إلى الفناء وهل رأينا بطّالا خلد في الدنيا ؟ كلاّ بل انّ التاعب فيما ينفع الناس اذا انعدمت منه الحياة الجسمانية تبقى [134] حياة خلاصة أعماله واختراعاته أو تسهيلاته فيكون حيّ الذكر مظهرا للفخر في كلّ جيل .

هَلْ فِيكَ يَا حِلْفَ المَدَارِسِ غَيْرَةٌ مِنْهَا وَصَلْتَ لِمُدْمَنِ الإِتْقَانِ

هذا خطاب لعموم المتعلمين في المدارس الجديدة التي فتحتها الدول والامم لتقديم أبناء الاوطان بالمعارف تسهيلا لهم لعلها ترى من نتائج أعمالهم ما ينفعون به أوطانهم وملّتهم وليس المراد من فتحها مجرد اعانة المتعلم على ما يصل به إلى ما يمكن له به ان يحصل على خدمة يقتات منها كما لسائر السوقة والباعة فعقّال الامّة أبعد الناس عن أن يفتحوا المدارس لمجرّد ذلك أي فأيها الملازم للمدارس التعليمية هل فيك غيرة على المعارف العلمية أمكنك بها أن وصلت إلى رتبة إتقانها .

أَوْ هَلْ قَصَدْتَ لِنَفْعِ جِنْسِكَ غَايَةً تَبْقَى بِسِلْكِ غَرَائِبِ الحِدْثَانِ

أي وإن لم يمكنك إلى الآن أن تصل إلى إتقان المعارف هل في قصدك أن تطلب ما ينفع أبناء جنسك ممّا تبقى مآثره بعدك منتظمة في سلك غرائب الحوادث .

أَوْ هَلْ لِجِدِّكَ مِنْ مَآثِرَ نَفْعُهَا
عَمَّ الْبِلادَ بِمَنْبَتِ الإِحْسَانِ

أي وإن كنت تدّعي الاجتهاد في التعليم هل ظهر لاجتهادك من مآثر انتفعت بها بلادك انتفاعا أنبت فيها الإحسان حتى يقال في الخارج قد ظهر من محاسن البلد الفلاني أن برع فيه فلان فاخترع اختراعا نفع العموم مثل الشمندفير والتلغراف ونحوهما .

فَاشْكُرْ غِرَاسَةَ مَا جَنَيْتَ ثِمَارَهُ وَأْدُدْ بِغَرْسِكَ مَا يَطِيبُ لِجَانِي

أي وإن لم تكن لك مأثرة تحمد عليها في ملّتك وبلادك اشكر غرس ما جنيت ثماره من اختراعات غيرك واطلب من المبادي ما لعلّك تغرس به غرسا يطيب لمن [135] يجتنيه من بعدك . ويقال : رحم الله السلف غرسوا فأكلنا فلنغرس ليأكل من بعدنا

[135]

فَإِذَا أَفَدْتَ فَإِنَّ قَوْمَكَ كُلَّهُمْ يَسْعَى لِيَنْفَعَ أَنْجَبَ الأَقْرَانِ

أي فإذا غرست ما يفيد العموم من مآثر المعارف ترى أهل وطنك كلّهم يسعى لنفعك لما يرجونه بك من نفع الوطن

لاَ يُهْمِلُونَ صَنِيعَكَ الْمَشْهُودَ أَنْ
تَأْتِي عَلَيْهِ عَنَاكِبُ النِّسْيَانِ

أي إنّ أهل وطنك إذا رأوا لك صنيعا مشهودا نافعا لا يهملونه حتّى يذهب نسيا منسيا بل يعتضدون لإعانتك على نشره بما ينفع عمومهم وفي ضمن ذلك لك أعظم النفع .

بَلْ مَا تَوَانَى عَنْ إِعَانَتِكَ امْرُؤٌ إِلاَّ جَهُولٌ أَوْ وَضِيعٌ شَانِي (1)

(1) نشرة الرائد كما يلي : الا وضيع أو جهول شاني

أي أن أهل وطنك لا يتراخى منهم عن إعانتك على نشر ما ينفع العموم إلاّ من جهل منهم مقدار ما أتيت به لجهله أو من هو وضيع الأصل باغض لنفع الجنس وأمثال هؤلاء لا يكونان إلاّ من أسافل الرعاع لا يرجى منهم الانتفاع والعارفون بمزيّة ما يأتي به وأصحاب الأصول الكريمة المحبّون لخير العموم جميعهم يد واحدة في إعانتك على ما أردت .

وَمَفَاخِرُ العَصْرِ الجَدِيدِ مَعَارِفٌ فِيمَنْ يَقُومُ بِخِدْمَةِ الأَوْطَانِ

أي وإنّ أعلى فخر في هذا العصر هو وجود المعارف عند الذين يخدمون أوطانهم بنشرها

أَوْ حُسْنُ تَنْشِيطِ العَزَائِمِ مِنْ فَتًى لَهُ خِبْرَةٌ بِمَزِيَّةِ العِرْفَانِ

أي وإن لم يكن صاحب الفخر في هذا العصر له معارف فمن فخر العصر الحاضر أن يكون الشخص عارفا بمزيّة العارف فيحصل بمعرفته تنشيط عزائم العارفين فيعينهم على ما يعانونه بوجوه الإعانات [136]

[136]

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ تَقَدَّمَ المُتَسَابِقُونَ إِلَى العُلَى فِي وَاسِعِ المَيْدَانِ

أي وبإعانة أصحاب المعارف على تنشيط عزائمهم حصل التقدّم لأمم المتسابقين إلى المعالي في ميدانها الواسع وعلى ذلك أسّست الدول والأمم أصول إعطاء الجوائز والامتيازات لأصحاب المعارف وتخصيص المخترع لشيء بالانفراد بصناعة لأمد لا يقصر عن تحصيل ما تكون به ثروته وإقبال أهل وطنه على ذلك رغبة وثناء إلى غير ذلك ممّا يقيّظ همم الرجال إلى محاسن الأعمال

فَانْشَطْ وَلاَ تَكُ عِنْدَ قَرْنِكَ عِبْرَةً لإِضَاعَةِ الأَزْمَانِ بِالخُسْرَانِ

أي كن أيّها الملازم للمدارس ناشطا بتنشيط أهل وطنك ولا تضيّع زمانك خسارة فتبقى عبرة بين أقرانك مذموما مدحورا .

حَاشَا فَتًى ذَا هِمَّةٍ بَانَتْ لَهُ شَمْسُ الهُدَى فَانْقَادَ لِلعِمْيَانِ (1)

(1) نشرة الرائد روت البيت كما يلي :
حاشا فتى ذا نهية بانت له شمس الهدى ينقاد للعميان

أي ولا نظن أنك ترضى لنفسك قصور الهمّة لأنّ ذا العقل إذا ظهرت له شمس الهداية لا يتّبع العميان الذين لم يروها .

وَالْجِدُّ يُبْلِغُ كُلَّ ذِي عَقْلٍ إِلَى مَا يَرْتَجِيهِ بِمِنْحَةِ المَنَّانِ

أي والاجتهاد من الشخص يبلغ به كلّ عاقل إلى ما يطلب الوصول إليه من المعارف والصنائع بفضل الله امتنّ عليه بالعقل والاجتهاد والشاعر العربي يقول : (من الطويل)

إذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

نسأل الله أن يرزقنا الجدّ الذي نبلغ به من الأعمال النافعة المرضية إلى غاية الحدّ انه جواد كريم رؤوف رحيم . ه .

ليفورنو [قرنة]

[إقامة المؤلّف بها ووصف تجارتها وشأن اليهود التونسيين هنالك]

هي مرسى تجارية من أشهر مراسي ايطاليا ، تجارتها مرتبطة مع غالب سواحل [137] البحر المتوسط . وقد دخلت إليها قبل منتصف الليل بساعة واحدة حيث كان سفرنا إليها على سكّة الحديد من نابلي . وهي مسافة تبلغ أربعمائة وخمسين ميلا ، اقتطعناها في تسع ساعات بمعدّل خمسين ميلا في الساعة . وكان ذلك الدخول ليلة الجمعة الثالث والعشرين من رجب الأصبّ سنة 1299 (1) بمعيّة أمير الأمراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية بتونس سابقا (2) . وأقمت بها أوّلا اثني عشر يوما ثم رجعت إليها يوم الخميس

[137]

(1) يوافق : 9 جوان 1882 .

(2) هو رجل من الجراكسة أتى إلى تونس وسنة دون العشرة فربي في سراية الباي حسين الثاني وأدخل إلى مكتب الحرب بباردو فتعلم العربية والفقه والفرنسية والتركية والفنون العسكرية وتتلمذ لمحمود قابادو وللشيخ بيرم الرابع والشيخ ابن الخوجة وساهم مع خير الدين في الحركة الاصلاحية بتونس وتوفي بايطاليا بمدينة بيرنسي في 6 ذي القعدة 27/1304 جويلية 1887 . انظر : فصل من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي (الخبر عن التونسيين بالآستانة) بقلم علي الشنوفي : **حوليات الجامعة التونسية** . العدد السابع . سنة 1970 . ص‌ص : 92-93 .

الحادي والعشرين من شعبان (1) . وأقمت بها إلى منسلخ الشهر المذكور . فكانت مدّة إقامتي بها نحو العشرين يوما فإذا هي بلد ذات ميناء أمينة محكمة الوضع تتوارد عليها الفوابير في كلّ آن . وفيها مراكز شركات كثيرة وأكثرها شركة : روباتينو : الطليانية (2) وشركة : المساجري : الفرنساوية (3) وبها بوسطة (4) منظمة ومركز للتلغراف والتليفون وسكّة الحديد بحيث أنّ جميع طرق المواصلات فيها متيسّرة .

ولمرساها خليج محكم البناء على طول البلد تجري فيه الزوارق إلى سائر جهاتها ، وعليه عدّة جسور في البلد ويعلوه سور يحفظ المارّة على طوله . وقد وضع أوّلا لنقل البضائع الواردة من البحر وشحنها ، لكن الآن صار أكثر البضائع يرد على طريق سكّة الحديد وبذلك صار الاستعمال في ذلك الخليج قليلا ولها طرق متّسعة جميعها مبلّط وأسواقها منتظمة حازت أعلى رتبة في النظافة بحيث أنّ جميع محجّات البلد لا يوجد بها ما يسمّى وسخا ولم نر بلدا مثلها في النظافة وفي رحابها تماثيل من رخام تذكارات لمشاهير الرجال . وللخضر واللحوم والفواكه فيها سوق حسن الوضع والانتظام وفيها معامل للنسج وغيره من صادراتها .

ولليهود المنتسبين إليها من القرانة في تجارتها يد ومساحتها نحو مائة وعشرين كيلومتر وعدد النفوس فيها مائة ألف وثمانية آلاف وثمانمائة وواحد وخمسون نحو العشر منهم يهود . ولليهود التونسيين هنالك قهوة (5) تنسب إليهم بقرب مركز التلغراف [138] ولوجود اليهود بالبلد المذكور كانت الذبائح التي يذبحها الجزّارون منهم سائغة لنا . ولليهود هنالك مكتبة ومدارس كثيرة ويقال إن بها أعظم مدارس لهم بأوربا وهو قول وإن نقله صاحب كشف

[138]

(1) يوافق : 6 جويلية 1882 .
(2) Robatino
(3) Les Messageries Maritimes (Françaises)
(4) المقصود : مركز البريد .
(5) المراد : مقهى

المخبأ إلاّ أنّه لا يخلو عن مبالغة وإلاّ فمن علم كثرة اليهود في ممالك الدول الكبار من أوربا وعلم ضعف حالة أهل قرنة في التمدّن لا يعير ذلك القيل شيئا من وجوه الصدق .

ومن أحسن المصانع في بلد قرنة ماجلها وهو خزنة تجمع إليها مياه عيون وتسقى منها جميع البلد بالمناولة بحيث (أن أيّ) محلّ في قرنة لابدّ له من أوان كبيرة معدّة لحفظ الماء الذي يأتي به السقاؤون كلّ يوم . وهذا الماجل عبارة عن جابية كبرى تحيط به جابية أكبر مقسمة تقسيما هندسيا لتصفية الماء وبين الأقسام أنابيب من نحاس ولبعضها حركات ومفاتيح خاصية عمل جميعها تصفية الماء بحيث أنّك ترى الماء في بعض الجهات من مصبّه وسخا يصحبه زبد وغثاء ويخالطه تراب وتراه في الخزنة الوسطى وصل إليها خالصا كالفضة لا يشوبه شيء. وجميع تلك الجوابي المحيطة ببعضها عليها سقف مرتفع على صفوف من اصطوانات الرخام وعلى جوانب تلك الجوابي ممرّات تحيط بها درابيز يدخل المتفرّج عليها إلى داخل تلك الجوابي ويحيط بها من جميع جهاتهـا .

[مساهمة المؤلّف في الاشراف على دفن رجل مسلم]

وقد صادفت عند دخولي إليها أن كان رجل مسلم هنالك على حالة النزع واسمه علي بن محمد بن جابر أقام هنالك في خدمة الجنرال حسين فحضرت تلقينه وفاضت نفسه ليلة الإسراء السابع والعشرين من رجب (1) وحضر لمعاينته طبيب المجلس البلدي بعد طول مدّة مرضه وأجري عليه حكم الإفرنج من كشف الوجه وتأخير الدفن مدّة أربع وعشرين ساعة وهو حكم عام عندهم يستوي فيه الرفيع والوضيع سواء مات الميّت فجأة أو مات على طول مرض أيس به أطباؤهم من حياته . ولا يخفى ما في تعميم هذا الحكم من قلّة الجدوى

(1) يوافق : 13 جـوان 1882 .

[139] في طويل المرض الذي أيس منه مهرة أطبائهم وكأنّه لم يقصد [139] به إلاّ التنكيل على أهل الميّت وإطالة كدرهم مع تلك المصيبة، ثمّ بعد انقضاء الأمد المعيّن أعاد الطبيب الحضور للنظر في حياة الرجل هل عادت . وهو عمل لا يصدر إلاّ من ضعفاء العقول ما أولى أصحابه بالاستهزاء والسخرية .

ومن أحكامهم أنّه لا يغسل الميّت داخل البلد ولا تخرج جنازته في النهار . أما عدم غسله داخل البلد فهو ناشىء عن تعلّق بالأسباب في الأحكام الطبّية خشية العدوة والتعفّن من غسالة بعض الأموات ، ولا يعقل أنّ فضلات كثير من المرضى بالأمراض الباطنية أقلّ تعفّنا من هذا الماء . وأما الدفن ليلا فلئلاّ يكثر الاجتماع من الناس ، وكثرة الاجتماعات عندهم لا تخلو من هرج ، ولذلك كانت مقابرهم فيها بيوت معدودة للموتى ينقلونهم إليها بعد الأربع والعشرين ساعة وكلّ طائفة تفعل هنالك بميتهم ما يريدونه ، ولذلك حملنا ذلك الميّت المسلم آخر العشيّ في كروسة الأموات إلى مقبرة المسلمين هنالك . وهي مقبرة نظرها لقنصل الدولة العثمانية يوجد فيها نحو الاثني عشر قبرا منها قبر حسن باي وجنّات باية من عائلة أمراء قسنطينة تنقّلوا إلى قرنة عند دخول الفرنسيس إلى بلادهم وماتوا هنالك ، وإبراهيم خزنة دار من تبعتهم وبعض التجّار من التونسيين ، عليهم جميعا رحمة الله .

فأحضرنا عملة لحفر القبر شقّا من غير تعميق زائد على قدر الحاجة وتحامينا تغطيته بالآجرّ المطبوخ بالنار فأتونا بمطابق بمقدار الحاجة من مقطع الحجر حيث أنّهم لم يعهدوا ذلك ، وجرى أمر ذلك المدفن على أحسن حالة ممّا تقتضيه الشريعة الإسلامية . وقد أحضرنا مسلمين أحدهما طبّاخ هنا والآخر مستخدم عند بعض اليهود ، وحضرت معهما ووقفت على غسله وتحنيطه وتكفينه بمباشرتهما إلى أن تمّت جميع لوازمه على أحسن حالة ، وأخرجناه من بيت المغسل وصلّينا عليه بمحضر أفواج أهل البلد ، وكانوا يتعجّبون من كثرة الأعمال بسبب طول المدّة حيث أنّا لمّا دخلنا إلى البيت [140] [140] أغلقنا بابه وابتعد جميعهم . وفي صبيحة الإثنين حضرنا هنالك ومعنا الجنرال

حسين (1) وقرأنا عليه شيئا من القرآن العظيم وتولّينا دفنه ولحده وواريناه بالتراب فوق سقف القبر وأقمنا عليه مشهدا ، عليه رحمة الله . كلّ ذلك بأعمالنا من غير نكير ولا تعرّض من الحكومة بوجه . هذا والبلاد إفرنجية والحكومة طليانية ، ولكنّ حرّية الأديان لا تختصّ بمكان في هذا الزمان .

[أعلى منتزهات قرنة] لاردينسه (2)

هو أعلى منتزهات قرنة خارج البلد مما يلي البحر على بعد نحو ستة أميال متواصلة الاشجار والحدائق العمومية أنيقة الأبنية والمسائح والمجامع بحيث أن الخارج من قرنة إذا تجاوز المرسى وجابية عمل السفن ومحلّ السجن الذي يشبه أن يكون بلدا يحيط بها سور وخندق وفيه معامل جميع الصنائع حتّى يجد المسجون هنالك جميع ضرورياته في سوقه وسائر الأشغال التي يريد أن يشتغلها . ثمّ بعد قطع مسافته والخروج من باب حديد للبلد مما يلي البحر يجد الطريق أمامه متّسعة وا ضحة نظيفة والبحر على يمينه وأبنية السريات على شماله والطريق يمرّ معها من جهة البحر أشجار وحدائق متواصلة يتخلّلها فوانيس القاز على أعمدتها وجميع تلك الحدائق في غاية التنظيم النبات والشجر إلاّ أنّ جميع ما فيها من الشجر غير مثمر حيث إنّ المثمر تتناوله الأيدي من المارّة فتفسد انتظامه . وفي خلال تلك الحدائق مقاعد من لوح أو حجر يستريح عليها المتنزّهون . وربّما كانت تحت ظل الأشجار المستوات (3) أحسن التسوية . وهنالك بيوت البحر مختلفة الألوان والأشكال ومنها ما يتّصل بالبحر ومنها ما لا يتّصل به وبعضها تحيط به حديقة في وسط البحر بسبب شبه جسر يدخل في البحر بالبناء وتغرس من فوقه الأشجار وتجعل عليه البيت من لوح للسبح والاكل والشرب والسكنى كلّ على حسبه [141] . والقاز الهوائي يوقدها [141]

(1) انظر أعلاه صفحة 43 : ترجمته ، وص : 61–137–138 .
(2) منتزه : Ardenza .
(3) كذا بالنص . والصواب : المستواة أو المسواة .

نورا . وجميع تلك الطرق والحدائق في غاية التناسق والاتّساق مع أكمل النظافة . وعلى كلّ مسافة منها قيّمون موكّلون بكنسها بمكانس كبيرة لهم ورشّها برشاشات في ضخم البراميل على عجلاتها يملؤونها بطلومبات (1) لهم على شاطىء البحر في عدّة جهات ومسح فوانيسها وتهذيب أشجارها إلى غير ذلك من لازم تحسينها .

وفي بعض الأماكن المتّسعة توجد مساحة يحيط بها دربوز وأرضها تعمّها غراسة نبات يسمّى الحشيش ليّن جيّد يكون في تلك المساحة شبه زربية خضراء وعليه حارس فإذا كان مع المتنزّهين أبناء صغار يضعونهم في وسط ذلك المحلّ يلعبون بملاعب هنالك والحارس يمنع الكبار من الوصول إليهم فيبقى الصبيّ هنالك إلى أن يرجع أهله فيأخذونه معهم يستريحون منه في الطريق ويستريح هو من تعب طول المسير . وفي كلّ يوم يخرج إليها المتنزّهون آخر العشيّ فيستمرّون فيها إلى منتصف الليل وأمّا عشيّة يوم الأحد فلا أظنّ أنّه يبقى داخل البلد شابّة ولا شابّ والجميع يلبسون أحسن لباسهم .

وقد اتّفق أنّي خرجت عشيّة يوم الأحد فاعترضني عجاج ثار على المتنزّهين فعاد جميعهم عَوْداً غصّ به الطريق ، ومع شدّة ذلك العجاج استوقفني ذلك العَوْدُ من بهجة منظره على شدّة ازدحام الراجعين . وأنشأت فيها أبياتا ضمّنت بها البيت الأخير وهي قولي : (من المتقارب)

رُوَيْدَ العَجَاجِ القَلِيلِ الأدَبْ	فقدْ رَاعَ بالنَّقْعِ ذَاتَ الشَّنَبْ
وَقد أرْجَعَ القَوْمَ عَنْ مَنْـزَهٍ	كَمَا انسابَ مَاءٌ جرَى مِنْ حَدَبْ
فَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ غَدَتْ تَتَّقِي	غُبَاراً بِهِ تَنْبَرِي فِي خَبَبْ
تَدوسُ الجمُوعَ بِنَوْعِ اضْطِرَابْ	وَتَهْتَزُّ مِنْ جَرْيِهَا فِي لَعَبْ
كَهَزِّ الرُّدَيْنِي تَحْتَ العَجَاجْ	جَرَى في الأنابِيبِ ثُمَّ اضْطَرَبْ

(1) كلمة دخيلة من الفرنسية Trompe ومعربها مضخة .



الشيخ سالم بو حاجب
(1828 ـ 1925)

[تغزّل الشيخ سالم بوحاجب مدّة اقامته بقرنة]

وشجون الحديث يجذب إليه من محاسن الآداب في هذا الباب أبياتا نستجيدها [142] في التضمين أنشدها أستاذنا الشيخ سالم بوحاجب (1) في بنتين كانتا هنالك بقرنة مدّة اقامته بها وشرحها شرحا ينتظم في محاسن الآداب التي يبتهج بها الشعراء والكتاب ولمحاسنه نحلّي به هذا الطراز وهذا نصّه : [142]

(من الوافر)

بِرُوحِي الدُّرَّتَانِ التَّوْءَمَانِ

أي أفدي بروحي هاتين الأختين المتساويتي الحسن . والمراد أنّه يجود بنفسه في فدائهما فهما أعزّ عنده من روحه ففيه تلميح إلى اتّصافه بالشجاعة كما صرّح به في آخر البيت :

هُمَا فِي سِنِّ سَبْعٍ مَعْ ثَمَانِ

وَسِنُّ الْبَدْرِ ذَاكَ فَلاَ عَجِيبٌ   إذَا مَلَآ بِإِشْرَاقٍ جَنَانِي

يعني أنّ سنّ البنتين المذكورتين خمس عشرة سنة وذلك هو سنّ البدر فإنّ نوره يتكامل في منتصف الشهر فلا غرابة في أنّ المحبّ إذا رآهما تشرق عليه أنوار جمالهما ويمتلىء قلبه سرورا وانشراحا وفي ضمن ذلك أنّهما إذا غابتا عنه ينقلب البسط قبضا ويتيه في ظلمة الحيرة والقلق .

وَأَبْلَى مِنهُمَا مِرْطُ اصْطِبَارِي   وَمَنْ لِلْبَدْرِ أَنْ يُبْلِي الْمَعَانِي

أي من تمام مشابهتهما للبدر أنّهما أبليا حبل صبر المحبة ووجه تشبيه الصبر بالحبل أنّ الصبر يمنع عن الوقوع فيما يضرّ كما أنّ الحبل يمنع عن الوقوع في المهواة ونحوها ويروى مرط اصطباري والمرط الثوب الصافي ووجه تشبيهه الصبر به أنّ كلا منهما يستر ما لا ينبغي إظهاره . وأبلاه القمر للثياب ونحوها أمر مشهور .   (من الكامل)

قَمَرُ السَّما يُبْلِي الثِّيَابَ وَأَنْتِيَا   قَمَرَ البَهَا تَبْلَى بِكَ الأَجْسَامُ

---

(1) انظر ترجمته أعلاه صفحة 29 تعليق عدد 3 ، وصفحة 100 تعليق 1 .

لكن المعروف أنّ القمر يبلي الثياب ونحوها من الأجرام ولم يعهد أنّه يبلي المعاني كالصبر الذي هلهله البنتان فتأثيرهما أدقّ من تأثير البدر الحقيقي .

[143] وَلَوْ سَهْمًا فَرِيدًا لاتَّقَيْنَا وَلَكِنْ أَوَّلٌ يُصْبِي وَثَانِ [143]

أي ولو كان التوله ببنت واحدة لأمكن اتّقاء ضرره كما يتّقى ضرر السهم بترس يجعل من جهته أما اذا كان هنالك سهمان مفوقان فلا ينفع الا التسليم والاستسلام

وَلاَ تَرْتِيبَ بَيْنَهُمَا وَلَكِنْ هُمَا في مُهْجَتِي فَرَسَا رِهَانِ

دفع بهذا ما يتوهّم من قوله : ولكن أوّل وثان من أنّ إحدى البنتين أعلق بقلبه من الأخرى فقال لا ترتيب بينهما وإنما هما كفرسي الرهان اللذين يصلان إلى منتهى المضمار في آن واحد

إلىَ صُوفِيَّةَ الصُّوفِي يَصْبُو وَيُؤْثِرُهَا عَلَى الحُورِ الْحِسَانِ

يقول إنّ إحدى البنتين تسمّى صوفية وسميّها الصوفي العابد الراهب يصبو إليها وشبه الشيء منجذب إليه وبالضرورة أنّ الراهب إذا صبا تقلّ عبادته وذلك يستلزم أنّه يصير ممن يؤثر هذه المرأة على الحور العين

وَهَلْ يَبْقَى التَّنَسُّكُ مَعْ فَتَاةٍ لَهَا عَيْنَانِ سِحْرًا تَجْرِيَانِ

أي كيف يبقى تنسّك الصوفي المشار إليه مع سحر هاته الفتاة أي صوفية التي لا يزال السحر ينبعث من عينيها كانبعاث الماء من العين الجارية

مِرَاضٌ غَيْرَ أنَّ السَّهْمَ مِنْهَا صَحِيحٌ نَافِذٌ وَسْطَ الْجَنَانِ

يقول تلك العيون مراض أي ضعيفة الحركة لكن السهام التي تنبعث منها صحيحة قوية تنفذ في قلوب العاشقين بسرعة ووصف العين بفتور الحركة خلقي وخُلقي . أمّا الاوّل فظاهر وأمّا الثاني فلما تقرّر في علم الفراسة من أنّ بطء حركة الأجفان يدّل على الأناة وثبات الفكر . وعلوّ عاقل خير من صديق

أحمق فكيف إذا اجتمع العقل والصداقة فدانق من الحبّ مع الأمن خير من قنطار مع توقّع التغيّر بلا سبب [144] .

[144]

حَوَيْنَ حَلاَوَةً وَالهُدْبُ تَرْمِي ... وَشَوْكُ النَّحْلِ لاَ يَشْكُوهُ جَانِي

أي حوت تلك العيون حلاوة باعتبار حسن اللون والشكل وما يصحبه من التغنج والرنو والدلّ حتّى كأنّ العسل يتقاطر منها لكن أهدابها الشبيهة بإبر النحل ترمي كلّ من يقصد اجتناء ذلك الشهد ولسع النحل ليس للمجتني أن يشتكي منه لأنّه هو الجاني على نفسه ففي قوله جاني تورية ظاهرة

وَفي مُرْيَانَــةَ مَارَيْتُ صَحْبِي ... فَلَمْ يَكْتُمْ مَحَبَّتَهَا لِسَانِي

مريانة هي البنت الثانية وماريت مشتقّ من الامتراء وهو الكذب يقول ماريت أصحابي الذين منهم صوفية المذكورة أي أظهرت لهم عدم التعلّق بمريانة خشية من عذلهم ومن قول صوفية القلب واحد لا يقبل إلا واحدا وإن أمكن الجواب بما لا تقبله عقول النسوة قال فلم يكتم محبّتها لساني حيث إنّه ترجمان القلب فيترجم طبق شهوته والشهوة كثيرا ما تتفلّت من عقال العقل :

فَتَاةٌ تَمْنَحُ الألْبَابَ سَلْبًا ... بِلَفْظٍ مُخْجِلٍ بِنْتَ الدِّنَانِ

يقول : إنّ البنت الثانية لها من التأثير في العقول وسلبها بكلامها ما لا تقدر عليه بنت الدنان أي الخمر ولذلك خجلت الخمر حتّى احمرّ لونها وهذا من حسن التعليل المعروف في علم البديع وجعل سلب العقل منحة لتتمّ المشابهة لأنّ العقلاء يشتهون سلب عقولهم بالخمر ويرون ذلك من المنح .

وَطَرْفٍ فَاتِكٍ بالرمْزِ فَاعْجَبْ ... بِوَقْتٍ وَاحِدٍ رَامٍ وَرَانِي

أي أنها كما تسلب العقول عند وجود الفرصة للتكليم تسلبها بإشارة الطرف الفاتك وذلك عند عدم إمكان الكلام لوجود الرقباء وتعجب من كون طرفها المذكور ضارّا نافعا في وقت واحد لأنّ رميه للقلوب فتك بها ورمزه بالرنوّ والتغنّج يجلب مسرّتها فالرمي يدهشها والرمز ينعشها وكلاهما يقع في وقت [145]

[145]

أُحِبُّهُمَا فَكُلٌّ حَلَّ مِنِّي مَحَلَّ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِ الْجَبَانِ
وَلَوْ أَنِّي أَقُولُ مَكَانَ رُوحِي خَشِيتُ عَلَيْهِمَا ضَرَرَ الطِّعَانِ

ختم الأبيات بتضمين بيتين مشهورين بنوع تفسير والمعنى أن كلا البتين حالّ منه محلّ الروح ولكن من بدن الجبان لا من بدنه وذلك لأنّه يخشى عليهما ما لا يخشاه على روحه من أضرار الحروب وفيه تحمّس بالشجاعة ولذلك فداهما بنفسه في أوّل القصيدة وقد نظم هنالك أيضا قصيدة في حكاية حال معهما نوردها هنا وهي قوله : (من البسيط)

يَا نَارَ وَجْدٍ بِوَسْطِ الْقَلْبِ شُبَّاكُ
رَيْحَانِ قَيَّدَ أَطْرُفِي بِشُبَّاكِ

حَمَلْتُ مَا لاَ يُطِيقُ الدَّهْرُ يَحْمِلُهُ
وَلاَ تَعَوَّدَهُ مِنْ سَيْرِ أَفْلاَكِ

شَمْسٌ وَبَدْرٌ عَلَى تَعْذِيبِي اجْتَمَعَا
كِلْتَاهُمَا دُونَ كَسْرِ ذَاتِ أَمْلاَكِ

فَظَلَّ حَرْبَاءُ طَرْفِي عَابِداً لَهُمَا
مُذَبْذَبًا بَيْنَ تَوْحِيدٍ وَإِشْرَاكِ

حَتَّى اسْتَبَدَّتْ بِسَلْبِ اللُّبِّ أَجْمَعِهِ
وَخَصَّصَتْ بِحُلاَهَا الْغُرِّ إِدْرَاكِ

مُزْيَانَةُ الدُّرِّ الْبَيْضَاءُ زِينَ بِهَا
جِيدِي فَأَمْنَحُهَا مَنْظُومَ أَسْلاَكِ

تَبْدُو تَخِيطُ وَمَا تِلْكَ الْمُخِيطَةُ إِذْ
كَانَ الْمُرَادُ اصْطِيَادِي غَيْرَ إِشْرَاكِي

تَخِيطُ فِي طَوْقِهَا غُرَزًا وَتَلْحَظُنِي
لِتُولِجَ الْخَيْطَ فِي طَوْقِي لاَ مُحَيَّاكِي

يَا دُمْيَةَ الْقَصْرِ قَصْدِي بِالقَصِيرِ وَإِنْ
لَمْ تَحْظَ مِنْكِ مُعَايَنَةٌ بِإِدْرَاكِ

تَبْرِيدُ شَوْقِي وَهَبْنِي لَمْ أَنْقَهْ فَهَلْ
تَحِنُّ لِلطَّيْرِ ذِي التَّغْرِيدِ رُحْمَاكِ

إِنْ كَانَ أَغْضَبَكِ الْوَاشِي بِوَقْفَتِهِ
دُونِي فَحَجَبْتِ عَنْ عَيْنِي مُحَيَّاكِ

فَصَدِّقُ حُبِّي حَبَانِي أَنْ تُلاَحِظَنِي
مِنْ بَيْنِ أَضْلُعِ ذَاكَ الْبَابِ عَيْنَاكِ

[رسالة المؤلّف إلى صديقة محمد ابن الخوجة]

وممّا حسن عندي إيراده في عنوان المنتزهات التي كنت بينها في قرنة مكتوب أنشأته في بعض منتزهات حدائق لاردينسة عقب حضور مأدبة رائقة [146] كاتبت به أخانا العالم الماجد الشيخ سيدي محمد ابن الخوجة (1) [146] وهذا نصّه : (من الوافر)

لِرَبْعِ أَحِبَّتِي طَالَ اشْتِيَاقِي — وَنَاءَ بِيَ(2)الرَّحِيلُ عَنِ التَّلاَقِي
وَمَا لَذَّتْ لَنَا بِالْبُعْدِ عَنْهُمْ — مُوَاصَلَةُ اصْطِبَاحِي بِاغْتِبَاقِي
وَلاَ طَابَ اخْضِلاَلُ الْعَيْشِ عِنْدِي — وَإِنْ بِالْحُسْنِ قَدْ دَامَ اعْتِنَاقِي
وَلاَ رَاقَتْ حُشَاشَتِي الْغَوَانِي — بِمَا فِيهِنَّ مِنْ حُورِ الْحِدَاقِ
وَإِنْ رَقَّتْ حَوَاشٍ فِي خُصُورٍ — كَأَفْئِدَةٍ لَهُنَّ مِنَ الرِّقَاقِ
وَفِي رَوْضِ الْمَتَنَازِهِ كُلَّ يَوْمٍ — يُبَاهِينَ الْغَزَالَةَ بِالتَّحَاقِ
فَتَغْرُبُ عِنْدَمَا يَبْدُو طُلُوعٌ — لَهُنَّ عَلَى مَرَاتِعِهِنَّ بَاقِ

(1) انظر أعلاه : ص 58 تعليق عدد 3 .
(2) بالنص : وناء بي .

وَفي أفُقِ المَلاعِبِ باللّيالي مَطالِعُهنّ صِينَتْ عن مُحاقِ
فإنْ سَرّحتُ الطّرْفَ مِنّي لِمَرآهُ عِنانُ تذكّارِ الرِّفاقِ

حياك الله يا عين الرفاق * ومقرّ الودّ الباقي * وحيّا بك الصداقة التي هي قرّة الأحداق * وغرّة جبهة الفضل على الإطلاق * أخصّ بذلك جناب من سما نجاره * وهما من فخره مدراره * وأضاء به من المجد نهاره * ودلت على علومه آثاره * الدراكة الأبرع * والنحرير البديع * والشاعر الخطيب المصقع * المختصّ بالذكاء الألمع العالم الماجد الفاضل المدرّس أخينا في القرب والبعاد * الشيخ سيدي محمد ابن الخوجة بلغه الله كلّ مراد . أمّا بعد اهداء تحية يحملها إلى أرضكم نسيم الصبا * فيزداد بها لينا وتصافح مخضل الربا * فيزيد الفؤاد إليها حنينا * وتخرق ما بيننا من البحار * حتّى تصل بعد تطهيرها وتضميخها إلى سويداء القلوب * أهديها لصاحب إخائي * في شدّتي ورخائي * بل أهديها ودّي وحبي * في بعدي وقربي * وما ذلك في جنب الصداقة بعزيز [147] وإنمّا نسأل دوام العافية وجمع الشمل للجميع من فضل القويّ العزيز * ويلي هذا يا أخي شكر الله فضلكم قد بلغنا من سؤال جنابكم عنّا ما أكّد عندي فضل إخائك * وحسبك من المجد ما نلته من كرم آبائك * أبقى الله بيتكم للدين بجاه سيّد المرسلين . وإنّي لشاكر فضل مولانا شيخ الإسلام * أبقى الله بركته للأنام * في تشريفه نجل دروسه بالسؤال عن حاله * في حلّه وارتحاله * ونرجو من الله أن يبلغه مراده وينيله في الدارين الحسنى وزيادة ويديم التئام شمله بجمع بنيه في عزّ شأنه النبيه * وأما أخوكم العبد الضعيف فإنّي بحمد الله على ما يسرّكم من حسن المنزه اللطيف والمنظر الذي يقصر عنه التعريف (من البسيط)

لوْلا مُفارَقةُ الأحبابِ ما وَجَدَتْ لَهَا المَنَايَا إلى أرْوَاحِنَا سُبُلا

نسأل ربّ العباد أن يبلّغنا إلى المراد * ويجمع الشمل بكم على أحسن حالة في منشأ الأولاد والأجداد والسلام .

[رسالة الشيخ محمد ابن الخوجة ردّا على رسالة المؤلّف]

وقد كاتبني مجيبا عن ذلك بما نصّه حرسه الله : (من الوافر)

لِمَنْ دُرَرُ الثَّنَاءِ فِي اتِّسَاقِ	تُبَاهِي عِقْدَ مَعْشُوقِ الْعِنَاقِ
فَرَائِدُ مَا لَهَا فِي الْحُسْنِ نِدٌّ	سِوَى مَنْظُومِ ثَغْرٍ ذِي ائْتِلَاقِ
عَهِدْتُ الدُّرَّ مِنْ بَحْرٍ أُجَاجٍ	وَهَذَا بَحْرُهُ عَذْبُ الْمَذَاقِ
عَنِيتُ بِهِ جَمَالَ الْعَصْرِ خِلِّي	شَهِيرَ الْفَضْلِ وَالشِّيَمِ الرِّقَاقِ
هُوَ الْفَذُّ السَّنُوسِيُّ الْمُفَدَّى	وَمَنْ فِي الْعِلْمِ مُرْتَفِعُ الْمَرَاقِي
وَفِي نَظْمِ الْقَرِيظِ لَهُ الْمُعَلَّى	وَفِي نَثْرٍ لَهُ قَصَبُ السِّبَاقِ
فَلَا عَجَبَ إِذَا مَا جَاءَ مِنْهُ	نِظَامٌ يَزْدَرِي صَهْبَاءَ سَاقِ
نِظَامٌ سَاحِرٌ سِحْرًا حَلَالًا	وَلَكِنْ مَا لِسِحْرٍ مِنْهُ رَاقِ

نعم ذلك النظام الفريد * المستولي من البلاغة على الشأو البعيد * [148] وتلك بدائع النثر المزرية بقلادة النحر نعم هي الصبا تنفست على نفس مهموم *وسقته من فصاحتها الرحيق المختوم * لا فضّ فوك * ولا برّ من يجفوك * يا فارس حلبة البيان *المجلي في يوم الرهان *الذي لانله حديد الكلام *والقى بكفّه الزمام *ويا من خاض في بحر المعقول والمنقول * وفي علوم الفروع والاصول * تراه بميادينها يصول ويجول * ذلك العالم الماجد * الذي أقرّبفضله ونبله الأقارب والأباعد * صديقي وأخي المدرّس الشيخ سيدي محمّد السنوسي حرسه الله تعالى * ولا زال فضل الله عليه يتوالى * بعد سلام عاطر الشميم * لائق بذلك الخلق الكريم *والسؤال التام عن أحوالكم *أجراها الله على وفق مرادكم * وأما ما لنا من الأشواق *إلى يوم التلاقي *فذلك استفت قلبك فيه فإنّه شاهد فزكّه (1) جمعنا الله بكم على أحسن حال تودّونه ونودّه* وذلك قليل في فضل من عمّ الخلق رفده* هذا وقد اتّصل بي وسرّني ذلك المكتوب* المنعش للقلوب* الوارد عليّ ورود قميص يوسف

[148]

---

(1) بالنص : فزكيه .

على يعقوب * (1) ولا أستحضر عبارة أعبّر بها عمّا هزّني حميّاه * وفتنتني به محيّاه * لا سيّما تاجه الذي بهر * وهو تلك الفرائد الغرر * ولا سيّما البيت الأخير * فلا أجد عن حسنه من تعبير * ويلي هذا الخ والسلام (2) .

(1) اشارة إلى قوله تعالى : اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا . (سورة يوسف 12 ، الآية 93) .

(2) محرر الرسالة هو الشيخ محمد ابن الخوجة . (انظر أعلاه : ص 58 ، تعليق عدد 3).

بيزة (1)

هي الآن من بلدان إيطاليا الشهيرة وكانت في الأصل مقرّ دولة جمهورية صغيرة ذات تجارة متّسعة ولها موسى معتبرة مشهورة غير أنّها أصيبت من الجنويزيين فحاربوها من سنة 1118 إلى سنة 1132 ميلادية وأعادوا عليها الكرّة بالحرب سنة 1162 ثمّ أعادوا عليها الحرب المشتهرة وغلبوها غلبة بحرية سنة 1248 مسيحية قتل فيها من البيزاويين ثلاثة آلاف وأسر منهم [149] ثلاثة عشر ألفا هلك أكثرهم في القيود وانتهت تلك الحرب بفتح ألنبًا وتخريب مرسى بيزة تحت قيادة كورادودوريا (2) سنة 1290 مسيحية . وتلاشت تجارتها التي كانت مع البحر الأسود وعموم البحر المتوسّط بخروج كورسكا وألنبًا ثمّ إن سكان فلورانس تغلّبوا على ذات بيزة فأدخلوها في حوزتهم (3) . ولما اجتمعت ممالك ايطاليا كانت هي ضمنها ومسطّاها الآن له مساحة ألف ومائة وثمانون كيلوميتر تحوي قضويتين وأربعين ناحية وعدد السكان فيها في إحصاء سنة 1878 يبلغ مائتين وخمسة وستين الفا وتسعمائة وتسعة وخمسين نفسا واشتهرت بالعلوم الطبّية بسبب براعة أطباء كثيرين في مكاتبها الطبّية

(1) انظر : *Grand Larousse Encyclopédique*, T. 8, p. 516-517

(2) كذا بالنص .

(3) كان ذلك سنة 1405م.

إلاّ أنّها في هذا العصر الأخير تناقصت شهرتها في الطبّ بسبب توسّع العلوم الطبّية في كثير من الممالك الأخر لكن مع ذلك لشهرتها كنت كثير الرغبة في الدخول إليها مع أنّـي مررت بها مع طريق الحديد مرّتين كنت أرى فيها ضخامة محطّ سكّة الحديد فيها وحسن بناء البلد الرائق وذلك يزيد فيّ شوقا إليها فقصدتها بالسفر من بلد قرنة صبيحة يوم الاثنين الخامس والعشرين من شعبان سنة 1299 (1) واستصحبت معي يهوديّا للترجمة (2) فسافرنا صحبة سكّة الحديد نحو نصف ساعة ونزلنا في محطّ بيزة الباهر وهو من المحطّات الشهيرة في ايطاليا بسبب كونه مجتمعا لفروع كثيرة وفيه معامل للصناعة كثيرة وقد تسقّف ذلك المحطّ على شدّة طوله وعرضه وهو في كلّ وقت تختلف عليه العربات بين ذهاب وإياب وتختلف عليه أمواج الراكبين في كلّ آن بحيث إنّـي عند النزول وقفت زمنا طويلا أنظر سعة ذلك المحلّ وكثرة الإختلاف عليه .

ولمّا خرجنا منه قابلتنا البلد منمّقة البناء وحولها الأجنّة الرائقة . ولمّا دخلنا أسواقها وجدنا منها ما هو على الرسم القديم بحيث أنّ الحوانيت أمامها [150] برطال مسقّف بالعود وبعد سقفه لا يتجاوز الميتروين ونصف في الارتفاع . وهنالك من أسواقها ما هو على الرسم الجديد ووسطه مبلّط وفي وسطها الجسر الضخم البناء الذي على الوادي الجاري في وسط البلد على ذلك الوادي من جانبيه أسوار ودَرَابيز وقبالة الجسر مرصد بيزة الفلكي وهنالك أخذنا معنا أحد أهل البلد ليعرّفنا أماكن التفرّج فذهب بنا إلى الكنيسة الكبرى وصومعتها ومقبرتها الشهيرة والمعبد ومحلّ إلقاء المواليد والأنطيكخانة (3) ذات مجتمع الحيوانات والمكتب الطبّـي ومحلّ التشريح .

[150]

---

(1) يوافق : 10 جويلية 1882 والملاحظ أن يوم الاثنين يوافق 24 شعبان لا 25 . انظر أعلاه ص 103 وأسفله ص 177 .

(2) الملاحظ أن الشيخ محمد السنوسي لا يحسن اللغة الايطالية .

(3) الانطيكخانة كلمة مركبة المقصود بها حديقة الحيوانات .

كنيسة بيزة

لما وصلنا إلى الكنيسة وجدنا أحد خدمتها فاتّخذناه دليلا فإذا هي كنيسة ضخمة البناء بنيت في القرن الحادي عشر سنة 1063 (م.) وأتى عليها حريق فأعيد بناؤها على أصل رسمه فإذا طولها ستة وتسعون ميترو وعرضها أربعون ميترو وقد أقيم سقفها على مائتين وثماني أسطوانات من من رخام طول الواحدة ثماني ميتروات في قطعة واحدة عليها أقواس من رخام وأرضها مبلطة بالرخام وسقفها مذهّبة كنت أنظر لحسن صناعتها بمرآة كانت بيدي وفي بعض القباب منها كسو المزايكو وأتقنه ما رأيته في القبة الكبرى التي على المعبد. ولمّا طفنا جوانبها ورأينا تماثيل أطوار العبادة عندهم رأيت فيها صورة تشير بالسبابة فلم نتريّث أن سألت المعرّف عمّا يشير إليه ذلك التمثال فلم يسعه إلا أنّه قال لي: يشير إلى وحدة الإلـه وهو مذهب قديم. فاكتفيت منه بذلك وصادف بعيد ذلك أن كان الوقت وقت صلاة عندهم فانتظرت التفرّج في ذلك فأقبل بعض نسوة وغلمان وتقدّم بينهم غلام من قسيسي الكنيسة وعليه لبسة المتفضّل وعلى رأسه طاقية حمراء ووقف [151] أمام المعبد يرنّ بالتغنّي وهو قائم [151] تارة يضع جبهته على شبه كرسي ظريف أمامه عند أرجل التمثال الحجري وتارة يسعى بالمشير إلى اليمين والشمال والذين هم خلفه مختلفو الهيأة وأكثرهم جاث على ركبتيه يظهر التخشّع في صفحات كسيت من سندس اللين فاستعذت بالله من تلك الحال وخرجت أنشد : (من الخفيف)

إنّ مَنْ يَدْخُلِ الكَنِيسَةَ يوْمًا يَلْقَ فِيهَا جَآذِرًا وَظِبَاء

ولما خرجنا إلى خارجها رأينا لها أبوابا من نحاس أحدها من صناعة جاندفلويا (1) المشهور باتقان الصناعة. وهنالك باب آخر من أبوابها الأصلية قد سلم من الحريق الذي عرا الكنيسة وعليه تماثيل غريبة وتكتنفه اسطوانتان منقوشتان بالأزهار والفواكه الجيّدة نقشا تحار فيه الأفكار. وقد ذكر لنا

(1) كذا بالنص والصواب : جان دي بولنيا Jean de Bologne

المعرّف أنّهما من صناعة القسطنطينية العظمى جُلبتا في العهد القديم وفوق الباب المذكور براطيل أقواسها تحتوي على ثمانية وخمسين اسطوانة من المرمر الفائق وجميع ذلك الوجه من الرخام الأبيض .

صومعة بيــزة

هذه الصومعة من الأبنية الشهيرة في الدنيا لغرابة وضعها حيث أنّها مائلة كلّ الميل جهة واحدة يخالها الرائي على شرف (1) السقوط . وكان بناؤها في تاريخ بناء الكنيسة . وسبب قيامها على ما بها من الميل هوأنّها لما بُني أساسها وأخذ في بنائها تزلزلت الارض فمال ذلك الأساس ميلانا واضحا واستقرت الأرض وهو على تلك الحالة . فالتزم مهندسها إذّاك أن يتمّم بناءها على ذلك الأساس المائل فرأيناها قائمة في وسط دائرة ينزل إليها بأدرج مبلّطة تحيط بقاعدتها وهي مرتفعة على ثماني طبقات من الأقواس كل طبقة تدور على خمسة عشر اسطوانة بحيث إنّ تلك الصومعة قائمة على مائة وعشرين [152] اسطوانة ودروجها ترتقي مع مطلع في وسطها . وبعد أن طفت منعني من الصعود إليها على ما نرى فيها من الميل العظيم كثرةُ الريح في ذلك اليوم .

مقبـرة بيـزة

هذه المقبرة من أشهر المقابر القديمة في إيطاليا تسمّى كانبوصانتو (2) وهي مدفن أكابر بيزة على عهد الجمهورية وترابها من القدس الشريف ، قد حمل إليها في سبع عشرة سفينة وقد وجدناها محاطة بسور له باب من حديد دخلناه بتذكرة . فوجدنا داخل المقبرة تحيط به براطيل بأقواس من جهاتها

(1) بالنص : جهة . وبالطرة أصلحت بكلمة : شرف .

(2) انظر : Campo Santo : in *Grand Larousse Encyclopédique*, T. 2, p. 553.

الأربع وعلى جدرانها بقايا دهن مختلف التاريخ بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . وفي أثنائها تصوير من صناعة اركاتيا (1) المصوّر الشهير صوّر فيه أحوال يوم الحساب ويسمونها الحكم الأخير . وصورة جهنم . وهنالك تصوير من صناعة بينُوزكُزُّلي (2) بدهن مرسك (3) صوّر فيه أحوالا أخذها من الإنجيل . وهنالك تماثيل كثيرة من رخام مجسمة على مشاهد . وهنالك دائرة من التماثيل في مجتمع ضلعي برطالين (4) وفي وسطها مثال حيوان غريب من نحاس أصفر له رأس طائر وجناحان وجسم خروف وعليه نقوش منها ثلاثة أسطر سطر في جنبه الأيمن وسطر في جنبه الأيسر وسطر على صدره مكتوبة بالقلم الكوفي ولم تمكنني قراءتها وقد أخبرني المعرّف هنالك أنّ بعض علمائهم قرأ تلك الأسطر وترجمها . وهنالك وجدنا بيتا به بعض المصوّرين ينحتون التماثيل من رخام وجبس . ووجدناهم فرغوا من إحضار صورة غاريبالدي (5) من جبس على هيأته غير أنّها نصف جسم . وتعرّض لنا هنالك بعض الباعة يبيعون كتبا في أحوال تلك المقبرة وصور بعض تلك التماثيل فأعرضنا عنهم ودفعنا إحسان فرجة المحلّ وخرجنا [153] . [153]

معمد بيزة

اعلم أنّ النصارى يعتقدون أنّ المولود إذا خرج إلى الدنيا عند ولادته يكون في تلك الحالة متعلّق به شيء من آثار أكل آدم للشجرة فيحتاج

---

(1) كذا بالنص .

(2) هو Benezzo Gozzoli ولد بفلورانسه 1420م. وتوفي ببيستويه Pistoie 1497م . 1497م. انظر : *Enciclopedia Italiana di Scienze, Lettere ed Arti*, Roma, MCMXXXV, XIII, p. 391-404.
انظر أيضا : *Grand Larousse Encyclopédique*, T. 5, p. 565.

(3) كذا بالنص

(4) البرطيل بكسر الباء : الحجر المستطيل .

(5) انظر أعلاه صفحة : 28 ، تعليق عدد 1 .

إلى تطهيره فيأخذون ماء يقرأ عليه القسّيسون ويُستحضر المولود إلى الكنيسة . فأما الإغريق فيغسلونه جميعا . وأما النصارى فيكتفون بغسل رأسه وغسل ناصيته لينشأ المولود كامل النصرانية .

ومحلّ الغسل يسمّى عندهم معمدا . والشأن فيه أن يكون داخل الكنيسة غير أنّه في بيزة كان في محلّ مستقلّ وهو قبّة مرتفعة ستّة وتسعين ميترو أمام الكنيسة . وقد بُنيت في عصر بناء الكنيسة ومن أغرب ما فيها دست الخطابة من رخام عليه تماثيل تشبه النحت اليوناني القديم من صناعة نكولادبيز (1) يقصدها المتعاطون صناعة التصوير لأخذ صورها . وهنالك مغطسان للتعميد من مرمر أحمر . ومن خواصّ هندسة بناء القبّة أنّ الصوت فيها يبقى بعد السكوت زمنا طويلا بمقدار ما يرتقي به مع تموّج الهواء إلى أقصى القبّة ويتراجع إلى أسفلها يدرك به الحاضر تباعد الصوت واقترابه بمقدار الارتفاع والنزول وهو أمر عجيب .

محلّ إلقاء المواليد [في بيزة]

لما كانت المحلات السالفة في ضواحي البلد لزمني العود إلى البلد لطلب التفرّج في محلّ التشريح وبينما نحن ندور في تلك الأزقة ونسأل عنه اذ دخلنا حومة خالية من المارّة فإذا فيها المحلّ المعدود لإلقاء المواليد المجهولي النسب ويسمّى أسيستودي تردوميسلي (2) أي محلّ إلقاء الأولاد وهو محلّ ذو طبقات من البناء حذاء بابه من الجهة اليمنى شباك كبير حديده مربّع ووراءه دولاب يستدار إلى جهة الشبّاك فيكون بابه إلى تربيعة الشبّاك ووسطه مفروش بالجلد [154] المحشو وبأعلى الشبّاك تصوير كيفية وضع الولد بحيث أنّ [154]

(1) هو Nicola de Pisa نحات ايطالي ولد ببيزة في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد وتوفي 1278 .
(2) كذا بالنص .

المولود يكون مقمّطا أحسن تقميط ويدخل من تربيعة الشبّاك ويدار الدولاب فإذا دار الدولاب ضرب بالناقوس فيأتي المكلّفون بذلك فيجلون المولود فيأخذونه ويرسّم بدفتر المحلّ في ذلك الوقت ببيان الساعة واليوم والشهر والسنة والعلامة التي توجد عليه. إن كانت ثمّ يسلّم للمراضع والمربّيات والمعلّمات والمكاتب والصنائع إلى أن يبلغ أشدّه فيذهب بنفسه حيث يختار إن لم يكن للدولة به حاجة . ثم إنّ الذين يأملون إلحاق أبنائهم بهم في يوم ما سواء كانت المرأة الحامل أو حبيبها الذي حملت منه فيجعلون على المولود عند إلقائه علامة كتابية أو غبارية أو يضعون عليه اسما ويحفظون عندهم نظير ما يضعون مع تاريخ ذلك الوضع فإذا أرادوا تسلّم جنينهم بعد سنين يأتون للمحلّ بالنظير الذي عندهم فيقابل بدفتر المحلّ ويعيّن لهم المولود ذكرا كان أو أنثى ولا يسلّمونه لهم إلاّ بعد دفع نصف معلوم مصروفه في تلك السنين .

واستعمال هذا المحلّ موجود في سائر بلاد أوربا وقد اضطرّهم إليه ما هم عليه من تحبّب جميع نسائهم وعلى الخصوص جميلاتهنّ إلى أفراد كثيرين غير أزواجهنّ وإمكان انفرادهم بهنّ وكثرة التواصل الذي لا تقتضي معه الشهوة الإنسانية الخلوّ من موجبات الحمل على غير قانون التزوّج عندهم فإذا أصبحت المتزوّجة حاملا من محبوبها تنسبه إلى زوجها وإن لم يكن له أصلا ولا يقدر أن يتبرأ منه . وبذلك كانت أنساب أكثر الأوروباويين إن لم نقل جميعهم لا يوجد فيها محقّق بل إنّ الكثير من أعيان المنتسبين لعائلاتهم مع توارثهم مع زوج أمّهم بطريق البنوّة لهم يوجد فيهم تحقّق بآبائهم الحقانيين الذين وقعوا في أمّهاتهم وأولدُوهُن إيّاهُم غير أنّ ذلك الإيلاد كان ثمرة [155] للمتزوّج بالمرأة والولد للفراش وللعاهر الحجر . وذلك مقدار معروف بينهم حتّى في بعض أفراد ملوكهم فصاحب الزوجة من أهل أوروبا بمنزلة صاحب الأرض يزرع فيها بنفسه ليجتني ثمرة زراعته ويبيح زراعتها لغيره على قانونهم من أنّ ثمرة الزراعة يختصّ بها صاحب الأرض فهي منفعة انجرّت له بمجرّد ملك الأرض . هذا كلّه إن كانت المرأة

[155]

متزوّجة . وأما الأرملة والبنت إن تعلّق بها حمل فتضطرّ كلّ منهما للتستّر بحملها خوفًا أو حياءً وربّما خرجت من بلدها مسافرة إلى بعض البلدان الغريبة بدعوى قصد التنزّه وتلد في محلّ نزولها حالة كونها غير معروفة وبعد ميلادها ترسل ولدها أو تذهب به إلى ذلك المحلّ وربّما نشأ في أعيانهم وهو مجهول النسب وينتسب إلى الطبيعة ولا حياء لهم من ذلك ويقولون إنّ ذنب ذلك راجع لآبائهم الذين واقعوا أمّهاتهم على غير قانون التزوّج فهم فيما بينهم غير مسؤولين عن تبيّن جهل نسبهم أو زنا أمّهم وبذلك ترى في إحصاءات مواليد جميع الممالك الأورباوية كلّ سنة آلافا متألّفة بل مئات الآلاف من مجهولي النسب لا آباء لهم يفردهم أصحاب الإحصاءات بقسم مستقلّ من الإحصاء ولربّما كان هو منهم وهو يعدّ في أعيانهم . وهذه خليقتهم في قاعدة حفظ النسب الذي أجمع عليه المليّون .

تنبيه [تقرير ابن خلدون بشأن عصبية النسب]

قرّر ابن خلدون في مقدّمة تاريخه المشهور في فصول العمران البشري وتقسيمه إلى بداوة وحضرية أنّ سكنى البادية لا تمكن إلاّ لأهل العصبية (1) وقرّر أنّ أقوى وجوه العصبية عصبيّة النسب التي تقتضي النعرة على ذوي النسب فتحصل فائدة الالتحام مع ذوي الأرحام . قال : وما سوى ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له . ثم إن كان النسب إنّما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجّانا ومن أعمال اللهو المنهي [156] عنها ومن هذا الاعتبار قولهم النسب علم لا ينفع [156]

(1) انظر : ابن خلدون . المقدمة : الفصل السابع في أن سكنى البدو لا تكون الا للقبائل أهل العصبية (الباب الثاني من الكتاب الاول في العمران البدوي).

وجهل لا يضرّ . ... إلى آخر كلامه الذي سبيله حصر فائدة النسب في العصبية وإنّه في الواقع أمر وهمي لا حقيقة له (1) .

وعندما كنت نقرىء هذا البحث للأمير النّاصر (2) ومن معه تدريسا وانشاء كتبت على ذلك الفصل بقلمي ما نصّه : قلت :

ومن راجع فكره بالرجوع إلى أصول الشريعة المطهّرة وفروعها رأى تعمّق المصّ (3) في الباب إلى حدّ بعيد وإلاّ فإن الاقتصار من ثمرة النسب على العصبية أو يكون البحث فيه أمرا عبثا والتصريح بأنّه أمر وهمي لا حقيقة له يخالفه الشرع والعقل إذ أحكام المواريث في النسب مبنية على أنّه أمر محقق لا وهمي وهكذا حكم صلة الرحم والدية في العاقلة (4) وأمر الشبه بين الابن ووالده والاخذ بقول القافة (5) فيه لاجراء الاحكام الشرعية كلّها أمور تقتضي

---

(1) ننقل هنا النص الكامل لتقرير ابن خلدون (الفصل الثامن من الباب الثاني من الكتاب الاول : المقدمة) قال ابن خلدون : الفصل الثامن في أن العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الارحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه . ومن هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها ومن هذا نفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم . بمعنى أن النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن أعمال اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر بمعنى أن النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه حينئذ والله سبحانه وتعالى أعلم . (المقدمة : ص‌ص : 128–129) .

(2) هو محمد الناصر بن محمد باي ولد في 28 شوال 14/1271 جويلية 1855. وجلس على العرش الحسيني في 17 ربيع الاول 11/1324 ماي 1906 . وتوفي في 15 ذي القعدة 10/1340 جويلية 1922.

(3) المص : هو قصب السكر لأنه يمص .

(4) العاقلة : عصبة الرجل أو قرابته من قبل الأب .

(5) القافة : ج . قائف وهو الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود .

أنّه أمر حقيقي لا وهمي والاشتغال به قد يكون لحفظ سلسلة نسب بيت الشرف النبوي لانبناء أحكام على ذلك من تعظيم آل البيت طبق ما جاءت به الشريعة وإعطاء أحدهم حقّه من بيت مال المسلمين وصيانتهم عن الزكاة إلى غير ذلك من الأبواب الفقهية الموجبة للاشتغال بالنسب اشتغالا يقتضيه الدين والدين لا ينبني على أمر وهميّ لا حقيقة له واذا كان باب التعديل والتجريح في الرواية التي هي طريق اثبات ما ورد عن صاحب الشريعة لمعرفة الصحيح من غيره يتوقّف على معرفة تواريخ الرواة ومعرفة أنسابهم حتّى لا يشتبه ذوو الأسماء المتّحدة . فكيف يَصِحُّ أن يكون هذا الاشتغال من عمل اللهو وأي عمل أنفع منه في معرفة رواة الدين وعلى ذلك فالقائل : النسب علم لا ينفع . قوله صادر عن جهل بفائدته ومن جهل شيئا عاداه فلا يقام له وزن في هذا الباب عند ذوي الألباب . هـ.

[تحفّظ الأمّة الايطالية على شرف عائلة ملكهم]

ومع الحال المنتشرة عند الأورباويين في أنسابهم رأيت عجبا في خصوص تحفّظ الأمّة [157] الإيطاليانية على شرف عائلة ملكهم التي مضت عليها مئات السنين في الاستلاء على إيطاليا وذلك أنّي كنت عشية متنزّها في لاردينسة منزه قرنة مع رفيق لي فاعترضتنا امرأة متعلّقة بزوجها يظهر من حالهما أنّهما من أواسط الناس ووقفا في الطريق لمكالمة رفيقي وبعد مفارقتهما أخبرني رفيقي أنّ المرأة بنت فكتور إيمانويل (1) فهي أخت الملك المتولي هامبريتو (2) ووالدها هو الملك المتوفّ . فتعجّبت من حالتها . فقال لي : لكنها

[157]

(1) فكتور إيمانويل الثاني : Victor Emmanuel II ملك سردانيا 1849م. ثم ملك ايطاليا 1861م. ولد في تورينو Turin سنة 1820م. ومات بروما سنة 1878م. وفي عهده تمت الوحدة الايطالية .

(2) هامبريتو الأول : Humberto 1er ملك ايطاليا (1878م.) ولد في تورينو. سنة 1844م. واغتيل في مونزه Monza سنة 1900م.

تسمّى بنت يده اليسرى وهي ليست تعدّ في عائلة الملك فزادني تعجّبا مع كونها بنت ملك وأخت ملك حتى لم يبق عندي شك في أنها بنت زنى . فأخبرني رفيقي بأنّ فكتور تعلّق باحدى خادماته فتعشّقها وتزوّج بها تزوّجا صحيحا عندهم وأولدها أولادا ذكورا وإناثا . وكان يقول لابنه وارث الملك من بعده : إنّ إخوتك هؤلاء هم أحبّ إليّ منك ومن إخوتك لأنّهم أبناء القلب . يعني بذلك أنّ تعلّقه بأمّهم كان عن عشق لا مجرّد تزوّج . لكن بعد وفاته تكلّمت الأمّة في شأن عدّ أبناء الخادمة من عائلة الملك وأظهروا التأنّف من ذلك نظرا لرداءة أصل أمّهم ورأوا أنّ ذلك مخلّ بشرف عائلة ملكهم التي يلزمهم تعظيم شأنها ورفع مقام جميع أعضائها وبعد طول المفاوضات في شأن ذلك كان الذي أرسى عليه الحال أنّ أبناء الخادمة لثبوت تزوّج أمّهم بأبيهم التزوّج الصحيح لهم حقّ الانتساب إلى أبيهم فكتور إيمانوييل من غير أن يلقّبوه بلقب الملك كما أنّهم لا يتلقّبون بلقب عائلة الملك حيث إنّ أمر الملك من حقوق الأمّة ويبقى هامبريتو وإخوته هم الذين لهم حقّ شرف لقب الملك . وبذلك خرجت أبناء الخادمة الذين منهم تلك المرأة التي لاقيناها مخرج عامّة الطليانيين في أحوال ملكهم وملوكهم وفي ذلك تربية للمتولّي فيما بعد المشفق على أبنائه حتّى لا يغترّ بحالة تملّكه فيستعمل [158] فيها شهوته كيفما كانت وتكون آثارها كلاّ على عاتق الأمّة من بعده وليس وراء هاته الغاية من غاية مع ما قرّرناه آنفا من حال الأورباويين وتعوّدهم بما يميت الغيرة وكثرة البغايا وانتشار أبناء الطبيعة فيما بينهم . [158]

[مسألة إسقاط الجنين في القوانين الأوروبية]

هذا ومع كون البغي منهم إذا حملت يعروها حياء أو خجل لا تسوّغ لها قوانينهم إسقاط الجنين وان كان يقع أحيانا عن غاية من الإخفاء الذي لا يمكن للحكومة أن تطّلع عليه . وفي القوانين الأورباوية منع كلّي من تعاطي إسقاط

الجنين لأنّ عمل الوسائل لمثل ذلك يمنع من ولادة الجنين حيّا وموتُه يعود بالمضرّة على الام فتكون جناية مزدوجة حيث إنّ الغرضَ الأوّل قتل الولد فيتولّد عنه الإضرار بالأمّ . وبذلك كانت أفكار الأطبّاء هي إقامة قوانين صارمة لهذه الجريمة وطلبوا حمل الناس على اعتقاد أنّ الحياة تدخل الجنين من حين الحمل كما هو مختار محققي المتأخّرين منهم ليعلموا أنهم يتعاطون بذلك قتل الحيّ وبذلك يعدلون عمّا هو مقرّر عندهم الآن من أن الجريمة تتوقّف على حركة الجنين حتّى تحصل بذلك صيانة الأمّ مع صيانة الولد .

وقد كان قانون انكلتيرة في العهد القديم يعتبر تعمّد إسقاط الجنين قتلا . أمّا شريعة موسى فهي لزوم الغرم لمن تسبّب وهذا نصّ عبارة التوراة في الجزء الحادي والعشرين : وإذا اختصم قوم فصدموا امرأة حاملا فسقط للجنين ولم تحصل أذيّة يغرم الصادم كما يفرض عليه زوج المرأة ويؤدي عن يد القضاة . وان حصلت أذيّة تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنّا بسنّ ويدًا بيد ورجلا برجل وكيّا بكيّ وجرحا بجرح ورضّى برضّى (1) .

[حكم الشريعة الاسلامية في المسألة]

وأمّا حكم الشريعة الاسلاميّة أعلى الله منارها في ذلك فذكر ابن عابدين في ردّ المحتار حاشية الدرّ المختار في آخر باب الحيض عن الشهر قال : وعبارته في عقد الفرائد : قالوا : يباح لها أي للمرأة أن تعالج في [159] استنزال الدمّ وما دام الحمل مضغة أو علقة ولم يخلق له عضو وقدّروا تلك المدّة بمائة وعشرين يوما وإنما أباحوا ذلك لأنّه ليس بآدمي . هـ. (2)

[159]

(1) راجع : الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد (ترجمة عربية من اللغات الاصلية وهي اللغة العبرانية واللغة الكلدانية واللغة اليونانية) طبعة أوكسفورد سنة 1871 . ص : 121—خروج 20—21 الاصحاح الحادي والعشرون : واذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يغرم كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة وان حصلت اذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكي وجرحا بجرح ورضا برضى » .

(2) انظر أعلاه صفحة 59 ، تعليق عدد 2 .

ولأصحاب الحواشي من السادة الحنفية هنا إشكالات وأجوبة مبيّنة على أمد تخلّق الجنين وحاصل مدار المذهب أنّ الإسقاط قبل نفخ الروح جائز وبعده ممنوع . وسيأتي تحقيق لأمر ذلك (1) ونقل الحريري في درّة الغواص (2) : أنّ الصحابة لمّا اختلفوا في الموؤودة قال لهم عليّ رضي الله عنه : إنّها لا تكون موؤودة حتّى تأتي عليها الشارات السبع . — فقال له عمر رضي الله عنه : صدقت أطال الله بقاءك . وكان أوّل من نطق بهذا الدعاء . وأراد علي رضي الله عنه بالشارات السبع طبقات الخلق السبع المبيّنة في قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » (3) فعنى سبحانه وتعالى ولادته حيّا . فأشار عليّ رضي الله عنه إلى أنّه إذا استهلّ بعد الولادة ثمّ دُفِنَ فقد وُئِد وقصد بذلك أن يدفع قول من توهّم أنّ الحامل إذا أسقطت جنينها بالتداوي فقد وأدته .

وأمّا مذهب المالكية فالمنع في جميع أطوار الحمل . قال المتيطي : والغرة (4) تجب في الجنين ذكرًا كان أو أنثى طُرِحَ علقةً أو مضغة أو تامّ الخلقة إلا أنّه لم يستهلّ . فأما إن كان دمًا مجتمعا فقال في المدوّنة : فيه الغرة وقال أشهب (5) : لا شيء فيه إذا كان دمًا بخلاف كونه علقة . هـ. وقيّد ابن القاسم الدم المجتمع بما إذا كان بحيث إذا صُبّ عليه الماءُ الحارّ لا يذوب

---

(1) انظر أسفله صفحة 170 وما بعدها .

(2) درة الغواص في أوهام الخواص لأبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان بن الحريري البصري . شاعر لغوي مشهور بمقاماته وله رسائل منها السينية والشينية وديوان شعر وأرجوزة في النحو = ملحة الأعراب . ولد سنة 1054/446 راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ج 3 ص : 227—228 .

(3) القرآن : سورة المؤمنون 23 ، الآيات : 12 ، 13 ، 14 .

(4) كذا بالنص ولعل المقصود القرة بمعنى التتبع .

(5) أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي المطوي العامري الجعدي ولد 762/145 وتوفي 819/204 . راجع : الزركلي ، الاعلام ، ج 1 ، ص 335 .

وهو الجنين الذي يَثبُتُ به الحملُ حتّى تحلّ بوضعه المعتدّة ويَثْبُتَ لها به أنّها أمّ ولد . وأما الدم المجتمع الذي إذا صُبَّ عليه الماءُ الحارُّ ذاب فلا شيء فيه عند ابن القاسم (1) لأنّه لا [160] يترتّب عليه حكم من الأحكام . وعبارة أبي الضياء في مختصره (2) وفي الجنين وإن علقة عشر أمه أو غرة تساويه . وعمّمَ شرّاحه في الجنين سواء كانَ من زوج حرّ أو رقيق أو زنا كما عمّموا في وجوب الغرة فقالوا ولو كان الجاني الأب أو الأمّ بأن تضرب بطنها أو تشرب ما تُلقيه به أو تشمّ رائحة فتلقيه بها حال تقصيرها عند الشمّ بتدارك أكل ما شمّته . وعليها الطلب عند شمّها سمكا مقليا أو جبنا أو نحو ذلك فإنْ لم تطلب ولم يعلموا فعليها الغرة لتقصيرها وتسبّبها فإن طلبت ولم يعطوها ضمنوا علموا بحملها أم لا وكذا لو علموا به وبان ريح الطعام أو السمك يسقطها وان لم تطلب . ذكره الشيخ عبد الباقي (3) وسلّمه حواشيه .

[160]

معرض تاريخ الطبيعة

هو محلّ اجتماع ما في الأرض من معادن وحيوانات ويسمّى مُيزَايُود يِسْتُوريا نَاتُورَالِيي أمّا الحيوانات فكلّها بريّة وبحريّة مُبلسمة(4) بما حفظ صورتها على حالتها الأولى . وممّا يستحقّ الإفراد بالذكر هناك من طبيعة الأرض صخرة منفلقة نصفين وفي وسطها ثعبان صغير ميّت ولا يوجد فيها منفذ يدخل منه إليها فلا يدرى كيف كانت نشأته هنالك « وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » (5) .

(1) أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم بن خالد بن جناده العتّي ، تتلمذ للامام مالك مدة عشر سنين ، توفي بمصر سنة 806/191 . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 2 ص 840) .

(2) أبو الضياء هو خليل بن اسحاق بن موسى بن شعيب أبو المودة ضياء الدين المشهور بابن الجندي وهو صاحب المختصر في الفقه المالكي ، توفي بالقاهرة سنة 1374/776 . (راجع الزركلي ، الاعلام ، ج 2 ص 364) انظر أعلاه صفحة 61 تعليق 3 .

(3) هو الشيخ عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني ، توفي 1688/1099 . انظر أعلاه ص 61 .

(4) بالنص : مبلصمة .

(5) القرآن : سورة النحل ، 16 ، الآية : 8 .

ولما أخبرت بخبر هذه العجيبة بعض أحبّتي تأوّل الأمر بأنّ الحجارة تحجرت على الثعبان وكان ترابا . وأخبرني أنّه كان رأى نواة زيتون في وسط حجارة تحجّرت عليه . وهو كلام قريب لولا أنّ التحجّر يستدعي طول المدّة التي يصير فيها التراب حجرا وهذه المدّة لا محالة يصير فيها الحيوان ترابا والحال أني رأيت بعين بصري ثوب الثعبان ملتصقا في كلّ من نصفي الحجارة وهي حجارة طبيعية من نوع الصوان ولو كانت متحجّرة كانوا هم أعرف بها ولم تبق غرابة [161] تستدعي وضعها في ذلك المحلّ مع أنّ موضعه حفظ أجزاء الأرض المعدنية لا مطلق أحجارها وهنالك من جميع المعادن على اختلاف الأحجار بالنسبة إليها فمن الأحجار ما يوجد فيه معدن الذهب والفضّة أو الرصاص أو التوتيا أو السيمان أو الكبريت أو الاثمد أو الحديد أو غيره بائنا في خلال الحجارة ومنها ما لا يظهر فيه أثر المعدن وإنّما يعرفه أرباب الصناعة .

أما الحيوانات فرأيت فيه ما لم يكن لي فيه سابق علم مـن الوحوش والطيور والأنعام . وأعجب ما رأيت من الوحوش نوعا من القردة شبه زنجي في جميع شمائله سوى أنّ بشرته كلّها عليها شعر مثل المعز عدا وجهه من حيوانات دواخل إفريقيا وبعضهم يسمّيه الغول (1) وهو مصداق الخلقة المنعدمة الآن من طبيعة خلقة الإنسان على رأي قسم من علماء الطبيعة القائلين إنّ خلقة الانسان لم تكن دفعية وإنّما هي تدريجية في الحيوانية إلى أن وصلت إلى هاته الغاية وزعموا أنّ القرد هو أصل حيوانية الآدمي وكان تنقّله إلى الإنسانية بخلقة متوسّطة بين القرد والإنسان هي للإنسان أقرب ومنها كان التنقّل إلى طور الانسانيّة غير أنّ هاته الخلقة انعدمت الآن مـن الدنيا ومن أفرادها الغول المذكور إذ هو إنسان زنجي غير أنّه مشعرّ الجسد غير الوجه والاغتيال الحيواني سجيّته . ولابن خلدون في تدرّج الخلقة من مطلق الجسمية

(1) الغول : حيوان لا وجود له . والمقصود هنا الحيوان المسمى : قوريلا : Gorille

إلى النموّ ثمّ إلى ما هو قريب من الحيوانية كبعض نبات البحر الذي هو جسم نباتي وجرمه حيواني ويتغذى غذاء حيوانيا ثم إلى الحيوانية ثمّ إلى الانسانية كلام طويل الذيل في مقدّمة تاريخه (1) .

ومما رأيت هنالك الزبيرا (2) وهي حيوان بين الحمار والفرس جميعه مخطط بين أبيض وأحمر جميل المنظر من ناحية رأس الرجاء الصالح . والوعل وبقر الوحش . ومنها نوع من الطاوس لا يزيد حجمه على السمانة (3) طول ذنبه [162] أكثر من ميترو ونوع من الإوزّ عظيم ومنقاره مستطيل بنحو خمسة عشر صانتميتر وبأسفله من جنبيه جناحان عليهما ريش متّصلان بعنقه . وذكر لنا صاحب المحلّ أنّ هذا النوع أصله من ترنسيليانية وهي كونتية (4) جنوبية غربية من كرولينا الشمالية بأميريكا ، وقد انقطع الآن هذا الإوز من أميريكا . ومن ذلك نوع من الهرّ البرّي لا يأكل اليربوع إلاّ مذكّى بحيث أنّه واضع يده على عنق يربوع وقد ذبحه بمخلب يده الأخرى وهي ملطخة بالدم والدم ساكب من مذبح اليربوع والهرّ قائم عليه على تلك الهيأة . ومنها سمكة سوداء يبلغ طولها نحو زوج ميترو وأعجب أنواع السمك نوع ينسب إلى كانداترة (5) هو شبه القبّة المتساوية التحديب محمرّ اللون يبلغ قطره نحو الثلاثين صنتيمتر ومنه الأملس ومنه ما هو مثل القنفد مشائك الظهر .

---

(1) انظر : ابن خلدون : المقدمة : الباب الأول من الكتاب الأول في العمران البشري : حقيقة النبوة ... (ص : 96 ... ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لان يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا) .

(2) هو حمار الزرد .

(3) السمانة أو السماني : نوع من الطيور القواطع .

(4) الكونتية لفظة دخيلة ايطالية ومعربها مقاطعة .

(5) لعلها بلاد كاندا .

أمّا أنواع العصافير والحمام والبطّ والخفافيش فهي مئات إن لم نبالغ بأنها آلاف . وفيها عصفور لم نر مثله في كثرة الألوان التي احتوى عليها مع صغر حجمه يسمّونه عصفور الجنّة . وهنالك عصافير متناهية في الكبر والصغر إلى ما هو غير متعارف عندنا . كما هنالك من الخفافيش البالغة في الكبر إلى مقدار السمان . وكذلك أنواع الذباب التي منها ما يقرب من الخنفسة . ومن الثعابين ما هو عظيم جدّا إلى غير ذلك مما يكفيني عنه أن نقول إنّ جميع ما وجد من الحيوان البرّي والبحري هو قائم الذات بذلك المحلّ .

ورأيت هنالك خنزيرا كان اصطاده ملك إيطاليا فيكتور إيمانوييل بنفسه وضربه في كتفه الأيسر فخرجت الرصاصة من الكتف الأيمن ومات فحفظ هنالك تذكارا لطراد الملك . وهو كبير جدّا قائم الصورة يظهر دم شجته بمنظره الأوّل في صندوق من بلّور (1) وهكذا جميع الحيوانات في خزائن البلّور بحيث أنّ ذلك المحلّ الذي استغرقت أكثر من ساعة في [163] طوافه [163] جميعه محاط بخزائن من بلور وفي وسطه صناديق جميعها بلور وموائد لها بيوت مغطاة بالبلور . وإحسانُ التفرج فيه فرنكات معدودة للخادم المعرّف .

المكتب الطبي [في بيزة]

لما كانت رغبتي الكليّة في بيزة سببها الوحيد هو اشتهار البلد بالطبّ كنت عند دخولها باحثا عن المكتب الطبّي بها . غير أنّ وصولي إليه كان بعد الزوال وهو وقت راحة التلامذة للأكل لكن على كلّ حال عند دخولنا إليه تلقّانا المكلّفون هنالك أحسن تلقّ وفتحوا لنا جميع أقسامه وأعلمونا بما يزاولونه في كلّ قسم منها . وهو مكتب رحب الوسط مربّع الأضلاع تدور به في أضلاعه الأربع أقواس عليها سقف ومن فوقها طبقة ثانية معدّة لسكن المقيمين والمكلّفين . وأقسام التعلّم في أضلاع مربّع وسط المكتب وأغلبها له

---

(1) بالنص : بلار وهي لفظة عامية تونسية .

منافذ إلى غيره من الأقسام . وهنالك أقسام ابتدائية متوسّطة ومنتهية وللمعلّم في آخر البيت اصطبة مرتفعة ومقاعد التلاميذ في تلك الأقسام مختلفة فمنها ما اصطاف كراسي اللوح فيه على عرض البيت تجاه المعلّم وَأمَامَ صَفّ التلاميذ طاولة الكتابة على طول كرسي اللوح صفًا وراء صفّ إلى آخر البيت . ومنها ما اصطاف الكراسي اللوح وطاولاتها هنالك على طول البيت في ميمنة المعلّم وميسرته .

وبعد أن نظرنا أقسامه وأردنا الخروج عرض علينا ناظر المكتب عند حضوره أن نتَأخّرَ لنحضر موكب إعطاء الشهادة لتلميذ هنالك استحقّ الإجازة . فدخلنا إلى بيت النظارة وهو بيت كبير منقسم نصفين نصفه مصطبة به كراسي اللوح المتدرّجة الارتفاع إلى آخر البيت وهو النصف الأيسر للداخل من الباب . وأما النصف الأيمن ففي صدره وميمنته طاولتا كتابة ودائرة اصطفات مكسوة بالملف . وهنالك تماثيل مجسّمة وصور معلّقة ومن تلك التماثيل تمثال أندريا فيزليني (1) الطبيب [164] الطلياني المكتشف الأول لدورة الدم . وقد كان العلماء ينسبون اكتشاف ذلك إلى هرفي الانقليزي مدّة قرنين إلى أن فحص أحد علماء جنَوه (2) وحقّق أنه أندريا المذكور فأقيمت له نصب في رومية وتذكار في مدرسة بيزة التي علّم فيها قبل صيرورته طبيبا للبابا اكليمندس الثامن (3) فجلسنا هنالك ننتظر إلى أن حضر الوقت ففتح باب آخر من صدر النصف الأيمن بعد أن دخل عدد وافر من تلامذة القسم الانتهائي ووقفوا فيما يلي باب البيت على طول ذلك الحائط .

(1) أندريا فيزليني : André Vésale هو أندري فيزال (1514–1564م.) ولد في بروسل وتوفي في زنطه . من علماء التشريح في القرن السادس عشر الميلادي . من أوائل الذين تعاطوا فن تشريح الجسم البشري وثاروا على مذهب جالينوس في الطب . وقد درس فيزال بمدينة بادوا Padoue بايطاليا الشمالية قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره وألف هنالك كتابه : هيكل الجسم البشري .

(2) أما هرفي : فهو وليام هرفي William Harvey طبيب انقليزي (1578م.–1657م.) شهير باكتشافه دورة الدم بالجسم البشري وهذا ما أثبته العلم خلافا لرواية محمد السنوسي . انظر : Katherine B. Shippen. *Les grandes heures de la Médecine,* Nouveaux Horizons, 1964, pp. 54-62).

(3) كان بابا من سنة 1592م. إلى سنة 1605م.

وكنت جالسا على الاصطفة التي على طول الحائط الذي أمام باب (1) البيت فإذا الجمع خرج من مفتح الصدر فقام جمع المعلّمين وراء الطاولة التي في الصدر وجلس الناظر في مجلسه وأمامه طاولة الميمنة وجلس إلى جنبه كاتبه وكان مجلسي قريبا منه حيث إنّ الاصطفة واحدة وهنالك أفراد قليلون من الأعيان . وبعد ان أخذ كلّ واحد مقرّه بادر أحد المعلّمين فقرأ شهادة استحقاق التلميذ للإجازة وجميع المعلمين والتلاميذ قائمون . وبعد فراغه قام ناظر المدرسة وأخرج الاجازة فقرأها بنفسه . وعند فراغه من قراءتها تقدّم التلميذ صاحبها وتسلّمها من يده وخرج طبيبا . وانفضّ الموكب بتهنئة التلميذ بهذا الفوز الذي ناله في أقرانه وباهى فيهم بإجازته وبرهانه .

معرض التشريح

اعلم أنّ أرسطو (2) هو أوّل من اعتنى بالبحث عن الأعضاء الداخلية في كثير من الحيوانات فكان هو صاحب اليد في التشريح الحيواني . وأمّا التشريح البشري فاليد فيه لبطليموس (3) الأوّل في مدرسته الكبرى التي أنشأها بمصر وجمع فيها مشاهير المشرّحين في عصره وأذن بشقّ أجساد المجرمين أحياء لنقع معاينة باطنها . وهنالك اكتشفت دقائق كثيرة . قيل إنه شرّح سبعمائة جثة بشرية [165] وتقدّم التشريح بعد ذلك غير أنّه في القرون المتوسّطة خرج هذا العلم من أيدي النصارى وتلقّفته أيدي العرب عند تقدّم الإسلام في المعارف الطبّية فرفعوا منارها إلى الغاية المخلّدة في بطون الكتب . وبما أنّ ديانتنا الإسلامية تمنع تشريح الأجسام البشريّة كان علماء التشريح من المسلمين

[165]

---

(1) بالنص : بيت البيت والصواب لحسن السياق : باب البيت .

(2) أرسطو : هو الفيلسوف اليوناني الشهير في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح (384م–322)قم.) راجع : دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج 2 ص 651–654 .

(3) بطليموس الأول : ملك مصر من سنة 323 إلى سنة 282 قبل الميلاد وهو مؤسس مكتبة الاسكندرية .

في ذلك العصر يعتمدون على كتب جالينوس (1) وغيره مما ترجموه من اليوناني إلى العربي . وعنهم أخذ ذلك علماء الطليان والاسبانيول إلى أوائل القرن الرابع عشر جاهر معلّم التشريح في إيطاليا بتشريح جسدين بشريّين ونشر رسالة تداولتها مدارس إيطاليا (2) .

ثمّ في القرن السادس عشر صارت الحكومة تدفع إلى المدارس من جثث المقتولين عددا معلوما غير أنّه لمّا لم يكفهم صار علماء المدارس يجلبون إليها ما يلزمهم خفية والدولة تغضّ عنهم النظر في ذلك ثمّ أباحت الدولة في هذا القرن كلّ من يموت في المستشفيات وليس له أهل يطلبونه . وجرى ذلك في جميع مدارس أوروبا وأميريكا في هذا العصر . واتّسع بسبب ذلك نطاق علم التشريح عن مشاهدة حتّى انعقدت جمعية سنة 1877/1876 من الأطباء وغيرهم غريبة في بابها لا يقبل فيها عضو حتّى يكتب بالتعهّد بأنّه تُعطى جثّته بعد موته لتشقّ وتُكشف علّة موته ليُعلَم سببُ موته من اختلال بنيته أو بوراثة من آبائه وأن يُعْطَى دماغُه وجمجمتُه لمجمع الجثث البشريّة لتُستَعمَل في العلم الذي كان يشتغل به في حياته . وقصدوا بذلك ترقية المعارف العقلية بفحص أدمغة أهل العلم والسياسة والاختراع . وهذه واسطة عجيبة لترقي التشريح .

ولا بأس أن نلمّ بالتشريح هنا فنقول : إنّه عندهم منقسم إلى قسمين : تشريح المقابلة ، والتشريح البشري . وأوّلهما يتعلّق بالحيوانات ومقابلة أجزائها بالجسد البشري . والثاني يتعلّق بوصف الأجزاء التي يتركّب منها [166] جسد الانسان وعلائقه وينقسم خمسة أقسام . وهي التشريح الجراحي والوصفي والعامّ والمكريسكوبي والمدقّق . فالأوّل يبحث عن علاقات الأعضاء ببعضها وبه يعلم الجرّاح ما يمكن قطعه وما في قطعه خطر على الحياة . والثاني يبحث

[166]

(1) جالينوس : هو طبيب يوناني له اكتشافات خطيرة في عالم التشريح وقد ائتم به أئمة أطباء العرب « ولد سنة 131م. وتوفي حوالي سنة 210م. »

(2) لعلها رسالة فيسال Vésale فيكون حدوث هذا الأمر في أوائل القرن 15 لا القرن 14 .

عمّا يتخلّل البنية وما يقوم بوظائفها كعظام الهيكل والأعصاب والأوعية والجهازات . والثالث يبحث عن الأنسجة التي تتألّف منها المفردات أو تجتمع فيها المجامع المختلفة كطبقات المعدة الثلاث المتميزة . والرابع والخامس يستعينان بالكيمياء لأنّهما يبحثان عن التحليلات والجواهر المفردة التي يتركّب الجسم منها ككريات الدم وأجزاء الأنسجة ونحو ذلك. ولم ينتظم أمر هذا القسم إلاّ بعد إصلاح المكريسكوب المزدوج سنة 1832 وبما انتشر من التشريح البشري تحفّظ أربابه على أشياء من القسم الوصفي ويسمّى أيضا التشريح الخاصّ لاختصاصه بما يقوم به الهيكل الإنساني وأفردوا له محلاّت تعتني الدولة بإقامتها على أكمل وجه . ومن أشهرها في إيطاليا هذا المحلّ المقام في بيزة واسمه موزايو أنتروكو (1) أي معرض الأبدان المشرّحة وهو محلّ ضخم البناء ذو طبقات أسفله مكتب وأعلاه مقسّم إلى بيوت كبيرة مستطيلة متداخلة بمنافذ إلى بعضها جميعها محاط بخزائن تحتوي على الهياكل الإنسانية على اختلاف أنواعها مجرّدة من اللحم والإمعاء فمنها الهياكل العظامية بحيث انّ الإنسان قائم من عظام مجرّدة من رأسه إلى قدمه منها تعرف عظميته . ومنها هياكل فيها جميع أعصابها تعرف بها عصبيتها . ومنها ذات العروق وهي على نوعين منها ما أبقيت عروقه ممتدّة على الهيكل جافّة بالبتة لا أثر للدم فيها ولا يعلم مقدار غلظها . ومنها هياكل عروقها منتفخة على أصل خلقته محمرّة بصبغ دمويّ ممتدّة في جميع الهيكل على تلك الحالة متفرّعة عن الأوداج الغليظة المتواصلة مع القلب .

[167] ورأيت هنالك زنجيا (مرّت) عليه سنون متطاولة وهو [167] على حالته الأولى لم يتغيّر إلاّ بسقوط يسير من شعر رأسه ولحيته . وهنالك أقسام مختصّة ببعض الأعضاء العظامية وأهمّها قسم الأدمغة الصحيحة والمنفلقة وبهيأتها يشرحون إدراكات أصحابها كما هنالك قسم يحوي الأمخاخ الرأسية المختلفة الكبر والصغر . ومنها قسم يختصّ ببعض الأعصاب على اختلافها في أفراد

---

(1) كذا بالنص .

بني آدم . وهنالك أقسام تختصّ ببعض الأعضاء المُهِمّة والحواسّ . ولما كانت العين والقلب كلاهما صغير الحجم مع أنّه يحوي دقائق عجيبة في التركيب لا يمكن الاطّلاع عليها بمجرّد النظر إليها ورأيت صورتهما موكبة من أجزاء نسجية ملونة بألوان الطبقات التي تركّبت منها العين على شكل كرة يبلغ قطرها أكثر من نصف ميترو ومنقسمة نصفين يظهر منها باطن التركيب لكلّ ناظر وكذلك رأيت الإمْعاء الخادمة للجسم بأشكالها لتعلم بها كيفية الارتباط بينها وأفرد منها القلب الذي به صلاح الجسد وفساده . ولأهمية وظيفته نشرح هنا شيئا منها على ما حصل التعرّف به وذلك أنّ القلب من الأعضاء المختصّة بالوظائف الغذائية وهو مركز الجهاز الدوري ولهذا الجهاز دورتان متميزتان إحداهما قصيرة تسير من القلب إلى الرئتين ثمّ تعود إليه . والثانية طويلة تسير من القلب إلى كل أقسام الجسم ثمّ تعود إليه . ولذلك سمّيت الأولى بالدورة الرئوية والثانية بالدورة العامّة . ثم إنّ الدم يسير من التجويف الأيمن للقلب أقتم غير خالص فتحمله الشرايين الرئوية إلى الرئتين وهناك أوعية دم شعرية دقيقة معرضة لماسته الهواء فتمتصّ منه الأوكسوجين وأفراز غاز الحامض الكربونيك . والغرض من امتصاص الأوّل تجديد الحياة ومن أفراز الثاني تخلص الدم من غاز سام ومادّة فضلية ومتى نقي الدم وتجدّد في الرئة يرجع إلى الجانب الأيسر من القلب ويكون بذلك قد دار دورة كاملة في منطقة القلب [168] والرئة فقط للغرض المذكور وحده ثمّ يدفع من تجويف القلب الأيسر في الأورطي . وجميع شرايين الجسد إلى كلّ من الأعضاء ليغذّيها والأوعية الشعرية متفرّعة تفرّعا دقيقا في كلّ ونسيج كلّ قسم يتناول من الدم جواهره المغذّية ويدفع إلى الأوردة بدل الغذاء الذي حمله إليه الشرايين . والحاصل أنّ جهاز الشرايين العامّ يحمل دما نقيّا إلى جميع أجزاء الجسد وجهاز الأوْرِدَة العامّ يرجع بالدم غير المنقّى من جميع الأجزاء المذكورة إلى القلب فيدفعه إلى الرئة لتنقّيه وبذلك تستمرّ الدورة والتجديد وبالاكتشاف على هاته الحركة تعاطى الأطباء تغيير الدم للجسد إن

فسد وذلك بأخذالدم من جهاز الشرايين العامّ من الجدي مثلا إلى جهاز الأوردة العامّ من الإنسان بعد أن يؤخذ من دمه بالفصد قدر ما يمكن إخراجه .

[حضور المؤلّف بتونس عملية تغيير الدم للجسد]

وقد كنت حضرت هذا العمل بتونس (1) في كلب فصده الطبيب من جهاز الأوردة العامّ في عنقه إلى أن استفرغ ولم يبق به من الدم إلا مقدار الضروري لبقاء النفس بعد أن عدم الحركة ثم أتى الطبيب بجدع شاة وفصده من جهاز الشرايين العامّ ووضع فيه أنبوبة تتّصل بجهاز أوردة الكلب يجري فيها الدم من الجدع إلى الكلب وحدثت بسببه الحركة في الكلب شيئًا فشيئًا إلى أن استكمل ما يمكنه معه القيام بنفسه وهو مقدار لم يضعف الجدع بفصده وعند ذلك خاط الطبيب الكلّ منهما وأطلقهما بعد الربط فإذا كلّ منهما ناهض على أصل حالته إلا أنّ الكلب كان به ضعف في مشيته بسبب قلّة الدم الذي أخذه بالنسبة إلى ما فصد منه .

[ما رآه المؤلّف في محلّ بيزة من أطوار الجنين]

وفي محلّ بيزة رأيت أيضا أطوار الجنين والإسقاطات محفوظة من مبدأ النطفة إلى استكمال أمد الحمل كلّها محفوظة في مياه كيماوية وسط زجاجات على أكمل صورة . فالطور الأول فيما رأيته جسم مخاطي مستدير أبيض

---

(1) لقد كان للشيخ محمد السنوسي نشاط بالغ في مجالات مختلفة منها أنه كان اشتغل كاتبا بادارة جمعية الأوقاف بتونس من ربيع الأول سنة 1291/أفريل 1874 إلى شعبان 1302/ماي 1885 . والملاحظ انه كان متفتحا على العلوم الصحيحة متعطشا إلى المعرفة ، ولعله حضر هذا العمل الذي يشير إليه في النص بالمستشفى الصادقي بتونس الذي تم إنشاؤه بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 25 محرم سنة 20/1296 جانفي 1879 ، وهو أمر احتوى على 41 فصلا نص الفصل الأول على أن العقار الهام الذي هو ملك للدولة والكائن بسوق البشامقة بتونس قد عين ليصير مستشفى وانه سيهيأ لذلك الغرض ونص الفصل الأخير على أن مهمة تنفيذ هذا الأمر العلي أسندت إلى ادارة جمعية الأوقاف (راجع : Bombard (Maurice), *op. cit.*, p. 23.

راجع أيضا : *Rapport de la Commission d'Etudes Edonomiques et Financières* l. III, Tunis 1932, p. 155.

[169] خال من الأعضاء لا يتميّز فيه شيء [169] هذا صورته في الشهر الأول . الطور الثاني عند استكمال الأربعين يوما يكون في حجم نملة كبيرة يمتاز منها بالرأس وبعض آثار من الأعضاء . الطور الثالث إلى الخمسين يومـا يكون في حجم نحلة . الطور الرابع عند استكمال الشهرين يكون طوله نحو ثلاثة صنتيميتر ورأسه كنصف بدنه حجما ولا تتميّز عنقه ولا وجهه . الطور الخامس في الشهر الثالث يكون طوله نحو الخمسة عشر صنتيميتر وتظهر حواجبه ورسم جبهته وأنفه وأظافره . الطور السادس في الشهر الرابع يكون طوله نحو عشرين صنتيميتر ويظهر وبر خفيف في رأسه وتزيد أعضاؤه البطنية عن أعضائه الصدرية وتتضح أظافره أواخر الشهر الخامس . الطـور السابع في الشهر السادس يكون طوله نحو ثلاثين صنتيميتر وفمه مطبق وأظافره تتصلّب . الطـور الثامـن في الشهـر السابع يكون طوله نحـو ثمانية وثلاثين صنتيميتر ويقلّ احمرار جلده ويتكاثف ويكون مدهونا بمادّة دهنية دسمة ملتصقة ويطول شعر رأسه ويميل إلى الشقرة وتتغيّب جمجمته في الوسط . الطور التاسع في الشهر الثامن يزيد غلظا أكثر مما يزيد طولا ويكون طوله نحـو الأربعين صنتيميتر ويساوي فكّه الأسفل فكّه الأعلى طولا وتقوى حركته . الطور العاشر في الشهر التاسع يكون طوله من الخمسين إلى الستّين صنتيميتر ويتمّ عظمه ويضخم رأسه ، ويكثف شعره ويطول ويكون القصّ قصيرا والبطن متّسعا مستديرا بارزا نحو السرّة والحوض ضيّق قليل النموّ وعند ذلك يبتدىء الجهاز الهضمـي والرئة والقلب بوظائف الحياة الخارجية . فهاته الأطوار العشرة محفوظة في قناني بذلك المحَلّ منَ الإسقاطات وعلى كلّ قنينة تذكرة بها أمَد ذلك الطور حين الإسقاط .

[170] وبما أن مسألة تخلّق الجنين وتحرّكه من المسائل المهمّة [170] المحتاجة للكشف رأيت أن ألـمّ بذلك هنا على ما استفدته من تقريرات بعض مهـرة الأطبّاء وما رأيته في الكتب العربية (1) . وذلك أن نطفة الرجل تتركّب من

(1) انظر أعلاه صفحة 159 .

حمات (كذا) مستطيلة لها شبه رأس أعرض من الحلمة تصحبها عند النزول في الرحم حركة تطلّب بها مستقرّا فإذا أراد الله التكوين وجدت في الرحم من أوعية مجتمع دم الحيض شبه البيضة من الرحم وتستقرّ بها وما سواها من بقية النطفة ينطرح . وهذا التقرير الطبي يؤيده قوله تعالى «وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ» (1) ثم بعد استقرار ما أراد الله قراره في الرحم من النطفة للتخلّق يمتزج المستقرّ في تلك البيضة بها امتزاجا كلّيا وتنعقد بالحرارة انعقاد الحليب إذا وقعت فيه الأنفحة . ثم تكون علقة 33 يوما . ثم تظهر فيها حرارة اعتدال مزاجها ويعرض لها شبه اختلاج وارتعاش وبعد تمام الشهرين تصير مضغة حمراء . وفي الشهر الرابع يتمّ اختلاط الأجزاء لتركيب البنية فتنتفش الصورة وتظهر أشكال الأعضاء وتركب المفاصل وتنتفش الأعصاب وتمتدّ العروق .

وعند ذلك ينفخ فيها الروح فتسري فيها النفس الحيوانية . ولا يزال هذا حالها حتّى إذا دخلت في الشهر الخامس استتمّت الخلقة وظهرت صورة الأعضاء رسم العينين وشقّ المنخرين وفي السادس يكثر تحرّكه برجليه ويديه ويفتح فاه ويحرّك لسانه وشفتيه وينام أحيانا . وفي الشهر السابع تسمن جثته وتشتدّ أعضاؤه وتتصلّب مفاصله وتقوى حركته ويتطلّب الخروج حيث تمّ خلقه فإن لم يخرج ففي الشهر الثامن يستولي عليه الثقل والتعب لكثرة اضطرابه في طلب الخروج في الشهر السابع ويكون شبه مريض نحو الأربعين يوما فإن انضمّ إليه تعب الولادة [171] في الثامن فقلما يعيش وان عاش كان قليل الحركة وربّما لا تطول حياته فإذا دخل في الشهر التاسع اعتدل مزاجه وقوي روحه فيه وظهرت أفعال النفس الحيوانية . ولا يخفى أنّ هذا التقرير يجري عليه حديث : «إنّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُم يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُم يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُم يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» . إذ ظاهر الحديث أنّ الأطوار الثلاثة كلّ طور منها يكون أربعين يوما مستقلّة ومجموع ذلك مائة وعشرون

[171]

(1) القرآن : سورة الحج (22) الآية : 5 .

يوما . ونفخ الروح لا يكون إلا بعد انقضائها في الشهر الخامس وهو الذي عليه التقرير المذكور .

وأما كون مدّة العلقة 33 يوما وفي الحديث أنّها أربعون يوما وكونه يصير مضغة بعد تمام الشهرين أي 60 يوما وفي الحديث بعد ثمانين يوما فأحسن ما نجيب به عنه هو التداخل في الأعداد وبيان تداخلها أن النطفة تكون في الأربعين يوما الأولى كلّها في مادّة النطفة ولا تنقطع مادّة النطفية منها إلا بانقضاء الأربعين يوما وهذا لا ينافي أنّها في أثناء تلك الأربعين ولو بعد يوم أو أيام تأخذ في الصيرورة علقة مع أنفلّة المادّة النطفية إلى نهاية تلك الأربعين فتتجرّد العلقة بعد أن مضى عليها الأمد الذي هي آخذة في العلقية وتتمّ بقية الأربعين يوما على حالة العلقية بأيام معدودة فيقال فيها إنّها كانت علقة أربعين يوما كما أنها في أثناء أيام علقيتها تبتدىء فيها مادّة المضغية وعند نهاية العلقية تتمّ المضغية ببقية الأربعين فيقال فيها إنّها كانت مضغة أربعين يوما . وعلى هذا نقول في الجمع بين الحديث الشريف والتقرير السالف : إنّه يمكن أن يكون مضى سبعة وعشرون يوما عليها وهي نطفة خالصة فتدخلها المادّة العلقية في الثلاثة عشر يوما الباقية من أربعين النطفة وفيها مادّة النطفة وذلك مصداق الحديث أربعين يوما نطفة ثمّ تتمّ الثلاثة [172] والثلاثون يوما بقية أيام العلقة في قول الأطبّاء بعشرين يوما وهي علقة خالصة ثمّ تدخلها مادّة المضغية فتجامع العلقية مدّة سبعة أيام تمام الأربعين الثانية وهي علقة وهذا مصداق : ثم يكون علقة مثل ذلك . وتنقطع منها تلك المادة فتتخلّص إلى المضغية كما قال الأطبّاء بعد الشهرين أي في سبعة أيام وتستمرّ عليها مدّة ثلاثة وثلاثين يوما أخرى تمام الأربعين الثالثة فتكون الثلاثة أربعينات خرجت من مائة يوم أي ثلاثة أشهر وعشرة أيام وهو أمد نفخ الروح في الحديث ويوافقه قول الأطبّاء إنّ نفخ الروح يكون في الشهر الرابع . وبهذا يندفع استشكال الحديث بأنه يفهم منه أنّ نفخ الروح إنّما يكون في الشهر الخامس بعد انقضاء ثلاثة أربعينات بأربعة أشهر مع أنه من المحسوس وقوع حركة الجنين قبل ذلك حركة مستقلّة لا تعقل قبل نفخ الروح .

[172]

أما ما يقع من الحركة قبل استكمال الثلاثة الأشهر فهي اختلاجات من الجنين لا أنها حركة مستقلة منه . هذا تحرير المسألة أكمل تحرير ولعلماء شريعتنا المطهرة اختلافات في المسألة وتفاصيل .

[نظم الشيخ إبراهيم الرياحي في تفاصيل اختلافات علماء الشريعة]

وقد نظم شيخ شيوخنا الشيخ إبراهيم الرياحي (1) تفاصيل ذلك بقوله :

(من الطويل)

تَأَمَّلْ صَنِيعَ اللَّهِ فِي الخَلْقِ تَلْفَهُ
حَكِيمًا يَحارُ الخَلْقُ في بعْضِ حِكْمَتِهِ

فَقَدْ ذَكَرَ الأَعْلامُ في الحَمْلِ حِكْمَةً
تَدُلُّ بِما تَحْوِي علىَ رَفْعِ قُدْرَتِهِ

فَيَخْلُقُ فِي شَهْرٍ فَشَهْرانِ فِيهِمَا
تَحَرُّكُهُ فَالوَضْعُ فِيهِ لِسِتَّتِهِ

وَيَخْلُقُ فِي شَهْرٍ وَتَتْلُوهُ خَمْسَةٌ
فَفِي الضِّعْفِ تَحْرِيكٌ وَوَضْعٌ لِسَبْعَتِهِ

وَيخْلُقُ فِي شَهْرٍ وَنِصْفٍ فَضِعْفُها
تَحَرُّكُهُ فَالوَضْعُ جَاءَ لِتِسْعَتِهِ

وَذَا غَالِبُ الأَحْوَالِ فِيهِ وَإِنَّهُمْ
رَأَوْا فِي بِنَاءِ الحُكْمِ أَقْصَرَ مُدَّتِهِ

لِـذَا لاَ يَعِيشُ ابْنُ الثَّمانِي وَلاَ تَرَى
مِنَ الحَمْلِ ذَا خَمْسٍ فَتَقْضِي بِصِحَّتِهِ

(1) الشيخ ابراهيم الرياحي : (1850/1266–1766/1180) من مواليد قرية تستور بالشمال التونسي ، باش مفتي المالكية وأشهر العلماء في عصره ، اتصل بالبايات ولعب دورا هاما جريئا في بعث التنظيمات بتونس . شهر بادخاله الطريقة التجانية إلى تونس . راجع : ابن أبي الضياف : اتحاف VII ، 73–82 (ترجمته) ، اتحاف ، IV ، 19–25 (رحلته إلى الآستانة) وص 60 . راجع أيضا : محمد مخلوف : شجرة النور ، ج 1 ص 385–389 .

[ما كتبه المؤلّف في أمر تخلّق الجنين]

[173] وقد كنت منذ عشر سنين فارطة فرطت منّي كتابة في المسألة المذكورة نظنّ أنّ ما كتبته هنا فيها أقرب إلى الصواب . وحيث إنّها على غير النمط الذي بصدده هذا التقرير نستحسن إيرادها منا بلفظها وهذا نصّها :

الحمد للّه الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وهدى من شاء من عباده إلى الصراط المستقيم . والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد واسطة نظام العالم وخلاصة الأطهار من بني آدم وعلى آله وأصحابه هداة الخلق إلى طريق الحقّ ما تعاقب الملوان (1) ونفخت الروح في نوع الإنسان .

أما بعد فهذه صبابة وعجالة لا تكاد تباري غرب من أفاض سجاله لكنها ناطقة بالصواب حتى يرفع عن جميل وجهها مسدول الجلباب أماطت أطمار الاستشكال ببيان فصيح المقال عمّا ورد في أمر تخلّق الجنين ونفخ الروح فيه على الوجه الذي كلّ عارف يرتضيه أجبت بها دعوة فخر أبناء الملوك وزينة وسائط تلك السلوك الهمام الارفع سيدي حسين باي ابن المشير الثاني (2) بلغه الله الأماني فيما عرض في حديث : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما إلى أن دلّ على أن نفخ الروح يكون بعد انقضاء الأربعين الثالثة وذلك بين لمن قصد حوله حوما غير أنه تحقّق الخارج وقوع حركة بعض الأجنّة في الأربعين الثانية وبذلك لم يبلغ في تحرير معنى الحديث أمانيه فبموجب ذلك كتبت هاته الأسطر اليسيرة وإن كانت المسألة في شروح الحديث شهيرة فقلت مستعينا بالله تعالى :

أمّا لفظ الحديث فهو ما رواه البخاري (3) ومسلم (4) عن عبد الله بن مسعود (5) رضي الله عنه قال : حدّثنا رسول الله «صلعم» وهو الصادق المصدوق

---

(1) الملوان : الليل والنهار .

(2) هو حسين بن محمد بن حسين بن محمود بن محمد الرشيد بن حسين بن علي ، وحسين بن علي هو مؤسس البيت الحسيني (1705–1735) .

(3) انظر أعلاه صفحة 88 تعليق عدد 3 .

(4) انظر أعلاه صفحة 87 تعليق عدد 1 .

(5) ابن مسعود : عبد الله بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فأر بن مخزوم بن صاهلة بن قاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، صاحب الرسول (صلعم). مات بالمدينة سنة 32هـ. أو 33هـ. وسنه ستون سنة . (راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، 3 ، 897–899) .

(إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوما نطفة ثمّ يكون علقة مثل ذلك ثمّ يكون مضغة مثل ذلك ثمّ يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح). إلى [174] آخر الحديث. وقد اختلف بعد هذا في أمر تصوير الجنين واستشكال تأخير نفخ الروح أربعة أشهر مع تحرّكه قبل ذلك فلابدّ من مدّ إطناب الإطناب في هذين المقامين حيث لا خفاء في أنّ نفخ الروح إنّما يكون بعد التصوير لقوله تعالى: «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» (1). قال المفسرون: أي نفخ الروح فيه ولذلك نقول في المقام الأول: أمّا أمد تصوير الجنين فقد جاء في حديث حذيفة (2) بن أسيد عند مسلم: إذا مرّ بالنطفة ثلاث وأربعون وفي رواية اثنتان وأربعون ليلة وفي رواية خمس وأربعون بعث الله إليها ملكا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثمّ قال: يا ربّي أذكر أم أنثى فيقضي ربّك ما شاء ... الحديث وعن حذيفة: اذا وقعت النطفة في الرحم ثم استقرّت أربعين ليلة يحجب ملك الرحم فيدخل فيصوّر له عظمه ولحمه وشعره ونشره ثم سمعه وبصره ثم يقول: أي ربي أذكر أم أنثى .... الحديث.

فأنت ترى هذين الحديثين قاضيين بأنّ التصوير يكون في أول الأربعين الثانية وقد أنكر ذلك في الخارج القاضي عياض (3) وقال: إنّه غير موجود ولا معهود. وقال: إنّ حمل مثل هذا الحديث على ظاهره لا يصحّ لأنّ التصوير في الخارج إنّما يكون في آخر الأربعين الثالثة وتأوّل التصوير بالكتابة وان كان الفعل يتأخّر إلى وقت آخر. وكذا قال القرطبي في المفهم: إن

(1) القرآن: سورة المؤمنون (23)، الآية: 14.

(2) حذيفة بن أسيد الغفاري أبو سريحة: صحابي شهد مع النبي الحديبية سنة 6هـ. (راجع: ابن سعد، الطبقات، 6، 15).

(3) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض، ولد بسبتة 1083/476-وتوفي بمراكش سنة 544/1149. من تآليفه: مشارق الأنوار، ط. فاس 1910/1328، والشفاء بتعريف حقوق المصطفى، وترتيب المدارك. تحدث عنه الشيخ محمد السنوسي في هذا الجزء من الرحلة أعلاه صفحة 22 وصفحة 61. (راجع: محمد الطالبي، تراجم اغلبيّة، تونس 1968. ص 5-22)

التصوير إنّما هو في الأربعين الرابعة لكن ما قاله رُدّ بمشاهدة التصوير في الأربعين الثانية وذلك موافق لظاهر لفظ الحديث فلا وجه لانكاره ولا حاجة إلى تأويل الحديث . على أنّ بعض الأطبّاء مال إلى أنّ التصوير يكون يوم السابع لتصريحهم بأنّ المنيّ إذا نزل في الرحم أزبد بستّة أيام أوسبعة وفيها [175] يتصوّر من غير استمداد من الرحم ثم يستمدّ منه ويبتدىء خطوطه ونقطه بعد ثلاثة أيام من الاستمداد ثمّ في الخامس عشر ينفذ الدم إلى الجميع فيصير علقة ثمّ تظهر الأعضاء ويتنحّى بعضها عن مماسّة بعض وتمتدّ رطوبة النخاع ثمّ بعد تسعة أيّام من صيرورته علقة ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الأصابع . قالوا : وأقلّ مدّة يتصوّر الذكر فيها ثلاثون يوما والزمان المقدّر في تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوما وقد يتصوّر في خمسة وأربعين يـومًا .

[175]

فأنت ترى قول الأطبّاء موافقا للحديث الشريف بوقوع التصوير في أوّل الأربعين الثانية في بعض الأحيان فلا بُعْدَ في حمل الثلاثة والأربعين وما بعدها التي في الحديث على أقصى أمد التصوير يعني وقد يكون في أقلّ من ذلك حتّى يتوافق مع قول الأطبّاء وكذا لا بُعْدَ في حمل الأمد المذكور على إتمام التصوير يعني وإنْ كان ابتداؤه يقع في السابع من وقوع النطفة حتّى يوافقه قول الأطبّاء بابتداء التصوير في السابع وهذا أقرب ممّا قاله القاضي عياض (1) وتأوّلَ به الحديث . وان أردت إزالة الإشكال والتعارض فيلزم الرجوع بذلك لما اختاره الشبرخيتي (2) في شرح الأربعين من أنّ ذلك يختلف باختلاف الأشخاص . فمنهم من يصوّر بعد الأربعين الأولى ومنهم من لا يصوّر إلاّ في الثالثة أو بعدها لا سيّما والحديث الذي بين أيدينا مطلق فلعلّه إنمّا لم يحدّ أمد التصوير للاختلاف باختلاف الأشخاص والأزمنة فهو لا ينضبط على

---

(1) انظر أعلاه صفحة 174 ، تعليق عدد 3 .

(2) هو ابراهيم بن مرعي بن عطية الشبراخيتي المالكي (توفي سنة 1106هـ) له مؤلفات منها شرح مختصر خليل والفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية . (انظر : سركيس ، معجم ، ج 1 رقم 1096 .

الإطلاق العامّ في الذكر والأنثى والحضري والبدوي في ذلك الوقت ، وهذا الوقت إلى غير ذلك من أنواع الاختلاف . وبهذا أيضا يندفع التعارض بين الحديث المذكور في قوله : إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يومًا ثمّ يكون علقة مع قول الأطبّاء المتقدّم ثمّ في الخامس عشر يتعقّد [176] الدم فيصير علقة .

[176]

فهذا غاية ما أمكن تحريره في ذلك . وأما أمد تحرّكه ونفخ الروح فيه فقال المقّري (1) في قواعده : الولد يتحرّك لمثل ما يتخلّق له ويوضع لمثل ما يتحرّك فيه وهو يخلق في العادة تارة لشهر فيتحرّك لشهرين ويوضع لستّة وتارة لشهر وخمسة أيام فيتحرّك لشهرين وثلث ويوضع لتسع فلذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر ولا ينقص الحمل عن ستّة أشهر وهذا لا تخفى معارضته للحديث حيث اقتضى أنّ نفخ الروح إنّما يكون بعد الأربعين الثالثة . والحاصل فكيف يتحرّك الجنين لشهرين لكن إن اعتمدنا اختلاف التصوير بحسب اختلاف الأشخاص يمكن أيضا اختلاف نفخ الروح باختلاف التصوير . والحاصل لا تعارض وإلاّ فقد أجيب عن ذلك بأجوبة كثيرة أحسنها ما عليه المحقّقون من أنّ الروح روحان روح حيواني يقع به التحرّك . وهذه الروح يختلف زمانها باختلاف زمن التصوير وروح إنساني يتميّز به ذلك الجنين الآدمي على غيره من أجنّة الحيوانات . وهي التي يأتي بها الملك تشريفا لها فينفخها في الجنين . وهذه إنما تكون بعد انقضاء الأربعين الثالثة . ولعلّ ذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : «ثُم أنْشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» (2) حيث جعله خلقا مغايرا للخلق الأوّل وذلك لا يكون إلاّ بانتقال من حالة إلى حالة من غير تدريج والانتقال هنا من الحيوانية إلى الإنسانية وكانت الإنسانية مباينة للحيوانية بكمال شرفها الذي اختصّت به فتبارك الله أحسن الخالقين .

حرّره الفقير إلى ربّه تعالى عبده محمد السنوسي خادم العلم الشريف في 4 رجب سنة 1291 (3) .

---

(1) انظر أعلاه صفحة 6 تعليق رقم 2 .
(2) القرآن : سورة المؤمنون ، 23 الآية 14 .
(3) يوافق : 17 أوت 1874 .

مونتيكتيني (1)

قرية معدّة للاستحمام بمياهها المعدنية بسفح سلسلة من الجبال متواصلة [177] واسمها مركّب من كلمتين وهما مونتي وكتيني ومعنى الأول جبال والثاني سلسلة كأنّه مأخوذ من القطينة (2) . [177]

وقد ركبنا إلى هذه القرية من بلد قرنة بعد الزوال بأربع ساعات ونصف من يوم الأربعاء خامس شعبان سنة 1299 (3) صحبة سكّة الحديد إلى مضيّ سبع ساعات ونصف . ومررنا في الطريق على بيزة (4) ولوكة (5) ومرسى شيفيتيكيا (6) المختص بالبابا وغير ذلك من المحطات التي كنّا نمرُّ عليها في طريقنا الذي يتجاوز المائة ميل .

ووصلنا إلى مونتيكتيني آخر العشيّ فإذا هو بلد صغير رسمت في سفح الجبل على المياه المعدنية الجارية وبأعلى قمّة الجبل مقرّ القرية الأصلية هنالك

---

(1) Monte-Catini .

(2) القطينة : سكن الدار .

(3) يوافق : 21 جوان 1882 . انظر أعلاه ص : 99 ، 149 وأسفله ص : 181 .

(4) Pisa .

(5) Lucca .

(6) Pescia بيشيا مركز مختص بالبابا. أما مرسى شيفيتيكيا فلم نوفق إلى العثور عليه ولعل الصواب مرسى بيشيا كما أثبتنا .

سكّانها من أهل البادية . وأما هذا البلد الصغير الموصوف بالجديد فهو منظّم وطرقه في غاية التحسين . وهنالك عدّة أوتيلات ومساكن منتظمة وعلى منابع المياه أبنية رائقة وهي ثلاثة . أولها يسمّى ريفريسكو وهو ماء تغلب عليه العذوبة كثير الغازات وخاصّيته إدرار البول وهو نافع لذوي الحصى وأمثالهم . ثانيها يسمّى نمريشي وهو ماء كثير معدن المانيزيا مسهل للطبيعة . وثالثها ماء روجينة وهو كثير الملح بحيث أنّ الجابية دائما عليها غطاء من الملح وهو دون ما قبله في إفادة الإسهال ورابعها ماء تايتوشي وهو المنفرد بخاصّية نفع الكبد والكلا والمعدة يؤثر إسهالا وقتيا بمقدار الشرب منه وعلى أوانيه أثر المانيزيه دائما أبدا وهو يحمل في القوارير إلى الجهات الخارجية للتداوي به ومحلّه في غاية الاتّساع وحسن التقسيم ذو حديقة تتخلّلها المقاعد العمومية ومجتمع للموسيقى تحضره يوما من قبل الزوال بأربع ساعات . وحمّامات من رخام من النوع الأوروباوي على مجاري مياهها موازين الحرارة ليعطى بها كلّ إنسان مقدار حاجته وبيوت خلاء (1) في غاية النظافة تأتيه [178] الأوروباويون من كلّ جهة في شهر يونية ويولية (2) ويقيم هنالك كلّ أحد بمقدار حاجته أسبوعا أو أسبوعين .

[إقامة المؤلّف بمعية الجنرال حسين بمونتي كتيني]

وبما اعترضني في بلد نابلي من هيجان الصفراء بسبب ركوب البحر وظهور مبادي مرض العذر (3) عاجلت طلب شرب الماء هنالك أسبوعين بمعية الجنرال حسين .

(1) المقصود ببيوت خلاء المستراحات والمراحيض ، ولئن لفتت نظافة هذه الأمكنة نظر الشيخ محمد السنوسي فذلك لانه كان زار مركز الاستحمام بالمياه المعدنية بمدينة قربص بالبلاد التونسية حيث ربما لم تكن المستراحات متوفرة النظافة .

(2) كذا بالنص والصواب : شهري يونية ويولية .

(3) هذه إشارة من الشيخ محمد السنوسي إلى أن صحته البدنية لم تكن على ما يرام منذ سنة 1882 ومعلوم أن مرضه تفاقم لا سيما في السنوات الأخيرة من حياته من سنة 1896 إلى حين وفاته سنة 1900 .

والداخل للمحلّ هنالك إنّما يدفع ثلاثين صنتيما . ومن دفع ثلاث فرنكات أخذ تذكرة يدخل بها مدّة إقامته . وأمد الجلوس هنالك غير محدود بل كلّ أحد يجلس ما شاء . وهنالك خدمة بأيديهم أباريق من بللّور يديرون بها الماء على الجالسين . وعند المراحيض خدمة جميعهم يخدم كلّ من كان هنالك . ومن عادة المستحمّين هنالك أن يعطوا إحسانا لأولئك السقاة والخدمة عند فراغ المدّة .

وأما الحمّامات فلها أجرٌ يخصّها . والعشيّ معدّ للتنزّه في حدائق أحواز البلد . وهنالك بوسطة منتظمة وصلتنا بها مكاتيبنا وبلغت بالإرسال . ومركز تلغرافي وبوسط البلد قهوة عمومية يجتمع فيها الناس في كلّ وقت وأكثر لاجتماع هنالك آخر العشيّ و أوائل الليل . وفي بعض الليالي حضرت هنالك فتاة تُدعى مندلينا (1) وبيدها آلة تشبه عود الوتر إلاّ أنّها أصغر منه حجما . وهي كلّها قطعة واحدة من بللور وعليها أوتار لم نسمع مثلها في الرّقة واسم هذه الآلة مندلينا (2) . ولفرط استحسان نغمات الوتر من أنامل ذات الحسن والحور أنشأت مجنّسا فقلت : (من الوافر)

أَجَائِرَةً عَلَيَّ أَتَعْدِلِينَا — وَهَلْ قَاسِي الْفُؤَادِ يَعُودُ لِينَا
فَقَدْ عَرَفَ الْجَوَى قَلْبِي بِعَرْفٍ — وَثَدْيٍ مِنْكِ مِثْلَ الْمَنْدَلِينَا
وَأَنْمُلَةٍ بِهَا الْوَتَرُ ازْدَهَى إِذْ — تَسَاجَلَ بِالتَّغَنِّي مَنْدَلِينَا
لِذَاكَ خَلَعْتُ فِيكِ عِذَارَ وَجْدِي — وَطَابَ لَدَيَّ حُبِّي مَنْدَلِينَا[179] [179]

وقد كان نزولنا بها أوّلا في أوتيل جوار القهوة المذكورة غير أنّ أصحابه من النصارى الذين لا يذبحون فحصل لنا تعب في الأكل هنالك حيث اقتصرنا على أكل البيض والجبن مع الخبز ومن الغد تنقّلنا إلى أوتيل بني جديداً صاحبه يهودي يتقن الذكاة وهو في غاية الإتقان والبهاء تحيط به حديقة جميلة

(1) كذا بالنص والصواب : مادلين : Madeleine
(2) Mandoline مندلينا : كلمة دخيلة .

المنظر فأقمنا به مدّتنا وتعرّفنا فيه بوارديه من النسوة والرجال فكنّا نستريح بالمحادثة عند كلّ مجالسة بواسطة الترجمة وربّما كانت المجالسة كلّها بالإشارة .

واتّفق في بعض الأيام أن إحدى جاراتنا أتت معها بحقاق وقالت : إنّي تعلّمت السحر إن أردتم فها أنا أسحر لكم . وقصارى ذلك حقاق متداخلة لها ظاهر وباطن مختلفة الألوان تستعمل للّعب لكن على كلّ حال لمحبة مساعدتها أظهرنا استحسان لعبها وسمّيناه من السحر المستمرّ وعند ملاطفتها قلت لها : قد تكاثرت علينا منك الأسحار إذ كنّا متعجّبين من سحر عيونك فالآن زدتنا عجبا بسحر ألعابك . ولما ترجم لها هذا المعنى أخذها الضحك وأظهرت غاية الاستحسان فنظمته بقولي : (من الكامل)

وَمَلِيحَةٍ تَاهَتْ بِحُسْنِ شَبَابِ وَبِثَغْرِهَا أَجْلَتْ نَضِيدَ حُبَابِ
لَمْ يَكْفِهَا سِحْرُ الْعُيُونِ فَآثَرَتْ بِتَعَلُّمٍ سِحْرًا مِنَ الْأَلْعَابِ

وقد خرجنا عشيّة إلى قصر عتيق يبعد عن البلد بنحو ثلاثة أميال مقام في البادية وراءه ربوتان متقابلتان بينهما واد ضيّق يتسابق الناس بينهما بحيث يبتدىء السابق من أعلى إحداهما وانتهى لأعلى الثانية . وقد سابقت من فتيان المتنزّهين وفتياتهم وشبّانهم من سبقوني وهم يعدّون ذلك من الرياضة التي يستعملها جميعهم . ورأينا في مدخل ساحة القصر صورتين إحداهما تحمل ميزانا والأخرى تحمل سيفا مشهّرا والأولى علامة العدل [180] والثانية علامة الحكم وذلك كناية على أنّ العدل لا يستقيم إلا بالحكم والقهر . [180]

وعند رجوعنا دخلنا إلى بستان قرب البلد تسكنه زوجة الجنرال ملكوف صاحب وقائع حرب الروس مع الترك تنقّلت إليه عند وفاة زوجها في الحرب للتداوي من مرض بها . فأحسنت تلقّينا وأكرمتنا وسألتني عمّا استحسنته في رحلتي وقرّرت تقريراً حسنا فيما يتعلّق بأفكار الشعراء وخيالاتهم واستحسانهم لطائف الأشياء . وحصلت بذلك بيننا معرفة زرناها بسببها مرارا وقد خرجنا أيضا في عشيّة أخرى إلى أحواز البلد وسفح الجبل فرأينا هنالك واديا

سرنا فيه طول عشيتنا تكتنفه أشجار الصفصاف الرائقة في غاية الاستقامة والارتفاع وتحيط به المزارع عن اليمين والشمال مدى البصر بحيث إنّه من أحسن المنازه فيما رأيت ولذلك قلت فيه : (من الكامل)

يَا وَادِيًا رَاقَتْ مَحَاسِنُهُ الَّتِي
فَاقَتْ لَدَيْهِ بِجَنَّةِ إِلْفَافِ

بِرِيَاضِكَ الْغَنَّا قَدِ اخْضَرَّتْ وَقَدْ
جُمِّلَتْ بِمُخْضَلٍّ مِنَ الْأَكْنَافِ

وَعَلَى جَوَانِبِكَ الْجَمِيلَةِ مَلْعَبٌ
قَدْ بَانَ فِيهِ تَوَاصُلُ الصفْصَافِ

أَغْصَانُهُ كَقُدُودِ غِيدٍ صُفِّفَتْ
لِتَقُومَ فِيهِ بِفَاخِرِ الْأَوْصَافِ

مَا بَيْنَ مُرْتَفِعٍ وَمُنْعَطِفٍ حَكَى
مَيْلَ الْمَهَا بِالْخِصْرِ لِلإِسْعَافِ

وَالرِّيحُ فِي أَوْرَاقِهَا مِنْ فَوْقِهَا
عَبَثَتْ فَرَاقَتْنَا بِصَوْتٍ خَافِ

طَوْرًا نُشَبِّهُهُ بِرَنَّةِ دَمْلَجٍ
قَدْ رَنَّ عِنْدَ تَمَايُلِ الْأَعْطَافِ

وَإِذَا تَتَابَعَ لِلْمَسَامِعِ خِلْتَهُ
صَوتَ الْمَرَاقِصِ بِاهْتِزَازِ خِفَافِ

فِي سَفْحِ سِلْسِلَةِ الْجِبَالِ تَلاَعَبَتْ
وَتَنَاسَقَتْ سِمْطًا بِغَيْرِ خِلاَفِ

فَكَأَنَّهَا نَشْوَى بِحُسْنِ مِيَاهِهِ
ذَاتِ السَّمَعَادِنِ لاَ بِسُكْرِ سُلاَفِ

تِلْكَ ٱلْمَنَازِهُ رَاقَتِ ٱلْأَسْمَاعَ وَالْأَ
بْصَارَ فِي كَنْفٍ مِنَ ٱلْخِلاَفِ [181]

[181]

شَسِعَتْ بِأَرْضِ إِيطَالِيَا وَلَوْ أَنَّهَا
قَرُبَتْ لَكُنْتُ بِهَا قَصَرْتُ طَوَافِي

[وصف أهل قرية مونزوماني]

وخرجنا في عشيّة لقرية مزلمان (1) وهي جميلة المنظر بها موضع استحمام يجري منه ماء طبيعي في غاية الحرارة وفي بطحاء وسط البلد تمثال شاعر من مشاهير شعراء الطليان أصله من تلك القرية واسمه جوستي (2) وعند وفاته في غير بلادهم أقاموا تمثاله فيها لإظهار فخرها وكان دخولنا لهذه القرية عشية أحد فكان أهلها مجتمعين في بطحائها . وعندما رأوا ألبستنا العربية وعمائمنا وشواشينا أقبلوا من كلّ جانب للتفرّج حتّى كادوا يملؤون علينا الطريق حتّى أنّا بعد نزولنا من كرّوستنا عدنا إليها وركبناها خشية أن تصيبنا أيديهم وهم أهل قرية للبادية أقرب وفيهم قلت : (من البسيط)

تَبًّا لِقَوْمٍ لَهُمْ فِي مزُلْمَانَ يُرَى
جَمْعٌ رَذِيلٌ كَجَمْعِ الذيبِ وَالرَّخَمِ (3)

تَيْسٌ كَبِيرُهُمْ قِرْدٌ صَغِيرُهُمُ
وَكُلُّهُمْ قَدْ غدَا مُسْتَضْعَفَ الحُلُمِ (4)

---

(1) الصواب قرية منزومانو : Monsummano

(2) هذا الشاعر هو جوزيبي جيوستي Giuseppe Giusti كاتب شاعر ايطالي كان له في الفترة بين سنة 1830 وسنة 1870 نشاط أدبي ساهم به في الدعوة إلى الوحدة الايطالية فاشتهر بالوطنية والكفاح السياسي .

(3) الرخم : ج. رخم وهو طائر من الجوارح الكبيرة الجثة الوحشية الطباع .

(4) الحلم : ج. حلم : عقل .

رَأَوْا شَوَاشِينَا مِنْ فَوْقِ أَرْؤُسِنَا
غَرِيبَةً عِنْدَهُمْ مِنْ حُمْرَةِ الأُدُمِ (1)

فَانْثَالَ كُلُّهُمُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ
كَأَنَّهُمْ قَدْ رَأَوْا نَارًا عَلَى عَلَمِ (2)

ودخلنا أيضا عشية أخرى إلى بلد ستبوية (3) وهي أحسن حالا وانتظاما ونظافة وبها أوتيلات مشهورة وتياترو يقصده الناس من تلك النواحي وطرقها في غاية النظافة مع حسن التبليط والاتّساع وفيها معمل كراريس شهير في إيطاليا . ومن فواكهها المختصّة بها البوفريوة (4) وكان خروجنا من مونتيكتيني بعد الزوال بساعة يوم 21 الخميس من شعبان (5) مع طريق الحديد فوصلنا إلى قرنه (6) بعد الزوال بأربع ساعات وذلك آخر العهد بقرى ايطاليا .

---

(1) أدم : ج. أديم وهو الجلد المدبوغ .

(2) العلم : الجبل الطويـل .

(3) كذا بالنص والصواب : بيستويا : Pistoie .

(4) البوفريوة : كلمة عامية تونسية تطلق للدلالة على ثمر شجر البندق .

(5) الصواب يوم الخميس 20 شعبان سنة 6/1299 جويلية سنة 1882 . انظر أعلاه : صفحة 177 .

(6) غادر الشيخ محمد السنوسي بلد قرنة يوم 30 شعبان 15/1299 جويلية 1882 فركب البحر بمشايعة أمير الأمراء حسين المكلف بالمعارف العمومية بتونس وعند الوصول إلى نابلي يوم رمضان تلقاه إبراهيم المويلحي المصري واكترى مع شركة المساجري وسافر باكرة ثاني رمضان 17/1299 جويلية قاصدا القسطنطينية حيث وصل يوم الجمعة سادس رمضان 21/1299 جويلية 1882 . (انظر أعلاه : صفحة 2 . راجع أيضا : الرحلة الحجازية . ج 2 ص 10) .

الملحقات

— 1 —

قال ابن خلدون : (الخبر عن طاغية الإفرنجة ومنازلته تونس في أهـل نصرانيتـه) .

هذه الأمّة المعروفة بالإفرنجة وتسمّيها العامّة بالافرنسيس نسبة إلى بلد من أمّهات أعمالهم تسمّـى افرانسة . ونسبهم إلى يافث بن نوح ، وهـم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج قسطنطينة ، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة مـن جانب الغرب . وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم ، ومنهم لقنوا دينها واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم ، وأجازوا البحر إلى افريقية مـع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل سبيطلة وجلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمبس وغيرها من الأمصار . وغلبوا على كلّ من كان بها من البربر حتّى اتّبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد . ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار إفريقية ، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل إقريطش ومالطة وصقلية وميّورقة ورجوعهم إلى عدوتهم . ثم أجازوها خليج طنجة وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجة فدوّخوها

وعاثوا فيها . ولم تزل الطوائف تتردّد إليها صدرا من دولة بني أمية بالأندلس ، وكان ولاة إفريقية من الأغالبة ومن قبلهم أيضا يردّدون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن ، فكان يخالجها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها .

وكان الروم أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها . فلمّا وهن أمر الروم بالقسطنطينية ورومة واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء وكان ذلك على هيئة سمّو الخلافة بالمشرق فسموا حينئذ إلى التغلّب على معاقل الشام وثغوره وزحفوا إليها وملكوا الكثير منها واستولوا على المسجد الأقصى (1) وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد . ونازلوا مصر والقاهرة مرارا حتى جاد الله للاسلام من صلاح الدين أبي أيّوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنّة واقية وعذابا على أهل الكفر مصبوبا ، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه وطهّر المسجد الأقصى من افكهم وكفرهم (2) وهلك على حين غرّة من الغزو والجهاد (3) .

ثمّ عاودوا الكرّة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام وأيّام الأمير أبي زكرياء بتونس ، فضربوا أبنيتهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قرى مصر (4) . وهلك الملك الصالح خلال

---

(1) استولى الفرنجة على المسجد الأقصى عندما سقطت بيت المقدس بأيديهم سنة 1099/492 وكانت بيد الفاطميين . راجع : رفيق المهايني ، تاريخ **الخلافة الاموية والعباسية** . دمشق : 1951 ص : 216 .

(2) كان ذلك سنة 1187/583 عقب انتصار صلاح الدين على النصارى بمعركة حطين . (راجع : المهايني : تاريخ . ص 228) .

(3) توفي صلاح الدين الايوبي سنة 1193/589 . (راجع : ابن كثير : **البداية** ، ج 12 ص 323–326 . راجع أيضا : **دائرة المعارف الاسلامية** ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج : 1 ص : 820–830) .

(4) استحوذ الفرنج على مدينة دمياط سنة 616هـ. ودخلوها بالأمان فغدروا بأهلها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وفجروا بالنساء وجعلوا الجامع كنيسة . (راجع : ابن كثير : **البداية والنهاية** ، ج 13، ص 83، 95 . راجع أيضا : ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** . ط. القاهرة 3103. ج 9) .

ذلك (1) ، وولي ابنه المعظم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيّام فيض النيل ، ففتحوا الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم (2) ، وقيد سلطانهم أسيرا من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالاسكندرية (3) حتى مرّ عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكنوا المسلمين من دمياط فوفوا له . ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة واعتزم على الحركة إلى تونس متجنّيا عليهم فيما زعموا بمال أدعياء تجّار أرضهم ، وأنّهم أقرضوا اللّلِيـيّانـي (4) . فلمّا نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه . فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان .

فأرسل الفرنسيس طاغية الافرنج واسمه لويس بن لويس وتلقّب بلغة الإفرنج ريد فرنس ، ومعناه ملك افرنس ، فأرسل إلى ملوك النصارى يستفزّهم

---

(1) في سنة 647هـ. هجمت الفرنج على دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة واستحوذ الفرنج على الثغر وقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين وذلك في ربيع الأول منها فنصب السلطان المخيم تجاه العدو بجميع الجيش وشنق خلقا ممن هرب من الفرنج ولامهم على ترك المصابرة قليلا ليرهبوا عدو الله وعدوهم . وقوي المرض وتزايد بالسلطان جدا . فلما كانت ليلة النصف من شعبان توفي إلى رحمة الله تعالى بالمنصورة . (راجع : ابن كثير : **البداية** ، ج 13 ص 177)

(2) لما توفي الملك الصالح أخفت جاريته أم خليل المدعوة شجرة الدر موته وأظهرت أنه مريض مدنف لا يوصل إليه وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء . وأعلمت إلى أعيان الأمراء فأرسلوا إلى إبنه الملك المعظم تورانشاه وهو بحصن كيفا فأقدموه إليهم سريعا وذلك باشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ . فلما قدم عليهم ملكوه عليهم وبايعوه أجمعين . فركب في عصائب الملك وقاتل الفرنج فكسرهم وقتل منهم ثلاثين ألفا ولله الحمد وذلك في أول السنة الداخلة (648) ثم قتلوه بعد شهرين من ملكه ضربه بعض الامراء وهو عز الدين أيبك التركماني . (راجع : ابن كثير : **البداية** ، ج 13 ص 177 . راجع أيضا : المقريزي ، **الخطط** ، طبعة. لبنان 1959 ج : 1 ص 386—390) .

(3) في يوم الاربعاء ثالث محرم سنة 648هـ. كان كسر الملك المعظم توران شاه للفرنج على ثغر دمياط قتل منهم ثلاثين ألفا وقيل مائة ألف ... وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه . وانحاز الملك رواد فرنس وأكابر الفرنج إلى تل ووقفوا مستسلمين وسألوا الأمان فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي ونزلوا على أمانه وأحيط بهم وسيقوا إلى المنصورة فقيد رواد فرنس واعتقل في الدار التي كان ينزل فيها القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء ووكل به الطواشي صبيح المعظمي واعتقل معه أخوه ورتب له راتب يحمل إليه في كل يوم . (راجع : المقريزي ، **الخطط** ، ج 1 ص : 390—391 . راجع أيضا : ابن كثير : **البداية** ، ج 13 ، ص : 178) .

(4) أبو العباس اللياني ولد بالمهدية حيث كان والده واليا ، وتولى أبو العباس خطة الخراج واتهم بأنه مد يده إلى الخراج فسجن ثم شاع الخبر بأنه عازم على الفرار إلى صقلية فصدر الأمر بقتله . (راجع : De Slane : *Ibn Khaldoun. Histoire des Berbères*... Trad. de l'arabe, nouv. éd., P. Casanova, t. 2, Paris 1927, pp. 350).

إلى غزوها ، وأرسل إلى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرته ، وأطلق يده في أموال الكنائس مددا له . وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم ، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك اسكوسيا وملك تورك وملك برشلونة واسمه ريد راكون وجماعة آخرون من ملوك الافرنج ، هكذا ذكر ابن الأثير (1) .

وأهمّ المسلمين بكلّ ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدّة وأرسل في الثغور لذلك باصلاح الأسوار واختزان الحبوب . وانقبض تجّار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين . وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيس لاختبار حاله ومشارطته على ما يكفّ عزمه . وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاستمام شروطهم فيما زعموا ، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم . فلمّا طلبوا المال اعتلّ عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر ، فأحضر عند الفرنسيس واستجلس فأبى وأنشده قائلا من قول ابن مطروح شاعر السلطان بمصر (2) :

---

(1) الصواب : ابن كثير لا ابن الأثير . والدليل على ذلك أن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير توفي سنة 1233م. بينما كانت وفاة عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير سنة 1373م. والملاحظ أن ابن الأثير انما أخبر في كتابه الكامل عن أحداث المائة السابعة هجرية أما اسماعيل ابن عمر بن كثير فانه أسهب الحديث عن الملاحم بين المسلمين والنصارى في كتابه البداية والنهاية لا سيما في الاجزاء 12—13—14—15 . وبذلك تحقق لدينا أن من سبقنا من المحققين لنص ابن خلدون قد غفلوا عما انتبهنا إليه . (راجع : دائرة المعارف ، ط. 2، ص : 746 وص : 841—842) .

(2) وجدنا في النص ، طبعة دار الكتب اللبناني سنة 1959 وكذلك طبعة بولاق 1868/1284 وكذلك الطبعة الفرنسية ترجمة دي سلان وكازنوفا ، باريس 1927 : هكذا : من قول أبي مطروح : والصواب من قول ابن مطروح ، وهو جمال الدين يحيى بن مطروح كان فاضلا رئيسا كاتبا شاعرا من كبار المتعممين استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق فلبس لبس الجند . ومن شعره في الناصر داود صاحب الكرك لما استعاد القدس من الفرنج حين سلمت إليهم في سنة ست وثلاثين وستمائة قوله :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا

ولما عزل الملك الصالح ابن مطروح من النيابة أقام خاملا . وكان كثير البر بالفقراء والمساكين وكانت وفاته بمصر سنة 650هـ. (راجع : ابن كثير ، البداية ، ج 13 ص : 182 . راجع أيضا : المقريزي ، الخطط ، ج.1 ص 392) .

(من السريع)

قل للفرنسيس اذا جئته	مقال صدق من وزير نصيح (1)
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد نصارى المسيح (2)
أتيت مصر تبتغي ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح (3)
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكلّ أصحابك أودعتهم	بسوء تدبيرك بطن الضريح (4)
سبعون ألفا لا يرى منهم	الا قتيل أو أسير جريح (5)
ألهمك الله إلى مثلهَا	لعلّ عيسى منكم يستريح (6)
ان كان باباكم بذا راضيا	فربّ غشّ قد أتى من نصيح
فاتّخذوه كاهنا انّه	أنصح من شقّ لكم أو سطيح (7)
وقل لهم ان أزمعوا عودة	لأخذ ثار أو لشغل قبيح (8)
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالاسكندرية والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي . فلمّا استكمل انشاده لم يزد ذلك الطاغية الا عتوّا واستكبارا ، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات عذرا دافعهم به ، وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه ، فوصل رسل السلطان مُنْذِرين بشأنهم ، وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى

---

(1) ورد عجز هذا البيت في خطط المقريزي كما يلي : مقال نصح عن قؤول نصيح . كما ورد في المؤنس لابن أبي دينار كما يلي : مقال صدق من مقول فصيح .

(2) ورد عجز هذا البيت في خطط المقربزي كما يلي : من قبل عباد يسوع المسيح .

(3) ورد عجز هذا البيت في المؤنس كما يلي : تظن أن الدين باطل ريح .

(4) ورد عجز هذا البيت في الخطط كما يلي : بحسن تدبيرك بطن الضريح .

(5) ورد صدر هذا البيت في الخطط كما يلي : خمسون ألفا لا يرى منهم .

(6) ورد صدر هذا البيت في الخطط كما يلي : وفقك الله لامثالها .

(7) هذا البيت ناقص في رواية الخطط .

(8) ورد هذا البيت في الخطط كما يلي : قل لهم ان أضمروا عودة   لأخذ ثار أو لنقد صحيح

تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين (1) فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية (2) . ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالنذير بالعدوّ والاستعداد له ، والنفير إلى أقرب المدائن وبعث الشواني لاستطلاع الخبر ، واستبهم أياما .

ثم توالت الاساطيل بمرسى قرطاجنة وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس الموحّدين في تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدّهم عنه ، فأشار بعضهم بصدّهم حتّى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء ، فيضطرّون إلى الاقلاع . وقال آخرون : اذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبّحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوا ، واستصعبت مغالبتهم عليه . فوافق السلطان على هذا وخلّوا وشأنهم من النزول . فنزلوا بساحل قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الأندلس والمطوّعة زهاء أربعة آلاف فارس لنظر محمد بن أبي الحسين رئيس الدولة .

ولمّا نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الرجالة فيما حدّثني أبي عن أبيه رحمهما الله . قال : وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس وأخوه جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر (3) والعلجة زوج الطاغية تسمّى الرينة (4) وصاحب البرّ الكبير (5) وتسمّيهم العامّة من أهل الأخبار ملوكا ويعنون أنهم متباينون اذ ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وانما كان

---

(1) يوافق هذا التاريخ يوم 22 جويلية سنة 1270م. إلا أنه من الثابت أن ركوب القديس لويس أساطيله إلى تونس كان يوم 4 جويلية وأن تلك الاساطيل أرست بقرطاجنة في يوم 18 جويلية من تلك السنة .

(2) كان ذلك الاجتماع بجزيرة سردانية في مرسى كاقلياري Cagliari

(3) شارل دانجو كان وصوله إلى قرطاجنة يوم وفاة أخيه القديس لويس في 25 أوت سنة 1270 .

(4) الرينة : قصد بها الملكة مارقريت Marguerile زوجة القديس لويس التي في الواقع بقيت بفرنسا والمحتمل أن تكون هذه العلجة هي ايزابيل Isabelle بنت القديس لويس ملكة نافاره .

(5) البر الكبير هو جنوب فرنسا فالمعني بصاحب البر الكبير يحتمل أن يكون الكونت دي بواتيي وتولوز Le Comte de Poitiers et de Toulouse أحد اخوة القديس لويس .

ملكا واحدا وهو طاغية الفرنجة واخوته وبطارقته عدّ كلّ واحد منهم ملكا لفضل قوّته وشدّة بأسه .

فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة ، وكانت ماثلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها ، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب وعضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصّنوا . وندم السلطان على اضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها . وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر (1) والمدد يأتيه في أساطيله من البحر من صقلية والعدوة بالرجال والأسلحة والأقوات .

وسلك بعض المسلمين طريقا في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرّة في العدوّ فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم وبعث السلطان في ممالكه حاشدا فوافته الأمداد من كلّ ناحية . ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوّارة حتّى أمدّه ملوك المغرب من زناتة وسرّح إليه محمد بن عبد القويّ عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان . وأخرج السلطان أبنيته وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمطوّعة وهم : إسماعيل بن أبي كلدلن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عيّاد صاحب بجاية ومحمد بن عبّو وأمرهم كلّهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى ابن أبي بكر منهم .

واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم . والتزم السلطان القعود بايوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود الرطب وابن أبي الحسين

---

(1) الملاحظ أن مدة اقامة الفرنجة متمرسين بتونس لم تكن ستة أشهر وانما هي ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما والدليل على ذلك أن الملك لويس التاسع أرسى بقرطاجنة في 18 جويلية وتوفي بها في 25 أوت وأن معاهدة الصلح أبرمت في 31 أكتوبر من تلك السنة أي سنة 1270 (أنظر نص المعاهدة في الملحقات أسفله) .

وقاضيه أبو القاسم بن البراء وأخو الفيش . واتّصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف . فزحف يومئذ يحيى بن صالح وجرون . فمات من الفريقين خلق وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ثم غلبوا عليه بعد ان قتل من النصارى زهاء خمسمائة . فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت . وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه وابتلي المسلمون بتونس وظنّوا الظنون واتّهم السلطان بالتحوّل عن تونس إلى القيروان .

ثم ان الله أهلك عدوّهم وأصبح ملك الفرنجة ميّتا يقال حتف أنفه ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال أصابه مرض الوباء ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه . ولمّا هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط (1) سمّي بذلك لميلاده بها فبايعوه واعتزموا على الاقلاع . وكان أمرهم راجعا إلى العلجة (2) فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف إلى مشاتيهم .

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين (3) فتولّى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاما . وحضر أبو الحسن علي بن أبي عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القويّ أمير بني توجين ، واختصّ جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته . وأقلع النصارى بأساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب وهلك الكثير منهم . وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدوّ من المال فأعطوه طواعية . يقال : انه عشرة أحمال من المال . وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقا .

---

(1) الملاحظ أن دمياط هذا توفي قبيل وفاة أبيه بقرطاجنة وهو الأمير جان تريستان دوق دي نيفير Jean Tristan duc de Nevers أما الذي اجتمع عليه النصارى فهو الأمير فيليب الجسور Philippe le Hardi أكبر أبناء القديس لويس .

(2) الملاحظ أن العلجة زوجة الملك مكثت بفرنسا ولم تأت إلى قرطاجنة .

(3) يوافق أكتوبر سنة 1270 .

وخطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح (1) وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد فصيّر أبنيتها طامسة . ورجع الفرنجة إلى عدوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ، ولم يزالوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات واستبدّ صاحب صقلية لنفسه وكذا صاحب نابل وجنوة وسردانية ، وبقي ملكهم الأقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .هـ. (2) .

(1) كانت تلك سنة ملوك الاسلام في الاستنجاد عندما يهاجمهم النصارى والامثلة على ذلك كثيرة كاستنجاد ملك اشبيلية المعتمد بن عباد بالمرابطين أو كفعل صلاح الدين الأيوبي عندما كتب إلى أبي محمد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس يستنجده على الفرنج . (راجع : ابن كثير ، البداية ج 13 ، ص : 19 وص : 258—259) .

(2) راجع : ابن خلدون : كتاب العبر ... القسم الأول ، المجلد السادس . ط. دار الكتاب اللبناني . سنة 1959 . ص : 663—671 . راجع أيضا : الكتاب نفسه ، طبعة بولاق سنة 1284هـ. ج. 6 ، ص : 290—295 . راجع أيضا النص بالفرنسية :
De Slane : *op. cit.*, pp. 359-369.

الملحقات

— 2 —

وأثبت هذه الواقعة أيضا ابن أبي دينار في كتاب المؤنس : طبعة تونس 1286هـ. ص ص : 128—130 . فقال : وفي سنة ثمان وستين وستمائة في ذي القعدة نازل الافرنسيس مدينة تونس بجموع وافرة فرسانا ورجالا . وكانت بينهم وبين المسلمين حروب مات فيها خلق كثير من الفريقين . ومدة اقامتهم أربعة أشهر وعشرة أيام . وفي عاشر المحرم سنة تسع وستين مات طاغيتهم ، قيل ان السلطان بعث إليه بسيف مسموم ، وقيل مات حتف أنفه . وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان على الانصراف من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين على أن يدفع لهم ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطر من الفضة ، والهدنة خمسة عشر عاما ، فتم الصلح . وكان (أي السلطان المستنصر بالله) رحمه الله لم يخرج إلى قتالهم وانما يمدهم بالجيوش .

وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل انه ذكر يوما بحضرة المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه يشير إلى الاتراك الذين كانوا بين يديه وكان استخدم منهم جماعة فبلغت هذه المقالة الفرنسيس فحقد لها وعزم على غزو تونس . ولما علم المستنصر بذلك طلب منه المهادنة فامتنع

وأغلظ للرسول وعزم على أخذ تونس فجعل الله هلاكه بها . ومن غريب الاتفاق لما نزل تونس قال أحد أدبائها الشعراء (1) : (من الخفيف)

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتهيأ لما إليه تصير (2)
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

فصدقت الاقدار قوله ومات بأرض المعلقة وقبر بها . وهذه الابيات يشير فيها بالتلميح إلى ما سبق له بأرض مصر سنة سبع وأربعين وستمائة نزل على مدينة دمياط وملكها ، ومدة اقامته بها تسعة أشهر وذلك في زمن السلطان الكامل بن أيّوب فأمكنه الله منه فأخذه وجماعة من قواميسه ، وحمل على جمل ووجهه إلى خلف وطيف به وسجن في دار ابن لقمان ووكل به طواشي اسمه صبيح . ففدا نفسه بقناطير من الذهب وحلف ان لا يطأ أرض المسلمين . فلما رجع إلى بلاده عزم على العودة إلى الديار المصرية ونكث العهود بنفسه الخبيثة . فلما علم به صاحب مصر كتب له رقعة من إنشاء كمال الدين بن مطروح وبعثها مع رسوله وفيها قصيدة بليغة . فلما ورد الرسول على الفرنسيس استجلسه فأبى ان يجلس وأنشده وهو قائم بين يديه : (من السريع)

قل للفرنسيس اذا جئته مقال صدق من مقول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها تظنّ أن الدين باطل ريح

منها :

وقل لهم انْ أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو فعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

وهي طويلة ذكرها المقريزي (3) وذكر ابن الشمّاع عدّة أبيات منها . والقصّة في غير ما موضع مشهورة . فلما سمع المقالة ذلّت نفسه على العودة

---

(1) هو أحمد بن إسماعيل الزيات . (راجع : المقريزي . الخطط . ج 1 ص 393) .

(2) ورد عجز هذ البيت في رواية المقريزي كما يلي :

« فتأهب لما إليه تصير »

(3) انظر : المقريزي : الخطط . ج 1 ص 393 .

إلى مصر وأراد أن يأخذ ثـأره من تونس فدمّره الله تعالى . وكان نزوله على تونس سببا لاتلاف الأموال التي تركها المولى أبو زكرياء والتي جمعها ولـده المستنصر ففرقت على الأجناد والوفود والأعراب .هـ. (انظر : ابـن أبـي دينار : كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس . طبعة تونس 1286هـ. ص‌ص : 128—130) .

الملحقات

— 3 —

والملاحظ بصدد هذه الواقعة أن هنالك رواية أخرى للأحداث هي ما ذكره ارثور بلليقرين Arthur Pellegrin في كتابه : تاريخ تونس . طبعة 1948 . ص‌ص : 127—130 . قال : المستنصر وحوادث صقلية

لقد أصبحت الحالة بصقلية من ناحية الحكم كثيرة التشعب . فعند وفاة فريديريك الثاني Frédéric II سنة 1250م . أبت السلطة البابـاوية التعامل مع أحد من سلالة امبراطور ألمانيا فأهدت تاج الملك بصقلية إلى شارل دانجو Charles d'Anjou أخي سان لويس ملك فرنسا فقبل التاج وقهر منافسيه الجرمان ، مانفريد Monfred ، في معركة بينيفانت Bénévent (1266م.) ، وكونرادين Conradin في معركة تاقليا كوزو Taglia Cozzo (1268م.) . وأثناء هذا الكفاح استقبل سلطان تونس (المستنصر) مرارا في بلاطه بعض خصوم شارل دانجو Charles d'Anjou الخائبين لا سيما هانري وفريديريك دوكاستي Henri - Frédéric de Castille وفريديريك لانسيا Frédéric Lancia وكونراد كاباسي Conrad Capace ونظم كونراد كاباسي في تونس ارسالية متكونة من خمسمائة مقاتل توجه بهم إلى صقلية وأحدث كثيرا من الشغب في ملك شارل دانجو Charles d'Anjou

على ان الملك الجديد بصقلية طالب السلطان الحفصي بدفع المبلغ السنوي وقدره 33.333 بيزان (نقود بيزنطية من ذهب أو فضة انتشر استعمالها في أوروبا زمن الحملات الصليبية) من ذهب وهو ما كان أسلافه الحفصيون (أسلاف أبي عبد الله المستنصر) تعهّدوا بدفعه لملك صقلية . الا ان السلطان كان يماطل اعتمادا على المنافسات الجارية بشأن عرش صقلية .

حملة القديس لويس إلى تونس

كان القديس لويس ملك فرنسا ، أثناء هذه الاحداث ، قد عقد العزم سنة 1267م. على الذهاب لمحاربة الكفار للمرّة الثانية قصد انقاذ الأرض المقدسة حيث كان المسيحيون مهدّدين من كل ناحية من الجيش العثماني . والظاهر أن هذه الحملة لم تلاق حميّة لا من الأشراف ولا من الشعب فكلا الطبقتين لا يزال يذكر أهوال الحملات السابقة وعدم جدواها . الا أن عزم الملك الورع كان راسخا . واستغرق الاستعداد وقتا طويلا وأبحر الجيش الصليبي في الثاني من شهر جويلية قرب إيق مورت Aigues-Mortes في مراكب جنوية بالاستئجار . وأرست هذه المراكب بعد أيام بمرسى كاقلياري Cagliari (بسردانيا) حيث التحق بالفرنسيس كتائب أجنبية .

وتقرّر اثر اجتماع انعقد بمركب الملك وبرئاسته ان يقع التوجه خلافا لما ينتظره الجند لا إلى فلسطين أو مصر ولكن إلى تونس حيث وصل الأسطول الملكي أمام قرطاجنة في السابع عشر من جويلية بينما كان على شارل دانجو Charles d'Anjou اللحاق بالمدد الوافر .

فما هي الأسباب الغامضة التي دفعت القديس لويس وحاشيته القريبة جدا منه إلى التوجّه إلى تونس واحتلال هذه المدينة ؟ أوّلا إنّ آراء المؤرخين غير متّفقة . فبعضهم وهم من بين أحدث المؤرخين يرون أنّ السبب هو تدخّل قاطع من شارل دانجو Charles d'Anjou تدخّلٌ الباعثُ عليه

طمَعٌ ومثلٌ أعلى : طمع في استخلاص المبلغ السنوي ، ومثل أعلى في نصر على أحد أكابر أمراء المسلمين . وغير هؤلاء من المؤرخين كالمؤرخ ستارنفيلد Sternfeld وتبعه روبيرت برانشفيك R. Brunschvig يريان أن الملك الورع قد يكون رغب ، تبعا للآراء السائدة في القرون الوسطى والقائلة بامكانية تنصير المسلمين في افتتاح حملته الصليبية بتنصير أمير المؤمنين وفي الآن نفسه احتلال إفريقية يكون مُمهِّداً لطريق احتلال مصر وسوريا .

والرأي عندنا (عند أرتور بلليقرين) أنّ هذه الأسباب الأخيرة وإنْ هي كانت في حساب ملك فرنسا فهذا الملك قد تأثّر تأثرا جازما بتأثير شارل دانجو عليه ولربّما دون إدراك لدقيق هدف هذا التأثير من شارل دانجو Charles d'Anjou الذي عرف كيف يجلب حصاد هذه الحملة الصليبية لفائدته الخاصّة فحسب أويكاد .

الصليبيون في قرطاجنّة

ضرب جند الصليبيين قيروانهم بشبه الجزيرة البونيقية أمام تونس عندما أرسوا بقرطاجنة في 18 من جويلية وبقي الصليبيون في انتظار شارل دانجو Charles d'Anjou وقدوم المدد قبل الهجوم على العاصمة حيث كان السلطان المستنصرّ يتصرف في جيش كثير العدد يحوي مستشارين عسكريين من النصارى وهم قدماء خصوم شارل دانجو Charles d'Anjou وجرت بعض المناوشات من كلا الجانبين الا انّ الملك أصدر أمره بأن لا تُشنّ أيّة عملية ذات بال على المغاربة .

على ان الصليبيين كانوا يَشْتَكُون فقدان المؤونة والماء ويتألّمون من اشتداد الحرّ أضف إلى ذلك أن وباء الزحير (اللدوسنطاريا) انتشر في المعسكر وأهلك خلقا كثيرين ومن بينهم كثير من الأشراف والابن الأصغر للملك . واستولى على خلق المعسكر أسى قاتم بالحيرة تبدّل إلى ذعر عندما لفظ الملك

نفسه الأخير اثر الاصابة بالوباء يوم الاثنين 25 أوت 1270 بعد ان كان ضرب أسمى مثل في الصبر . وفي اليوم نفسه وصل شارل دانجو Charles d'Anjou ومعه أسطوله المحمّل بالمدد والمؤونة المنتظرة . وحيث إنّ الابن الأكبر (للملك الهالك) وولي عهد ملك فرنسا فيليب Philippe الثالث شهر الجسور كان مريضا فإنّ شارل دانجو Charles d'Anjou تولّى امرة الجيش وقام ببعض الهجومات على جيش المسلمين . غير أنّ المستنصر من جهته مع حاشيته كان مثل ملك فرنسا يفضّل المصالحة بالتي هي أحسن بَدَلاً من أن تحكم الأسلحة بصفة جدّية .

معاهدة الصلح بتاريخ 1270

لهذا الغرض تَقَضّى شهر أكتوبر في مفاوضات الصلح بين الخصمين وحصل في النهاية الاتفاق على إنهاء الحرب وتمّ إمضاء معاهدة الصلح الجارية المفعول لمدّة خمسة عشر عاما ابتداء من غرة نوفمبر 1270 .

وتنصّ هذه المعاهدة اعتمادا على الترجمة التي قام بها سيلفيستر دي ساسي من النصّ العربي إذ لم يتم العثور على النص الفرنسي ، أولا كفالة الأمن والحماية لرعايا ملك تونس أثناء تجارتهم في ممالك الملوك النصارى برّا وبحرًا ومثل هذه الكفالة تُضمن من السلطان للنصارى الذين يتاجرون أو يقيمون بممالكه . كما أن رجال الدين المسيحي في إمكانهم القيام بطقوسهم في كنائس وأديرة تُشاد في أماكن يعيّنها أمير المؤمنين . وعيّن مبلغ غرامة الحرب للملوك النصارى بما قدره 210.000 أوقية ذهبا ، تدفع النصف مناجزة والنصف الآخر بعد سنتين شمسيتين .

وعقب نهاية العقد وتاريخه ولكن قبل إمضاءات الشهود يوجد الشرط الخاصّ بملك صقلية يضاف إلى هذه الاتفاقيات أنه يدفع إلى المرفع بمنّة الله ملك صقلية بالنسبة للخمس سنوات الماضية والمنتهية بتاريخ هذا الرقيم المبلغ

الذي كان يُدفع بانتظام إلى الامبراطور كما يُدفع للمرفع الملك المذكور ابتداء من هذا اليوم ومسبّقا بالنسبة لكلّ عام ضعف ما كان يُدفع للامبـراطور .

وأبحر الصليبيون مقلعين في 20 نـوفمبر وتوجـّهوا نحو ترابـاني **Trapani** وصادفهم عاصف من الريح أهلك العديد من مراكبهم إلا أنّ الأكثرية مـن الأسطول والجند تمكّنت مـن الإرساء بصقلية.ه. (تعريب المحقق : **علي الشنــوفي**) .

الملحقات

— 4 —

معاهدة سنة 1270 (1)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد النبي واله وصحبه وسلم تسليما هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الاجلّ الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي الملك الأجلّ المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسه ابن الملك الأجلّ الأقدس لويس والملك الأجلّ المعظم جارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية والملك الأجلّ المعظم تيبلط ملك نفاره أمدّهم الله تعالى بتوفيقه والخليفة الامام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الامراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم على شروط يأتي ذكرها وهي أن يكون جميع من يتردّد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين وممّا هو تحت طاعته وممّا ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والاقماط والزعماء أو إلى جزيرة من الجزائر المعروفة بهم أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم في أمان الله

---

(1) نقلنا حرفيا نص هذه المعاهدة من المجلة التونسية الطبعة الفرنسية . راجع :

— Revue Tunisienne, an 1912, pp. 447-470, et an 1913, pp. 480-1

— Brunschvig (Robert), *op. cit.*, t. 1, p. 62

تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل وأن يكفّوا عادية كلّ من يخرج من بلادهم وممّا هو تحت طاعتهم وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من سائر الاجفان كبيرها أو صغيرها لضرر أو تعدّ على شيء من بلاد أمير المؤمنين وممّا ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزائر والسواحل والمراسي أو على أحد من سكانيها فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين وردّه سوا كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها وعلى أنهم لا يمدّون أحدا يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ينضاف إليها ولا أحد من أهلها وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم فعلى كلّ واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى برّ طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم وردّ جميع ذلك إلى المسلمين وعلى أن يكون جميع من يحلّ من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة وممّا ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو صادرين وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين وجميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم وأشريتهم محفوظين في ترددهم واقامتهم ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكانا في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعا يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورون يعظون ويصلّون مجهرا في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد

الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوائدهم في جميع أمورهم ويردّ لهم كلّ شيء أخذ لهم وكلّ شيء لهم عند الناس وعلى الناس وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدوّا لأمير المؤمنين ولا ينجدوا لمن يتحرّك لضرر أو لتعدّ على شيء من بلاده وعلى أن من حصل من الأسرى بيد المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حيّا فيردّ كلّ أسير إلى أهل دينه وعلى أن يقلع الملوك المذكورون وجميع من اليهم وفي محلّتهم من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كلّ من تحرّك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك ادورد أو غيره كائنا من كان ولا يبقى في برّ المسلمين أحد إلاّ إنّ بقي لهم أثقال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معيّن لهم من جهة أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم وعلى انّ مدّة انعقاد هذا الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاما شمسية أولها شهر نوفمبر المتصل باكتوبر الموافق لشهر التاريخ وعلى أن يُعطى لهم مائتا ألف أوقية ذهبا وعشر آلاف أوقية كلّ أوقية منها يقبض عنها من الفضّة ما قدره خمسون درهما من دراهمهم في الوزن والطيب يجعل لهم منها نصف العدد محضرا والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه نصف المقسط يقبض آخر كلّ عام من العامين المذكورين والذين يبقون في برّ أمير المؤمنين بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرنا يكونون محفوظين من جهة أمير المؤمنين وان تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين ردّ ذلك إليهم والانبرور الأجلّ بادوين صاحب قسطنطينة والكمت الأجلّ ألفوس كمت طلوزه والكمت الأجلّ كي كمت دافلندر والكمت الأجلّ هري كمت لوسنبرك وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان داخلون في ذلك كلّه ولازم لهم ذلك شهد على جميع من ذكر في الاعلى المشهدين بما فيه بعد تقريره عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كلّ واحد منهم بمحضر جميعهم وليعطى أمير المؤمنين على المال المتبقى ضمانا من

تجار النصارى للملوك المذكورين وأن كل من يكون عدوا للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل وشهد أيضا من حضر من القسوس والرهبان والاساقفة بجميع ذلك وأمير المؤمنين أيّده الله تعالى وولده المبارك الأسعد والشيخ الأجلّ أبو زيّان بن عبد القوي وغدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين وستمائة ويضاف إلى هذا العقد أن يؤدي إلى الملك الأجلّ جارل بنعمة الله ملك صقليّة عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدى للأنبرور سوا ويؤدى للملك الأجلّ المذكور من اليوم رجاى في كل عام ما كان يؤدى للأنبرور مثنيا والحمد لله تعالى شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات وعمران بن أبي الدنيا الصدفي وعلي التميمي بن ابراهيم بن عمر وأبو القاسم بن أبي بكر اليمني .

الملحقات

— 5 —

استصحب الشيخ محمد السنوسي للسيّد أحمد المشّاط من خاصّة أعيان تجّار جدّة مكتوبا من الشيخ محمّد بيرم الخامس كان هو السبب للتعارف بينه وبين هذا التاجر الذي أحسن في حفظ مكاتيب الشيخ محمد السنوسي وهذا نصّ ذلك المكتوب نقلا عن الجزء الثاني من الرحلة الحجازية (ص : [83] :

[83]

المقام الذي نعظّمه ونجلّه ونثني عليه من المحامد بما هو جدير به ومحلّه الممدوح بألسن الغادي والرائح الكريم الشيم حتى تعطرت بثنائه سائر الأخبار العطرة الروائح الماجد الفاضل النحرير الكامل سيدي أحمد المشاط لا زال حميد الاخلاق مثنيّا عليه في سائر الآفاق .

أمّا بعد سلام عاطر وثناء لمحامدكم البهيّة ناشر فان العبد منذ تشرّف بملاقاتكم السعيدة وتعرّف بشمائلكم الفريدة لم يزل وداده إليكم راسخ الأوتاد وقلبه متأسّفا من البعاد وثناؤه عن كريم أخلاقكم يخرق المعتاد وانما أخرته عن مكاتبتكم حوادث الانكاد وهول المصائب بوطنه من شرار العباد وترامیه كل يوم في بلاد ... يوم بحزوى ويوم بالعقيق ... ويوم بالخليصاء إلى أن منّ الكريم الجواد بالاستراحة حصّة بدار الخلافة لا زالت ثابتة العماد وحانت

هاته الفرصة للمكاتبة مع الفاضل النزيه النحرير الوجيه الشيخ سيّدي محمّد السنوسي .

فأصحبنا معه مزيد الاشتياق إلى تلك الأخلاق وهو حرسه الله ينهي إليكم ما للمخلص من الودّ الراسخ والثناء القائم على الصدق الشامخ ، وهو أصحبه الله السلامة جدير بأن تشتمله من عنايتكم التفاتة . وسترضى بحول الله سماته .

والأمل من فضائلكم الدعاء لمخلص ودّكم في مضان الاجابة ، لا زلتم مصيبين في كلّ غرض غاية الاصابة . والسلام من الداعي محمّد بيرم التونسي ، لطف الله به . في 11 ذي القعدة سنة 1299 (23 أكتوبر 1882) .

الملحقات

— 6 —

[43] نصّ مقتطف من الجزء الثاني من الرحلة الحجازية [ص : 43—45] يتعلّق مضمونه بالسيادة العثمانيّة والحماية الفرنسيّة على تونس .

والحقّ يقال ان هذا الغرض من واجبات السلطنة العثمانية التي لا ينبغي لها التخلّي عنها ولكنّي بما رأيت عليه صعوبة الحال واختلاف مشارب الرجال وتزاحمهم على ما يبلغون به الآمال في جميع الأعمال مع فشوّ أمراض صعبة الانتقاض لم يصف لي مشرب ذلك الاستدعاء وان كنت نجد من نفسي له باعثا دينيا وأدبيّا . فاعتذرت (للشيخ محمّد ظافر) بأنني قاصد حجّ بيت الله الحرام وان كتب الله السلامة بالرجوع يقع النظر في ذلك الموضوع .

وكان هذا جوابي عدّة مرار إلى أن فارقت تلك الديار .

وأمّا مسايرة السلطان للظروف في جميع عوارض السياسة فكان من الحكمة البالغة بالنظر لصعوبة الحال . وقد كانت الجرائد هرفت في شأن تونس ومصر بما لا تقتضيه الظروف وربما نقلت عن شخص السلطان ما يتمنّاه أهل الايمان . وشاع بين البلدان مما لا يقتضيه الحال أن يكون في حيّز الامكان .

فتذاكرت يوما مع أحد كتاب الدولة في مسألة تونس فقال لي :

نخبرك عن أمر سياسيّ داخلي يعطيك الجواب عن السؤال وحاصله : أنّه جرى امتحان لقبول بعض الكتّاب في الوزارة الخارجيّة . والعادة أن من موادّ امتحان كتّاب الخارجية أنهم تعرض عليهم مسألة سياسيّة يعطي فيها كلّ واحد رأيه ، فمن وافق سياسة الدولة وقع قبوله ، ومن خالفها وقع طرحه .

وعرضت عليهم المسألة التونسيّة : هل تتداخل فيها الدولة العثمانيّة مع فرانسا أم لا ؟

فاغترّ الضعفاء من الكتّاب بما رأوه في الصحف وكتبوا في استحسان التداخل الكليّ اعتبارا لكون المملكة اسلاميّة وهي من مشمولات أنظار الدولة العليّة ومن واجبات سيادة السلطنة انقاذها من يد كلّ متسلّط عليها إلى غير [44] ذلك مما هذا سبيله وهذا في الواقع أمر تقتضيه حاجة التونسيّين خاصّة ، ولذلك كان أيضا رأي الشيخ محمّد بيرم في تقريره الذي رفعه للحضرة السلطانيّة ، على ما أخبرني به ، والعذر له ، لكونه تونسيّا متلهّفا على بلاده ، لم ينظر للمسألة نظر متجرّد معتبر لمقتضى الحال . أمّا نظر أهل الرأي والسياسيّة من الكتّاب فانّ ارتباك الدولة العليّة لا يسمح لها بتعاطي أسباب العداوة مع الدول العظام وحفظا لنظام سياستها ، وسيادتها على تونس ليس لها منها سوى الدعاء للسلطان على رؤوس المنابر وكتب اسمه على السكّة ، وهذان الأمران ليس لهما أهميّة في سياسة الدولة العليّة اذ لم يكن لها منهما جباية ولا عسكرية ولا تداخل سياسي يقتضي ارتكاب معاداة دولة فرانسا في وقت الحاجة إلى مودّة الدول . وبذلك لا ينبغي للدولة العليّة التداخل في شأن حماية فرانسا لتونس ، حيث رضيها باي تونس وقبلها لبلاده .

ثمّ بعد أن وقع النظر في تلك الكتابات قبلت الدولة في كتابة خارجيّتها أصحاب الرأي الأخير وتركت أهل الرأي الأول . وهذا عنوان سياسيّ لا يقبل الارتياب .

قلت ، وقد أيّدت ذلك لمخبري ، بأنّ الدولة التي اضطرّها الحال إلى ترك بوسنة وسرسك للنمسا وترك قبرص لانقليترة زيادة على ما تركته للروس من البلاد الاسلاميّة لها العذر الأوفر في ترك تونس التي لم تكن لها سوى السيادة الذكريّة ، وللدول سياسات تحافظ عليها في الاحتفاظ على أصول الملك .

على أنّنا نحن التونسيين كنّا رأينا أنفسنا طعمة ورأينا دولة ايطاليا حولنا تفتل في الذروة والغارب وتحاول من وزارة مصطفى بن اسماعيل ما لم يقع . ومن طالع (45) صحيفة المستقلّ العربيّة التي نشرتها ايطاليا تلك المدّة يعلم حقيقة الحال . ومع أن مركز البلاد التونسية بين جزر صقليّة التي يتوارد منها اللصوص وبين بلاد الجزائر التي ساقتها دولة فرانسا مدّة سنين متطاولة وأخذت بها عدّة مسالك تجريبيّة في سياسة العرب مع ما لأهل تونس من العلم بما بلغت إليه السياسات الفرنساوية التابعة لحضارة فرانسا وتبحرّ عمرانها واتّساع دائرة تمدّنها فكانوا على سرور عظيم بسلامتهم من اليد الطليانيّة ، ولهم أمل في حسن استقبال الحماية الفرنساوية بعد انقطاع أوصال الاتصال مع الدولة العثمانة التي اضطرتها الظروف إلى رفع اليد عن البلاد التونسية . [45]

الملحقات

— 7 —

نصّ مقتطف من الجزء الثاني من الرحلة الحجازية (ص 133—134) يتعلّق مضمونه باجتماع الشيخ محمّد السنوسي بالشيخ صالح الأربيلي مجتهد الشيعة .

[133] ثمّ اجتمعت بالشيخ صالح الأربيلي مجتهد الشيعة ، وهذا الرجل قد صاحبنا أوّلا عند ركوبنا من الآستانة إلى جدّة في ركوب البحر واتفق أن كان ركوبه أوّلا في بيت ركوبي من الغمراء ولمّا سألته عن بلاده وحاله أوضح لي أنه علوي وأنه في خطة مجتهد . فباحثته في معنى الاجتهاد الأصولي فلم يكن كذلك ، وغاية الأمر أن لفظ مجتهد يعطى للعالم عندهم في معنى مفتي لا غير .

وعندما علمت حاله صرت أتقي مباحثته سيّما والفابور به نحو الثمانمائة نفس منهم أكثر من ستّمائة من الايرانيين الذين على عقيدته ، والقوم يعتقدونه ويعتقدون به .

أمّا حالة الرجل العلميّة فله مشاركة علميّة مع معرفة اللسان العربي . غير أنه ينطق بالكلمات العربية من مخارج الحروف الفارسية ، ويقرأ بها القرآن ويزيد على ذلك ملازمة اللحن الفارسي في التلاوة فيمدّ آخر كلّ كلمة كيفما كانت .

ولمّا علم انّي سنّي مالكيّ المذهب تردّد عليّ بمسائل فقهيّة ، فكنت نقتصر في جوابه قدر الحاجة ، فان رأيت منه الاسترسال للمباحثة تعلّلت له بأنّ هذا يفضي إلى جدال لا يناسب حالة الحاجّ ، ومع ذلك ربّما أجبته بغير الواقع لما نرى عليه من قصد الاعتراض .

ولمّا رأى مني ذلك التجاني أراد أن يتظاهر بجهله فتفصّيت عنه بالتنقّل من البيت الذي نجتمع فيه فما لبث أن صار يحضر لبيتي الثاني للمسائل وربّما أتاني ببعض الكتب الفقهيّة معترضا على بعض المسائل من مذهبي مالك وأبي حنيفة فنقتصر على قدر الحاجة في اجابته .

وقد حضر عندي في بعض الليالي فرآني نصلّي العشاء ، وبعد الفراغ أنكر عليّ صفة التشهّد وقال لي : ما مستندكم في تحريك الاصبع ؟ وماذا تقولون في أثناء ذلك ؟ [134] فقلت له : أمّا التحريك فنحن مقلّدون فيه لأصحاب المذهب . وأمّا ما نقوله فهو أنّي نقول : رضي الله عن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، نكرّرها . فاسترحت منه بسبب ذلك أيّاما .

[134]

ثمّ أتاني يوما في لمّة من جماعته وهو يضحك فقال لي : مذهب مالك يرى أنه يجوز للمصلّي أن يحمل كلبا في حال الصلاة . فلم أتمالك أن قلت له : ان مالكا لم يقل ذلك بغير تعليل فقال لي : وكيف كان التعليل ؟

فقلت له : انّ مالكا يرى طهارة كلّ حيّ ، وحيث انّ الحياة الموجودة في الانسان هي الموجودة في الكلب ونحكم بطهارة مثل سيادتك فأنت والكلب سواء في الطهارة المترتّبة على الحياة .

فلم يجد لذلك جوابا . واسترحت منه بقيّة مدّة السفر إلى أن اجتمعت به في هاته المرحلة (مرحلة آبار نصيف) فوجدته في مجلس يحيط به كثير من علمائهم ، ولمّا جلست بينهم سألني عن أحوالي في السفر فقلت له : نحن بعد أن امتنّ الله علينا بحجّ بيته الحرام وزيارة قبر نبيّه عليه الصلاة والسلام

والفوز بالسلام عليه وعلى صاحبيه أبـي بكر وعمر رضي الله عنهما نرى كلّ شـيء دون ذلك هيّنا والحمد لله على كلّ حــال .

فقال لي : صدقت ، ولا شكّ أنّ زيارة الشيخين وبقيّة الصحابة رضي الله عنهم من المهمّ .

ومع اعتقادي بأن ضمير عنهم في كلامه لا يقصد به الا من عدا الشيخيـن تغاضيت عن ذلك .

الملحقات

— 8 —

نصّ مقتطف من الجزء الثانـي من الرحلة الحجازية (ص 190) يتعلّق مضمونه بردّ الشيخ محمّد السنوسي على ابن خلدون الذي نسب الخرَاب للعرب .

[188] ... فقد فتح الاسلام تلك الأرض وانتشر فيها وأقام المسلمون في كلّ قرية منها جوامع ومدارس لا تزال آثارها تدلّ عليها ، ولكن ذلك الخراب أتى على ذلك الجبل وجلت أيدي الفساد منه المسلمين . وبقيت فيه بقيّة من النصارى فأتى عليهم قوم من الدروز وسكنوا الجبل وصار اليوم ينسب إليهم فيقال له : جبل الدروز ، لكثرتهم فيه ، والبدو بينهم لا يبلغون أربعة آلاف [189] نفس — وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين — ومن علم تاريخ ملوك بنـي غسّان في تلك الأراضي التي مررنا عليها وما شاده العرب فيها وشاهد حالتها التي هي عليها اليوم انذهل من تحوّل الحال إلى ما يؤذن بالاضمحلال ...

[190] وأمّا نسبة التوحّش للعرب فمنشؤها الجهل بحقيقتهم وحقيقة بلادهم وبهذا تعلم أن ولـيّ الدين ابن خلدون قذف به تيّار الغلط حين خاض هذا الوادي في مقدّمة تاريخه فنسب الخراب للعرب . وكان الرجل اشتبه عليه

ما فعلته أيدي البرابرة من التحريق والتخريب والتدمير في ممالك اشتغلت بعمرانها الأمّة العربية والأمّة الرومانيّة وغيرهما من الأمم . فنسب الخراب للعرب والحال أن الأمّة العربية هي التي أخذت على أيدي البرابرة في أول نهضتها وقهرت بربريتهم وكسرت شوكة توحّشهم وأجلت كهنتهم وكاهناتهم بفتوحات الاسلام التي ترتّب عنها تمصير الأمصار وتعمير الديار وتخليد الآثار وانشاء العلوم إلى الغاية التي وصلت إليها دار السلام في دولة الاسلام وبلغ إليها التمدّن العربي في بلاد الأندلس ومصر والشام وبلاد افريقيّة على عهد سلطنة بني أبي حفص في تونس . ومن راجع تواريخ الفتوحات الاسلاميّة وما كانت عليه تلك الممالك التي خرّبها البرابرة وما آلت إليه بعد دخولها في حوزة العرب يتبيّن له وضوح غلط ابن خلدون في ذلك الفصل الذي سوّد به وجه تلك المقدّمة .

فهرس الآيات القرآنية

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

السورة	الآية	الصفحة
الأنعام 6	11	1
العنكبوت 29	20	1
الروم 30	42	1
النمل 27	69	1
نوح 71	19	1
البقرة 2	5	1
الأعراف 7	178	1
الفرقان 25	54	2
البقرة 2	156	4
الملك 67	15	4
يس 36	41	4
الاسراء 17	70	5
العنكبوت 29	20	5
آل عمران 3	137	5

فهرس الأحاديث النبويّة

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس القوافي

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس الكلمات الدخيلة

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس المصنّفات والصحف الواردة ذكرها في الجزء الأول من الرحلة الحجازيـة

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس الاعلام

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس الأماكن والبلدان والمنشآت والطوائف والقبائل والشعوب والدول

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

فهرس الجزء الأوّل من الرحلة الحجازيّة

(تشير الأرقام الى صفحات المخطوط)

LOUCA (Anouar), voyageurs et écrivains égyptiens en France au XIXe siècle, Didier, Paris, 1970

MAHLUF (Muḥammad b. Muḥammad), *Šağarat an-nūr az-zakiyya fi ṭabaqāt al-mālikiyya*, Le Caire, 1340/1930-1931.

MAQRIZI, *Kitāb al-mawā'iz wa-l-'i'tibār bi ḏikr al-ḫuṭaṭ wa-l-'āṯār*, éd. Bulaq, 1270/1853-1854 (traduction française du t.I par M.E. Quatremère, Paris, 1840-1845).

MARÇAIS (Georges), *L'Art de l'Islam*, Paris, 1946-1949.

MICHAUD, *Biographie Universelle ancienne et moderne*, nouvelle édition, t. II.

MUHIBBI (Muḥammad Amin b. Faḍl allah), *Ḫulāṣat al-'aṯar fi 'a'yān al-qarn al-ḥādī 'ašar*, éd. al-hayba, 1274.

MUWAYLIHI (Muḥammad), *Ḥadiṯ 'Isā ibn Hišām*, Beyrouth, 1969.

MZALI (Muḥammad Salah), *al-wirāṯa 'ala-l-'arš al-ḥusaynī*, Tunis, 1969.

MZALI (M.S.) et Pignon (J.), *Khérédine, mémoires*, Tunis, 1971.

NAYYAL (Muḥammad al-Buhli), *al-Ḥaqīqa at-ta'rīḫiyya li-t-taṣawwuf al-Islāmī*, Tunis, 1384/1965.

NAYFAR (Muḥammad), *Unwān al-'arīb 'amma naša'a bi-l-mamlaka at-tūnisiyya min 'adīb*, 1ere éd., 2 vol. Tunis, 1351/1932.

NEAL (Harry Edward), *From Spining wheel to Spacecraft*, Popular Library, Newyork, 1964.

PELLEGRIN (Arthur), *Histoire de la Tunisie*, Tunis, 1948.

PERNOUD (R.), *La Reine Blanche*, éd. Albin Michel, Paris, 1972.

N.L.U. = *Nouveau Larousse Universel*, t. II, Paris, 1969.

RA'ID = *ar-Rā'id at-Tūnisī* (Journal Officiel Tunisien).

RAŠID RIDA, *Ta'rīḫ al-Ustāḏ al-Imām Muḥammad Abduh*, Le Caire, 1350/1931.

R.T. = *Revue Tunisienne*, n° 22, 1935.

SADOK (Muḥammad al-Ḥadj), *Le Genre « Riḥla »*, in B.E.A. n° 40, novembre, décembre 1948.

SANUSI (Muḥammad as-), *al-Istiṭlā'āt al-Bārisiyya*, Tunis, 1309/1891.

Id., *Mağama' ad-dawāwīn*, ms. (Bibliothèque Nationale de Tunis, cote I6633).

Id., *an-Nāzila at-tūnisiyya*, (Bibliothèque Nationale de Tunis, cote I6635).

SANUSI (Zayn al-Abidīn), *Kitāb Maqālāt al-Arab*, Tunis, 1343/1925, 1ere série, t., 8.

SARKIS (Yousuf), *Dictionary of Arabic printed books*, Cairo, 1928.

SHIPPEN (Katherine B.), *Les Grandes Heures de la Médecine*, Nouveaux Horizons, 1964,

TALBI (Muḥammad), *Biographies Aglabides*, Tunis, 1968.

TARRAZI (Philippe de), *Ta'rīḫ aṣ-ṣiḥāfa al-arabiyya*, Beyrouth, 1933.

ZIRAKLI (az-), *al-A'lām, qāmus tarāğim*, Caire, 1345-7 = 1927-1928, 3 vol. — éd., 1956.

WAZIR (Muḥammad as-Sarrāğ al-Andalusī), *al-Ḥulal as-Sundusiyya fi-l-'aḫbār at-tūnisyya*, Tunis, éd, partielle, vol, I et 2, 1970,

BRUNSCHVIG (Robert), *La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle* t. I, Paris 1940.

Canard (Marius), *Chanil et abdelkader*, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de la faculté des Lettres d'Alger, XIV, 1956

CHANTERAINE (Philippe d'Estailleur), *Abdelkader le Croyant*, Paris, 1959.

CHEIKHO (Louis), *as-Sirru-l-maṣūn fī Šīʿat al-framaṣūn*, *in* al-Mašriq, n° 8-9, 1910

CHENOUFI (Moncef), *Le problème des origines de l'Imprimerie et la presse arabe en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance « Nahḍa »* 1847-1883, thèse dactylographiée (Bibl. Sorbonne : W-1970-35-4°).

DARAMBERG (Ch.), *Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines*, t. 4.

Enciclopedia Italiana di Scienze, Lettere ed Arti, Rome, MCMXXXV, XIII.

E.I. = *Encyclopédie de l'Islam*, deuxième édition, t. II et III.

FAYRUZABADI (Maǧd ad-dīn), *al-Qāmūs*, 4° éd., Le Caire, 1357/1938.

FLUGEL (G.), *Concordance du Coran*, Leipzig, 1842.

GANIAGE (Jean), *Les origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)*, Paris, 1959.

G.L.E. = *Grand Larousse Encyclopédique*, t. I, II, V, VI et VIII.

GRAIG MC GREGOR, « *La Grande Barrière* » Edit. Time-Life Amsterdam, 1973.

GSELL (H.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. vol. II et III.

ḤARIRI, *Durrat al-ġawwāṣ fī awhām al-ḫawāṣṣ*, Le Caire, 1273.

Ḥawliyyāt al-Ǧāmiʿa at-Tūnisiyya (Annales de l'Université de Tunis), Tunis, 1970, n. 7.

ḪALUSI (Safa), *Fann at-taqṭīʿ aš-šiʿrī wa-l-qāfiya*, Beyrouth, 1966.

ḪAYR AD-DIN (at-tūnisi), *Aqwam al-masālik*, 2° éd., Tunis, 1972.

IBN ABI DINAR (al-Qayrawānī), *al-Mu'nis fī aḫbār Ifriqiyya wa tūnis*, 1350. (trad. française par Pellissier et Rémusat sous le titre de « *Histoire de l'Afrique*, I volume, Paris 1845).

IBN ABI-D-DIYAF, *Itḥāf ahl az-zamān bi-'aḫbār mulūk Tūnis waʿāhd al-'amān*, Tunis, 1963-1966, t. I, IV, VII et VIII.

IBN AL-ATIR, *al-Kāmil fi-t-ta'rīḫ*, éd. Bulaq, 1290/1873.

IBN ASUR (Fāḍil), *Tarāǧim al-Aʿlām*, Tunis, 1970.

Id. *Arkān an-Nahḍa al-adabiyya bi tūnis*, Tunis, 1965.

IBN HALDUN, *Muqaddima*, imprimerie Muṣtafa Muḥammad, Le Caire.

Id., *Kitāb al-ʿIbar wa Diwān al-Mubtadā wa-l-Ḫabar fi Ayyām al-Arab wa-l-Aǧam wa-l-Barbar wa man ʿāṣarahum min ḏawī-s-sultān al-'akbar*, éd. Dār al-kitāb al-lubnānī, Beyrouth, 1959.

IBN AL-HATIB (Lisān ad-dīn), *al-Iḥāṭa*, t. I.

IBN KATIR (ʿImād ad-dīn), *al-Bidāya wa-n-Nihāya fi-t-ta'rīḫ* éd. du Caire.

IBN MANZUR, *Lisān al-Arab*, éd. Ṣādir, Beyrouth.

IBN SAʿD, *aṭ-Ṭabaqāt*, Leiden, 1909, vol. VI.

IBN AS-SALAH, *ʿUlūm al-Ḥadīt*, Alep, 1350/1931.

IZZAT (Aḥmad), *Ta'rīḫ at-taʿlīm fi ʿaṣr M'ḥammad Ali*, Le Caire.

JOMIER (J.), *Quelques positions actuelles de l'exégèse coranique en Egypte*, Midéo, I, 1954.

Kaḥḥāla (ʿUmar Riḍa), Muʿǧam al-mu'allifīn. Damas, 1376-1380/1957-1961.

KITAB AN-NAQA'ID, *naqā'iḍ Ǧarīr wa-l-Farazdaq*, éd. Leiden, 1909 (sans indication d'auteur de l'édition).

TABLE BIBLIOGRAPHIQUE

pour l'établissement du texte de la *RIHLA* (t., I et III)

ABD AL-BAQI (Muḥammad Fu'ād), *al-Mu'ǧam al-mufahras li alfāẓ al-qur'ān*, Le Caire, 1364.

ABD AL-QADIR (al-ǧazā'irī), *Kitāb al-māwaqif fi-t-taṣawwuf wa-l-wa'ẓ wa-l-'iršād*, 2° éd. Damas, 1966.

ABDESSELEM (Ahmed), *Les historiens tunisiens des XVII°, XVIII° et XIX° siècles*, (thèse dactylographiée, Bibliothèque de la Sorbonne (W-1969-26-4°).

ABDUL-WAHHAB (H.H.), *Villes arabes disparues* in Mélanges William Marçais, Paris 1950.

Id. *La domination musulmane en Sicile*, Tunis, 1905.

A.E. = Archives des Affaires Etrangères, documents conservés au Quai d'Orsay : Tunisie, nouv. sér. 1872.

Egypte, Correspondance Politique, Agence et Consulat Général, tome 64, 1879.

AUBRY (Octave), *La révolution française*, Paris, 1945, t. II.

BAGDADI (Abd al-Qāhir), *'Usūl ad-dīn*, Constantinople, 1346.

BASSAR (ibn Burd), *Dīwān*, Le Caire, 1966.

BAYRAM V (Muḥammad b. Muṣṭafā), *Ṣafwat al-i'tibār bi mustawda' al-'amṣār wa-l-'aqṭār*, éd. du Caire, Imp. al-I'lāmiyya. t. I, II et III en 1302 et IV en 1303, imp. al-Muqtaṭaf. t. V, 1911.

BIBLE (la Sainte), *L'Ancien et le Nouveau Testament*, (traduction arabe) éd. Oxford, 1871, pp. 553-554.

BINHAMIDA (Muḥsin), *al-Bāǧī al-Mas'ūdī*, Tunis, 1962.

BLACHÈRE (Régis), *Le Coran*, traduction selon un essai de reclassement des Sourates, 3 vol., Paris 1947-1951.

Id. *Dictionnaire Arabe-Français-Anglais*,

BOMPARD (Maurice), *Législation de la Tunisie*, Paris, 1888.

BROCKELMAN, *Histoire des peuples et des Etats islamiques* Paris, Payot, 1949.

Id. G.A.L. *Geschichte der arabischen litteratur*. 2° éd Leyd, Brill, 1945-1949 2 vol, ; Supplément, 1937-1942, 3 vol. — Trad arabe par 'Abd-al-Ḥalīm an-Najjār. Le Caire, 1960-1962. cf. Claude Cohen : « Notes pour un Brockelmann futur », Arabica, 10 (1963), 301-309.

Les abréviations des formules et des eulogies usuelles figurant dans le texte se présentent comme suit :

تعالى : تـع
صلّى اللّه عليه وسلّم : صلـعم
رحمه اللّه : رحـه
رضي اللّه عنه : رضـه
حدّثنا : أنا

C. CONTENU

On trouvera l'analyse détaillée du contenu des trois tomes de la *Riḥla* dans notre étude en francais, l'objet de notre thèse de doctorat d'Etat intitulée : Un Savant Tunisien, du XIX^e^ siécle : Muḥammad as-Sanūsī, vie et œuvre. Signalons toutefois les grands titres des thèmes traités dans chacun d'eux. Outre les motifs du voyage, le tome 1 qui compte 181 p. et relate les impressions de voyage de l'auteur en Italie, traite de trois thèmes essentiels parmi tant d'autres :

1 — Problèmes juridiques et moraux

2 — Sciences et inventions modernes

3 — Comparaison Orient-Occident

Le deuxième tome, qui compte 279 pages, recouvre le voyage de l'auteur à partir de l'Italie jusqu'à Constantinople, La Mecque, Médine, Damas, Beyrouth, Malte et Tunis. Nous avons préféré, pour souligner l'intérêt du contenu de ce tome, dégager dans notre étude en francais quelques aspects qui nous ont paru les plus significatifs. Dans cette intention, nous avons traduit trois extraits dont nous avons donné le texte arabe dans les annexes VI - VII et VIII de la présente édition ; le premier relatif à la Souveraineté Ottomane et au Protectorat Français, le deuxième concernant la rencontre de l'auteur avec un chiʿite, le troisième rapporte un jugement de l'auteur sur l'historien du 14 eme siècle Ibn Ḫaldūn.

Le contenu du troisième tome, qui compte 271 p., est consacré à 25 *tarāǧim* ou biographies, de personnages rencontrés par l'auteur

conservé à a Bibiothèque Nationale de Tunis sous la cote 16.635 (folio 1 à 11). (1)

2. Date de composition :

Le manuscrit du premier volume qui fait l'objet de cette édition fournit des renseignements explicites (cf. p. 3) sur la date approximative de la composition. En effet, il est sûr que l'auteur avait pris soin de noter ses observations au cours de ce voyage. À son retour à Tunis, il colligea ses notes en vue de la composition de l'ouvrage. De multiples empêchements vinrent s'interposer : on notera en particulier les incidents de 1885 à la suite desquels fut opérée la saisie des dites notes. Leur restitution à l'auteur n'eut lieu qu'après l'été de la même année. On est donc autorisé à conclure que la rédaction de la *Riḥla* se situe à la fin de 1885. (cf. p. 4 du 1er volume).

3. Description :

Le manuscrit de la *Riḥla* se présente de la manière suivante : format 24 x 16 ; 21 lignes à la page, sauf la première et la dernière qui comportent chacune 19 lignes ; assez beau papier ; le premier volume compte 181 p., le second 279 p. et le troisième 271 p. numérotées recto-verso (au centre de la page, au-dessus du texte) ; la numérotation arabe commence à partir de la page de l'incipit (1) et se termine avec celle de l'explicit : (181) pour le premier volume, (279) pour le second, et (271) pour le troisième ; calligraphie tunisienne soignée et non voyellée, transcription à l'encre brune ; titres et rubriques en caractères gras ; parfois cependant, l'identification des lettres est malaisée, par exemple ـنـ ، بـ ، ف ، ص ، ر ، د. La transcription du *ya* final est dépourvue des deux points diacritiques. Il arrive qu'il y ait un alif orthographique à la 3eme personne du singulier (ex : يخلوا), supprimé par nous(يخلو) ; correction analogue pour (ذالك) au lieu de (ذلك). Des rectifications orthographiques similaires ont fait l'objet d'une mention dans l'apparat critique ainsi que les restitutions des mots manquants ou illisibles.

---

(1) Cet ouvrage a été remis pour édition par le Šayḫ aṣ-Ṣādiq Bsayis à la Maison Tunisienne de Diffusion.

Aussi, à défaut de copies complètes de la *Riḥla*, n'avons-nous pu disposer pour l'établissement du texte que de l'original. On ne doit pas en conclure que ces copies complètes n'ont pas existé, puisque l'ouvrage a pu bénéficier de la faveur des milieux lettrés de Tunisie et d'ailleurs (1). Nous savons par exemple que l'ex-Šayḫ al-Islām malékite al-Bašīr an-Nayfar possède une copie de quelques feuillets de la *Riḥla* se rapportant à une *fatwa* (cf. *Riḥla*, p. 92). Une copie des mêmes fragments est en possession du Šayḫ aš-Šāḏulī an-Nayfar, professeur à la Faculté de Théologie de Tunis (2). Par ailleurs, le propre fils de notre auteur, Zayn al-Abidīn as-Sanūsī (3) a publié en 1925 quelques autres fragments de la troisième partie de la *Riḥla* (4). La découverte de ces textes n'a pas été aisée, nous laisse entendre la préface : « Plusieurs personnes, parmi mes amis, ont insisté auprès de moi pour que je publie l'œuvre inédite de mon père, le regretté Muḥammad as-Sanūsī. C'était aussi mon grand souhait, mais en vain ai-je cherché à réunir toute cette œuvre manuscrite. Je n'ai pu retrouver en définitive que des fragments de brouillons épars, en majeure partie désordonnés et sans lien entre eux. Quant aux manuscrits mis au propre, ils ont été subtilisés lors de mon enfance et ma famille n'en possède plus rien ».

Outre ce fragment publié en 1925, il en est un autre qui renferme le texte intégral du poème de l'auteur intitulé « poème sur les inventions ». Il figure dans la première partie (p. 108 à 140). La publication en a été faite à plusieurs reprises, d'abord en 1883 (Journal « al-Ǧinān » de Beyrouth), puis dans le *Rā'id* (Journal Officiel Tunisien) du jeudi 28 Ǧumāda II 1301/24 avril 1884, et enfin en 1932 (5). Une copie en mauvais état de ce même fragment figure dans le manuscrit d'une autre œuvre de l'auteur, intitulée *an-Nāzila at-Tūnisiyya*

---

(1) Cf. Fāḍil B. ʿAšūr : *Arkān an-Nahḍa*, Tunis, 1965, p. 32,

(2) On a pu consulter ces fragments; conformes à l'original autographe.

(3) Né en 1898, mort le 27 avril 1965. La célébration du 40eme jour de sa mor (le 40eme jour après le décès, chez les musulmans, est l'occasion d'une céré monie) donna lieu à une manifestation littéraire de haut niveau à laquelle participèrent entre autres lettrés tunisiens le regretté Muḥammad Ṣālaḥ al-Mahīdī, ʿUṯmān al-Kaʿāk et al-Hādī al-Abīdī), (Voir notice nécrologique in journal ṣa-Ṣabāḥ du 28 avril et fin juin 1965).

(4) Cf. Zayn al-Abidīn as-Sanūsī : *Kitāb Maqālāt al-Arab*, tome 8, 1ere série, 1343/1925, pp, 373-382 (Extrait de la notice biographique de l'Emir Abd al-Qādir).

(5) Voir : Muḥammad an-Nayfar, *Unwān al-Arīb*, Tunis 1932, tome 2, pp. 147-151

INTRODUCTION AU TEXTE ARABE

A. LE TITRE

Le titre choisi par l'auteur, *Riḥla Ḥiǧāziyya*, voyage au Ḥiǧāz, pourrait induire en erreur. En fait, ce pays n'occupe dans l'ensemble de l'œuvre qui compte 731 pages manuscrites que 6 pages seulement (90 à 96 du second volume). C'est, sans doute, sous l'inspiration d'un sentiment religieux qu'il a retenu les *manāsik al-Ḥaǧǧ* (1).

« Dès ma prime jeunesse et aussitôt que j'ai compris l'intérêt de l'entraide et de la société, nous dit Muḥammad as-Sanūsī (p. 2), j'ai éprouvé une vive aspiration pour les voyages, jusqu'au moment où l'occasion se présenta, lors de l'accomplissement du pélerinage et de la visite du tombeau du Prophète en (1299-1300/1882-1883) en passant par l'Italie et Constantinople à aller, et par Damas, Beyroute, Port-Saïd et Malte au retour ».

B. LE MANUSCRIT

1. Présentation

L'ouvrage intégral de la *Riḥla Ḥiǧāziyya* (Relation de voyage au Ḥiǧāz) comprend trois parties, correspondant aux trois volumes manuscrits dont nous n'avons trouvé, à ce jour, qu'un seul exemplaire autographe conservé à la Bibliothèque Nationale de Tunis sous la cote 3.346.

---

(1) Rites du pélerinage à La Mecque.

TABLE DES MATIERES

SYSTEME DE TRANSCRIPTION ADOPTE

ء	ʾ	ض	ḍ
ب	b	ط	ṭ
ت	t	ظ	ẓ
ث	ṯ	ع	ʿ
ج	ǧ	غ	ġ
ح	ḥ	ف	f
خ	ḫ	ق	q
د	d	ك	k
ذ	ḏ	ل	l
ر	r	م	m
ز	z	ن	n
س	s	ه	h
ش	š	و	w
ص	ṣ	ي	y

Voyelles brèves : a, i, u.

Voyelles longues : ā, ī, ū.

Diphtongues : ay, aw.

Tā marbūṭa = a ou at (état construit).

Article – al ou l - (devant les lunaires)

at ou t - (devant les solaires)

B. = ibn (fils de)

AR-RIḤLA AL-ḤIǦĀZIYYA

(Tome I de la Relation du voyage au Ḥiǧāz)

PAR

Muḥammad AS-SANŪSĪ

(1267/1851 - 1318/1900)

Texte arabe établi et annoté avec introduction en français

PAR

ALI CHENOUFI

Agrégé de l'Université

Docteur ès Lettres

Maître de conférences à la Faculté des Lettres de Tunis

S. T. D. 1396/1976

AR-RIHLA AL-HIGAZIYYA

(Tome I de la Relation du voyage au Ḥiǧāz)

PAR

Muḥammad AS-SANUSI

(1267/1851 - 1318/1900)

Texte arabe établi et annoté avec introduction en français

PAR

ALI CHENOUFI

Agrégé de l'Université

Docteur ès Lettres

Maître de conférences à la Faculté des Lettres de Tunis

SOCIETE TUNISIENNE DE DIFFUSION

1396/1976